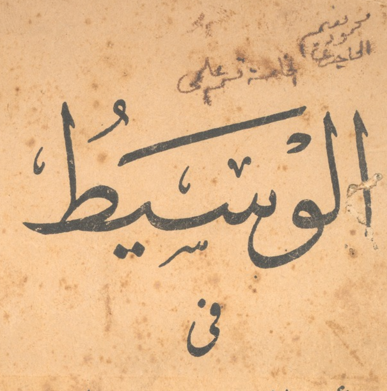


الوسيط

في

الأدب العربي وتاريخه

تأليف

الشيخ أحمد الإسكندرى و الشيخ مصطفى عنانى

المدرّسين بمدرسة دار العلوم

قررت وزارة المعارف العمومية تدريس هذا الكتاب بمدارسها : الثانوية ، والمعلمين العليا ، والمعلمين الأولية ، والمعلمات السنية

الطبعة الرابعة

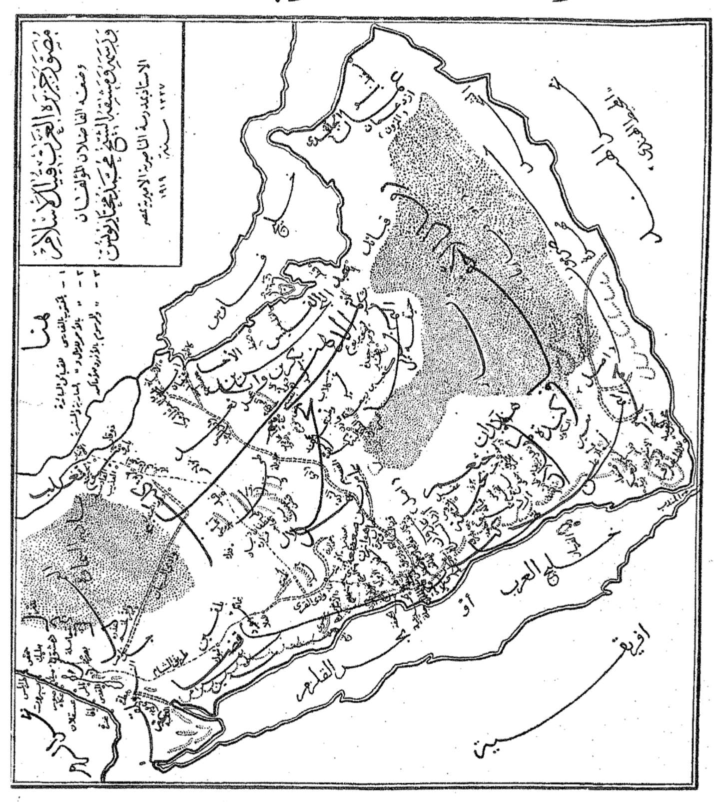
١٣٤٢ هـ — ١٩٢٤ م

يطلب من ملتزم طبعه ونشره

نجيب متري

صاحب مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

الوسيط فى الادب العربى وتاريخه



الطبعة الرابعة



الأدب العربى وتاريخه

تاليف

الشيخ أحمد الإسكندرى و الشيخ مصطفى عنانى

المدرّسين بمدرسة دار العلوم

قررت وزارة المعارف العمومية تدريس هذا الكتاب بمدارسها :
الثانوية ، والمعلمين العليا ، والمعلمين الاولية ، والمعلمات السنية

الطبعة الرابعة

١٣٤٢ هـ — ١٩٢٤ م

المطبعة السلفية - بمصر

لصاحبيها : محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان



المحمودُ اللهُ جلّ جلالُه، والمصلّى عليه محمدٌ وآلُه، والمدعوُّ له الوطنُ ورجالُه

وبعدُ فإنا رأينا النشْءَ من طُلّاب الأدب العربيّ فى حاجة الى مختصرٍ مُلِمّ بفنونه، مُؤْثِرٍ لعيونه، مؤرِّخ لشئونه؛ فوضعْنا هذا الكتابَ، لعلّنا نُقرِّب إليهم القَصْدَ، ونُسهِّلُ عليهم الصَّعبَ. وعلى الله قَصْدُ السبيلِ! وهو حسبنا ونعمَ الوكيلُ!

٩ ذى القعدة سنة ١٣٣٥

٦ اغسطس سنة ١٩١٦

مصطفى عنانى

المدرس بمدرسة دار العلوم

احمد الاسكندرى

المدرس بمدرسة دار العلوم

تاريخ أدب اللغة

التاريخ

التاريخ — هو معرفة أخبار الماضين وأحوالهم من حيثُ معيشتهم ، وسياستُهم ، واعتقادهم ، وأدبهم ، ولغتهم

الادب

والأدب—(كل رياضة [1] محمودة يَتَخَرَّجُ [2] بها الإنسانُ فى فضيلة من الفضائل)

وهـذه الرياضةُ كما تـكون بالفعل ، وحسن النظر [3] ، والمحاكاة ، تكون بمزاولة الأقوال الحكيمة التى تَضَمَّنَتْهالغةُ أىّ أمّة

اللغـة

واللغة [4] — ألفاظ يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم

---

(١) الرياضة — التذليل والتمرين والمعالجة

(٢) خرّجته فتخرّج ـ درّبته فتدرّب ، والأدب بهذا التعريف نقله المصباح عن أبى زيد

(٣) التعقل والاستنباط

نشأة اللغات

(٤) المعروف بشهادة العقل والاستقراء وتتبع نطق الأطفال والأمم المتوحشة والراقية ، أن لغات العالم (على كثرتها التى لم تتناه ولن تتناهى) ترجع الى امهات أصلية تولدت وتتولد عنها، وان كل واحدة من هذه الأمهات هى المنشأ الأول لفروعها ، وانها كلها تنشأ من جدة عليا مجهولة هى لغة الانسان الأول ، وتلك الجدة هى الـكلمات القليلة التى كان يعبر بها الانسان عن رغائبه القليلة أو عن الاشـياء المحيطة به . وبعض هذه الـكلمات مقتبس من محاكاة الأصوات التى تصدر عن الحيوان والانسان والرياح وغيرها : كاتفعل الببغاء التى هى دون الانسان فى الادراك ، وبعضها مرتجل بطبيعة القوة الناطقة التى أودعها الله الانسـان وميزه بها من سـائر الحيوان ، وهى فيه الهام فطرى أسمى من الألهام المودع الحيوان الاعجم : فانا نسـمع الهرة مثلاً تموء ببضعة أصـوات مختلفة تظهر بها انفعالاتها ومطالبها: فصوت الاستعطاء والاستعطاف غير صوت الزجر والغضب الخ. فعند ما يجيش صدر الانسان باظهار رغبة أو رهبة يصيح بصوت مصوّر بصورة ما على حسب ما يلهمه الله فيسمعه غـيره ويفهم منه مراده باضافة قرينة حال أو اشارة (كما نشاهد ذلك كثيراً فى بعض الاطفال عند محاولتها النطق) فاذا وجد أنه أدى غرضه اسـتعمله ثانية وثالثة فى افهام رفقائه، فيذاع بينهم ويعرف، ولا يحتاج في استعماله الى قرينة ، وهكذا يفعل غيره فعله، ويقلدها ثالث ورابع حتى تتكون اللغة الاولى الضرورية للبيئة التى يعيشون فيها ويتفق عليها من غير تعمل ولا قصـد الى الاتفاق . ثم تتسع هذه اللغة بطرق النموّ المعروفة كالاشتقاق والزيادة والنقص والتحريف والتحويل من الحقيقة الى المجاز فيشتهر المجاز ثم يصير حقيقة

أدب اللغة

وأدب لغة أىّ أمة — هو ما أودِعَ نثرَها وشعرها من نتائج عقول أبنائها ، وأمثلة طباعهم ، وصوَر أخيلتهم ، [1] ومبلغ بيانهم : مما شأنه أن يهذّب النفس ، ويثقّف [2] العقل ، ويقوّم اللسان

تاريخ أدب اللغة

وتاريخ أدب اللغة — هو العلم الباحث عن أحوال اللغة : نثرها ونظمها في عصورها المختلفة من حيث رفعتها وضعتها ، وعما كان لنابغيها من الأثر البيّن فيها . وهو على النظام الآتى بعدُ حديث النشأة فى مصر

هـذا ، والأظهر أن الانسان نطق أوّلا بأسماء المحسوسات ، ثم بأسماء بعض المعقولات ، وبالمصادر وبالافعال ، وبأسماء الاشارة والضمائر والموصولات ، ثم بالحروف والمشتقات ، يعرف ذلك من تتبع لغات الأمم الوحشية ومشاهدة كلام الاطفال عند ابتداء نطقهم

أما اللغات الفرعية فتنشأ من هجرة بعض طوائف أهل اللسان الاصلى الى جهات متباعدة ، فيدفعهم التقاطع الى نسيان بعض الكلمات : لعدم استعمالها في وطنهم الجديد ، أو الى تحريفها على طول الزمان ، ثم هم يرون فى هذا الوطن مالم يروه قبل : من انواع الحيوان والنبات والجماد فيضطرون الى وضع كلمات على الوجه الآنف الذكر وهكذا ، فتتباعد اللغة الفرعية عن الاصلية كلما تباعد الزمان والمكان . ويزيد مدى التباعد اذا جاوروا أمماً تتكلم بغير لسانهم الاصلى ، فيستعيرون من لغاتهم كلمات تتمثل بعد حين فى بنية لغتهم . ثم اذا طال الأمد على أهل لغة وكثر عددهم وارتقت الصفات الانسانية فيهم ، اتسعت هـذه اللغة وتعددت أساليب التعبير فيها وضاق حفظ أى فرد من علمائها عن أن يحيط بها

فظهر من هذا أن اللغات وضعها البشر من غير سابقة اصطلاح واتفاق ، وان قول من يقول انها توقيفية لا يعقل منه الا أنها متوقفة على الهام من الله واهب النطق للانسان

أما من يقول انها توقيفية : بمعنى أن الله أوحى بها الى انبيائه (عليهم صلواته) وهم علموه الناس ، فماذا يقول في اللغات التى نشأت وتنشأ بعد الانبياء كلغاتنا العامية ولغات أهل أوربة الحديثة أم ماذا يقول فى اللسان العام (الاسبرنتو) الذي ارتجله أحد علماء أوربة ليكون لسان العالم ويرفع به العصبية الجنسية من الارض ، ويستعمله الآن كثيرون فى أغراض خاصة

واحتجاجه بقوله تعالى « وعلم آدم الاسماء كلها الآية » ليس بقطعى لجواز أن يكون معنى علمه : ألهمه وأقدره ، ولأنه قد فسرت الاسماء بأسماء الملائكة بدليل اعادة ضمير العقلاء عليهم ، ولجواز أن تلك خصوصية لآدم فكما خلقه ابتداءا علمه ابتداء . ولو اريد بالأسماء اسماء جميع الموجودات فهل تعلمها بجميع ألسنة أولاده وهى الآن ألوف مؤلفة ومنها المخترعات ذوات الاسماء المرتجلة . هذا ما ظهر لنا والله أعلم

(١) الخيال والخيالة مايتراءى لك : من ظل أو شبح أو صورة . والمراد هنا الصورة الباهرة المنتزعة من محسوس متعدد بقصد تمليحها فى النفس أو تشويهها فيها ولو لم تقع فى الخارج

(٢) أى يقوّم ويعدل

ومن أهم فوائده :

فوائد تاريخ أدب اللغة

١ – معرفةُ أسباب ارتقاء (أدب اللغة) وانحطاطه ، دينية كانت تلك الأسباب أو اجتماعية أو سياسية ، فنستمسك بأسباب الارتقاء ، ونتحامى أسباب الانحطاط

٢ – معرفة أساليب اللغة ، وفنونها ، وأفكار أهلها ، ومُواضَعاتهم [1] ، واختلاف أذواقهم فى نثرهم ونظمهم ، على اختلاف عصورهم ، حتى يتهيَّأ للمتخرّج فى هذا العلم أن يميز بين صوَر الكلام فى عصر وصُوره فى آخر ، بل ربما صحَّ له أن يُلحق القول بقائله عينه

٣ – معرفة أحوال النابهين [2] من أهل اللغة فى كل عصر ، وما كان لنثرهم ، وشعرهم ، وتأليفهم : من أثر محمود ، أو حال ممقوتة ، لنحتذى مثال المحسن ، ونتنكّب عن طريقة المسىء

أصل العربية

واللغة العربية — احدى اللغات الساميَّة [3] . وهى لغة أمة العرب القديمة العهد ، الشائعة الذكر التى كانت تسكن الجزيرة المنسوبةَ اليها فى الطرَف الغربىّ من آسيا

ويُظَن أنها أقربُ اللغات الساميَّة الى أصلها : لأن العرب لم تُخالِط غيرها كثيراً ولم تَدْخل طويلاً تحت حكم أمَّةٍ أعجميَّة

أمة العرب

وهذه الأمة — منها القدماء . وهم الذين كانوا يسكنون تلك الجزيرة وينطقون باللغة العربية سليقةً وطبعاً

طبقات العرب

وهم ثلاث طبقات — أولاها العرب البائدةُ ، وهؤلاء لم يصل الينا شىء صحيح من أخبارهم إلاّ ما قصَّهُ الله علينا فى القرآن الكريم ، والاّ ما جاء فى الحديث النبوىّ. ومن أشهر قبائلهم طَسْمُ ، وجَدِيس [4] ، وعادٌ [5] ، وثمودُ [6] وعِمْليقُ [7] وعَبدُ ضَخْم [8]

---

(١) مصطلحاتهم (٢) المشهورين (٣) أى اللغات التى تكلمت بها الشعوب المختلفة من اولاد سام بن نوح وهذه اللغة مجهولة لم تعلم أصولها ولا قواعدها (٤) كانتا تسكنان اليمامة أيام ملوك الطوائف من الفرس (٥) كانت تسكن الاحقاف (٦) كانت تسكن الحجر (المسمى الآن بمدائن صالح) ووادى القرى بين الحجاز والشام (٧) العمالقة قوم سكن أوائلهم اليمن ثم انحدروا الى مكة ويثرب وأرض الشام ومنهم فراعنة الرعاة بمصر (٨) كانوا يسكنون الطائف ويقال انهم أول من كتب بالخط العربى (راجع مصور بلاد العرب فى هذا الكتاب)

وثانيتها العربُ العاربة — وهم بنو قحطانَ الذين جَلَوْا عن سِقى [1] الفرات، واختاروا اليمنَ منازلَ لهم، وامتزجت لغتهم بلغة سابقيهم، ثم انتشرت فى أنحاء الجزيرة. ومن أمهات قبائلهم كَهْلانُ [2]، وحِمْيَرُ [3]

وثالثتها العرب المستعربة — وهم بنو اسمعيل الطارئون على القحطانيين، والمُمْتزجون بهم لغةً ونسباً، والمعروفون بعدُ بالعَدْنانيّين [4] ومن أمهات قبائلهم ربيعةُ، ومُضَرُ، وإيادُ وأنْمارُ [5]

وبقية القبائل المشهورة وبطونها من الطبقات الثلاث مبينة فى الأشكال الآتية بعدُ مراعًى فى ترتيبها مرتبة الشهرة لامرتبة البنُوَّة الحقيقية [6]

ومنها المحدَثون — وهم سلائل [7] هؤلاء الأقوام الممتزجون بسلائل غيرهم، والمنتشرون بعدَ الإسلام فى بِقاع الأرض من المحيط الأخضر (الاطلنطى) الى ماوراء بحرِ فارِسَ ودِجْلَةَ، ومن أعالى النهرين [8] الى ماوراء جاوة وسومطرة. ويتكلمون بلهجات عامية مختلفة ترجع الى اللغة العربية الفصيحة التى يَتَعرَّفُونها بالتَّعلُّم

---

(١) سقى النهر مايسقيه من الارض وهو المسمى الآن بحوض النهر

(٢) كهلان بن سبأ، وأصل مساكنهم اليمن ثم تفرقوا ببادية جزيرة العرب

(٣) قبيلة تنسب الى حمير بن سبأ، وكانوا يسكنون أول أمرهم غربى صنعاء، وأكثر قبائل اليمن متفرعة من حمير وكهلان

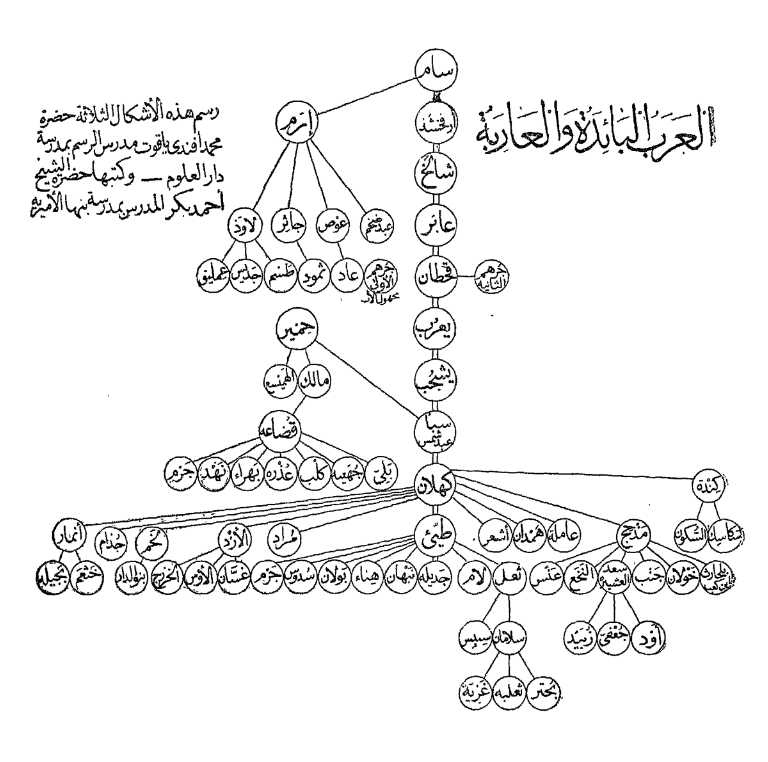
(٤) نشئوا بمكة والحجاز ثم انتشروا ببادية جزيرة العرب أواسطها وشماليها ممتزجين بالقحطانيين

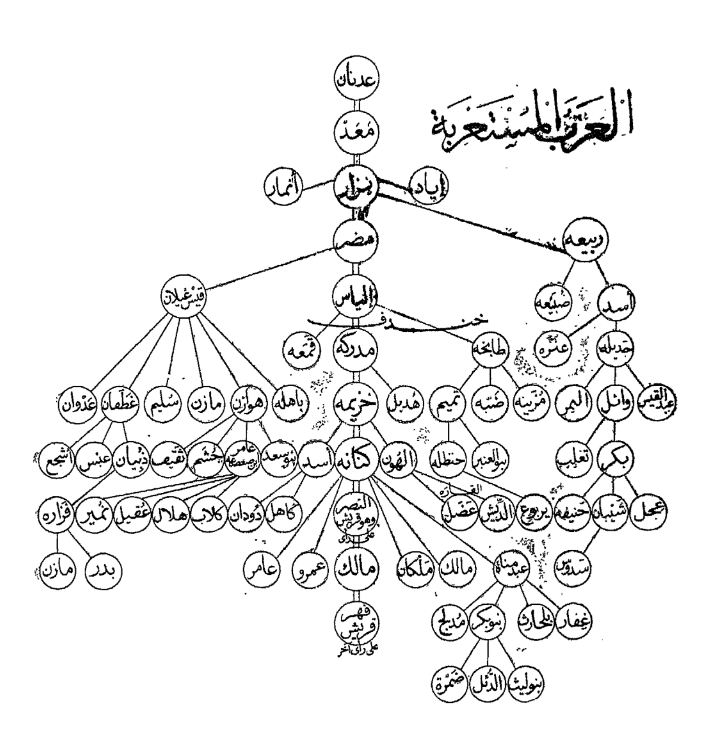
(٥) هؤلاء هم الشعوب الاربعة الكبرى التى تفرعت منها قبائل العدنانية واكثرهم عدداً: مضر، ثم ربيعة، وهم أولاد نزار بن معد بن عدنان

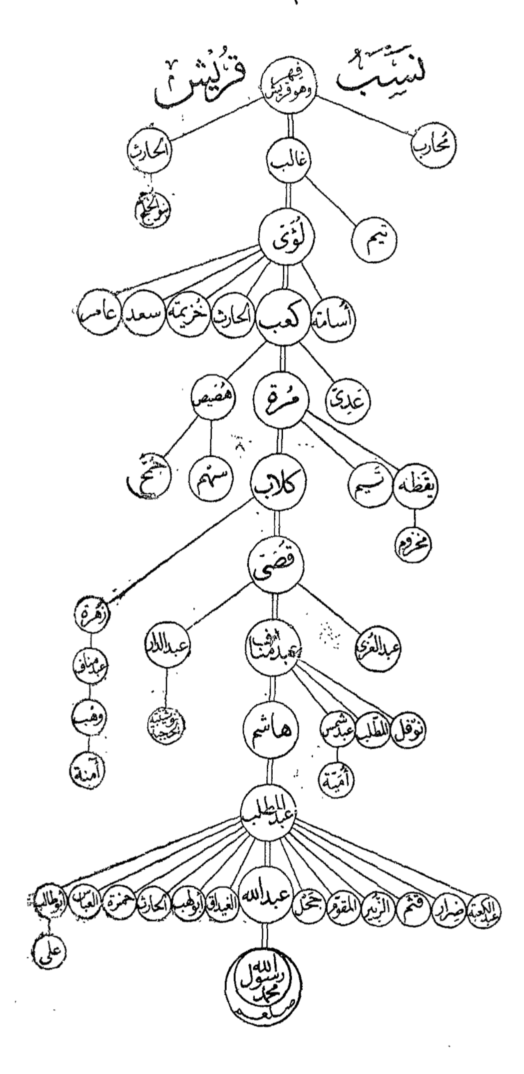
(٦) أخذنا أشكال الانساب الثلاثة فى هذه الطبعة من كتاب صبح الاعشى للقلقشندى صاحب كتاب (نهاية الارب فى معرفة أنساب العرب) وهو اشهر كتب النسب عند المتأخرين ومنه رسم جداوله صاحب سبائك الذهب المشهور. وأخذت فى الطبعة الاولى من تاريخ أبى الفداء، واعتمدنا هنا بعض زياداته فى الشكل الثالث. والخلاف بينهما انما هو في الزيادة أو النقص أو ترتيب البطون باعتبار الشهرة أو باعتبار البنوة الحقيقية. هذا واضطراب النسابين فى الانساب طويل عريض

(٧) أولاد

(٨) دجلة والفرات


العرب البائدة والعاربة
رسم هذه الأشكال الثلاثة حضرة
محمد افندي ياقوت مدرس الرسم بمدرسة
دار العلوم — وكتبها حضرة الشيخ
أحمد بكر المدرس بمدرسة بنها الأميرية
سام
إرم
أرفخشذ
شالخ
عابر
قحطان
جرهم الثانية
عبد ضخم
عوص
جاثر
لاوذ
جرهم الأولى
مجهول الأب
عاد
ثمود
طسم
جديس
عمليق
يعرب
يشجب
سبأ عبد شمس
حمير
مالك
الهميسع
قضاعة
بلي
جهينة
كلب
عذره
بهراء
نهد
جرم
كهلان
كندة
السكون
سكاسك
مذحج
عاملة
همدان
أشعر
طيئ
مراد
الأزد
لخم
جذام
أنمار
بالحارث بن كعب
خولان
جنب
سعد العشيرة
النخع
عنس
ثعل
لام
جديله
نبهان
هناء
بولان
سدوس
جرم
غسان
الأوس
الخزرج
بنو الدار
خثعم
بجيله
أود
جعفي
زبيد
سلامان
سنبس
بحتر
ثعلبه
غزية


العرب المستعربة
عدنان
معد
نزار
أنمار
إياد
مضر
ربيعة
قيس عيلان
الياس
خندف
ضبيعة
أسد
قمعة
مدركة
طابخة
عنزة
جديلة
عدوان
غطفان
سليم
مازن
هوازن
باهلة
خزيمة
هذيل
تميم
ضبة
مزينة
النمر
وائل
عبد القيس
أشجع
عبس
ذبيان
ثقيف
جشم
عامر بن صعصعة
بنو سعد
أسد
كنانة
الهون
حنظلة
بنو العنبر
تغلب
بكر
فزارة
نمير
عقيل
هلال
كلاب
دودان
كاهل
النضر وهو قريش على رأي
القارة
عضل
الديش
يربوع
حنيفة
شيبان
عجل
مازن
بدر
عامر
عمرو
مالك
ملكان
مالك
عبد مناة
سدوس
فهر قريش على رأي آخر
مدلج
بنو بكر
الحارث
غفار
ضمرة
الدئل
بنو ليث


نسب قريش
فهر وهو قريش
محارب
غالب
الحارث
تيم
لؤي
أسامة
كعب
الحارث
خزيمة
سعد
عامر
عدي
مرة
هصيص
يقظة
تيم
كلاب
سهم
جمح
مخزوم
قصي
زهرة
عبد العزى
عبد مناف
عبد الدار
عبد مناف
وهب
آمنة
هاشم
عبد شمس
المطلب
نوفل
أمية
عبد المطلب
عبد الكعبة
ضرار
قثم
الزبير
المقوم
حجل
عبد الله
الغيداق
أبو لهب
الحارث
حمزة
العباس
أبو طالب
علي
محمد رسول الله
صلعم

عصور اللغة العربية وآدابها

لما كان تاريخ لغة أى أمة وأدبها يرتبط كل الارتباط بالحوادث السياسية والدينية والاجتماعية التى تقع بين ظَهْرانَىْ [1] هذه الأمة ، ناسبَ لذلك ولسهولة الدرس وضبطه أن تقسم تاريخ أدب اللغة العربية خمسة أعصر :

الأوّل — عصر الجاهلية — وينتهى بظهور الاسلام ، ومدته نحو خمسين ومائة سنة.

الثانى — عصر صدر الاسلام ، ويشمل بنى أمية — ويبتدىء بظهور الاسلام ، وينتهى بقيام دولة بنى العباس (سنة ١٣٢ هـ)

الثالث — عصر بنى العباس — ويبتدئ بقيام دولتهم ، وينتهى بسقوط بغداد فى أيدي التتار [2] (سنة ٦٥٦ هـ)

الرابع — عصر الدول المتتابعة التركية [3] — ويبتدىء بسقوط بغداد ، وينتهى بمبدإ النهضة الأخيرة (سنة ١٢٢٠ هـ)

الخامس — عصر النهضة الأخيرة — ويبتدىء من حكم الأسرة المحمدية العلوية بمصر ، ويمتدّ الى وقتنا هذا

---

(١) مثنى ظهر ، وزيدت الألف والنون في الصيغة لزيادة المعنى والتأكيد ، ومعناه أن ظهراً منها قدامها ، وظهرا منها وراءها ، فهى مكنوفة من جانبيها ، ثم استعمل فى معنى الاقامة والحلول بين القوم مثلاً

(٢) هى احدى الأمم الطورانية التى كانت تسكن شمالىّ الصين ثم انتشرت في غربى آسيا وشرق أوربة.

(٣) وتشمل دولتى المماليك بمصر والشام ، والدول المتخلفة عن التتار في آسيا ، وممالك الدولة العثمانية في القارات الثلاث القديمة

العصر الاول عصر الجاهلية

حالة اللغة وآدابها فى ذلك العصر

وصف اللغة العربية ومزاياها

لغة العرب من أغنى اللغات كَلِماً ، وأعرقها (١) قدماً ، وأخلدها أثراً ، وأرحبها (٢) صدراً ، وأدومها على غِيَر (٣) الدهر مُحاسنةً وصبراً ، وأعذبها منطقاً ، وأسلسها أسلوباً ، وأروعها (٤) تأثيراً ، وأغزرها مادّة ، وأوسعها لكل ما يقع تحت الحِس ، أو يجول فى الخاطر : من تحقيق علوم ، وسنّ قوانين ، وتصوير خيال ، وتعيين مَرافق (٥) ، وهى على هَنْدَمَة (٦) أوضاعها ، وتناسق أجزائها ، لغة قوم أميين ، لم يكونوا فى حكمة اليونان ولا صنعة الصين ، بادوا وبقيت بعدهم سائرة مع كل جيل ، ملائمةً لكل زمان ومكان . ولولا رُوحٌ عظيم ما خلدت ودَرَجَ (٧) أقرانُها ، وأنِفَت (٨) واستخذى (٩) سلطانُها (١٠) . ولا عجب أن بلغت تلك

عوامل نمو اللغة

المنزلة : من بَسْطة الثروة وبُعْد المدَى (١١) ، اذ كان لها من عوامل النموّ ، ودواعى البقاء والرقيّ ، ماقلما يتهيّا لغيرها ، وذلك لما فيها من اختلاف طرق الوضع والدلالة ، وغلبة اطّراد التصريف والاشتقاق ، وتنوّع المجاز والكناية ، وتعدّد المترادف ، الى النحت ، والقلب ، والابدال ، والتعريب ، ولما تشرفت به من ورود القرآن الكريم ، والسنة النبوية بلسانها .

توحد اللغة العربية المروية

وما رواه لنا منها أئمة اللغة وجاء به القرآن الكريم والحديث النبوىّ هو نتيجة امتزاج لغات الشعوب التى سكنت جزيرة العرب . ولا يُعلَم بالضبط الوقتُ الذى تمثّلت فيه بصورتها المعروفة لنا ، ولا كلُّ الأسباب التى أدّت الى اندماج لغات بعض هؤلاء الشعوب فى بعض . وغاية ما عُلِم من الآثار الحجرية وبعض الروايات أنه كان جنوبيّ الجزيرة وشماليّها لغاتٌ متميزةٌ كلَّ التميز من العربية التي رُوِيت لنا ، دَرَست

---

(١) آصلها (٢) أوسعها (٣) حوادث (٤) أشدّها اعجاباً وهزة فى النفس (٥) جمع مِرفق كمنبر وهو كل ما ارتفقت به أى انتفعت (٦) الهندمة اصلاح الشىء على مقدار خاص ونظام بين (٧) انقرض (٨) استكبرت (٩) خضع (١٠) السلطان الغلبة والقهر والمراد سلطان أهلها (١١) الغاية أو مد البصر

وبقيت منها أشباحٌ [١] تتراءى أحياناً فى بعض لهجات العربية الأخيرة وأوجه اعرابها واشتقاقها وترادف ألفاظها ، كما أنهُ لا شك فى أن من أسباب امتزاج هذه اللغات ما يأتى :

مراتب تهذيب اللغة

(١) هجرة القحطانيين الى جزيرة العرب ومخالطتهم فيها العربَ البائدة باليمن ، ثم تمزقهم فى بقاع الجزيرة كلَّ مُمَزَّق بظلمهم أنفسَهم وتخرُّب بلادهم بسيل العَرِم [٢]

(٢) هجرةُ اسمَعيل عليه السلامُ الى جزيرة العرب واختلاطه وبنيه بالقحطانيين بالمصاهرة ، والمجاورةِ فى المنازل والمرابع [٣] ، والمحاربة ، والمتاجرة . وأظهر مواطن هذا الامتزاج مشاعرُ [٤] الحجّ ، وخاصةً بيتَ الله الحرامَ بمكة بَلدِ قريش [٥] الأمين ، والأسواقُ التى كانت تقيمها العربُ فى أنحاء بلادها ، ومن هذه الأسواق : عُكاظُ [٦] ومَجَنَّةُ [٧] وذو المَجاز [٨]

سوق عكاظ

وأهمها سوق عُكاظ — وكانت تقامُ من أوّل ذى القَعدة الى اليوم العشرين منهُ . وأقيمت تلك السوق بعد عام الفيل [١] بخمسَ عشرةَ سنةً ، وبقيت الى ما بعد الاسلام وان لم تكن فى شأنها الاول حتى سنة تسع وعشرين ومائة ، وكان يجتمعُ بهذه السوقِ أكثرُ أشراف العرب المتاجرة ، ومُفاداة الأسرى ، والتحكيم

---

(١) جمع شبح وهو سواد الانسان وغيره تراه من بعد (٢) العرم جمع عَرِمَة كفرحة وهى سَدٌّ يُعترض به الوادى ، أو هو جمع بلا واحد ، أو هو الأحْباس والسدود تبنى فى الوادى لحبس المياه خلفها وهى المسماة الآن بالخزانات . وحادثة سيل العرم أنه كان اسبأ فى اليمن عرم تحبس المياه خلفها لتوزع بنظام فتهدمت العرم بسيل عظيم اغرق البلاد ودمر القرى أمامه فكان هو مع كثير من الفتن والحروب الاهلية سببا فى تفرق قبائل سبأ في أنحاء جزيرة العرب حتى ضرب بهم المثل فى التفرق فقيل (تفرقوا ايدى سبأ) (٣) جمع مَربع وهو فى الاصل المكان الخصيب يقيم فيه القوم زمن الربيع (٤) معالم الحج واماكن انسكه (٥) قبيلة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهى بطن من كنانة من المضرية (٦) موضع قرب الطائف (٧) موضع قرب مكة (٨) سوق على فرسخ من عرفة بناحية كبكب ، وكبكب جبل بعرفات خلف ظهر الامام اذا وقف (٩) عام الفيل هو العام الذى ولد فيه النبي عليه الصلاة والسلام وهو سنة ٥٧١ من الميلاد — وملخص حادثة الفيل أن الحبشة طمعت فى الاستيلاء على مكة وقهر قريش وهدم الكعبة فتجرد لذلك أحد ملوكهم المسمى أبرهة بجيش ومعه فيل عظيم فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول

في الخصومات ، والمفاخرة [١] والمنافَرة [٢] بالشعر والخطب في الحسب والنسب والكرم والفصاحة والجمال والشجاعة وما شاكل ذلك حتى في عِظَم المصائب والارزاء [٣] . وكان من أشهر المُحَكَّمين بها في الشعر النابغةُ الذُّبيانيّ ، ومن أشهر خطبائها قُسّ بن ساعدةَ الإيادي . وقد لَهِج الشعراء بذكرها في شعرهم [٤] ، وحضرها منهم الرجال والنساء

آثار قريش في اللغة

ولقريشٍ عظيمُ الاثر فيما نجمَ عن اجتماع العرب في مشاعر الحج والأسواق بتهذيب لغتهم أنفسِهم : لأخذهم من لغات القبائل الوافدة عليهم ما خفّ على اللسان وحَسُن في السمع ؛ حتى لَطُفت لهجتُهم ، وجاد أسلوبهم ، واتسعت لغتهم لأن ينزل بها خيرُ الكلام كلامِ الله . ولمكانهم من الفصاحة والرياسة حاكاهم شعراء القبائل وخطباؤها في استعمال لغتهم : ليكون مقالُهم أسيرَ ، وخبرُهم أشهرَ

وما نشأ من الهجرتين السابقتين وغيرهما من تداخل اللغات واندماج بعضها في بعض حتى تكونت اللغة الفصيحة هو ما يسمى طورَ تكوين اللغة وتهذيبها

اختلاف لهجات [٥] العرب

لهجات العرب

قدَّمنا أن الامة العربية تألفت أخيراً من شَعبين [٦] عظيمين : القحطانيين أو (اليمانيين) والعدنانيين أو (النّزاريين) . وتشعَّبَ من كليهما شعوبٌ وقبائل لها لهجاتٌ مختلفةُ الفروع متحدةُ الأصول ، غير أن لغة حِميَرَ من القحطانيين غلبت على أخواتها [٧] . ثم دخل فيها من اللغة العدنانية ألفاظ وأساليب اختلفت قلةً وكثرةً

(١) المفاخرة المحاكمة في الحسب . والحسب ما تعدّه من مفاخر آبائك (٢) المنافرة ان يفتخر الرجلان كل واحد منهما على صاحبه ثم يحكما بينهما رجلا ، وسميت منافرة لان المتنافرين كانا يسألان الحكم : أينا أعز نفرا (٣) وتسمى المفاخرة بذلك (المعاظمة) ومنها معاظمة هند بنت عتبة ام معاوية حين قتل ابوها وعمها شيبة واخوها الوليد وغيرهم بوقعة بدر ، مع الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمى المصابة بموت ابيها واخويها صخر ومعاوية ، فقرنت هند جملها بجمل الخنساء وتعاظمتا في مصائبهما نثراً ونظما بسوق عكاظ

(٤) قال حسان : (سأنشر ان بقيت لهم كلاما ينشر في المجامع من عكاظ)

وقال طريف بن تميم : (أو كلما وردت عكاظ قبيلةٌ بعثوا الىّ عريفهم يتوسم)

(٥) لهجة القبيلة لسانها مراعي فيه الترقيق والتفخيم ، والتتميم والترخيم ، والهمز والتليين والسرعة والبطء ، والوصل والقطع ، والامالة وعدمها ، وما الى ذلك من النبرات الصوتية

(٦) الشعب بالفتح القبيلة العظيمة (٧) كالمعينية والسبئية

باختلاف الجهات ، وعمَّرت حتى ظهور الاسلام ، وزالت بعده وبقيت منها ألفاظ امتزجت بالعدنانية

ولغة **عدنان** الممثَّلة بعدُ في المُضَرية ظهرت أيضاً على أَخَواتها بل على الحِمْيرية في موطنها . ولكننا لا ننسى أن البِيئة ، ونزوح الديار ، ووسائلَ المعيشة واختلاف المرئيات وتنوّع طَرق الوضع والارتجال ، كل ذلك قد أبقى فى كلام كل قبيلة مِيزات هى ما يسمى مجموعها باسم لهجة القبيلة أو لغتها ، وتكاد تنحصر طرق الاختلاف فيما يأتى : الابدال (١) ، وأوجه الأعراب (٢) ، وأوجه البناء والبنية (٣) ، والتردد بين الإِعراب والبناء (٤) ، والتصحيح والاعلال (٥) وما يشبههما ، والاتمام والنقص (٦) ، والادغام والفك (٧) ، والترادف (٨)

اسباب اختلاف اللهجات

طرق اختلافها

اللهجات المشهورة

ولكل لهجة من لهجات العرب عدا القرشية هَنَة أو أكثر ، واشتهر من هذه الهَنَوات عَجْعَجَةُ (٩) قُضاعة ، وغمغمتها (١٠) وشَنْشنة (١١) اليمن ، ووَتْمهم (١٣)

---

(١) مثل ابدال الميم باء والباء ميما في لغة مازن فيقولون با اسمك فى ما اسمك ، ومكر فى بكر
(٢) كنصب خبر ليس عند الحجازيين مطلقا ، ورفعه عند تميم اذا اقترن بالا حملا لها على ما مثل ليس الطيب الا المسك (٣) كتسكين شين عشرة عند الحجازيين وفتحها وكسرها عند تميم ، وكبناء الهاء من أيها على الضم عند بني مالك من بنى اسد اذا لم يتلها اسم اشارة فيقولون يا ايه الناس ، وبنائها على الفتح ووصلها بألف عند غيرهم مثل يأيها الناس (٤) كاعراب لدن عند قيس بن ثعلبة وبنائها عند غيرهم (٥) كاعلال الأفعال الثلاثية التي من باب علم كرضى وبقى عند طيئ بقلب يائها ألفاً وكسرتها فتحة فيقولون رضى وبقى وغيرهم يصححها ، وكقلب الالف المتطرفة همزة عند تميم مثل العلأ في العلى وغيرهم يبقيها على حالها (٦) كحذف نون من الجارة عند خثعم وزبيد اذا وليها ساكن وابقائها عند غيرهم فيقولون في خرجت من البيت خرجت ملبيت كلغة العامة فى مصر (٧) مثل فك المثلين في المضارع المجزوم بالسكون المضعف وأمره عند الحجازيين مثل ان يغضض طرفه فاغضض طرفك ، وادغامها عند تميم ، مثل ان يغض طرفه فغض طرفك . (٨) وهذا النوع كثير في اللغة المروية لانها جمعت من لغات قبائل شتى ، وذلك كالمدية عند اليمانيين والسكين عند الحجازيين (٩) وهى تحويل الياء جيما اذا وقعت بعد العين فيقولون الراعج خرج معج يريدون الراعى خرج معى ، وفى المزهر هى قلب الياء المشددة جيما فيقال فقيمج في فقيمى ومرج في مرّى (١٠) وهى عدم تميز حروف الكلمات وظهورها اثناء الكلام (١١) وهى جعل الكاف شيناً مطلقا كلبيش ، وشادنى في لبيك ، وكادنى (١٢) وهو جعل السين تاء فيقولون النات في الناس

وطمْطُمانية (١) حمير ، وتَلْتَلة بَهْراء (٢) وفَحْفَحة (٣) هُذيل ، وعَنْعنة (٤) تميم ، وكَشْكَشة (٥) أسد أو ربيعة ، ووهْم (٦) كلْب ، ووَكْمُ (٧) ربيعةِ كلب ، ولَخْلَخانية (٨) الشّحر وعُمان ، وقُطْعة طيء (٩) ، واستنطاء (١٠) سعد بن بكر وهذيل والأزد وقيس والأنصار

كلام العرب

الغرض من كلام العرب كغيره الإبانة عما في النفس من الأفكار ، ليكون مدْعاةً الى المعاونة والمعاضدة ، وذريعة الى تسهيل أعمال الحياة .

ولما كانت هذه الافكارُ لا تزال متجددةً غيرَ متناهية ، كانت صور الكلام الدال عليها لا تزال كذلك متجددةً خاضعةً لقُوى الاختراع والابتداع ، على حسب ما يقتضيه المقام ، فقد تصل صورة الكلام الى الغاية القُصوى في البلاغة من حيث ايجاز اللفظ ، وصحة المعني ، وحسن البيان ، ولطف الاشارة ، واصابة الغرض ، وصدق التجربة ، فترتاح النفوس لها وتنشَط لحفْظها ، ليسيرِ مئونتها ، وحسن وقعها ، وسهولة الاحتجاج بها ، ولأنها تورث ما تتَخلَّله من الكلام رواجا ، وتكسبهُ قبولاً ،

---

(١) وهى جعل ام بدل ال فيقولون طاب امهواء ، فى طاب الهواء

(٢) وهى كسر أحرف المضارعة مطلقا ، وهم بطن من قضاعة

(٣) وهى جعل الحاء عيناً مثل العسن أخو العسين فى الحسن أخو الحسين

(٤) وهى ابدال العين من الهمزة المبدوء بها فيقولون في أن ، عن ، وفي امان ، عمان

(٥) وهى ابدال الشين من كاف الخطاب للمؤنث كعليش فى عليك . أو هى زيادة شين بعد الكاف المكسورة مثل عليكش في عليك ، وأشهرما يكون ذلك في الوقف

(٦) وهو كسر هاء الغائب اذا وليها ميم الجمع وان لم يكن قبلها ياء ولا كسرة فيقولون منهم وعنهم وبينهم

(٧) وهو كسر كاف الخطاب فى الجمع اذا كان قبلها ياء أو كسرة فيقولون عليكم وبكم ، وكلب بطن من قضاعة

(٨) كقولهم مشا الله فى ماشاء الله

(٩) وهى حذف آخر الكلمة فيقولون (يا أبا الحكا) يريدون ياأبا الحكم كما في لغة بنى سويف الآن وشمالى مديريتى الغربية والبحيرة

(١٠) وهو جعل العين الساكنة نونا اذا جاورت الطاء مثل انطى في أعطى

المثل والحكمة

وهذا مايسمى (بالمثل أو الحكمة) . وقد تنحط صورة العبارة الى الدرك الأسفل من الإبانة ، بحيث لو انحطت عن ذلك لكانت عند الأدباء بأصوات العجماوات أشبه ، وبين الحالين مراتب تتفاضل فيها العقول ، وتتبارى [1] الفحول

وجُلُّ بحث علم الأدب وتاريخه فى التفاوت بين هذه المراتب ورجالها ، وسنتكلم بعد فيها

تعريف المثل والحكمة

ونشير هنا الى أن المثل قول محكيّ سائر يقصد منه تشبيه حال الذى حُكي فيه بحال الذى قيل لاجله . والحكمة قول رائع يتضمن حكماً صحيحاً مُسلَّماً . وكما يكون كل منهما نثراً يكون نظما . فمن أمثال الجاهلية النثرية :

طائفة من الامثال

ان البُغاثَ [2] بأرضنا يَستَنسرُ ، — اذا عزَّ أخوك فهُن [3] — رُبَّ رَمْيةٍ من غير رام [4] — أنتَ تَئِقٌ ، وأنا مَئِقٌ ، فمتى نتفق [5] — جوّع كلبك يَتْبَعْك [6] — قد استَنْوَق الجملُ [7] — الحديث ذو شجُون [8] — ان العَوان [9] لاتُعلم الخِمْرة [10] — سَبَقَ السَّيفُ العَذَل [11] — مايومُ حليمة [12] بسرّ — مواعيدُ عرقوب [13] — مُكرَهٌ أخاك لابطل [14] ثُكلتْ أرأمَها وَلَدا [15] — أتبع الفرس لجامها [16]

---

(١) تتعارض وتتسابق (٢) البغاث مثلث الباء طير اغبر ضعيف ، يستنسر يصير كالنسر فى القوة ، يضرب للضعيف يصير قويا ، وللذليل يعز بعد الذل (٣) قائله هذيل بن هبيرة التغلبي ومعناه كما قال ابو عبيد : مياسرتك صديقك ليس بضيم يركبك منه ، فتدخلك الحمية به ، انما هو حسن خلق وتفضل ، فاذا عاسرك فياسره . يضرب فى التساهل مع ذوى القربى والاصدقاء (٤) أى رب رمية مصيبة حصلت من رام شأنه أن يخطىء ، وأول من قال ذلك الحكم بن يغوث المنقرى . يضرب للمخطىء يصيب أحيانا (٥) التئق السريع الى الشر ، والمئق السريع الى البكاء ، يضرب للمختلفين أخلاقا (٦) قائله احد ملوك حمير الجبابرة — يضرب فى معاشرة اللئام وما ينبغى ان يعاملوا به (٧) قائله طرفة بن العبد — يضرب للرجل الواهن الرأى المخلط فى كلامه (٨) طرق ، قاله ضبة بن اد بن طابخة ، يضرب فى الحديث يتذكر به غيره (٩) التى سبق لها زوج (١٠) كيفية لبس الخمار (الطرحة) يضرب للعالم بالامر المجرب له (١١) اللوم — قائله ضبة بن اد بن طابخة يضرب فى استحالة تدارك مافات (١٢) حليمة بنت الحارث بن ابى شمر الغسانى — يضرب فى كل امر متعارف مشهور (١٣) رجل من العمالقة — يضرب فى خلف الوعد (١٤) قائله ابو حنش — يضرب لمن يحمل على مايكره (١٥) قائله بيهس الملقب بنعامة لحمقه — يضرب فى استعظام الحقير للحاجة اليه (١٦) قائله عمرو بن ثعلبة بن كلب — يضرب للرجل قضى الحاجة ولم يتمها

ومن أمثالهم النظمية :

تمتَّعْ من شَميم عَرَار نَجْدٍ   فما بعد العشيةِ من عرار (١)

لاتَقطعَنْ ذَنبَ الأفعى وتُرسلَها   ان كنتَ شَهماً فأتبعْ رأسَها الذَّنبا (٢)

انى وقتلى سُلَيكا ثم أعقلَه   كالثور يُضرَب لما عافتِ البقر (٣)

لاذنب لى قد قلت للقوم استقوا   أن تَرِد الماء بماء أوفقُ (٤)

تقسيم الامثال

وتسمى الأَمثال حقيقية ان كان لها أصل معروف نُقلت عنه وسيقت له كالأَمثال السابقة ، وفَرْضية ان كانت تُمثَّل على لسان حيوان أو نباتٍ أو جماد : مثل « فى بيته يؤتَى الحكمُ » (٥) و « كيف أعاودُكَ وهذا أثر فأسك » (٦) ، والأول محكى على لسان الضب ، والثانى على لسان الحية

وتكثر الفرضية فى الأيام التى يكثر فيها الجور والاستبداد والتضييق على الهداة والمرشدين ، فيُضْطَرون اليها للوصول الى أغراضهم ، مع الأمن على حياتهم ، على

---

(١) قائله الصمة بن عبد الله القشيرى – ويضرب فى التمتع من الزائل ، والعرار نبت طيب الرائحة وهو النرجس البرىّ (٢) قائله ابو أذينة اللخمى يحرض الاسود بن المنذر على قتل أسراه من ملوك غسان ، وأن لا يقبل منهم فدية . يضرب فى التحريض على استئصال شأفة الشر (٣) قاله أنس بن مدرك . يضرب فى عقوبة الكبير ليخضع الصغير (٤) يضرب لمن لا يقبل الموعظة (٥) هذا المثل مما زعمته العرب على ألسن البهائم قالوا ان الارنب التقطت تمرة فاختلسها الثعلب وأكلها ، فانطلقا يختصمان الى الضب فقالت الأرنب يا أبا الحسل — قال سميعاً دعوتِ — قالت أتيناك لنختصم اليك — قال عادلاً حكمتما — قالت فاخرج الينا — قال فى بيته يؤتى الحكم — قالت انى وجدت تمرة – قال حلوة فكليها — قالت فاختلسها الثعلب — قال لنفسه بغى الخير — قالت فلطمته — قال بحقك أخذت — قالت فلطمنى — قال حرٌّ انتصر — قالت فاقض بيننا — قال قد قضيت – فذهبت أقواله كلها أمثالا (٦) أصل هذا المثل على ما حكته العرب أن أخوين اجدبت بلادهما وكان بالقرب منهما واد خصب فيه حية تحميه ، فهبط أحدهما الوادي مخالفاً نصيحة أخيه فرعى فيه زمناً ثم نهشته الحية فقتلته ، فجاء أخوه الوادى يطلب ثأره فقالت له الحية هل لك فى الصلح : أدعك فى هذا الوادى وأعطيك كل يوم ديناراً مابقيت ، فحلف لها أن لايؤذيها ماوفت ، فلما حسن حاله ذكر أخاه فأخذ فأساً ثم تبعها وضربها فأخطأها ، وأثرت الفأس فى جحرها ، فقطعت عنه الدينار ، فخاف شرها وندم ، فقال لها : هل لك فى أن نتواثق ونعود كما كنا ، فقالت كيف أعاودك وهذا أثر فأسك : يضرب لمن لايفى بالعهد

ما فيها من ترويح الخاطر ، ولطف المَدخَل ، وجمال الفكاهة المَطويَّة فى تضاعيفها النصيحةُ ، وذلك أعملُ فى النفس ، وأدعى الى الاتعاظ

أثر الأمثال

والأمثال مِرآة تُريك صُوَر الأمم وقد مضت ، وتَقِفُك على أخلاقها وقد انقضت ، وهى ميزان يوزن بهِ رُقىّ الشعوب وانحطاطها ، وسعادتها وشقاؤها، وأدبها ولغتها . ولقد أكثر العرب منها فلم يتركوا باباً الاَّ وَلَجوه ، ولا طريقاً الاَّ سلكوه. وقد أفردها العلماء بالتأليف . وأقدم الأمثال (على مانعلم) أمثال لقمان الحكيم [١]

طائفة من الحكم

ومن الحكم النثرية : مَصَارع الرجال تحت بُروق الطمع . من سَلَكَ الجَدَدَ [٢] أَمِنَ العِثار [٣] . خيرُ الموت تحت ظلال السيوف . كَلْمُ [٤] اللسان أنكى [٥] من كَلْم السِّنان . العتاب قبل العقاب . خير الغنى القناعة . قطيعة الرحم تورث الهم . رضى الناس غاية لاتُدرك . أوّلُ الحَزْم المَشورة . رب عَجَلة تَهب رَيْثا [٦] . أنجز حرٌّ ماوَعدَ . اترك الشرَّ يتركك . من عزَّ بزَّ [٧] . بعض الشر أهوَن من بعض . ان أخاك من واساك [٨] . يكفيك من شر سماعُه

ومن الحكم النظمية :

قد قيل ما قيلَ انْ صدقا وان كذبا ... فما اعتذارُك من قول اذا قيلا

وأَكذِبِ النفسَ اذا حدثتَها ... ان صدق النفس يُزْرى بالأملْ [٩]

اذا المرء لم يَدْنَس من اللؤم عِرضه ... فكلُّ رداء يرتديه جميل

اذا المرء لم يَخْزُن عليهِ لسانَه ... فليس على شيء سواه بخزَّان

ولستَ بمُستَبْقٍ أخاً لاتَلُمُّه ... على شَعَث أىُّ الرجال المهذَّبُ [١٠]

(١) هو لقمان بن عاد أحد حكماء العرب ومن أمثاله رب أخ لك لم تلده أمك ـ الصمت حكم وقليل فاعله ـ كل امرىء في بيته أمير ـ كل امرىء بشأنه عليم ـ آخر الدواء الكيّ

(٢) ما استوى من الأرض (٣) مصدر عثر بمعنى زل وسقط (٤) جرح (٥) أشد ايلاما (٦) بطئا (٧) من غلب سلب (٨) ساعدك (٩) لا تحدث نفسك بأنك لا تظفر فان ذلك يثبطك (١٠) الشعث انتشار الأمر وخلله : أي ولست مستديماً صحبة صديق لاتحتمله على مافيه من زلل ، بل ينبغى لك لاستدامة صحبته أن تلمه وتصلحه وتجمع ماتشتت من أمره ، اذ لايوجد رجل خال من العيوب

ومن لم يذُد عن حوضه بسلاحه يُهدَّم ومن لا يَظلِم الناس يُظلَم

وكلام العرب بمراتبه : (العليا والدنيا وما بينهما) تعتوره كغيره أحوال تتغير بتغيُّر حياة أهله : العقلية والمعاشية والدينية والسياسية ، وتلك الاحوالُ تتجلى فى (أغراض اللغة ، ومعانيها ، وعباراتها) وهى فى اللغة الواصلة الينا المروية عن العرب أخرياتِ جاهليتهم وبعد تَضعضُع مدنيتهم القديمة يمكن الاشارة اليها بما يأتي :

أغراض اللغة (١) فى الجاهلية

(١) كانتِ اللغةُ تستعمَلُ فى أغراضِ المعيشةِ البدوية ، ووصفِ مرافقها : من حَلّ وتَرحال ونَتْج حيوان ، وانتجاع كلأ واستدرارِ غيث

(٢) وفى اثارة المنازعات والمشاحنات ، وما يتبعُها : من الحض على ادراك الثار ، والتفاخر بالانتصار ، والتباهى بكرمِ الأصل والنّجار

(٣) وفى شرح أحوال المشاهدات ، والإخبار عن الوقائع ، والقَصص ، وغير ذلكَ مما يلائمُ بيئتَهم ويناسبُ طباعهم

معانى اللغةِ فى الجاهلية

تُجْمَلُ أحوالُ معانى اللغةِ فى الأمرين الآتيين :

(١) قَصْرُ معانى المفرداتِ على ما تقتضيه البَدَاوةُ والفِطرة الغضةُ الخاليةُ من تكلف أهل الحضر وتأنُّقِهم

(٢) سَيرُ التعقُّل — المُستَنْبَطِ من الحِسّ والمشاهدةِ أو الطبيعة أو التجرِبة أو الوجدان — فى طريق غيرِ طريق المبالغة والاغراق

(٣) ارسالُ التخيُّل — المنتزَعةِ صورُه من المحسوسات — على وجه قلما يخرج عن الإمكان العقلى والعادىّ

---

(١) أغراض اللغة مقاصدها التى تؤديها وتستعمل فيها

عبارة اللغة فى الجاهلية

تلخّص أحوالُ العبارةِ فى الجاهلية فيما يأتى :

(١) استعمالُ الألفاظِ فى معانيها الوضعية ، أو معانٍ مُناسِبَة للمعنى الأصلىّ بطريقِ المجازِ الذى يُصبحُ بعد غلبة الاستعمالِ والإلف حقيقةً جديدة ؛ ولذلك يظهر لنا عندَ تِلاوة الشعر العربىّ القديم أن المجازَ فيه أقلُّ مما هو فى كلامِنا ، وأنه قريبٌ من الحقيقة : لشدّة علاقته بالمعنى الأصلى ، وارتقاء بعضه الى رتبة الحقيقة

الترادف (٢) كثرةُ الترادُفِ فِى المفرداتِ ، والحقُّ أنَ لأكثرِ الألفاظِ المترادفةِ معنى خاصًّا لا يؤدّيه الآخرُ بالدقة [١] ، وان تُنوسى بعضُ هـذه الخصائص . وبعض المترادفِ آتٍ من اختلافِ لغاتِ القبائلِ الفصيحة التى جُمِعت لغاتها وتكوّن منها اللسانُ العربىّ المروىُّ لنا المحفوظُ فى كُتب اللغة

المعرّب (٣) قلةُ الاعجمىّ المعبّر عنه بالمُعرَّب ، على أنه لم يتم الى الآن دليل قطعىّ على أن كل الألفاظ المشتركة بين لغةِ العرب ولغاتِ الاعاجم نقلها العرب عن غيرهم ، ولم ينقلها غيرُهم عنهم حتى نحكمَ بأنها أعجميةٌ لا عربية

(٤) ارسالُ الأساليبِ الكلامية على حَسَبِ ما تقتضيه البلاغة بدون تكلف وبدون مراعاة لما تستلزمه الصناعةُ البديعية ، فلم يتعمدوا جناساً ، ولم يتكلفوا طباقاً ، ولم يقصدوا الى تورية [٢] ، وما وقع لهم من المحسّنات الكلامية على قِلته فانما كان عفواً لا تَعَمُّلَ فيهِ خلا بعضاً من سجعِ الكهان

(٥) خلوُ الكلامِ العربى من اللحن ، لأن الحقَ أن العربىَ لا يلحنُ فى لغته

(٦) شيوعُ الايجازِ فى كلامهم كما ترىَ ذلك واضحاً فى نثرهم وشعرهم

---

(١) كالحث والحض فالاول يكون في السير والسوق وكل شيء ، والثانى لا يكون فى سير ولا سوق . وكالجلوس والقعود : الاول عن ضجعة ، والثانى عن قيام

(٢) وأما ادعاء بعضهم - أن فى (سخينا) من قول عمرو بن كلثوم :

مشعشعة كأن الحص فيها اذا ما الماء خالطها سخينا

تورية مقصودة بجعله فعلا من السخاء ، أو اسماً من السخونة ، فتخرص وظن بلا دليل

تقسيم كلام العرب

ينقسم كلام العرب قسمين : نثراً ونظماً ؛ فالنظمُ هو الموزون المقفى ؛ والنثر ما ليس مرتبطاً بوزن ولا قافية

النثر

المحادثة — الخطابة — الكتابة

أقسام النثر

الأصل فى الكلام أن يكون منثوراً : لإبانته مقاصدَ النفس بوجه أوضح ، وكُلْفة أقلّ. وهو إما حديثٌ يدورُ بين بعض الناسِ وبعض فى اصلاح شئونِ المعيشة ، واجتلاب ضروبِ المصالح والمنافع ، وذلك ما يسمّى (المحادثة) أو (لغة التخاطب) ؛ وإما خطابٌ من فصيحٍ نابِه الشأن يُلقيه على جماعة فى أمر ذى بال ؛ وهذا ما يسمّى (الخطابة) ؛ وإما كلامٌ نفسىّ مدلولٌ عليه بحروف ونقوش : لإرادة عدم التلفّظ به ، أو لحفظه للخلَف ، أو لبعد الشقّة بين المتخاطبين ، وذلك ما يسمّى (الكتابة) . فأقسام النثر ثلاثة : محادثة ، وخطابة ، وكتابة . وكلها : إما أن تكونَ كلاماً خالياً من التزامِ التقفية فى أواخرِ عباراته ، وذلك ما يسمّى (النثرَ المُرْسَل) ، وإما أن تكون قطعاً ملتزَماً فى آخرِ كلّ فِقْرتين منها أو أكثرَ قافيةٌ واحدة ، وهـذا ما يسمى (السّجعَ) ، وهو نوعٌ من الحليةِ اللفظية اذا جاء عفواً ولم يتعمّد التزامُه ؛ ولحسن وقعه فى الأسماع ، وحَوْكه (١) فى الطباع ، كان أكثرَ ما يستعمل فى الخطابةِ ، والأمثالِ ، والحِكَمِ ، والمفاخراتِ ، والمنافراتِ ، وتخرُّصاتِ الكهان ، والكتابة التى من هذا الوجه.

المرسل

السجع

مميزات النثر الجاهلى

ومن مميزاتِ النثر فى الجاهلية :

(١) قلة تأنقهم فى انتقاءِ الألفاظ المتناسبة الوزن ، المتشابهة فى النغم والجرْس

---

(١) حوكه تأثيره وأخذه

وانما يعمدون فى تأدية المعنى الى ألفاظ تطابقه على ما يتفق وكما يكون

(٢) قلة استعمالهم الجمل والعبارات المتواردة على معنى واحد كما يفعل الجاحظ وأشباهه من المولدين

(٣) قلة ولوعهم بالتكلف فى صوغ عباراتهم وأساليبهم وسجعهم ، اللهم الاّ ما وقع من سجع كاهن أو عرّاف

(٤) قِصَرُ الجُمل ، أو توسطها ، وكثيراً ما يلتزمون ذلك فى الحكم والأمثال والوصايا

(٥) ميلهم الى الايجاز من غير اخلالٍ بالمعنى

(٦) كثرةُ استعمالهم الكناية القريبة المنال ؛ اتقاء التصريح بما يستهجن ، أو تحريكاً للنفس فى استحضار صورةِ المكنىِّ عنه بذكر أخص صفاته

(٧) قلة تعمقهم فى استخراج المعانى البعيدة وفى استقصاء الأفكار العويصة التى تحتاج الى كدّ خاطر أو درسِ علم

مثال للمرسل

ومن أمثلة النثر المرسل ما قاله أبو جُبيل قيسُ بن خُفاف البُرْجُمىُّ لحاتم فى دماءٍ (١) تحمّلها : انى تحملت دماء عوّلتُ فيها على مالى وآمالى ، فأما مالى فقدَّمتهُ ؛ وكنتَ أكبرَ آمالى ، فان تحمّلتَها فكم من حقٍ قضيتَ ، وهمٍّ كفيتَ ؛ وان حال دونَ ذلك حائل ، لم أذُمَّ يومَك ، ولم أيأسْ من غدك

أمثلة للسجع

ومن سجع الكهان قولُ سَطِيح (٢) بن مازن فى تعبيرِ رؤيا ربيعةَ بن نصرٍ اللخْمىّ أحدِ ملوك اليمن :

أحلِفُ بما بين الحرّتين (٣) من حنَش ، ليَهْبِطَنَّ أرضكم الحبش ، وليَمْلِكُنَّ ما بين أبيَن (٤) الى جرَش (٥)

وقولُ شِقٍّ أنمار (٦) فى تعبير تلك الرؤيا :

---

(١) جمع دم والدم هنا الدية

(٢) اسمه ربيع بن ربيعة ، مات فى أيام أنوشروان بعد مولده صلى الله عليه وسلم

(٣) الحرة كل أرض ذات حجارة سود نخرة (٤) مخلاف منه مدينة عدن المشهورة

(٥) مخلاف باليمن من جهة مكة (٦) كاهن كان فى زمن كسرى أنوشروان

أحلف بما بين الحرّتين من انسان ، لينزلنّ أرضكم السودان ، وليغلبنّ على كل طفلة (١) البنان ، وليملكنّ الى ما بين أبين ونجران (٢)

ومن السجع فى غير الكهانة قول لبيد (٣) يصف بقلة (٤) تدعى التّربة : هذه التّربة التى لا تذكى (٥) ناراً ، ولا تؤهل (٦) دارا ، ولا تسر جارا ، عودها ضئيل ، وفرعها كليل (٧) ، وخيرها قليل ، بلدها شاسع (٨) ، ونبتها خاشع (٩) ، وآكلها جائع ، والمقيم عليها ضائع ، أقصر البقول فرعاً ، واخبثها مرعى ، وأشدها قلعاً ، فتعساً (١٠) لها وجدعاً (١١)

المحادثة أو لغة التخاطب

لغة التخاطب عند عرب الجاهلية بعد أن توحّدت (١٢) لغاتها هى اللغة المعربة المستعملة فى شعرها وخطبها وكتابتها ؛ ولا فرق بينها فى البلاغة الاّ بقدر ما تستدعيه حال الخطابة والشعر والكتابة : من نبالة الموضوع والتأنق فى العبارة

خلوها من اللحن

وأكثر ما وصل الينا منها ما كان شريف المعنى ، فصيح اللفظ . وما زعمه بعض باحثى زماننا : من أن هذه اللغة لم تكن مُعرَبة مطلقاً ، أو أنها كانت معربة عند الخاصة غيرَ معربة عند العامة ، أو أن غيرَ المعربة كانت خاصة بالمحادثة دون الشعر والخطابة والكتابة ، أو خاصّة بلغات أطراف الجزيرة لمجاورتها أممَ الأعاجم دونَ أواسطها ، ظنونٌ لم يقم عليها دليل ، نشأت من عدم فهم كلام العلماء ونقلة اللغة

أقوال باحثى زماننا فيها

الخطابة

الخطابة ضرب من التكلم ، وهى — إذا تهيّأت داعيتها ، ووفرت أداتها ، وقلت كفاية الكتابة أو ثقلت مئونتها — سبيل الاقناع ، وعدة التأثير : لما فيها من حضور المتكلم بشخصه ، ودفاعه عن رأيه بنفسه ، وافاضته (١٣) فى كل ما يؤيد مذهبه . ومن طبيعة القبائل المتبدّية (١٤) التى تعمّها الأمية ، ولا يربطها قانون عام ، ولا

(١) ناعمة (٢) مخلاف شمالى اليمن (٣) شاعر ستأتى ترجمته (٤) البقل ما نبت من بزرة لامن أرومة ثابتة والبقه واحدته (٥) أذكى النار أوقدها (٦) من قولهم ثريدة مأهولة أى فيها اهالة وهى ما يؤتدم به من زبت ونحوه أى لا تؤدم (٧) ضعيف غير صليب (٨) بعيد (٩) دان من الارض (١٠) هلاكا (١١) قطعا (١٢) المراد بتوحيد اللغات توحدها بعد امتزاج لغات العرب البائدة والقحطانية والعدنانية بعضها ببعض (١٣) اندفاعه (١٤) المقيمة بالبادية

تضبطها حكومة منظمة ، ولا تضمها راية سلطان واحد — كما كانت الأمة العربية في جاهليتها — أن تكون الخطابة لها ضرورية ، وفيها فطرية

فمن الدواعي الطَبعيَّة للخطابة في الجاهلية ما يأتي :

(١) غلبة الأمية على العرب غلبةً ألجأتها الى الاستعانة باللسان اداةِ القول ، بدلَ القلم أداةِ الكتابة

(٢) تملكهم زمامَ الفصاحة ، وانقيادهم لسلطان البلاغة واستجابة خاصتهم وعامتهم لدعاء سادتهم وكبرائهم وأولى النجدة فيهم عند الأمر الحافز[1] ، والخطب الداهم[2] ، لما بين الداعي والمدعوّ من وحدة الجنس واللسان ، وتوافر أسباب التفاهم والبيان

(٣) تفرقهم قبائل مستقلة ، وعشائرَ صغيرة ، وفئاتٍ مُقاتلة ، بحيث يتيسر لكل جمهور منهم الاجتماع في صعيد واحد ، والاستماع الى خطيب فرد

(٤) تعذر طرق التواصل المنظمة بينهم : كبريد يحمل رسائلَ ضافية ، وكتباً مطولة ، أو برقٍ يوصل أخباراً هامّة ، أو صحف تنشر حوادث عامة ، فكانت الداعية شديدةً الى رسول مُوفَدٍ نابه الشأن ، فصيح اللسان قويّ الحجة

(٥) شن الغارات لأوهى الأسباب ، وافضاء ذلك الى الدفاع عن النفس والعرض والمال ، ثم الى الانتقام لفراغ اكثرهم مما يشغل الخواطر والجوارح من صناعة وزراعة وتجارة ، وللخطابة في ذلك المثل الأعلى ، والقِدْح المعلَّى[3]

ومن أغراض الخطابة والمقامات التي يخطب فيها مايأتي :

(١) التحريض على القتال ، والحض على الأخذ بالثار ، وما الى ذلك من تهوين لشأن العدوّ ، أو تنبيه على غِرّةٍ[4] منه أو تهيئةِ تعبئة لملاقاته

(٢) اصلاح ذات البَيْن عند نشوب الحرب ، فيخطب رؤساء القبيلتين في تعظيم رزايا الحرب ، وتعديد مصائبها ، والتنفير منها أو في امكان تحمل دماء القتلى ، ومفاداة الأسرى ، ونحو ذلك

---

(١) الدافع والسائق (٢) دهمه غشيه (٣) سابع سهام الميسر وهو أكبرها حظا (٤) غفلة

(٣) المفاخرة والمنافرة، والمباهاة بقوة العصبية وكرم النجار [1]، وشرف الخصال وعظم الفعال: ترهيباً للطامعين، وتهديداً للمعادين

(٤) توضيح المقاصد وتربية التواصل بالسفارات مابين سادات قبائلهم وأقيالهم، وبينهم وبين ملوك الممالك المجاورة لهم، فى تأمين سبيل، أو خفارة درب، أو إجازة تجارة، أو استنجاد، أو تهنئة، أو تعزية

(٥) خطبة الإملاك [2]: بترغيب القبيل المخطوب اليه فى قبيل المخطوب له، وعد فضائله، وذكر مايسوقه من المهر ونحو ذلك

(٦) التوصية بفعل الرغائب، واقتناء المحامد، والتبصر فى العواقب، والتروى عند الحوادث، ويكثر ذلك من حكمائهم وكهانهم لعامتهم، أو من الآباء لأبنائهم، وخاصة عند دنو آجالهم

قلة ماورد من الخطب

وإنما لم تصل الينا أخبار خطبائهم الأوائل، وشىء من خطبهم كما كان ذلك فى الشعر، لحفلهم قديماً بالشعر دون الخطابة، ولصعوبة حفظ النثر

وما عنى الرواة بنقل أخبار الخطباء وخطبهم الا عند ماحلت الخطابة بعد منزلة أسمى من الشعر: لابتذاله بتعاطى السفهاء والعامة له، وتلوثهم [3] بالتكسب به والتعرض للحرم، فنبه بذلك شأن الخطابة، واشتهر بها الأشراف. وكان لكل قبيلة خطيب كما كان لكل قبيلة شاعر

أدلتها وسجعها

وإذ كان جل القصد من الخطابة إثارة الشعور، وايقاظ الوجدان كما هو الشأن فى الشعر، كان جل الاعتماد فيها على الأدلة المؤثرة فى النفوس، المهيجة للعواطف، ممثلة فى صور العبارات الرائعة؛ وكثرت فيها الفواصل والأسجاع لحسن وقعها، على مافيها: من استرواح الخطيب، وسهولة تدارك المعانى

قصرها

وخطب العرب منها الطوال ومنها القصار، ولكل مكان يليق به، وهم الى القصار أميل: لانطباعهم على الايجاز، ولانها الى الحفظ أسرع، وفى الأصقاع أشيع؛

(١) الأصل (٢) الزواج (٣) تلطخهم

وكانوا يُعْنَوْنَ فى خطبهم ولا سيما القصار منها بسرد كثير من الحِكم والأمثال والنصائح ، على أنه قلما رويّت لنا خطبة بنصها وفصها[1] : لفشوّ الأمية فى الجاهلية ولعجز الرواة عن استظهار جميعها ، وإنما يحفظون منها ما كان أشدّ قرعاً للسمع ووقعاً فى النفس ، بعبارات تتفق فى أصل المعنى ، وتفترق فى بعض اللفظ

قيامهم فيها

وكان من عادة الخطيب فى غير خطب الإملاك[2] أن يخطب قائماً ، أو على نشز من الأرض[3] ، أو على ظهر راحلته : لابعاد مدى الصوت ، وللتأثير بشخصه ، واظهار ملامح وجهه ، وحركات جوارحه ؛ ولا غنى له عن لَوْث[4] العمامة ، والاعتماد على مِخْصَرة[5] ، أو عصا ، أو قناة[6] ، أو قوس ، وربما أشار باحداها أو بيده

صفات الخطيب

وقد كانوا يستحسنون من الخطيب أن يكون رابط الجأش[7] ، قليل اللحظ[8] جَهِير الصوت ، متخَير اللفظ ، قوىّ الحجة ، نظيف البِزّة[9] ، كريم الأصل ، عاملاً بما يقول

أقدم الخطباء

وخطباء العرب كثيرون (من أقدمهم) كعب بن لؤى[10] وكان يخطب العرب عامة ، ويحض على البرّ كنانةَ خاصةً ، ولما مات أكبروا موته ، وأرّخوا به حتى كان عام الفيل . وذو الاصْبع العَدْوانى وهو حُرْثان بن مُحَرِّث ، وسمى كذلك لأن حية نهشت إبهام رجله فقطعها

أشهر الخطباء

(ومن أشهرهم) قيس بن خارجة بن سِنان خطيب حرب داحِس والغبراء[11]

---

(١) النص تعيين الشيء والفص مفصل الشيء ، والمعنى أتت معينة مفصلة كما قالها صاحبها بالضبط
(٢) التزويج (٣) مرتفع من الارض (٤) عصب (٥) المخصرة السوط ونحوه وما يأخذه الملك ليشير به أو الخطيب اذا خطب (٦) رمح (٧) النفس أى شجاع (٨) اللحظ النظر بمؤخر العين وهو أشد من الشزر ، والمراد قليل التلفت والنظرات (٩) الهيئة والثياب
(١٠) هو الجد السابع للنبي صلى الله عليه وسلم

(١١) داحس والغبراء فرسان لقيس بن زهير سيد عبس ، راهنه حذيفة بن بدر الفزاري على أن يسابقه بفرسيه : الخطار والحنفاء ، فوضعت فزارة كمينا فى طريق السباق فلطم وجه الغبراء وكانت سابقة ، فهاجت الحرب بين عبس وفزارة ، ثم بين عبس وذبيان لنصرتها فزارة ، وفى القصة روايات أخرى

وخُوَيلدُ بن عمرو الغَطَفَانيّ خطيب يوم الفِجار [١] . وقُسّ بن ساعدةَ الإِيادىّ [٢] خطيب عُـكاظ . وأَكثَم بن صيفيّ زعيم الخطباء الذين أوفدهم النعمان ـ فيما يقال ـ على كسرى : وهم (أكثَم بن صيفي وحاجب [٣] بن زُرارةَ التميميَّان ، والحارث بن عُبَاد [٤] وقيس بن مسعود [٥] البكريان ، وخالد بن جعفر [٦] ، وعلقمة بن عُلَاثة [٧] ، وعامر بن الطُّفَيل [٨] العامريون ، وعمرو بن الشَّريد السُلَمى [٩] ، وعمرو بن مَعْدِ يكرب الزُّبيدى [١٠] ، والحارث بن ظالم المُرّى [١١])

تراجم مختصرة للخطباء

(١) يوم الفجار حرب كانت بين قريش وهوازن حضرها النبي صلى الله عليه وسلم وكان عمره أربع عشرة سنة ، وسميت كذلك لانها كانت في الاشهر الحرم (٢) ستأتى ترجمة قس وأكثم

(٣) سيد من سادات تميم ، وهو الذي وفد على كسرى حين منع تميما من ريف العراق حتى أصابهم القحط ، وأعجب به ومنحه مطالبه ، وتعهد له حاجب بحسن الجوار ، ورهن عنده قوسه على ذلك فقبلها منه ، وبقيت عند كسرى حتى أخذها ابن حاجب ثم بيعت بعد بأربعة آلاف درهم

(٤) كغراب كان خطيبا مؤثراً ، وشاعراً بليغا ، وله عمل جليل فى الحرب التى نشبت بين بكر وتغلب لمقتل كليب بعد أن اعتزلها ، وله فيها قصيدة مشهورة منها :

قربا مربط النعامة منى   لقحت حرب وائل عن حيال

(٥) هو قيس بن مسعود بن خالد بن ذى الجدين ، كان كريما عالى الهمة من أفضل العرب حسباً ونسباً وكانت تقر له القبائل كلها بذلك بل هي وكسرى أيضاً ، وكان له حظيرة فيها مائة من الابل لأضيافه اذا نحرت ناقة قيدت أخرى مكانها (٦) سيد من سادات بنى عامر ، خلص قومه من العبودية لغطفان بعد أن قتل سيدها زهير بن جذيمة (٧) خطيب بليغ اشتهر فى قومه بالعفة والمحافظة على الجوار والعقل الراجح والحسب الواضح (٨) هو ابن عم لبيد الصحابى شاعر متين ، وفارس من أشهر فرسان العرب نجدة ، وأبعدهم اسما ، ولقد بلغ من شهرته أن قيصر كان اذا قدم عليه قادم من العرب قال ما بينك وبين عامر فان كانت بينه وبينه رحم واشجة ، قربه وأكرمه

(٩) وهو أبو السيدة تماضر الخنساء يميل الى الفخر والصراحة فى القول ولقد بلغ من تغاليه فى ذلك انه كان يأخذ ابنيه معاوية وصخرا فى المواسم العامة ويقول أنا أبو خيرى مضر فمن انكر فليغير فلايغير ذلك عليه أحد (١٠) خطيب شاعر ، وفارس قاهر ، وصحابى جليل ، شهد اليرموك والقادسية وأبلى فيهما البلاء الحسن على كبر فى سنه وضعف فى جسمه وستأتى ترجمته فى المخضرمين

(١١) كان شجاعا فاتكا ، وخطيبا شاعراً ، يميل الى معاقرة الخمر . وهو الذى قتل خالد بن جعفر غيلة لقتله أباه وكثيراً من قومه

نماذج من الخطب والوصايا

قال هانئ بن قَبيصة الشَّيْباني لقومه في يوم ذي قار وهو يحرضهم :

يامعشر بكر : هالك معذور ، خير من ناج فرور ، ان الحذر لايُنْجي من القدر ، وأن الصبر من أسباب الظفر . المنيه ، ولا الدنيه . استقبال الموت خير من استِدْبَاره . الطعن في ثُغَر[1] النحور ، أكرمُ منه في الأعجاز والظهور . ياآل بكر قاتلوا فما للمنايا من بدٍّ

وخطب مرثد الخير أحد أقيال حمير في الصلح بين سُبيع بن الحارث أخي ذي جَدَن ومِيثم بن مثوب بن ذي رُعَين حين تنازعا الشرف وتشاحنا حتى خيف أن يقع بين حييهما شر فيتفانى جذماها[2] فقال :

ان التخبط[3] وامتطاءَ الهَجاج[4] ، واستحقاب اللَّجاج[5] ، سيَقِفُكما على شَفا هوَّة[6] في تورُّدها بوار الأصيلة[7] ، وانقطاع الوَسيلة . فتلافيا أمركما قبل انتكاث[8] العهد ، وانحلال العقد ، وتشتُّت الألفه ، وتباين السُّهمه[9] ، وأنتما في فُسحة رافهه[10] ، وقدم واطِده[11] ، والمودة مُثْريه[12] ، والبُقيا مُعرضه[13] ، فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب ممن عصى النصيح ، وخالف الرشيد ، وأصغى الى التقاطع ، ورأيتم ما آلت اليه عواقب سوء سعيهم ، وكيف كان صَيُّور[14] أمورهم ، فتلافَوُا القَرحة[15] قبل تفاقم الثَّأى[16] ، واستفحال[17] الداء ، واعواز الدواء ، فانه اذا سُفكت الدماء ، استحكمت الشَّحناء ، واذا استحكمت الشحناء ، تقضبت[18] عُرى الإِبقاء ، وشمِل البلاء

---

(١) جمع ثغرة وهي نقرة النحر بين الترقوتين (٢) اصلاهما (٣) السير على غير هدى (٤) أي ركوب الرأس وعدم التروي (٥) والاحتزام بالخصومة أي التمسك بها (٦) حافة حفرة (٧) هلاك الاصل (٨) انتقاض (٩) القرابة (١٠) ناعمة (١١) ثابتة (١٢) متصله (١٣) ممكنة (١٤) عاقبة (١٥) أي الجرح (١٦) الافساد (١٧) اشتداده (١٨) تقطعت

ومن منافرة عامر بن الطفَيل مع علقمة بن عُلاثة :

قال علقمة — الرياسة لجدى الأحوص ، وانما صارت الى عمك أبى بَراء من أجله ، وقد استسنّ(١) عمك وقعد عنها فأنا أولى بها منك ، وان شئت نافرتك. قال عامر: قدشئت ، والله لأ نا أشرف منك حسَبَاً ، وأثبت منك نَسباً ، وأطول قَصَباً (٢) قال علقمة : أنافرك : وانى لَبَرٌّ وانك لفاجر ، وانى لوَلود وانك لعاقر ، وانى لوافٍ وانك لغادر . قال عامر : انافرك : وانى أنشَر منك أُمَّة (٣)، وأطول قِمَّة ، وأحسن لِمَّة (٤) ، وأجعد جُمَّة (٥) ، وأبعد همة . قال علقمة : أنا جميل وأنت قبيح ، ولكن أَنافرك ، أنا أولى بالخيرات منك . فخرجت أم عامر وقالت نافره : أيكما أولى بالخيرات ؟ ففعلوا على مائة من الإبل وحكّموا هرِ ما الفَزاريّ فلم يفضل أحدهما على الآخر حتى لا تكون فتنة بين الحيّين.

وخطب أبو طالب حين تزوج النبي صلى الله عليه وسلم السيدةَ خديجة

الحمدُ للهِ الذى جعلنا من ذرية ِ ابراهيم ، وزَرع اسماعيل ، وجعلَ لنا بلداً حراماً وبيتاً محجوجاً ، وجَعلنا الحكام على الناس . ثم إن محمدَ بنَ عبدِ الله ابن أخى مَن لا يُوازَنُ به فتىً من قريش ِ الاَّ رَجَحَ (٦) عليه برًّا وفضلاً ، وكرماً وعقلاً ، ومجداً ونُبلاً (٧) ، وان كانَ فى المال قُلّ (٨) فانما المالُ ظِلٌّ زائل ، وعاريةٌ (٩) مسترجَعَة ، وله فى خديجةَ بنتِ خُوَيلِدٍ رَغْبة ، ولها فيه مِثلُ ذلك ، وما أَحبَبْتم من الصداقِ (١٠) فعليّ

لما احتُضِر ذو الأُصْبَع العَدْوانى دعا ابنهَ أُسيداً ليوصّيه فقال :

يا بُنَيَّ ان أباك قد فنِيَ وهو حىّ ، وعاش حتى سَئِم العيش ، وانى مُوصيك بما

---

(١) كبرت سنه (٢) القصب عظام اليدين والرجلين ونحوهما والمراد طول قامته (٣) أى أكثر قوما (٤) اللمة الشعر المتجاوز شحمة الاذن (٥) مجتمع شعر الرأس
(٦) فاق (٧) ذكاء ونجابة (٨) قلة (٩) ما تداوله الناس بينهم (١٠) المهر

ان حفظتَهُ بلغتَ في قومك ما بلغتُه ، فاحفظ عني : أَلِن جانبَك لقومك يُحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثِر عليهم [1] بشيء يسوّدوك ، وأكرم صغارَهم كما تكرمُ كبارَهم ، يكرمْك كبارُهم ، ويَكبَرْ على مودتك صغارُهم ، واسمح بمالك ، واحم حريمك وأعزِز جارك ، وأَعِنْ من استعان بك ، وأكرمْ ضيفَك ، وأسرع النهضة في الصَّريخ [2] ، فان لك أجلاً لا يَعدوك ، وصُن وجهَك عن مسألةِ أحدٍ شيئاً فبذلك يتم سُؤْدُدُك

وقال مَرْوانُ بنُ زِنباعٍ العبسيُ :

يا بني عبس ! احفظوا عني ثلاثا : اعلموا أنه لم يَنْقُل أحد اليكم حديثاً الاَّ نقل عنكم مثله ، واياكم والتزويجَ في بيوتاتِ السوء ؛ فان له يوماً ناجثاً [3] واستكثروا من الصديق ما قدرتم ، واستقلوا من العدوّ فان استكثاره ممكن

قُسُّ بنُ ساعدةَ الايادىّ

هو خطيب العرب قاطبة ، والمضروبُ به المثلُ في البلاغةِ والحكمةِ والموعظة الحسنة . كان يدين بالتوحيد ، ويؤمن بالبعث ، ويدعو العربَ الى نبذِ العكوفِ على الاوثان [4] ويُرشدُهم الى عبادة الخالق ، ويَخْطُبهم بذلك في المحافل العامة ، ومواسم الاسواق ؛ ويقال انَّه أوَّل من خطب على شرَف ، وأول من قال في خطبه (أما بعد) وأول من اتكأ على سيف أو عصاً في خطابته ؛ وكان الناس يتحاكمون اليه فيقضي بينهم بسديد رأيه ، وصائب حكمه ، وهو القائل (البيّنة على من ادّعى ، واليمينُ على من أنكر) وكان قس يفد على قيصرَ ويزوره ، فقال له يوماً : ما أفضلُ العقل ؟ قال: معرفةُ المرءِ بنفسه ، قال: فما أفضلُ العلم ، قال: وقوف المرء عند علمه ، قال: فما أفضل المروءة ، قال: استبقاءُ الرجلِ ماءَ وجهه ، قال: فما أفضل المال ، قال: ماقُضي به الحقوق . وسمِعَهُ النبي صلى الله عليه وسلم قبلَ البعثة يخطبُ في عكاظ على جمل

(١) تختص بالحسن (٢) أى عند الصريخ وهو نداء المستغيث (٣) الناجث الحافر ، والنجيثة ما يخرج من تراب البئر يريد كاشفاً (٤) الاصنام

أورق (١) فعجب من حسن كلامه وأظهر من تصويبه ، وأثنى عليه ، وعمّر قسّ طويلاً ومات قبيل البعثة

وقد كان مهذّب الألفاظ ، قويّ التأثير ، بعيداً عن الحشو واللغو فى كلامه . وسجعه كما سترى تصير الفواصل ظاهر على مرسله

ومن خُطبه خطبته التى خطبها فى سوق عكاظ : وهى كما فى صبح الأعشى(٢)

أيها الناس . اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكلُّ ما هو آت آت . ليلٌ داج (٣) . ونهارٌ ساج (٤) . وسماءٌ ذاتُ أبراج (٥) . ونجوم تزهَر (٦) . وبحارٌ تزخَر (٧) وجبال مُرساة ، وأرض مُدحاة (٨) وأنهار مُجراة . ان فى السماء لخبرا (٩) ، وان فى الأرض لعبَرا ، ما بالُ الناس يذهبون ولا يرجعون ، ارضُوا فأقاموا ؟ ، أمْ تُرِكوا فناموا . يُقسم قُسٌّ بالله قسماً لا اثم فيه : إن لله ديناً هو أرضى لكم وأفضل من دينكم الذى أنتم عليه . انكم لتأتون من الأمر منكراً . ويروَى أن قسا أنشأ بعد ذلك يقول :

في الذاهبين الأوَّليـــ ـــن من القرون لنا بصائر (١٠)
لما رأيتُ مواردا للموت ليس لها مَصادِر (١١)
ورأيت قومِيَ نحوها تمضى : الأكابرَ والأصاغر
لا يرجع الماضى اليَّ م ولا من الباقين غابر (١٢)
أيقنت أنى لا محا لة حيث صار القوم صائر

(١) الاورق من الابل ما فى لونه بياض الى سواد (رمادى)
(٢) صفحة ٢١٢ من الجزء الاول طبعة سنة ١٣٣١ ﻫ بالمطبعة الأميرية
(٣) مظلم (٤) الساجى الساكن والدائم (٥) البرج واحد الابراج : وهي اثنا عشر برجا تقابلها الشمس فى طريقها طول السنة . والبرج صورة من مجموعة كواكب تشبه صورة حيوان أو غيره (٦) تضىء وتتلألأ (٧) تطمى وترتفع (٨) مدحوّة أي مبسوطة وانما جاءت على هذا الوزن لمشاكلة أخواتها فى اللفظ (٩) أى ان فى صنع السماء لدليلا على خالق عظيم (١٠) جمع بصيرة وهي العلم والخبرة (١١) ورد الماء أتاه ليشرب ، وصدر عنه شرب ورجع ، أى تذهب الناس للموت ولا تعود (١٢) مقيم

أكثم بن صيفى

هو من أبلغ حكماء العرب ، وأعرفها بانسابها ، وأكثرها ضربَ أمثال ، واصابة رأى ، وقوةَ حجة ؛ كان خطيباً مِصْقعاً [١] ، وحَكَماً مُوَفَّقاً ، رفيع المكانة فى قومه ، يُعدّ من أشرافهم ومن كبار المحكَّمين فيهم ؛ وقَلّ من جاراه من خطباء عصره فى معرفة الأنساب ، وضرب الأمثال ، والاهتداء لحل المشكلات ؛ والسَّداد فى الرأى ؛ وهو زعيم الخطباء الذين أوفدهم النعمان على كسرى ، وكلهم خطباء مصاقع ، ولسنٌ مقاول ؛ ولقد بلغ من اعجاب كسرى به أن قال له : لو لم يكن للعرب غيرك لكفى . وقد عُمّر طويلاً حتى أدرك مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، وجمع قومَه وحثّهم على الايمان به . وفى اسلامه رواياتٌ

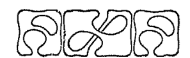
وكان فى خطبه قليل المجاز ، حسن الايجاز ، حلو الألفاظ ، دقيق المعانى ، مُولَعاً بالأمثال ، لا يلتزم السجع ؛ يميل الى الاقناع بالبرهان ، ويعتمد فى خطابته على قوة تأثيره وشدة عارضته [٢] لا على المبالغة والتهويل . ومن جيد خطبه خطبته أمام كسرى وهى :

ان أفضل الأشياء أعاليها . وأعلى الرجال ملوكهم ، وأفضل الملوك أعمّها نفعاً . وخيرُ الأزمنة أخصبُها . وأفضل الخطباء أصدقُها . الصدق مَنْجاه . والكذب مَهواه . والشرُّ لَجَاجه [٣] ، والحزم مركَب صعب . والعجز مركَب وَطِىء [٤] . آفة الرأى الهوى . والعجز مفتاح الفقر . وخير الأمور الصبر . حسنُ الظن وَرْطه [٥] ، وسوء الظن عِصْمَه . إصلاحُ فساد الرعيّة خير من اصلاح فساد الراعى . من فسدت بِطانته [٦] كان كالغاصّ بالماء [٧] . شر البلاد بلاد لا أمير بها . شر الملوك من خافه البرىء .

---

(١) المصقع البليغ أو العالى الصوت أو الذى لا يرتج عليه فى كلامه ولا يتتعتع (٢) البيان واللسن والجلد والصرامة والقدرة على الكلام (٣) اللجاج واللجاجة تماحك الخصمين وتماديهما أى ان أصل الشر اللجاجة (٤) سهل لين (٥) الورطة الهلكة وكل أمر تعسر النجاة منه (٦) أصحابه وأصدقاؤه (٧) الشرق بالماء

المرء يعجز لا المحالة [١] . أفضل الأولاد البَرَرَة . خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة . أحق الجنود بالنصر من حَسُنت سريرته . يكفيك من الزاد مابلّغك المَحلّ . حسبُك من شرٍ سماعُه . الصَّمتُ حُكْمٌ [٢] وقليل فاعله . البلاغة الايجاز . من شدَّد نفَّر ، ومن تراخى تألّف



(١) الحيلة (٢) الحكم : الحكمة ، ومنه قوله تعالى « وآتيناه الحكم صبياً » والمعنى ان استعمال الصمت حكمة وقل من يستعمله

الكتابة

يراد بالكتابة عند الادباء صناعة انشاء الكتب والرسائل ، واذ كانت الكتابة بهذا المعنى تؤدَّى بالنقوش المسماة بالخط ، ناسب أن نُشير هنا الى نشأة الخط العربيّ فنقول :

نشأة الخط العربى

أوّل حَلْقةٍ من سلسلة الخط العربيّ هى الخط المصرىّ القديم ، ومنه اشتُقّ الخط الفينيقىّ [١] ومن هذا اشتق الآرامىّ [٢] والمسندُ بأنواعه: الصَفَوىّ والثموديّ واللِّحيانىّ شمالىّ جزيرة العرب ، والحميرىّ جنوبيّها • ومن هنا اختلف رأى رواة العرب ورأى باحثى الافرنج ،

رأى الافرنج فيه

فيرى باحثو الافرنج أن قد تولّد من الخط الآرامىّ خطوط منها النبَطىّ [٣] والسريانىّ ؛ والاوّل يظهر فى حروفه الاتصال ، ومنه أخذ أهلُ الحيرة والأنبار خطّهم النسخىّ المنسوبَ اليهم ، ومنهما وصل الى أهل الحجاز • والثانى اشتق العرب من نوع منه (يسمى بالسَّطْرَنْجِيلى) خَطَّهم الكوفى

رأى العرب

أما رواة العرب قبل الاسلام و بعده فانهم يقولون : انهم أخذوا خطهم الحجازىّ عن أهل الحيرة والانبار ، وهما عن كِندة [٤] والنبط [٥] الناقلين من المسند . ونحن

أدلتهم

نرى رأيهم لأسباب : منها العثورُ على فروع من الخط المسند فى أراضى النبط وشماليها ، بعضها وهو الصفوى قريب الشبه جدًّا من أصله الفينيقى

---

(١) الفينيقيون سكان ارض كنعان وكانت على ساحل البحر الابيض بمحاذاة جبل لبنان

(٢) الآرام الامم السامية القديمة التى كانت تسكن شمالىّ بلاد العرب فى فلسطين والشام والعراق

(٣) مملكة الانباط كانت فى القرن الاول قبل الميلاد تتسع من شمالى الحجاز الى نواحى دمشق أى كانوا يملكون مدين وخليج العقبة والحجر وفلسطين وحوران

(٤) يعلم ذلك مما قاله ابن عباس حين سئل عن اصل الخط العربى . وخلاصته ان قريشا أخذته عن حرب بن أمية وهو عن عبد الله بن جدعان أو بشر بن عبد الملك اخي اكيدر صاحب دومة الجندل ، وهما من اهل الحيرة والانبار عن طارئ طرأ عليهم من اليمن من كندة

(٥) يعلم ذلك من رواية المسعودى وابن الكلبي وهي أن بني المحصن بن جندل بن يعصب بن مدين هم الذين نشروا الكتابة يريد النبط

ومنها وجود حروف الروادف وهى : ثخذ ضظغ فى الخط المسند دون الآرامى ، ومنها صريح الاجماع من رواة العرب على أن الخط العربى مأخوذ من الحيرى والأنبارى ، وهو مأخوذ من المسند على يد كندة والنبط

الكوفي

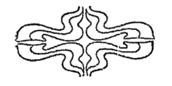
أما الكوفى الذى لم يعرف إلاّ بعد تمصير الكوفة فليس إلاّ نتيجة هندسةٍ ونظام فى الخط الحجازى . ولعل شبهة الافرنج آتية من شيوع استعمال السطرنجيلى والكوفى فى الكتابة الجَلِيّة على المعابد والمساجد والقصور وما شاكلها ، مع شدّة تشابه ما فيهما من الزخرفة والزينة

سلسلة الخط العربى على رأى الافرنج

- المصرى
  - الفينيقى
    - المسند
    - الآرامى
      - السريانى
        - السطرنجيلى
          - الكوفي
      - النبطي
        - الحيرى والانبارى
          - الحجازى (النسخى)

سلسلة الخط العربى على رأى رواة العرب

- المصرى
  - الفينيقى
    - الآرامى
    - المسند
      - الصفوى ـ الثمودي ـ اللحيانى ـ الحميرى
        - الكندى والنبطي
          - الحيرى والانبارى
            - الحجازى
              - الكوفى



وهاك جدولا يبين لك نشأة هذه الخطوط المختلفة على رأى العرب :

نسخ عادى	حيرى وانباري	كندي ونبطي	مسند وآرامى	فينيق	مصرى للعامة
ا					
ب					
ج					
د					
ه					
و					
ز					
ح					
ط					
ى					
ك					
ل					
م					
ن					
س					
ع					
ف					
ص					
ق					
ر					
ش					
ت					

كتابة الرسائل والفنون استعمالها فى الشمال و الجنوب

أما الكتابة بمعنى انشاء الكتب والرسائل ، فهى لازمة لكل أمة متحضرة ذات دولة منظَّمة ، ودواوين متعدّدة ، وصناعات متنوّعة ، وتجارة رائجة ، وزراعة نامية ، وفنون مختلفة ؛ وقد كان بعض ذلك موفوراً فى ممالك التبابعة جنوباً ، ومأثوراً عن ممالك المناذرة والغساسنة شمالا : ولذلك استعمل الخط المسند الحميرى عند الأوّلين من عهد مديد ، والأنبارى الحيرىّ عند الآخرين . وانما لم يصل الينا شىء من رسائل تلك الأمم ولا من كتب فنونها ودينها غير ما عُـثر عليه في بقايا خرائبهم وسدود مياههم وبعض دفائن الأحجار والقبور : لتقادم عهد أهلها وعدم استكمال البحث بعد فى بلادها . ولعل الزمان يُعثِرنا على شىء منها

كتاب الجاهلية

ولم يعرّفنا التاريخ أيضاً بأحد من كتاب هـذه الصناعة الاّ بلَقِيط بن يعمر الايادى وعَدِىّ بن زيد العِبادىّ[1] وابنه ، وكانوا كتاباً وتراجمة عند كسرى

جهل الكتابة فى البدو

أما البدو من سكان أواسط الجزيرة وهم جمهور مضرَ وبعضُ القحطانيين فكانوا أميين . ومن المعقول أنهم لم يعرفوا الكتابة الانشائية الاّ بعـد أن عرفوا الخط آخرَ عصور الجاهلية ، وهو ما نقل عنهم فيه أنهم كانوا يكتبون فى بدء رسائلهم باسمك اللهمَّ ، ومن فلان الى فلان ، وأما بعد[2] . ولم تقم لهم دولة بالمعنى السابق الا بقيام الاسلام فهو الذى أفشى فيهم الخط والكتابة

كتابة التدوين والتصنيف

ولما كانت علوم كل أمة — وخاصة اللسانية منها — لها الأثر العظيم فى تكوين فكر الأديب وخيال الشاعر ، والبلاء الحسن في تقويم اللسان ، وتوفير مادّة اللغة ، وكانت كتابتها قسما قائماً بنفسه يسمى كتابة التدوين [3] والتصنيف [4] — ناسب أن تُعرَّف موضوعاتها ويُؤتى على خلاصة نشأتها فى تاريخ الأدب

---

(١) نسبة الى عباد وهم قبائل شتى من العرب اجتمعوا على النصرانية بالحيرة

(٢) وقد عثرنا على وصية مطولة كتب بها اكثم الى طيء

(٣) تدوين الكتاب جعله ديواناً ، والديوان مجتمع الصحف ، والكتاب والدفتر ما يكتب فيه

(٤) تصنيف الاشياء جعلها صنوفا ، وتمييز بعضها من بعض ، ومنه تصنيف الكتب أى لانه جمع كل طائفة متشابهة من المسائل فى باب ، فالتدوين أعم من التصنيف

﴿ علوم العرب وفنونها ﴾

العلومُ والصناعاتُ لازمةٌ لحضارة الأُمم ، متناسبةٌ معها ؛ ومن العرب أهلُ حضارة دلت عليها دولهم العظيمة ، وقِدَمُ تاريخهم ، وآثارُهم الخالدةُ ، وهم التبابعة في اليمن والمناذرةُ والغساسنة في الشمال ، وإذاً تكون هندسة إرواء الأرض وعِمارة المدن ، والحساب ، والطّبُّ ، والبَيْطَرَةُ ، والزراعةُ ونحوُها معروفةً في الجنوب والشمال ، مدوّنة في الكتب ، وان لم يحفظ لنا الدهرُ صوراً منها . أما البدوُ منهم وان كانوا أمّيين ، يمقتُون الصناعاتِ ويتنقصُون أهلها فلا غنًى لهم عن تجربة ترشدهم الى ما ينفعُهم في بواديهم المقفرة ، ومجاهلهم الطامسة : ليعلموا ما به تصح أنفسهم وأنعامهم ، وتُستطلَع خفايا أمورهم ، وتُدوّن فيه مفاخرهم ؛ وليعرفوا متى تجودُ السماء . وبمَ يتميز الأقرباء من البعداء ، فكسبهم ذلك علم النجوم ، والطب الضروريّ ، والأنساب والأخبار ، ووصف الأرض ، والفِراسة ، والعِيافة ، والقيافة ، والكِهانة ، والعِرافة ، والزجر ، وقرض الشعر

علم النجوم

علم النجوم — هو معرفة أحوال الكواكب : من طلوعها ، وغروبها ، وألوانها ، وأنوائها ، ومَواضعها ، وقِرانها ، وصورِ أفرادها وجماعاتها ؛ وما يرتبط بها : من حرّ وبَرد ، وأمطار ورياح ، واعتدال زمان ، ونتاج حيوان ، الى غير ذلك : مما تمس اليه حاجتُهم ، وتدعو اليه ضرورتهم . وقد كانوا أبرع في هذا العلم منهم في كل علم سواه ، تعرفه عامتهم [1] قبل خاصتهم : للاهتداء به في ظلمات البر والبحر ، ومعرفة أزمنة الخِصب والمحْل ، وبعضُ معارفهم فيه مستمدّ من الكَلْدَان:

---

(١) قال الاصمعى : كان شيخ من الاعراب في خبائه وابنة له بالفناء اذ سمع رعداً فقال ماترين يابنية قالت أراها حوّاء قرحاء ، كأنها أقراب أتان قمراء ، ثم سمع راعدة أخرى فقال كيف ترينها ؟ قالت أراها جمة الارجاف ، متساقطة الاكناف ، تتألق بالبرق الولاف . قال هلمى المغرفة انتشى نؤيا

لاختلاطهم بهم ، ولاتفاق اللغتين فى بعض أسماء الكواكب والبروج ؛ ومن أشهرهم فيه بنو حارثة بن كلب ، وبنو مرّة بن همام الشيبانى.

الطب والبيطرة

الطب الانسانى والحيوانى (البيطرة) — وقدعاناه من العرب كثيرون اكتسبوه بحذقهم وتجاربهم ومما نقلوه عن غيرهم ، يدل لذلك كثرة ماتجده فى لغتهم من أسماء الأمراض ، والأدوية ، وأسماء الأعضاء الباطنة والظاهرة وأوصافها المختلفة وأجزائها الدقيقة ، وكانوا يعالجون بالعقاقير[1] تارة ، وبالعزائم والرُّقى[2] أخرى ، وأطواراً يستعملون الحجامة[3] والكىّ بالنار . ومن أمثالهم (آخر الدواء الكىّ) . ومن مشهوريهم الحارث بن كَلَدَة الثَّقفِىّ وابن حِذْيَم التَّيْمِىّ

الانساب

الانساب — علم تُعَرَّف به القرابات التى بين بعض القبائل وبعض فتلحق فروعها بأصولها . وانما دعاهم الى العناية به حاجتُهم الى التناصر بالعصبية : لكثرة حروبهم ، وتفرُّق قبائلهم وأنفتهم من أن يكون لغريب عنهم سلطانٌ عليهم ، وحبِّهم الافتخارَ بأسلافهم ، ولذلك كانوا يحفظون أنسابهم ، ويُرَوُّونها أبناءهم ، ويحافظون عليها جهدَهم . وممن اشتهر بمعرفة أنساب العرب دَغْفَل بن حنظلة الشّيبانى وزيدُ بنُ الكَيِّس النَّمَرِى ، وابن لسان الُحمَّرة

الاخبار والتاريخ

الاخبار والتاريخ والقصص — هى معرفة أحوال السابقين ، وكانوا يعرفون منها ما كان عليه أسلافهم وبعض مجاوريهم من الأحوال المأثورة ، ووقائع أيامهم المشهورة ، وهى كغيرها من أخبار الأُمم القديمة بعضها صحيح وبعضها حديثُ خُرافة. وقد جاءنا منها شىء ليس بالقليل فى شعرهم ونثرهم وأمثالهم : كقصة الفيل ، وحرب

---

(١) جمع عقار ككتان وعقير كسكيت مايتداوى به من نبات وغيره

(٢) العزائم جمع عزيمة من عزم الراقى على الداء والجن والارواح كأنه أقسم عليها ، والرقى جمع رقية وهى مايتلوه الشخص فى ذلك

(٣) صناعة الحجام ، والحجم مص الدم من المريض باداة تسمى المحجم

داحس والغبراء ، وحرب البسوس[(١)] ، ويوم ذى قار [(٢)] ، وحرب الفِجار

وصف الارض — هو معرفة كل بقعة وما يجاورها وكيفَ يهتدى اليها .
ومن قرأ شعر العرب فى نسيبهم ، واطلع على وصف أطلالهم [(٣)] ودِمَنهم [(٤)] ومصايفهم ومرابعهم ، وكيف كانوا يحدّون الحقير منها بحـدود قلَّما تُحَدّ بها مملكة عظيمة ـ عرف شدّة حِذقهم بمعرفة بلادهم ، مما كان له الفائدة الجُلّى فى إمداد علم وصف الأرض (الجغرافية) بمواضع بلادهم وطبائعها

الفراسة — هى الاستدلال بهيئة الانسان وشكله ولونه وقوله على أخلاقه وفضائله ورذائله . وقد نبغ فيها من العرب من لا يحصى عددهم ، ولهم فى ذلك نوادر شتّى [(٥)]

القيافة — ضرب من الفراسة منشؤه قوة الخيال والحافظة والذكاء : وهى الاهتداء بآثار الأقدام على أربابها ، أو الاستدلال بهيئة الانسان وأعضائه على نَسَبه ، وربما خصوا النوع الأول باسم العيافة ؛ وللعرب فى ذلك أمور تكاد تدخل فى عداد

---

(١) هى حرب دامت بين بكر وتغلب أربعين سنة ، وسببها أن رجلا من قبيلة جرم نزل ضيفا على البسوس التميمية خالة جساس بن مرة البكرى ، وللجرمى ناقة أخذت ترعى مع ابل كليب سيد تغلب ، وكان جباراً يحمى أرضه أن ترعى فيها ابل غيره ، فبصر بناقة الجرمى بين ابله فرماها بسهم فى ضرعها فوات تصيح الى فناء صاحبها ، فاستغاث بأم مثواه البسوس فصاحت : واذلاه ، فانتهز جساس غرة من كليب وقتله غيلة ، فنشبت الحرب بين القبيلتين

(٢) موضع بقرب الكوفة كان به يوم لبنى شيبان وعجل على الفرس ، وهو أول يوم انتصف فيه العرب من العجم

(٣) الطلل الشاخص من الآثار (٤) الدمن جمع دمنة وهى آثار الناس وما سودوه بالرماد والسرجين (٥) منها أن أولاد نزار ذهبوا الى الافعى الجرهمى ليحكم بينهم فى ميراث أبيهم وبينما هم فى الطريق اذ رأى مضر كلأ قد رعى فقال ان البعير الذى رعى هذا أعور ، فقال ربيعة هو أزور ، وقال اياد هو ابتر ، وقال أنمار هو شرود وبعد قليل لقيهم رجل ينشد بعيره فوصفوه كما تفرسوا فتعلق بهم وذهبوا الى الافعى الجرهمى فقال كيف وصفتموه ولم تروه ، فقال مضر رأيته يرعى جانبا ويترك آخر فعرفت أنه أعور ، وقال ربيعة رأيت احدى يديه ثابتة الاثر والاخرى فاسدته فعرفت أنه أزور ، وقال اياد رأيت بعره مجتمعا فعرفت أنه ابتر ، وقال أنمار رأيته يرعى المكان الملتف ثم يجوزه الى غيره فعرفت أنه شرود . فقال الجرهمى لصاحب البعير اطلب بعيرك من غيرهم . ثم قال لهم أتحتاجون الىّ وانتم كما أرى ؟

المستحيلات، فقد كانوا يميزون بين أثر الرجل والمرأة ، والشيخ والشاب ، والاعمى والبصير ، والاحمق والكيّس ، واذا نظروا عدة أشخاص ألحقوا الابن بأبيه والاخ بأخيه ، والقريب بقريبه ، وعرفوا الاجنبي من بينهم — وممن اشتهر بالقيافة بنو مُدْلِج [١] ، وبنو لِهْب [٢] . ولا يزال هذا العلم باقياً عند عرب البوادى الى الآن

الكهانة والعرافة

الكهانة والعرافة — وهما القضاء بالغيب ، وربما خُصَّت الكهانة بالأمور المستقبلة والعرافة بالماضية ، وطريقتهم فى ذلك الاستدلال ببعض الحوادث الخالية على الحوادث الآتية : لما بينهما من المشابهة الخفية ، أو المناسبة البعيدة ، أو الارتباط الدقيق ، ويحتاج صاحبها الى كثرة التجارب وحدّة الذكاء وصدق الفِراسة

وللعرب فى الكهّان اعتقاد عريض : لزعمهم أنهم يعلمون الغيبَ ، فيرفعون اليهم امورهم للاستشارة ، ويستقضونهم فى الخصومة ، ويستفسرونهم عن الرُّؤَى ، ويستطبُّونهم فى أمراضهم . وممن اشتهر من الكهان شِقٌّ أنمار وسَطِيح الذئبى ، ومن الكواهن طريفةُ [٣] الخير ، وسلمى [٤] الهمْدانية ، ومن العرّافين عرّاف نجد : الأبلقُ الأسدى ، وعرّاف اليمامة : رَباح بن عَجلة ·

الزجر

الزجر — وهو الاستدلال بأصوات الحيوان وحركاته وسائر أحواله على الحوادث بقوة الخيال والاسترسال فيه . ومن أشهر الزجّارين بنو لِهب وأبو ذؤيب الهُذَلىُّ ومُرة الأسدى

ومن العرب من لم يعبأ بالزجر وما شاكله كالمرقّش الشاعر ولَبيد بن ربيعة ، ومن قوله فى ذلك :

لعَمْرك ما تدرى الطوارقُ [٥] بالحصَى ولا زاجراتُ الطيرِ ما اللهُ صانع

---

(١) قبيلة من كنانة (٢) بطن من الازد (٣) زوج عمرو بن عامر مزيقياء : احد ملوك اليمن (٤) بنت سيد همدان (٥) الطرق بالحصى هو ضرب الحصى بعضه ببعض والقاؤه للنظر فيه كما يفعل بعض النساء بالودع

النظم

الشعر والشعراء

﴿ الشعر ﴾

النظم هو القسم الثانى من قسمى الكلام . وعرَّفه العَرُوضيون بأنهُ الكلام الموزون المقفَّى قصداً ، ويرادفه الشعر عندهم . أما المحققون من الأدباء فيخُصُّون الشعر بأنهُ الكلام الفصيح الموزون المقفى المعبّر غالباً [١] عن صور الخيال البديع .

الشعر عند العرب

واذ كان الخيال أغلب مادَّته أطلق بعض [٢] العرب تجوّزاً [٣] لفظ الشعر على كل كلام تضمَّن خيالاً ولو لم يكن موزوناً مقفًّى . وهو يوافق رأيَ قدماء الافرنْج ومُحْدَثيهم فى شعرهم ، ورأيَ المناطقة أيضاً : لأن المنطق مستمدّ من اليونان . [٤]

تأثير الشعر

وبجَرْيه وَفق النظام الممثَّل فى صورة الوزن والتقفيه ، وظهوره فى حُلل الخيال الرائع ، كان تأثيره فى النفس من قَبيل إثارة الوِجْدان والشُّعور ، بَسْطاً وقبضاً وترغيباً وترهيباً ، لا من قبيل إقناع الفكر بالحجة الدامغة ، والبرهان العقلىّ . ولذلك يجمُلُ أثره فى إثارة العواطف وتصوير أحوال النفس ، لافى الحقائق النظرية . ولاريب أن النفس ترتاع بصور المحسوس الباهر [٥] وما انتُزِع منه من الخيال الجلىّ [٦] لخفة

---

(١) وقد يعبر به عن الحقائق الثابتة من غير مدخل للخيال فيها كأبيات الحكم والمواعظ والامثال

(٢) فقد قال حسان لابنه (شعر ورب الكعبة) حينما سمعه يصف الحيوان الذي لسعه بقوله: « كأنه ملتف فى بردى حبرة » ومن هذا تسمية بعض علماء الادب عندنا النثر المسجوع المعتمد على الخيال من مثل مقامات الهمذانى والحريرى ، ورسائل القاضى الفاضل ، ونسيم الصبا شعراً منثوراً . واما تسمية بعض المعاندين من كفار العرب القرآن شعراً والنبي شاعراً ، فذلك من باب العناد أو الحيرة والدهشة : لانهم كما سموه شعراً سموه سحراً وكهانة وقصصاً لأساطير الاولين

(٣) من باب اطلاق الجزء على الكل (٤) ومن هنا يظهر وجه شبهة بعض كتاب عصرنا ممن درس أدب لغة الافرنج فى خلطهم بين مذهب القوم ومذهب العرب فى الشعر الحقيقي (٥) يبهره غلبه اما بقوته وشدّته واما بحسنه وجماله (٦) أى فى الحسن أو القبح

مئونته عليها ، وإراحته لها من المعاناة والكدّ ، فكيف اذا انضم الى ذلك نغمُ الوزن والقافية الشديد الشبه بتأثير الإيقاع (١) والتَّلْحين (٢) الذى يَطْرَبُ له الحيوانُ بَلْهَ الانسان.

سبب انطباع العرب على الشعر

والعرب بفطرتهم مطبوعون على الشعر : لبداوتهم ، وملاءمة بيئتهم لتربية الخيال ؛ فالبدوىّ لحرّيته واستقلاله بأمر نفسه ، وعدم خضوعه لسيطرة مُذِلَّة ، أو لقوانين نظرية ، أو سلطانٍ قاهر ، يغلِبُ على أحكامه الوِجدانُ ، ويُسْلَكُ اليه من طريق الشعور ؛ ومعيشته فوق أرض نقية التُّرْبة ، مبسوطة الرُّقعة ، مَجْلُوَّة الآفاق ، وفيرة الوَحْش والطير ، وفى جوّ صحيح الهواء ، وتحت سماء صافية الأديم ، ساطعة الكواكب ، ضاحيةِ الشمس ، سافرةِ البدر ، جَلَت لحِسّه مناظرَ الوجود ، وعوالمَ الشُّهود ، فكان لخياله من ذلك مادةٌ لا يغور ماؤها ، ولا يَنْضُب مَعينُها ، فهام بها فى كل واد ، وأفاض (٣) منها الى كل مراد ؛ وكان له من لغته وفصاحةِ لسانه أقوى ساعد ، وأكبر معاضد

مرتبة الشعر فى الوجود

ويَشْعُر الانسان بطبعه أن الشعر متأخر فى الوجود عن النثر ضرورةَ تأخر المقيَّد عن المطلق . وان كانت واسطةٌ بين النثر المرسل والشعر ، فليست الا السجع : لما فيه من معادلة الفِقَر ، والتزام القافية ، والميل الى التغنّى به ، كما يشاهدُ ذلك فى صِغار الصبيان ؛ فيظن أن مُتغنّياً بسجع وقع له سجعتان متوازنتان وزناً سهلاً (قيل إنهُ الرَّجز) فأعجبه ذلك ومضى فيه ، وتمّت له قطعة من الشعر ، راقتْ مَنْ سَمِعها ، وحاكَوْه فيها ، وتغنَّوْا بها ؛ فكان من ذلك المقطعات (٤) والأراجيز الصغيرة ، يَحْدُون بها الابل ، ويُعَدِّدون بها المكارم . ثم لما تمت ملكة الشعر فيهم ، واتسعت أغراضهُ أمامهم ، نوّعوا الأوزان وأطالوا القوافى ، وقصَّدوا القصيد

اختراع الشعر

اولية الشعر

ولبعد العهد بقدماء الحضر من العرب ، ومكان الأمية من بَدْوهم ، خفى علينا

(١) الايقاع تبيين الالحان وضبط نسبها (٢) التلحين الصوت المصنوع بكيفية خاصة
(٣) اندفع وأسرع (٤) المقطعة ما دون القصيدة من الابيات ، والقصيدة على أرجح الاقوال ما بنيت من سبعة أبيات فصاعدا

– كأكثر الأمم – مبدأ قول الشعر، وأولُ من قاله ، بل لم يبلغنا مما قيل منهُ في تلك العصور الغابرة والقرون الطويلة الخالية شيء ، حتى كان منتصفُ القرن الثانى قبل الهجرة ، فرُوِىَ لنا منهُ قُلٌّ من كُثْر أدركه رواة اللغة وَدَوَّنوه قبل أن يَبِيد كما باد سلفُه . أما مانسب من الشعر الى آدم[١] وابليس[٢] والملائكة[٣] والجن[٤] والعرب البائدة[٥] ، فهو حديث خرافة مدسوسٌ على أهل الغفلة من الرواة : لسخافة نَسْجه، وركاكة[٦] لفظه ، وبذاذة[٧] معناه ؛ ولأن لغة هؤلاء غيرُ لغة مضر المنظوم بها هذا الشعر ، وانما ساقهم الى ذلك ما رأوْه فى طبائع الناس من ميلهم الى معرفة المجهول ، وشَغفهم بالغريب ، واسترسالهم فى الخيال

بدء الشعر الصحيح

والشعر الذى صحت روايته منذ أواسط القرن الثاني قبل الهجرة ينتهى أقدمُ مُطوَّلاته الى مُهلهِل بن ربيعة ، وأقدم مقطَّعاته الى نفر لعلهم لم يبعدوا عنهُ طويلا ، مثل العَنْبر بن عمرو بن تميم ، ودُوَيد بن زيد بن نَهْد – واعْصُر بن سعد بن قيس عَيلان ، وزهَير بن جَنَاب الكلبي ، والأفوه الأَوْدى ، وأبى دُوَاد الإِيادى

تقصيد القصائد

وقد رووا أنهُ لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلاَّ الأبياتُ يقولها الرجل فى حاجته ، وأن أول من قصَّد القصائد وذكر الوقائع المهلهلُ بن ربيعة التَّغْلبى فى قتل أخيه كليب ؛ فهو أوَّل من رُوِيت له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً ، وتبعهُ الشعراء : مثل

تدرج الشعر

امرئ القيس ، وعَلْقَمة ، وعَبِيد : ممن أخرجوا لنا الشعر العربىّ فى صورته الحاضرة. والمعقول أن هذه الصورة لم تتشكَّل طَفْرَةً : فى تنوّع الأوزان ، وطول القوافى ، وتعدّد الأغراض واختلاف الأساليب ، وبراعة الاستعارة ، وَرَوْعة التشبيه ، ودقة الكناية ، على يد مهلهل وامرئ القيس وطرَفة وأمثالهم ، بل لا بدَّ من أن يكون

---

(١) كالقطعة التى أولها : تغيرت البلاد ومن عليها — فوجه الارض مغبر قبيح
(٢) » » » تنح عن البلاد وساكنيها — ففى الفردوس ضاق بك الفسيح
(٣) كقولهم : لدوا للموت وابنوا للخراب — فكلكم يصير الى الذهاب
(٤) » الخير ابقى وان طال الزمان به — والشر أخبث ما أوعيت من زاد
(٥) وقال مرثد بن سعد : زعموا أنه من اصحاب هود :
عصت عاد رسولهم فأمسوا — عطاشا ما تبلهم السماء
(٦) ضعف (٧) البذاذة سوء الحال ورثاثة الهيئة

هؤلاء قد سُبقوا بأقوام نقلوا الشعر من السجع الى الرجز ، ومن المقطعات الى القصائد ، وقالوه فى غرض واحد ، ثم فى أغراض شتّى ، وهذّبوه ورقّقوه ، وجوّدوه وهلهلوه[1] ، قبل مُهلْهِل ببضعة قرون ، يشهد لهذا قول امرىء القيس فى شعره :

عُوجَا على الطلل المَحِيل[2] لَأنَّنا[3] نبكى الديارَ كما بكى ابنُ خِذَام[4]

وقول عنترة :

هل غادر الشعراء من مُتَرَدَّم[5] أم هل عرفت الدار بعد توهّم

وقول زهير :

ما أُرانا نقول إلاّ مُعارا أو مُعاداً من لفظنا مكْرُورا

يشير الأول الى أن ابنَ خِذَام وهو رجل من طيء بكى الديار قبله ، ولم يرْوِ الأئمة له شيئاً ، ولا سمعوا عنهُ تنويهاً فى غير هذا البيت ؛ ويعُدُّ الثانى نفسه مُحْدَثاً قد أدرك الشعر بعد أن فرغ الناسُ منهُ ولم يغادروا له شيئاً ، وهو (كما يقولون) ممن عاشر امرأ القيس ؛ ويشير زهير الى أن كثيراً من أقوال الشعراء مستعار من غيرهم

كثرة الشعر المروى

ومع قصَر عهد الشعر الجاهلىّ المروىّ لنا الذى لم يطل أجله الي أكثر من قرن ونصف ، وموتِ الكثير من حفظته فى المغازى والفتوح الاسلامية ، ألمَّ الأئمة فيه بشعر كثير من الشعراء حتى قيل ان بعضهم[6] كان يحفظ عشراتِ الألوف من قصائده وأراجيزه ، مما لم يؤثرْ عن أمة من الأمم (فيما نعلم)

سبب اكثار العرب من قول الشعر

وما أربى العربُ على غيرهم فى قول الشعر الاّ لأنهم قوم أميون ، لم يرجعوا فى تدوين حكمتهم ، وتخليد مآثرهم ، الى رَقْمٍ فى رَقّ ، أو نقرٍ فى حجر ، فكسبهم ذلك التأنّقَ فى الكلام ، وجودة الحفظ ، ومُعاناة الرواية ؛ ولا تتمثّل هذه الأمور فى أمثل من الشعر ، فاتخذوه كما قال الجُمحِيُّ « ديوان علمهم ، ومنتهى حكمتهم ،

(١) هلهل النساج الثوب نسجه رقيقاً ، ولقب الشاعر بمهلهل لانه أول من رقق الشعر على زعمهم
(٢) المتغير (٣) لاننا لغة في لعلنا (٤) ككتاب شاعر جاهلىّ قديم (٥) تردم الثوب رقعه ، وكلامه وشعره تتبعه حتى أصلحه وسدّ خلله ، أى لم يترك السابق من الشعراء للاحق منهم شيئا يحتاج الى الاصلاح
(٦) كحماد والاصمعى وخلف وأبى عمرو الشيبانى وأبى بكر الخوارزمى وغيرهم

به يأخذون ، وإليه يصيرون ، » وأحلوه من الاعتبار في الغاية ، ومن الرعاية في الذّروة . وكانت القبيلة يرفعها البيتُ من الشعر ، ويخفضُها الآخر [1]

هـذا مجمل ما يتعلق بحقيقة الشعر ونشأته في الجاهلية ، أما ما يتعلق بمادّته وجوهره ، فانه يرجع الى الأمور الآتية :

(أولا) ـ أغراضه وفنونه . (ثانياً) ـ معانيه وأخيلته . (ثالثاً) ـ ألفاظه وأساليبه . (رابعاً) ـ أوزانه وقوافيه

(١) أغراضه وفنونه

نظم العرب الشعر في كل ما أدركته حواسهم ، وخطر على قلوبهم : مما يلائم بيئتهم ، وينتظم مع تنشئتهم . ويضيق المقام عن سرد الكثير من فنون الشعر وأغراضه عندهم ، وانما يجمل الالمام بأشهرها ، وهي :

النسيب ودواعيه

النسيب — ويسمّى التّشبيب ، وطريقه عند الجاهلية يكون بذكر النساء

---

(١) فمن ذلك في الجاهلية قصة الاعشى الشاعر مع آل المحاق وسنذكرها بعد . وقصة حسان مع بني عبد المدان وذلك أنه هجاهم بقوله :

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ جسم البغال وأحلام العصافير

فقالوا له والله يا أبا الوليد لقد تركتنا ونحن نستحي من ذكر اجسامنا بعد ان كنا نفخر بها فقال لهم سأصلح منكم ما افسدت ، ثم قال :

وقد كنا نقول اذا رأينا لذى جسم يعدّ وذى بيان
كأنك أيها المعطى لساناً وجسما من بني عبد المدان

وفي الاسلام قصة الحطيئة مع بني أنف الناقة ، وقد كانوا يعيرون في الجاهلية هذا الاسم حتى قال فيهم الحطيئة :

(قوم هم الانف والاذناب غيرهم ومن يسوّى بأنف الناقة الذنبا)

فعاد هذا الاسم شرفا لهم وفخراً فيهم

وقصة جرير مع بني نمير أشراف قيس وذوائبها وذلك أنه قال فيهم :

فغض الطرف انك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

فما بقي نميريّ الاّ طأطأ رأسه وانتسب عامريّا ، بعد ان كان اذا سئل «ممن الرجل؟» فخم لفظه ومدّ صوته وقال «من بني نمير»

ومحاسنهن [١] ، وشرح أحوالهن : من ظَعْنِهن واقامتهن [٢] ، ووصف الأطلال والديار بعد مغادرتهن [٣] ، والتشوق اليهن بحنين الإبل ، وغناء الحمائم [٤] ، ولمع البروق ولَوْح [٥] النّيران ، وهبوب النسيم ، وبذكر المنازل والمياه التي نزلنها [٦] والرياض التي حللنها [٧] ، ووصف مابها من خُزَامَى [٨] ، وبَهار [٩] ، وأُقْحُوان [١٠] ، وعَرَار [١١] . وكانوا لا يعدُون النساء اذا نَسَبوا ، وكان للنسيب عندهم المقام الاوّل من بين أغراض الشعر ، حتى لو انضم اليه غرض آخر ، قدم النسيب عليه ، وافتتح به القصيد : لما فيه من لهْو النفس ، وارتياح الخاطر ، ولأن باعثه الفذّ [١٢] هو الحب ، وهو السر في كل اجتماع انسانيّ ، والبدو أكثر الناس حبًّا : لفراغهم وتلاقي قبائلهم المختلفة في المصايف والمرابع ، فاذا ما افترقوا ذكر كلٌّ أليف إلفه ، وحبيب حِبّه ، ثم اذا عاودوا تلك الأماكن مرة أخرى ، هاج أشجانَهم ، وجدّد الذِكْرَى فيهم ما يرونه من آثار أحبابهم وأطلال منازلهم

الفخر والحماسة

الفخر — وهو تَمدُّح المرء بخصال نفسه وقومه ، والتحدّث بحسن بلائهم ومكارمهم وكرم عنصرهم . ووفرة قبيلهم ، ورفعة حسبهم ونسبهم ، وشهرة شجاعتهم

---

(١) قال النابغة : بيضاء كالشمس وافت يوم اسعدها لم تؤذ اهلا ولم تفحش على جار
والطيب يزداد طيبا ان يكون بها في جيد واضحة الخدين معطار

(٢) الظعن الرحيل قال زهير :

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن تحملن بالعلياء من فوق جرثم
علون بأنماط عتاق وكلة وراد حواشيها مشاكهة الدم

(٣) قال عنترة : حييت من طلل تقادم عهده اقوى واقفر بعد أم الهيثم
وقال زهير : وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأياً عرفت الدار بعد توهم
اثافيّ سفعا في معرس مرجل ونؤيا كجذم الحوض لم يتثلم

(٤) قال النابغة : اذا تغنى الحمام الورق هيجني وان تغربت عنها ام عمار

(٥) مصدر لاح بمعنى بدا ولمع .

(٦) قال زهير : بكرن بكورا واستحرن بسحرة فهن ووادي الرس كاليد للفم
فلما وردن الماء زرقا جمامه وضعن عصيّ الحاضر المتخيم .

(٧) انظر نماذج الوصف (٨) نبت بري زهره أطيب الازهار نفحة (٩) نبت طيب الرائحة زهره أصفر اكبر من زهر البابونج (١٠) البابونج البري (١١) بهار البر (١٢) الفرد

المدح — وهو الثناء على ذى شأن بما يستحسن من الأخلاق النفسية : كرجاحة العقل والعفة والعدل والشجاعة وأن هذه الصفات عريقة فيه وفى قومه ؛ وتعداد محاسنه الخَلْقية كالجمال وبسطة الجسم . وشاع المدح عند ما ابتُذِل الشعر واتخذه الشعراء مهْنة . ومن أوائل مَدَّاحيهم زهير والنابغة والأعشى

الرثاء — وهو تعداد مناقب الميت، واظهارُ التَّفجُّع والتَّلهُّف عليه، واستعظام المصيبة فيه . ومن عادات الجاهلية فى الرثاء كما قال ابن رشيق [1] فى كتابه العمدة «ضربُ الأمثال بفناء الملوك العظام، والممالك الكثيرة ، والأمم القوية ، والوُعول [2] الممتنعة فى قُلل الجبال ، والاسود الخادرة [3] فى الغِياض [4] ، وبحُمُر الوحش المنصرفة بين القفار ، وبالنسور والعِقبان والحيات لبأسها وطول أعمارها »

الهجاء — هو تعداد مثالب المرء وقبيله ، ونفيُ المكارم والمحاسن عنه . وكانت العرب فى بدء أمرها لا تفحش فى هجوها ، وتكتفى بالتهكم بالمهجو والتشكُّك فى حقيقة حاله [5]، ثم أقْذع [6] فيه بعض الاقذاع المحترفون بالشعر، وحاكاهم السفهاء فى ذلك

الاعتذار — هو درْء الشاعر التهمة عنه ، والترفُّقُ فى الاحتجاج على براءته منها ، واستمالة قلب المعتذر اليه ، واستعطافه عليه . والنابغة فى الجاهلية فارس هذه الحلبة [7]

الوصف — هو شرح حال الشىء وهيئته على ماهو عليه فى الواقع : لاحضاره فى ذهن السامع كأنه يراه أو يشعُر به . وهذا هو الأصل الذى جرى عليه أكثر العرب قديماً ، وقد يبالغ فيه : لتهويل أمره ، أو تمليحه ، أو تشويهه ، أو نحو ذلك

---

(١) هو الحسن بن رشيق القيروانى من أدباء افريقية توفى سنة ٤٦٣ هـ (٢) جمع وعل وهو تيس الجبل (٣) المستترة (٤) جمع غيضة وهى الاجمة والشجر المجتمع فى مفيض ماء
(٥) كقول زهير : وما أدرى ولست اخال ادرى اقوم آل حصن أم نساء
(٦) افحش (٧) جماعة الخيل المتسابقة

فيكون منه المقبول والممقوت . ولا سبيل الى حصر ضروب الوصف عند العرب ؛ فانهم وصفوا كل ما رأوْه أو عانوْه أو خالط نفوسهم :

فوصفوا من الحيوان الإبل[١] ، وافتنُّوا فى ذلك بما لم تفقْهم فيه أمة فى وصف نفيس لديها . ومن أبلغ وُصَّاف الإبل طرَفة — ووصفوا الخيل[٢] فى ضروب خلقها وأحوال سَيْرِها . ومن أشهرهم فى ذلك امرؤ القيس وأبو دُواد الإيادى

ووصفوا منه أيضاً كواسر السباع ، وأوابد الوحوش[٣] ، وجوارح الطيور وصوادِحها[٤] ، وخَشاش الأرض وهوامّها[٥] ، ووصفوا من النبات ضروبه وشِياتِه ، ومن السماء نجومها وكواكبها ، وسحائبها وبروقها ، وأنواءها وأمطارها[٦] ، ومن الأرض سهلها وجبلها[٧] ، ومرابعها ومصايفها ، وخاصة الديار والأطلال ، وتعفية الرياح والأمطار لآثارها ، والدِّمَن وتشبيهها أحياناً برقْم الكتب ، وصحائف الرهبان ، وبالوشم على ظاهر اليد ، وبالثوب الخلَق أو المرقَّم ، ونحو ذلك[٨]

---

(١) قال عنترة : هل تبلغنى دارها شدنية لعنت بمحروم الشراب مصرم
خطارة غب السرى زيافة تطس الاكام بوخد خف ميثم

(٢) انظر نماذج الوصف

(٣) قال امرؤ القيس : فعن لنا سرب كان نعاجه عذارى دوار فى ملاء مذيل
فأدبرن كالجزع المفصل بينه بجيد معم في العشيرة مخول
فألحقنا بالهاديات ودونه جواحرها فى صرة لم تزيل

(٤) وقال أيضاً : كان مكاكىّ الجواء غدية صبحن سلافا من رحيق مفلفل

(٥) حشرات الارض مالا دماغ له من هوامها (والهوام) جمع هامة وهى كل ماله سم يقتل وقال شاعر جاهلى يصف افعى :

ويدير عيناً للوقاع كانها سمراء طاحت من نقيض برير
وكان شدقيه اذا استعرضته شدقا عجوز مضمضت لطهور

(٦) انظر نماذج الوصف

(٧) قال امرؤ القيس : كان ثبيرا فى عرانين وبله كبير اناس فى بجاد مزمل

(٨) قال طرفة : لخولة اطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقى الوشم في ظاهر اليد
وقال حاتم : اتعرف اطلالا ونؤيا مهدما كخطك في رق كتابا منمنما
وقال عبيد : مثل سحق البرد عفى بعدك ال‍ قطر مغناه وتأويب الشمال
وقال امرؤ القيس : قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان ورسم عفت آياته منذ أزمان
أتت حجج بعدى عليها فاصبحت كخط زبور فى مصاحف رهبان

ووصفوا جمال الانسان وأخلاقه وطباعه وأحواله فى الظعن والاقامة وأفعاله فى قتاله ونزاله ، ودفاعه بمختلف سلاحه

هذا وباب الوصف عند العرب أكبر فنون الشعر

الحكمة والمثل

الحكمة والمثل ـ وقد تقدَّم تعريفهما ؛ وأكثر ما تكون أمثالُ العرب وحكمها مُوجَزة متضمنة حُكماً مقبولاً ، أو تجربة صحيحة ، تمليها عليها طباعُها بلا تكلف كتكلف فلاسفة المولَّدين ، ولا اكثارٍ منها حتى يخرج الشعر بها عن بابه المبنيِّ على الخيال والأوصاف ، وانما يُؤتى بها فى كلامهم كالمِلح فى الطعام ـ وأكثر شعرائها أمثالاً زهير والنابغة

(٢) معانيه وأخيلته

قصدُ الشاعرِ من شعره الإِبانة عما يُخالج نفسه من المعانى فى أىّ غرض من الأغراض السابقة ونحوها ، ومن هذه المعاني : ما هو فِطرىٌّ فى الناس متأصّلٌ فى نفوسهم ، فيشترك فيه البدوىُّ والحضرىُّ والعربىُّ والعجمىُّ : كالأخبار الصادقة ، وأوصاف المشاهدات ، وشرح الوِجدانات كما يمليها الخاطر بلا مبالغة ولا إغراق ، ومنها ماهو غريبٌ نادر انتزعه الخيال من المرئِيَّات البديعة ، والأشكال المنتظمة ، والهيئات المتناسقة ؛ وذلك ما يسمى بالمعني المختَرع ؛ وهو فى الفِطر السليمة أنمى ، وللأمم المتحضّرة أطوع ؛ وتتفاضل الشعراء بالاجادة فيه والاكثار منهُ . واذا قسنا الشعر الجاهلى بهذا المعيار وجدنا معانيه وخيالاته تتجلى فى الامور الآتية :

(١) جلاء المعانى وظهورها ، ومطابقتها للحقيقة والواقع

(٢) قلة المبالغة والغلو فيها بما يخرجها عن حدّ العقل ومألوف الطبع

(٣) قلة المعانى الغريبة المنْزَع ، الدقيقة المأخذ ، المتجلية فى صور الخيال البديع ، والتشبيه الطَّريف ، والاستعارة الجميلة ، والكناية الدقيقة ، وحسنِ التعليل ، وغير ذلك مما لا يهتدَى اليه الاَّ بعد التَّعمل وكدِّ الفكر

(٤) قلة تأنقهم في ترتيب المعانى والأفكار على النظام الذى يقتضيه الطبع أو العقل ، بل يرسلونها على ماخيلت نفوسهم ، واستدعته بديهتهم وارتجالهم ، فيدخلون معنى فى معنى ، وينتقلون من غرض الى آخر اقتضاباً بدون تحيّل ولا تلطّف ، وربما مهد بعضهم لانتقال الذهن بقوله : دعْ ذا ، وعدِّ عن ذا

(٣) ألفاظه وأساليبه

ولما كانت العرب أمماً بدوية تنظم الشعر بطبعها ، من غير معاناة صناعة ، ولا دراسة علم غلب على شعرها صراحة القول ، وقلة المواربة فيه ، والبعد عن التكلف وصحة النظم والوفاء بحق المعنى ، أضف الى ذلك الأمور الآتية :

(١) جودة استعمال الألفاظ فى معانيها الموضوعةِ لها : لاحاطة علمهم بلغتهم ومعرفتهم بوجوه دلالتها

(٢) غلبة استعمال الألفاظ الجزْلة

(٣) استعمال الألفاظ العربية التى هجرت عند المحدثين ، إما لقلة استعمال مدلولها أو للاقتصار على مرادف لها أسهل منها

(٤) القصد فى استعمال ألفاظ المجاز

(٥) مقْت استعمال الأعجمى الاَّ ماوقع نادراً على سبيل التمليح والتظرف فى مثل شعر الأعشى (١)

(٦) عدم تعمد المحسّنات البديعية مثل الجناس ، والمقابلة ، والمطابقة ، وما شاكلها

(٧) متانة الأسلوب بحسن ايراد المعنى الى النفس من أقرب الطرق اليها وأطرفها لديها : كتجاهل العارف ، ومخاطبة الديار والأطلال

(٨) إيثار الايجاز الاَّ اذا دعتِ الحالُ

---

(١) انظر ترجمة الاعشي

(٤) أوزانه وقوافيه

الحق أن العرب لم تعرف موازين الشعر بتعلُّم قوانين صناعية ، وتعرُّف اصول وضيعة ، وانما كانت تنظم بطبعها على مايُهيّئه لها انشادُها وتغنيها وحُداؤها . وقد هدتهم هذه الفطرة الى أوزان أرجعها الخليل [(١)] الى خمسة عشر وزناً سمَّاها بحوراً ، وزاد عليها الأخفش [(٢)] بحراً . وقد أكثروا النظم من بعضها دون بعض بل إن بعضهم كان يكثر النظم من بحر دون آخر . وشعر العرب رجزُه وقصيده يبني على قافية واحدة كيفما طال القول

نماذج من الشعر الجاهلى فى الأغراض الآتية :

الحماسة — قال المرقِّش الأكبرُ : عمرو بن سعد

ان تُبْتَدَرْ [(٣)] غايةٌ يوماً لمَكْرُمةٍ تلق السَّوابق [(٤)] منا والمصلّينا [(٥)]

وليس يهلِك منا سيدٌ أبداً الاَّ افْتلينْا [(٦)] غلاماً سيّداً فينا

انا لنُرْخِص يوم الرَّوْع أنفُسَنا ولو نسام بها فى الأمن أُغلينا

شُعْثٌ مقادُمنا نَهْبَ مراجلنا [(٧)] نأسو بأموالنا آثار أيدينا [(٨)]

إنى لمِنْ معشرٍ أفنى أوائلهم قِيلُ الكماة [(٩)] : ألا أين المحامونا

لوكان فى الأَلف منا واحدٌ فدَعَوْا مَنْ فارسٌ ؟ خالَهم إياه يَعْنونا

اذا الكماة تنحَّوْا أنْ يُصيبهم حدُّ الظُّبَاتِ [(١٠)] وصلْناها بأيدينا

ولا تراهم وان جلَّت مصيبتهمْ مع البُكاة على من مات يبكونا

ونركب الكُرهَ [(١١)] احياناً فيفرُجه عنا الحِفاظُ [(١٢)] وأسيافٌ تواتينا

---

(١) هو الخليل بن احمد الفراهيدى النحوى اللغوى مخترع العروض وستأتى ترجمته

(٢) هو سعيد بن مسعدة النحوى تلميذ سيبويه ، وسيبويه تلميذ الخليل

(٣) أى يعجل اليها (٤) السابق والمجلى من الخيل فى الحلبة الذى يجىء أولا

(٥) المصلى من الخيل التالى للسابق (٦) فطمنا من الرضاع ، أى لنشأ فينا بدله

(٧) يريد اصحاب حروب وقرى للضيفان ، والمقادم النواصى

(٨) يريد ترفعهم عن القود ورفع اطماع الناس عن مقاصتهم ، والاسو المداواة اى نقتل ونَدى

(٩) الشجعان (١٠) يريد السيوف لا حدّها (١١) المكروه (١٢) الدفاع عن المحارم

المدح — قال زهير بن أبي سُلْمى :

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وُجوهُهُم ‏ وأنْدِية ينتابُها القولُ والفعلُ (١)

وان جئتهم ألْفيت حول بيوتِهِم ‏ مجالس قد يُشْفى بأحلامها الجهلُ

علي مكثرِيهم رزقُ من يَعتريهمُ ‏ وعند المقلّين السماحةُ والبذلُ (٢)

سعى بعدهم قوم لكى يدركوهُم ‏ فلم يفعلوا ولم يُليموا (٣) ولم يألوا (٤)

فما كان من خير أتوهُ فانما ‏ توارثه آباءُ آبائهم قبل

وهل يُنْبِتِ الخطّىَّ الاّ وشيجُهُ ‏ وتُغْرسُ الاَّ فى منابتِها النخلُ (٥)

وقال أُمَيَّة بنُ أبي الصَّلْت :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى ‏ حياؤُك إن شيمتَك الحَياءُ

وعلمُك بالحقوق وأنت فرعٌ ‏ لك الحسَبُ المهذّبُ والسَّناءُ

خليلٌ لا يُغيّره صباح ‏ عن الخُلُق الجميل ولا مَساء (٦)

وأرْضك كلُّ مكرُمة بَنَتْها ‏ بنو تَيْم وأنت لها سماء (٧)

إذا أثْنى عليك المرءُ يوماً ‏ كفاه من تعرُّضِه الثناء

تبارِى الريح مَكرُمة ومجداً ‏ اذا ما الكلب أجْحره الشتاء (٨)

الرثاء — وقال لبيد بن ربيعة يرثى أخاه أربد :

بلِينا وما تَبلَى النجومُ الطوالعُ ‏ وتبقَى الديار بعدنا والمصانعُ (٩)

---

(١) جمع مقامة وهى الجماعة يجتمعون فى مجلس ، والاندية المجالس، والانتياب القصد الي الموضع والحلول به (أي يبث فيها الجميل من القول ويعمل به)

(٢) مكثريهم اغنياؤهم ، يعتريهم يقصدهم . أى ان فقراءهم يسمحون ويبذلون جهد طاقتهم واغنياءهم يكفون من يقصدهم (٣) يقعوا فى اللوم (٤) يقصروا

(٥) الخطىّ الرمح نسبة الى الخط وهى جزيرة فى البحرين ترفأ اليها السفن . والوشيج شجر الرماح واحدته وشيجة ، اى لا تنبت القناة الا فى شجرها ، ولا تغرس النخل الا بحيث تنبت وتصلح ، والمراد انه لا يلد الكرام الا الكرام

(٦) اشار بالصباح والمساء الى وقتي الضيافة والغارة

(٧) اى تحيي تلك الارض بالغيث في وقت الشدة والمحل (٨) اى ادخله برد الشتاء فى جحره

(٩) المبانى من القصور والحصون

وقد كنت فى أكناف جارِ مَضِنة ... ففارقنى جارٌ بأربَد نافع [1]

فلا جَزَعٌ ان فرَّق الدهر بيننا ! ... فكل امرىء يوماً به الدهر فاجع !

وما الناس الاّ كالديار وأهلها ... بها يوم حلّوها وراحوا بلاقع [2]

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يحور [3] رماداً بعد اذ هو ساطع

وما المال والأهلون الاّ ودائعٌ ... ولا بدّ يوماً أن تُردَّ الودائع

وما الناس الاّ عاملان : فعامل ... يتبّر [4] ما يبنى وآخر رافع

فمنهمْ : سعيد آخذ بنصيبه ... ومنهمْ شقىٌّ بالمعيشة قانع

الهجاء — قال يزيد بن قنافة يهجو حاتماً :

لَعمْرى وما عَمْرى علىَّ بهيّن ... لبِئْس الفتى المدعوُّ بالليل حاتِم

غداةَ أتى كالثّور أحرِج [5] فاتّقى ... بجبهته أقْتالَه [6] وهو قائم

كأنَّ بصحراء المُرَيْطِ نَعامةً ... تبادِرُها جُنْحَ الظلام نعائم

أعارتك رجْلَيْها وهافِىَ [7] لُبّها ... وقد جرّدتْ بيضَ المتون صوارم

وقال قُريط بن أُنَيْف أحد شعراء بَلْعَنْبر يهجو قومه ويرميهم بالجبن عن دفع المغيرين عليهم ويتهكم بهم :

لو كنتُ من مازِن [8] لم تستبح [9] ابلى ... بنو اللَّقيطة من ذهلِ بن شيبانا

لكنّ قومى وان كانوا ذوى عَدَد ... ليسُوا من الشرّ فى شىء وإن هانا

يَجزُون مِنْ ظُلْم أهلِ الظُّلْم مغفرةً ... ومن إساءة أهل السُّوء إحسانا

كأن ربك لم يخلُق لخشيته ... سواهمُ من جميع الناس إنسانا

فليت لى بهم قوماً اذا رَكبوا ... شدّوا [10] الاغارةَ فرساناً ورُكبانا [11]

---

(١) اكناف ظلال ، جار مضنة يضن به ويتنافس فيه ، بأربد أى هو أربد (٢) البلقع الارض القفر والجمع بلاقع وهى خبر لمبتدأ تقديره هى (٣) يرجع (٤) يهلك ويهدم

(٥) ضيق عليه وأخرج عن عادته (٦) الاقران والاعداء ، يقول متهكما جاء كالثور الهائج مغضبا فلما جاء وقت القتال انهزم (٧) خافق قلبها واراد نفى العقل عنه ! يقول لما انهزم كان نعامة تسابقها نعائم الى اداحيها اعارت حاتما رجليها فكان اسراعه فى العدو اسراعها (٨) مازن تميم

(٩) الاستباحة اخذ الشىء مباحا (١٠) حملوا (١١) الاغارة مفعول لاجله

الاعتذار — قال أعشى قيس يعتذر الى أوس بن لام [1] عن هجائه اياه :

وانى على ما كان منّى لَنادمٌ ... وإنى الى أوس بن لامٍ لتائب

وانى الى أوسٍ ليقبل عِذْرتى [2] ... ويصفح عنى (ما حَييتُ) لراغب

فهبْ لى حياتى فالحياة لقائم ... بشكرك فيها خير ما أنت واهب

سأمحو بمدحٍ فيك اذ أنا صادقٌ ... كتاب هجاء سار اذ أنا كاذب

وقال النابغة الذبيانى :

نبئتُ أن أبا قابوس [3] أوعدنى [4] ... ولا قرار على زأر [5] من الأسد

مهلاً فداءٌ لك الأقوام كُلُّهم ... وما أُثَمّر [6] من مال ومن ولد

فلا لعمر الذى طيفتْ بكعبته ... وماهُريق على الانصاب من جسد [7]

والمؤمنِ العائذاتِ الطيرِ يمسحها ... ركبان مكة بين الغيل [8] والسَّند [9]

ما قلت من سيّئٍ مما أُتيت به ... اذن فلا رفعتْ سوطى الىَّ يدى

اذن فعاقبنى ربى معاقبة ... قرَّت بها عين من يأتيك بالحسد

الوصف — قال امرؤ القيس يصف فرسه :

وقد أَغْتَدى والطير فى وُكُناتِها [10] بمنجَردٍ [11] قَيْدِ الأوابد [12] هيكل [13]

مِكَرٍّ مِفَرٍّ [14] مُقبلٍ مُدبرٍ معاً ... كجُلمودِ [15] صخرٍ حطَّه السيلُ من عَل

وقال عبيد بن الابرص يصف الغيث :

فسقى الربابَ مُجَلْجِل [16] الـ ... ـأكناف لَمَّاعٌ بُروقُهْ

جَوْنٌ [17] تُكَفْكِفُهُ [18] الصَّبا ... وَهْناً [19] وتَمْرِيه [20] خَرِيقُهْ [21]

---

(١) بنو لام من طئ (٢) عذرى (٣) كنية النعمان بن المنذر (٤) هددنى (٥) صوت (٦) اجمع (٧) هريق : صب . الانصاب : الاصنام . جسد : دم (٨ ـ ٩) نوعان من الشجر (١٠) الوكنات أعشاش الطير (١١) ماض فى السير (١٢) الوحوش (١٣) طويل (١٤) الكر الهجوم والفر الهرب وفرس مكر مفر جيدهما (١٥) الحجر العظيم (١٦) سحاب مجلجل مصوت بالرعد (١٧) اسود من تكاثفه (١٨) تدفعه (١٩) الوهن نحو من نصف الليل أو بعد ساعة منه (٢٠) تدره وتستخرج ماءه (٢١) الخريق الريح الباردة الشديدة الهبابة وهى التى تنزل المطر

مَرْىَ العَسيفِ (١) عِشارَه (٢) حتى اذا دَرّت عُروقه (٣)
ودنا يضيء رَبابُه (٤) غاباً يُضرّمه حَريقه
حتى اذا ما ذَرْعُه بالماء ضاق فما يُطيقه
هبّت له من خلفه ريحٌ شآميةٌ تسوقُه
حلّت عَزاليَهُ (٥) الجنو بُ فثجّ (٦) واهيةً خُروقه

وقال طرفةُ يصف السفينة التى شبه بها الحُدوج :

كأن حُدوج (٧) المالكيّة غُدوةً خلايا(٨) سفين بالنواصِف(٩) من دَدِ (١٠)
عَدَوْليّةٌ (١١) أو من سفين ابن يامن (١٢) يجور بها الملاّح طوراً ويهتدى
يشقّ حَباب (١٣) الماء حيزومُها (١٤) بها كما قسم الترب المُفايلُ (١٥) باليد

وقال عنترة يصف غراب البين :

ظعنَ الذين فِراقَهم أتوقّعُ وجرى ببينهم الغرابُ الأبقع (١٦)
خَرِق (١٧) الجناح كأنّ لَحيَىْ (١٨) رأسه جَلَمان (١٩) ، بالاخبار هَشّ (٢٠) مُولَع

---

(١) العسيف الاجير أو العبد المستعان به فى الحلب ونحوه

(٢) جمع عشراء كنفساء لفظا ومعنى أوهى الحامل لعشر أى أن الريح تستخرج الماء من السحاب كما يستخرج العبد اللبن من العشار

(٣) أى السحاب (٤) الرباب السحاب الابيض — أى أن السحاب يرسل صواعقه ببرقه فيصيب الغاب فيضيء من الحريق الذى نشب فيه

(٥) جمع عزلاء وهى مصب الماء من الراوية ونحوها (٦) ثج الماء سال — والمعنى حتى اذا ضاق السحاب ذرعا بالماء ساقته ريح شآمية من الشمال وقابلته ريح باردة من الجنوب فحلت أفواهه.

(٧) جمع حدج كبئر وهو مركب للنساء كالمحفة (٨) جمع خلية كغنية وهى السفينة العظيمة

(٩) الشعاب فى الجبال تكون مسايل ومجارى للمياه زمن الامطار (١٠) اسم مكان (١١) أى منسوبة الى عدولى وهى بلدة بالبحرين أو الى عدول رجل كان يتخذ السفن (١٢) ملاح كان يتخذ السفن الكبار (١٣) الموج (١٤) الحيزوم الصدر

(١٥) الفيال لعبة كان يلعبها صبيان الاعراب يخبئون الشيء فى التراب ثم يقسمونه بأيديهم ويقولون : في أيهما هو ؟

(١٦) الذى فيه سواد وبياض (١٧) الخرق الذى لا يحسن العمل ، يذمه بانه ليس حسن الطيران فى الخير وانما ينقل أخبار الشؤم (١٨) أصل اللحى عظم الحنك الذى تنبت عليه الاسنان من الحيوان والمراد باللحيين فى الغراب شقا منقاره (١٩) الجلمان المقراض يأتى على صورة المفرد والمثنى باعتبار شقيه (٢٠) أى خفيف نشيط فرح بنقل الاخبار ، وكذلك معنى المولع هنا.

وقال حسان السعديّ يصف القمر :

مهما يـكن رَيبُ المنون فانني ... أرى قمر الليـل المعذّبَ كالفتى

يهلُّ صـغيراً ثم يعظم ضوءه ... وصورتهُ حتى اذا ما هو استوى [١]

تقارب يخبو [٢] ضوءه وشعاعه ... ويَمصَح [٣] حتى يستسر [٤] فما يرى

وقال عنترة يصف روضة :

ولقد مررت بدار عبلةَ بعد ما ... لعب الربيعُ [٥] بربعها المتوسَّم [٦]

جادت عليه كل عين ثرَّة [٧] ... فتركن كل قَرارة [٨] كالدرهم

سَحّا [٩] وتَسكاباً فـكل عشيةٍ ... يَجرى عليها الماء لم يتصرَّم [١٠]

وخلا الذّباب بها فليس ببارح ... غَردا كفعل الشارب المترنّم

هزِجا [١١] يحُك ذراعه بذراعه ... قَدْح المكِب على الزناد [١٢] الاجذم [١٣]

وقال أيضاً فى وصف مبارزه :

ومدَجَّج [١٤] كرِهالكُماة [١٥] نزاله ... لا مُمعن [١٦] هربا ولا مُستَسْلِم

جادت له كفى بعاجل طعنة ... بمثقَّف [١٧] صَدْق الـكعوب مقوَّم

برحيبةالفرْغين [١٨] يهدى جرْسُها [١٩] ... بالليل مُعتَسّ [٢٠] الذئاب الضُّرَّم [٢١]

فشكـكت بالرميح الاصم [٢٢] ثيابه ... ليس الـكريم على القنا بمحرَّم

---

(١) استوى بلغ تمامه (٢) يخفى ويزول (٣) يذهب وينقطع (٤) يستتر ويخفي (٥) المطر (٦) المتفرس فيه أى يتخيل المتوهم موضعه (٧) العين مطر أيام لا يقلع ، والثرة الـكثيرة الماء (٨) القرارة الحفرة (٩) سح المطر وتسكابه : هطله (١٠) لم ينقطع

(١١) كثير الصوت (١٢) أى كقدح الاجذم المـكب على الزناد ليوريها . والزناد جمع زند وهو عود يفرك بالـكفين فوق عود آخر من خشب سريع الاحتراق فيشتعلان والعود الاسفل يسمى زندة (١٣) الناقص اليدين (١٤) تام السلاح (١٥) جمع كمى كغنى الشجاع المستتر بالسلاح (١٦) مسرع (١٧) أى برمح معدل صلب الـكعوب (١٨) الرحيبة الواسعة ، والفرغ مخرج الماء من الدلو (١٩) صوتها (٢٠) طالب فريسة (٢١) الجياع (٢٢) الصلب — أى انفذت الرمح فى جسمه وثيابه كلها . وقيل ان معنى الثياب هنا القلب

فتركته جزَرَ[١] السباع ينُشنه[٢] يقضَمن[٣] حسن بنانه والمعصم

الحكم والأمثال — قال طرفة بن العبد :

كلُّ خليلٍ كنتُ خالَلْتُه لا تَركَ اللهُ له واضِحَهْ[٤]
كُلُّهمُ أروغُ[٥] من ثعلب ما أشبَهَ الليلةَ بالبارِحَه !

وقال الأفوه الأودي :

والبيت لا يُبتَنى الاَّ له عمَدٌ ولا عِمادَ اذا لم تُرسَ أوتادُ
فان تجمَّع أوتادٌ وأعمدة وساكنٌ بلغوا الأمرَ الذى كادوا
لا تصلُح الناسُ فوْضَى لا سَراةَ لهم ولا سَراةَ اذا جُهَّالُهم سادوا
تبقى الأمور بأهل الرأى ما صلحتْ فان تولتْ فبالأشرار تنقادُ

﴿ الشعراء ﴾

سبب اشتهار الشاعر

شعراءُ الجاهليةِ أكثرُ من أن يُحاطَ بهم ، ومن جُهل منهم أكثرُ ممن عُرف ؛ وانما اشتهر بعضهم دون بعض : لنُبوغِه ، أو كثرةِ المرويّ من شعره ، أو قرب عهده من الاسلام زمنِ الرواية ، أو تعصُّبِ عشيرتِه له ، أو عظمِ جاهه ، أو اشتهارِه بمنْقَبة أخرى فوق الشعر ، كالشجاعةِ والكرمِ والوفاء ، أو اشتراكه بشعره فى حادثٍ عظيم . وهم بعدُ متفاوِتون فى القول قلةً وكثرةً ، ورَداءةً وإجادة ، وجفاء ورقة ، ورويَّةً وارتجالاً

منزلة الشاعر عند القبيل

وكان للشعراء عند العرب منزلة رفيعة ، وحكم نافذ ، وسلطان غالب ، اذ كانوا ألسنتَهم الناطقةً بمكارمهم ومفاخرِهم ، وأسلحتَهم التى يَذُودون بها عن حياض شرفهم وبهم كانوا يماجِدون ، ويُنافِرون ، ويفاخِرون . وما كانوا يُسَرُّون بشىء أعظمَ من

---

(١) جمع جزرة وهى الشاة المعدة للذبح (٢) يتناولنه (٣) القضم الاكل بمقدم الاسنان أى ينهشنه (٤) الواضحة الاسنان تبدو عند الضحك (٥) راغ الثعلب ذهب يمنة ويسرة فى سرعة خديعة فهو لا يستقر فى جهة

سرورهم بشاعر ينبغ فيهم . قال ابن رشيق فى العمدة : « وكانت القبيلة من العرب اذا نبغ فيها شاعر أتت القبائلُ فهنّأتها ، وصنعَت الأطعمة وأتت النساء يلعبن بالمزاهر [1] كما يصنعون فى الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدانُ لأنهُ حمايةٌ لأعراضهم ، وذَبٌّ عن حياضهم ، وتخليد لمفاخرهم ، وإشادة بذكرهم ، وكانوا لا يُهنِّئُون الاَّ بغلام يُولَد ، أو شاعر ينْبغ ، أو فرس تُنْتَج »

طريقة نظم الشعر والتكسب به

وكانت طريقة نظم الشعر فى أكثر الأحوال أن يرتجلوه ارتجالا ، فتأتيهم ألفاظُه عفْواً ، ومعانيه رَهْواً [2] ، كما وقع للحارث بن حِلِّزة ، وعمرو بن كلثوم . أما مَن اتخذه منهم صناعة يستدرُّها ، ومكسباً يستمرئه ، ويلتمس به الجوائز ، وينشده فى المحافل والمواقف العظام فانه ينْحى [3] عليه بالتثقيف والتجويد والتهذيب والتنقيح : ليجعله كله متشابهاً فى الصنعة متساوياً فى الاحكام ، رقيقَ الحاشية [4] ، حسنَ الديباجة [5] مُتخيَّرَ الالفاظ ، يصح أن يقال فيه : إنه المثل الأعلى للشعر الجاهلى ؛ كما ترى ذلك واضحاً فى حَوْليَّات زهير ، واعتذاريات النابغة

وقد غبَرَ الناس دهراً طويلاً لا يقولون الشعر الا فى الأغراض الشريفة والمقاصد النبيلة ، لا يمدحون عظيما طمعاً فى نَوَاله ، ولا يهجُون شريفا تشفياً منه وانتقاماً حتى نشأت فيهم فئة امتهنتِ الشعرَ وتكسبت به ، ومدحت الملوك والامراء كالنابغة الذُّبيانى وحسانَ مع النعمان بن المنذر وملوك غَسَّان ، وزهير بن أبى سُلْمى مع هَرِم ابن سنان ، وأُمَيَّةَ بن أبى الصَّلْت مع عبد الله بن جُدْعان : أحد أجواد قريش ، والاعشى مع الملوك والسُّوقة ، حتى قصد به الاعاجمَ ، وجعله مَتْجَراً يتجر به ، فتحامى الشعرَ الأشرافُ وآثروا عليه الخطابة

---

(١) المزهر كنبر العود يضرب به (٢) سهلة متتابعة

(٣) يقبل عليه (٤) حاشية الثوب جانبه وكلام رقيق الحواشى حسن

(٥) الديباج ثوب من الحرير الخالص ويكون عادة منقشاً فيستعار للكلام الحسن المزين فيقولون لهذه القصيدة ديباجة حسنة اذا كانت محبرة منمقة

﴿ طبقات الشعراء ﴾

طبقات الشعراء باعتبار عصورهم أربع :

(١) طبقة الجاهليين

(٢) طبقة المخَضْرَمين : وهم الذين اشتهروا بقول الشعر فى الجاهلية والاسلام

(٣) طبقة الاسلاميين : وهم الذين نشئوا فى الاسلام ولم تفسد سليقتهم العربية ، وهم شعراء بنى أمية

(٤) طبقة المولدين ، أو المحْدَثين : وهم الذين نشئوا زمنَ فساد العربية ، وامتزاج العرب بالعجم ، ولو كانت أصولهم عربية بحتة ، وذلك من عصر الدولة العباسية الى يومنا هذا

والشعراء الجاهليون يُقَسَّمون باعتبار شهرتهم فى الشعر للإجادة أوْ للكثرة الى طبقات كثيرة نذكر منها ثلاثا [1] :

(١) الطبقة الأولى — امرؤ القيس ، وزُهير ، والنابغة

(٢) الطبقة الثانية — الأعشى ، ولبيد ، وطرَفة

الطبقة الثالثة — عنترة ، وعُرْوَةُ بن الوَرد ، ودُرَيد بن الصِّمة ، والمُرقّش الاكبر ؛ على أن كثيراً من الفصحاء والأدباء يقدّمون بعض هؤلاء على بعض ويزيدون غيرهم عليهم : لملاءمة شعرهم لأذواقهم وهوى نفوسهم

---

(١) على رأى أبى عبيدة

(١) امْرُؤُ القَيْس

هو الملك الضِّلّيل [١] أبو الحارث حُنْدُج [٢] بن حُجْر الكِنْدِيُّ ، شاعر اليمانية ، ورأسُ شعراء الجاهلية ، وقائدُهم الى التفنن فى أبواب الشعر وضروبه

وآباؤه من أشراف كِندةَ وملوكها ، وامه فاطمة بنت ربيعة أُخْتُ كُليب ومُهَلْهِل التَّغْلَبِيَّيْن . وكانت بنو أسد من المضرية خاضعةً لملوك كندة ، وآخر ملك عليهم هو حُجْر أبو امرئ القيس

منشؤه — نشأ امرؤ القيس بأرض نجد بين رعيَّة أبيه من بنى أسد ، وسلك مَسْلك المُتْرَفين من أولاد الملوك يلهو ويلعب ، ويعاقر [٣] الخمر ويغازل الحسان . وزاد على ذلك أنه أنفق وقته فى التشبيب بالنساء والخروج فى ذلك الى حدّ الصَّراحة فى الفُحش ، منصرفاً عما يأخذ به أمثالُه أنفسَهم : من الاعتداد للملك وقيادة الشجعان ؛ فمقته أبوه لذلك ، وزجره عن اللهو والتشبيب بالنساء ، ولما لم يَنجع فيه القولُ طرده عنه وأقصاه . فالتف عليه بعضُ صعاليك [٤] العرب وذُؤْبانهم [٥] وشُذَّاذهم [٦] ، ينزلون المياه وينعَمون ويذبحون ويشربون ويَطْرَبون ، وتغنّيهم القيان [٧] . وإنه لكذلك فى احدى نزلاته بأرض (دَمُّون [٨]) يشرب ويلعب النَّرْد مع رفاقه إذ جاءه نبأ ثَوَران بني أسد على أبيه وقَتْلِهم له : لأنه كان يعسِف فى حكمه لهم ، ويشتطُّ [٩] عليهم فى الإتاوة [١٠] التى يؤدُّونها اليه . فلم ينزعج امرؤ القيس للخبر خشيةَ أن ينغص على رفاقه عيشهم . ثم قال : « ضيَّعني صغيراً ، وحمَّلني دمه كبيراً ! لاصَحْو اليوم ، ولا سُكر غداً ، اليومَ خمرٌ ، وغداً أمرٌ » وأخذ يجمع العُدَّة ويستنجد القبائل فى ادراك ثأره ، فكان

خروجه فى ثأر أبيه — يجيبه بعضها ويعتذر بعضها . فنازل بنِي أسد وقتل فيهم كثيراً ولم يَشْف ذلك من

---

(١) كسكيت الكثير الضلال ، وسمى بذلك لانه كان يتعيهر فى شعره (٢) أصل الحندج الرملة الطيبة تنبت ألواناً (٣) يلازم ويدمن (٤) فقراء (٥) لصوصهم وصعاليكهم (٦) الشذاذ الذين لم يكونوا فى حيهم ومنازلهم (المتشردون) (٧) جمع قينة وهى الامة المغنية (٨) بلدة بحضرموت من اليمن (٩) يجور ويظلم (١٠) الخراج

غُلته . وكانت فى نفس المنذر أحدِ ملوك الحيرة ، مَوْجِدَةٌ [1] على آل امرئ القيس: لأن الحارثَ جدَّ امرئ القيس زاحم المَناذرة ملوك الحِيرة عند كِسْرَى فى النيابة عنه على مُلْك الحيرة ، وقت أن شَجَرَ [2] الخلافُ بين المناذرة وكسرى قُباذ [3] فألَّب المنذرُ على امرئ القيس العربَ : من إيادَ وبَهْراءَ وتَنُوخ ، وأمدَّه كسرى أنو شِرْوانَ بن قُباذ بجيش من الأساورة [4] لرضاه عن آل المنذر ، فلم يكن لامرئ القيس به طاقة ، وتفرق عنه أصحابه . فجعل يستجير بالقبائل واحدة بعد واحدة ، وتقع من أجله حروب عدة ؛ حتى نزل على السَّمَوْءَل فأودعه ابنته ودروعه وسلاحه ، وطلب اليه أن يكتب له الى الحارث بن أبى شِمْر الغسانى بالشام ليوصله الى قيصر. فلما بلغ قيصرَ استنصره على أعدائه الذين جلهم من شيعة المناذرة التابعين للفُرْس أعداء الروم ؛ فأمدَّه بجيش لم يفْصِل [5] به امرؤ القيس عن بلاد الروم حتى بدا [6] لقيصر ، فاسترجع الجيش ، وقفل امرؤ القيس راجعاً وحده ، واشتد به فى طريقه علة قروح مات منها ودفن بأنْقِرة . وكان ذلك قبل الهجرة بقريب من قرن

شعره — يعتبر امرؤ القيس رأسَ فحول الجاهلية والمقدّم فى الطبقة الأولى من شعرائهم المعروفةِ أخبارهم ، وهو وان كان مسبوقاً بمثل أبى دُواد الإيادى ، وخالهِ مهلهلٍ لم يسبقه على مبلغ علمنا الى طرْق كثير من أبواب الشعر والافاضة فيه أحد ؛ فهو أوَّل من أجاد القول فى استيقاف الصحْب ، وبكاء الديار ، وتشبيه النساء بالظباء والمها والبَيْضِ ، وفى وصف الخيل بقَيْد الأوابد [7] وفى ترقيق النسيب ، وتقريب مآخذ الكلام ، وتجويد الاستعارة وتنويع التشبيه ، حتى لَيُظَنُّ أنه المبتكر لأكثر ذلك ؛

---

(١) غضب (٢) شجر بينهم الامر اضطرب (٣) هو ابو كسرى انو شروان
(٤) فرسان العجم وقوادهم (٥) لم يخرج (٦) بدا له فى الامر نشأ له فيه راى ، فيضمر الفاعل ويفسر بلفظ البداء أو الرأى ، وقد يظهر الفاعل احيانا
(٧) الوحوش ، وفرس قيد الاوابد يلحق الوحش لجودته ، ويمنعه من الفوت بسرعته ، فكأنها مقيدة له لاتعدو

ويغلبُ على شعره التشبيب والوَصفُ أيام صَبْوته [١] وبثّ الشكوى من الزمان وتنكر [٢] الخلاَّن زمن محنته

وقد يفْحِشُ في تشبيبه بالنساء وتحدُّثه عنهن . ويُشَمُّ من شعره رائحة النُّبل وتُلْمح فيه شاراتُ السيادة والملك : من ذلك قوله :

فظل العذارَي يرتمين بلحمها وشحم كهُدَّاب الدِّمَقْس المفتل [٣]

وظل طُهاةُ اللحم من بين مُنضِجٍ صفيفَ شِواء أو قديرٍ معَجَّل [٤]

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليلٌ من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثَّل [٥] وقد يدرك المجدَ المؤثَّل أمثالي

وشعره وان اشتمل بشَمْلة البداوة في جفاء العبارة ، وخشونة الألفاظ ، وتجهم المعاني ، تراه أحياناً يخطِر في حُلَل من مُحسن الديباجة ، وبديع المعنى ، ورقة النسيب ، ومقاربة الوصف ، وسهولة المأخذ : مما كان تخلفه منه أجملُ مثال حاكوْه في ترقيق شعرهم وحسن تأتيهم في تصوير معانيه

فمن النوع الأول قوله في وصف محبوبته :

واذْ هي تمشي كمشْي النزيـ ـف [٦] يَصْرَعه بالكثيب البهَر

برَهْرَهةٌ [٧] رُودةٌ رَخْصَة كخُرْعوبةِ البانةِ المنفطر

---

(١) الصبوة جهلة الفتوة والشباب (٢) التنكر التغير عن حال تسرك الى حال تكرهها

(٣) بقي العذارى أكثر النهار يتعابثن بترامى لحم ناقته التي عقرها لهن وبشحمها المكتنز الشبيه باهداب الحرير الابيض المفتول (٤) قال هذا البيت بعد ان اصطاد بقرَ وحشٍ وجلس ينتظر الأكل منه فذكر أنه كان معه في خروجه الى الصيد طباخون يطبخون له انواعاً منها الشواء ومنها ما يطبخ في القدور وذلك غريب في الصحراء ، لا يفعله الا الملوك (٥) مؤصل

(٦) النزف الاستخراج والنزيف المنزف دمه من جراحة . الصرع الطرح على الارض . الكثيب التل من الرمل ، البهر الكلال وانقطاع النفس (٧) البرهرهة الرقيقة الجلد ، الرودة الشابة ، الرخصة الناعمة ، الخرعوبة الغصن ، المنفطر المتشقق الذى خرج ورقه . ومعنى البيت الاول انه شبه مشية حبيبته بمشية رجل نزف دمه حتى صار لا يقدر أن يسرع المشى لما اصابه من الضعف خصوصا اذا كان المكان مما يصعب السير فيه كاكثبة الرمال

وقوله فى معلقته :

وفرعٍ يُغَشّي المَتنَ أسودَ فاحمٍ ... أثيثٍ كقِنْو النخلة المتعثْكِلِ (١)

غدائرُه مستشْزِرات الى العُلا ... تَضِلُّ المَدارى فى مثنًّى ومرسَلِ (٢)

وكشحٍ لطيفٍ كالجديل مُخَصَّرٍ ... وساقٍ كانبوب السَّقيّ المُذلَّلِ (٣)

وتعطو برَخْصٍ غيرِ شَثْنٍ كأنه ... أساريع ظَبْيٍ أومساويك إسحِلِ (٤)

ومن الثانى قوله :

كأن عيون الوحش حول خبائنا ... وأرْحلِنا الْجَزْعُ (٥) الذى لم يثَقَّب

كأنَّ قلوبَ الطير رَطْباً ويابساً ... لدىَ وَكرِها العُنَّابُ والحَشَفُ (٦) البالى

أغرَّكِ مني أنّ حبَّكِ قاتلى ... وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

ولامرئ القيس المطوّلات والمقطّعات ، وأشهر مطوّلاته معلّقتُه المضروب بها المثل فى الاشتهار ، وأوّلها :

قِفا نَبْكِ من ذِكرَى حبيبٍ ومنزل ... بِسِقْط اللّوى بين الدَّخُول فَحَوْمَلِ (٧)

---

(١) الفرع الشعر التام ، المتن الظهر ، الفاحم الشديد السواد ، الاثيث الكثير ، القنو العذق (السباطة) المتعثكل الكثير الشماريخ الداخل بعضها فى بعض . يريد تشبيه شعر محبوبته بكباسة النخل الكثيرة الشماريخ

(٢) غدائره ذوائبه ، مستشزرات مرتفعات ، تضل تغيب ، المدارى الامشاط ومفردها مدرى

(٣) الكشح ما بين الخاصرة الى الضلع الخلف ، الجديل زمام يتخذ من سيور ، المخصر الدقيق الخصر ، والانبوب ما بين العقدتين من القصب وغيره ، والسقى المذلل يعنى البردىّ المسقىّ الملين بالارواء . يريد تشبيه كشح محبوبته بخطام الناقة المتخذ من الجلد ، وساقها بنباتة البردى المسقية كثيراً

(٤) العطو التناول ، الشثن الغليظ ، الاساريع جمع اسروع وهو دود يكون فى البقل والاماكن الندية ، وظبى اسم مكان ، والاسحل شجرة تدق اغصانها فى استواء . يشبه اصابع محبوبته بهذا الصنف من الدود أوهذا النوع من المساويك

(٥) خرز اسود يخالطه بياض (٦) اردأ التمر (٧) قال ياقوت قال السكرى الدخول وحومل وتوضح والمقراة مواضع ما بين إمَّرة وأسودِ العين ، امرة مثل إمَّعة منهل من مناهل حاج البصرة ، وأسود العين جبل بنجد يشرف على طريق البصرة الى مكة

فتُوضِحَ فالمِقراةِ لم يعفُ رسمُها ... لِمَا نسجَتْها من جَنُوبٍ وشمألِ [١]

ومنها يشكو طول الليل :

وليلٍ كموج البحر أرخَى سدُولَه ... علىّ بأنواع الهموم ليَبْتلى [٢]

فقلت له لمــَّا تمطَّى [٣] بِصلْبِه ... وأردفَ أعجازاً [٤] وَناءَ [٥] بكلكلِ [٦]

ألا أيُّها الليلُ الطويلُ ألاَ انْجَلى [٧] ... بصبْحٍ وما الإصباحُ منكَ بأمثلِ [٨]

فيالَكَ من ليلٍ كأنَّ نجومَه ... بكلّ مُغارِ [٩] الفتْلِ شُدّتْ بيذبُلِ [١٠]

ومن شعره يذكر رحلته الى قيصرَ مع صاحبه عمرو بن قَميئة الضُّبَعى [١١] الشاعر وكان امرؤ القيس غرّه فى رحلته وأخفى عليه وجهَ قصده :

سما لكَ شوقٌ بعد ما كان أقْصَرا ... وحلَّت سُلَيْمى بَطْنَ ظَبْيٍ فعَرْعَرا [١٢]

فدعْها وسَلّ الهم عنها بجَسْرَة ... ذَمول اذا صام النهار وهجَّرا [١٣]

عليها فَتًى لم تحمِلِ الأرضُ مثلَه ... أبرَّ بميثاق وأوفى وأصْبرا

اذا قلتُ هذا صاحبٌ قد رضِيتُه ... وقرّت به العينانِ بُدّلتُ آخَرَا [١٤]

كذلك جَدّى [١٥]، لا اصاحب صاحباً ... من الناس إلاَّ خانَنى وتَغَيَّرا

تذكَّرتُ أهلى الصالحين وقد أتت ... على جَمَلٍ بنا الرِّكابُ وأعفَرا [١٦]

ولما بدت حَوْرانُ [١٧] والآلُ دونَها ... نَظَرْتَ فلم تَنْظُرْ بعينيك مَنْظَرَا

تقطَّع أسباب اللُّبانات [١٨] والهوى ... عشيةَ جاورنا حَماةَ وشيْزَرا [١٩]

---

(١) لم يعف رسمها لم يذهب أثرها ، ونسج الريحين على البقعة اختلافهما عليها جنوبا وشمالا يعجب من عدم عفاء رسمها للسبب الذى من أجله تعفو الرسوم وهو اختلاف الرياح عليها بسفى التراب

(٢) كموج البحر فى توحشه ونكارة أمره، والمراد بالسدول الظلمات الشبيهة بالستور

(٣) مد ظهره (٤) مآخير (٥) مقلوب نأى بمعنى بعد (٦) الكلكل الصدر . والمعنى أفرط فى الطول (٧) انكشف (٨) افضل ، وذلك لانى أقاسى الهموم نهاراً كما أعانيها ليلاً

(٩) حبل محكم الفتل (١٠) جبل بنجد (١١) نسبة الى ضبيعة قبيلة من بكر (١٢) عاودك الشوق بعد ما كان تركك . وظبي وعرعر مكانان الاول فى أرض كلب والثانى فى نجد (١٣) الجسرة الناقة الماضية ، والذمول السريعة ، وصام النهار وهجر اشتد حره (١٤) به من عيوب القافية سناد التأسيس (١٥) بختى وحظى (١٦) جمل واعفر موضعان بالشام (١٧) كورة واسعة من أعمال دمشق (١٨) الحاجات أى تقطعت الحاجات (١٩) حماة مدينة بالشام بينها وبين شيزر مسيرة يوم ، وقد افتتحها المسلمون سنة ١٧ هـ

بكى صاحبى لما رأى الدربَ (١) دُونَه وأيقَنَ أنَّا لاحقانِ بقيصرا
فقلتُ له : لا تبْكِ عينُك انما نُحاول مُلكاً أو نموت فنُعذَرَا

ومن أبياته السائرة :

اذا المرء لم يخزُنْ عليه لسانَه فليس على شىء سواه بخزَّانِ
فإنك لم يفخر عليك كفاخرٍ ضعيف ولم يغلبك مثلُ مغلَّب (٢)
وقد طوَّفتُ فى الآفاق حتى رَضيتُ من الغنيمة بالإِياب

(٢) النابغة الذبيانى

هو النابغة الذُّبيانى أبو أُمامة زيادُ بن معاوية : أحدُ فحول شعراء الجاهلية ، وحَكَمِهم بعكاظ ، وأحسنهم ديباجةَ لفظ ، وجَلاءَ معنى ، ولُطْفَ اعتذار.

منشؤه وتكسبه بالشعر

ولُقّبَ بالنابغة لنبُوغه فى الشعر فُجَاءَة وهو كبير ، بعد أن امتنع عليه وهو صغير ؛ وهو من أشراف ذُبيان الا أن تكَسُّبه بالشعر غضَّ من شرفه ، على أنه لم يتكسب بشعره الاَّ فى مدح ملوك العرب . وكان من أمره فى ذلك أن اتصل بملوك الحيرة ومدحهم وطالت صُحبته للنعمان بن المُنْذر ، فأدناه منه ، واتخذه جليساً ونديماً ، ووصله بجوائزه السنية ونوقه العصافير (٣) حتى صار لا يأكل ولا يشربُ الاَّ فى صِحاف الذهب والفضة ، الى أن وَشَى به عندالنعمان أحد بطانته فغضب عليه وهمّ بقتله ، فأسرّ اليه بذلك عِصام حاجب النعمان ، فهرب النابغة الى ملوك غسَّان المنافِسين للمناذرة فى مُلْك العرب ، فمدح عمرَو بنَ الحارث الأصغر وأخاه النعمان ؛ غير أن قديم صحبته للنعمان ، وحسنَ صنيع النعمان عنده ، ورجاء اظهار براءته ، كل ذلك جعله يحنُّ الى معاودة العيش فى ظلاله ، فتنصَّل مما رُمى به ، واعتذر اليه بقصائد

(١) الدرب باب السكة الواسع وكل مدخل الى الروم فهو درب
(٢) المغلوب مراراً
(٣) العصافير نوق نجائب كانت للملوك نتجت من أكرم فحل للعرب يسمى عصفوراً

ستلَّت سَخيمته (١) وعطفتْ عليه قلبه ؛ وحل عنده فى منزلته الأولى . وعمّر النابغة طويلاً ، ومات قبيل البعثة

***

شعره — أهل البَصَر بالشعر على أن النابغة الذبيانىّ من فحول الطبقة الأولى الجاهليــة ، بل جعــل بعضهم شعره غايةَ المدى الذى بلغه الشــعر الجاهلى من الجمال وحسن الرونق ؛ ويَعُدّه الـكثير من الرواة فى أصحاب المعلقات . ويمتــاز شعره برَشاقة اللفظ ، ووضوح المعنى ، وحسن النظم ؛ وقلة التكلف ، حتى عُدَّ عند المُرَقّقين من الشعراء ــ كجرير ــ أنه أشعر شعراء الجاهلية . وأغراه تكسبهُ بالشعر أن يَفْتَنَّ فى ضروب المدح والاستقصاء فيه حتى مدح بالشىء وضدِّه ، فقال من قصيدة يمدح بها النعمان :

فانك شمس والملوك كواكب ... اذا طلعت لم يَبدُ منهن كوكب

وقال من أخرى من اعتذارياته :

فانك كالليل الذى هو مُدْركى ... وإن خلتُ أن المُنتأى عنك واسع

كما أغراه بلطف الاعتذار واجتلاب الرضا عندما فاته طيّب المكسب . ولعل تقديمه على الشعراء لم يكن من حكم علماء الشعر وحدهم ، بل يظهر أنهُ قد شاركهم فيه شعراء الجاهلية أنفسهم ، فلا دَرٍ مَاقدموه عليهم فى عكاظ وجعلوه حكماً يتناشدون أمامه أشعارهم ، فيقضى لشاعر على شاعر . وله ديوان شعر شرحه البَطَلْيَوْسِى (٢) وطبع مراراً وان لم يجمع أكثر قوله . ومن أبلغ شعره معلقته التى أوّلها :

عُوجُوا فَحَيّوا لنُعْم دِمْنَةَ الدار ... ماذا تُحَيون من نُؤْى وأحجار (٣)

أقْوَى وأقْفرَ من نُعْم وغـيَّره ... هُوجُ الرياح بهابى الترب مَوّار (٤)

---

(١) حقده (٢) هو ابن السيد البطليوسى شارح أدب الكاتب لابن قتيبة ، منسوب الى بطليوس مدينة بالاندلس (٣) عوجوا قفوا ، الدمنة ما اجتمع من آثار الديار ، النؤى الحفير يكون حول الخباء يمنع المطر (٤) أقوى وأقفر خلا ، هوج الرياح جمع هوجاء وهى الشديدة ، الهابى السافى ، موار يجىء ويذهب

وقفتُ فيها سَرَاةَ اليوم أسألها ... عن آل نُعْم أُمونًا عِبْرَ أسفار (١)
فاستعجمتْ دارُ نعم ماتكلمنا ... والدار لو كلمتنا ذات أخبار

ومن جيد قوله فى الاعتذار :

أتانى (أبيت اللعنَ (٢)) أنك لُمْتنى ... وتلك التى أهتمّ (٣) منها وأنصب (٤)
فبت كأنَّ العائداتِ (٥) فرشن لى ... هَرَاسا (٦) به يُعْلَى فِرَاشى ويُقْشَبُ (٧)
حلفت فلم أترك لنفسك ريبةً ... وليس وراءَ الله للمرء مذهب
لئن كنتَ قد بُلّغتَ عنى جنايةً (٨) ... لَمُبْلِغُكَ الواشى (٩) أغش وأكذب
ولكننى كنت امرأً لىَ جانبٌ (١٠) ... من الأرض فيه مُسْتَرادٌ (١١) ومَهْرَب
ملوكٌ (١٢) وإخوان اذا ما أتيتهم ... أَحَكَّمُ (١٣) فى أموالهم وأُقرَّب
كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم ... فلم تَرَهم فى شكر ذلك أذنَبُوا (١٤)
فلا تترُكَنّى بالوعيد كأنَّنى ... الى الناس مَطْلِىٌّ به القارُ (١٥) أجرب
ألم ترَ أن الله أعطاك سَوْرَةً (١٦) ... تَرى كلَّ مَلْكٍ دونها يتَذَبْذَبُ (١٧)
وأنك شمس والملوك كواكبٌ ... اذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب (١٨)
ولستَ بمستبقٍ أخًا لاتَلُمُّه ... على شَعَثٍ أىُّ الرجال المهذَّب (١٩)

---

(١) سراة اليوم وسطه ، الامون الناقة التى يؤمن عثارها ، عبر أسفار أى يعبر عليها فيها

(٢) جملة دعائية يخاطبون بها الملوك تحية ، ومعناها أبيت أن تفعل شيئاً تلعن به ، وكانت هذه تحية ملوك لخم وجذام

(٣) أصير لأجلها ذا هم (٤) أتعب واعيا (٥) الزائرات فى المرض

(٦) شوكاً كأنه حسك (٧) يخلط (٨) ذنباً (٩) النمام

(١٠) الجانب الناحية وأراد به الشام (١١) موضع يتردد فيه لطلب الرزق

(١٢) بدل من مستراد ومهرب أو مبتدا بتقدير فيه ملوك (١٣) اتصرف كيف أشاء

(١٤) قال الاصمعى كما فعلت أنت بقوم قربتهم وأكرمتهم فتركوا الملوك ولزموك فلم تر ذلك ذنباً عليهم (١٥) القطران (١٦) منزلة رفيعة وشرفا (١٧) يضطرب

(١٨) أراد بهذا البيت والذى قبله تسلية النعمان على ما حصل منه من مدحه لآل جفنة

(١٩) تلمه تصلحه ، والشعث الفساد ، المهذب المنقى من العيوب ، يعتذر بذلك عن زلته ، والمعنى أى الرجال يكون مبرأ من العيوب فان قطعت اخوانك بذنب لم يبق لك أخ

فان أكُ مظلوماً [١] فعبدٌ ظلمتَــه وان تكُ ذا عُتبي [٢] فمثلكَ يُعتِب [٣]

ومن أبياته السائرة :

وأنت كالدهر مبثوثاً حبائله والدهر لا ملجأ منه ولا هربُ

أضحتْ خلاءً وأضحى أهلها احتملوا أخنَى عليها الذي أخنَى على لُبَدِ [٤]

نُبِّئتُ أن أبا قابوسَ [٥] أوعدني ولا قرار على زأر من الأسد

فلو كفِّي اليمين بغتْك خوْناً لأفردت اليمينَ عن الشمال

(٣) زُهير بن أبي سُلمى

هو زهير بن أبي سلْمى ربيعة بن رياح المزَنيُّ ثالث فحول الطبقة الاولى من الجاهلية ، وأعفهم قولا ، وأوجزهم لفظاً ، وأغزَرهم حكمةً ، وأكثرهم تهذيباً لشعره

منشؤه

نشأ في غطَفان ، وان كان نسبُه في مُزَينة ، من بيت جُلُّ أهله شعراء : رجالاً ونساءً ، وأكثر ما استفاد حكمَته وشعرَه وأدبَه من خال أبيه بَشامةَ بن الغَدِير أحد أشراف غطفان ، وكان بشامة هذا مُقعَداً حازماً شاعراً مُجيداً ، يرجعون اليه في مُعضل أمورهم ويقسِمون له من غنائمهم كأفضلهم ، فشب زهير متخلّقا ببعض صفاته وارثاً عنه شعرَه ، ولزم أيضاً أوْسَ بن حَجر زوجَ امه ، وكانَ شاعرَ مُضر في زمانه فروى عنه الشعر ثم ظهر عليه وأخمله . واختص زهيرٌ بمدح هَرِم بن سنان الذُّبياني

مدحه لهرم

---

(١) جعل غضبه ظلما لانه من غير موجب (٢) رضا (٣) يرضى

(٤) اسم لآخر ما هلك من نسور لقمان السبعة التي وهب الله له عمراً يطول بطول أعمارها فطال عمر هذا النسر حتى قيل طال الامد على لبد ، واخنى عليه أهلكه ، ويريد بالذي أخنى عليها ، الزمان وحوادثه

(٥) أصل القابوس الرجل الجميل الوجه الحسن اللون وأبو قابوس كنية النعمان بن المنذر أحد ملوك العرب

المرّى ، فمدحه بمدائح خلّدَ اسمَهُ أبدَ الدهر[١] حتى ضرب بمدحه فيه المثل كما يقول البوصيرى فى بُردته :

ولم أُردْ زهرة الدنيا التى اقتطفت   يدَا زهيرٍ بما أثنى على هرم

وأولُ ما أعجبه من أمره وحبّبَ اليه مدحه حُسن سعيه هو والحارثُ بن عوف فى الصلح بين عَبْس وذُبيان فى حرب داحِسَ والغبراء ، بتحمُّلِهما دِياتِ القَتْلى التى بلغت ثلاثةَ آلاف بعير ، وقال فى ذلك قصيدته احدى المعلقات السبع التى أوّلها :

أَمِنْ أمِّ أوفى[٢] دِمنةٌ[٣] لم تَكلَّمِ   بحَوْمانَةِ الدرَّاجِ فالمتثلَّمِ[٤]

ثم تابع مدحه كما تابع هرمٌ عطاءَه حتى حَلفَ ألاّ يمدَحَه زهيرٌ الا أعطاه ، ولا يسأله الاّ أعطاه ، ولا يسلّمَ عليه الاّ أعطاه : عبداً أو وليدةً أو فرساً . فاستحْيا زهير منه ، فكان اذا رآه فى ملأ قال : أنْعِموا صباحاً غيرَ هَرِمٍ وخيرَكم استثنيت

وكان زهير سيداً كثيرَ المال حليماً معروفاً بالورع مُتديّناً مؤْمِناً بالبعث والحساب كما يظهر من قوله :

فلا تَكْتُمُنَّ اللهَ ما فى نفوسكم   ليخفى ومهما يُكتَمِ اللهُ يَعْلَمِ

يُؤخَّرْ فيُوضعْ فى كتابٍ فيُدَّخرْ   ليومِ الحساب أو يُعَجَّلْ فيُنْقَمِ

وعُمِّرَ زهير ومات قبل البعثة بسنة

روية زهير

كان زهير صاحب رويَّة وتعمُّل وتهذيب لما يقول ، ولا سيما مطوَّلاته ، حتى قيل إنه كان ينظم القصيدة فى أربعة أشهر ، ويهذّبها فى أربعة أشهر ، ويعرضها على خواصه فى أربعة أشهر ، فلا يظهرها الاّ بعد حوْل ، ولذلك يُسمون بعض مطوّلاته الحوليات

---

(١) قال عمر بن الخطاب لبعض ولد هرم أنشدنى بعض مدح زهير أباك فأنشده فقال عمر ان كان ليحسن فيكم القول ، قال ونحن والله ان كنا لنحسن له العطاء ، قال : قد ذهب ما اعطيتموه وبقى ما أعطاكم . وقال رضى الله عنه لابن زهير ما فعلت الحلل التى كساها هرم أباك قال ابلاها الدهر ، قال لكن الحلل التى كساها أبوك هرما لم يبلها الدهر

(٢) امرأة زهير (٣) ما اسودّ من آثار الدار بالبعر والرماد وغيرها

(٤) حومانة الدرّاج ماء بنجد على الطريق التى بين البصرة ومكة ، والمتثلم موضع قريب منه

***

شعره — ولا خلاف بين أئمة الشعر ونقدته فى أن زهيراً أحد ثلاثة الفحول المقدَّمين فى الجاهلية على من سواهم ، وان كثيراً منهم ليفضلونه على صاحبيه : امرىء القيس ، والنابغة ، وحجتّهم فى ذلك أنه يمتاز بالمزايا الآتية :

أولاً — حُسْن الايجاز وحذف فضول الكلام (١) وحشوه بحيث يودع اللفظ اليسير المعنى الكثير . كقوله :

فما يك من خير أتوْه فانما توارثه آباء آبأهم قبل

ثانياً — إجادة المدح وتجنب الكذب فيه ، فلا يمدح الرجلَ الاَّ بما عرف من أخلاقه وصفاته (٢) كقوله :

على مُكثريهم رزْق من يعْتَريهم وعند المقلِّين السماحة والبذل

ثالثاً — تجنب التعقيد اللفظىّ والمعنوىّ ، والبعد من حُوشىّ الكلام وغريبه (٣) كقوله :

ولو أن حمداً يخلِد الناس أُخْلدوا ولكنّ حمد الناس ليس بمخْلِد

رابعاً — قلة السُّخْف والهذَر (٤) فى كلامه . ولذلك كان شعره عفيفاً يقلُّ فيه الهجاء. ولقد هجا قوماً فأوجع ، ثم ندم على ماصنع

---

(١) سأل معاوية الاحنف بن قيس من أشعر الشعراء قال زهير ، قال وكيف ، قال ألقى عن المادحين فضول الكلام ، قال مثل ماذا ، قال مثل قوله « فما يك من خير . . البيت »

(٢) قال عبد الملك بن مروان حين سمع هذا البيت ما يضر من مدح بما مدح به زهير آل أبى حارثة من قوله « على مكثريهم . . البيت » ان لا يملك أمور الناس (يعنى الخلافة) ثم قال ماترك منهم زهير غنيا ولا فقيراً الاّ وصفه ومدحه

(٣) قال ابن عباس قال لى عمر بن الخطاب هل تروى لشاعر الشعراء قلت ومن هو ؟ قال الذى يقول « ولو ان حمدا . البيت » قلت ذاك زهير قال فذاك شاعر الشعراء ، قلت وبم كان شاعر الشعراء قال : لأنه كان لا يعاظل فى الكلام وكان يتجنب وحشيه ولم يمدح أحداً الاّ بما فيه . يعاظل بين الكلام يداخل فيه ويعقده . وحوشىّ الكلام وحشيه وغريبه

(٤) السخف فى الكلام رداءته . الهذر الكثير الردىء أو سقط الكلام

خامساً — الإكثار من الأمثال والحكم بما لم يفقه فيه شاعر جاهلى وبما فتح به باب الحكم والأمثال فى الشعر العربى ، فكان كلامه الدرب الذى سلكه الشعراء لبلوغ الحكمة : أمثال صالح بن عبد القدوس [1] وأبى العتاهية وأبى تمام والمتنبى والمعرى [2] من المولدين . ومن حكمه فى معلقته قوله :

وأعلمُ مافى اليومِ والأمسِ قبلَه ... ولكنَّنى عن علمِ مافى غدٍ عَمِ
رأيتُ المَنايا خَبْطَ عشواءَ [3] من تُصِبْ ... تمِتْهُ ومن تخطئْ يُعمَّرْ فيَهرَمِ
ومن يجعلِ المعروفَ من دونِ عِرْضِهِ ... يَفِرْهُ [4] ومن لايتّقِ الشتمَ يُشتَمِ
ومنْ يكُ ذا فضلٍ فيبخلْ بفضلِهِ ... على قومِهِ يُستغْنَ عنه ويُذمَمِ
ومن يُوفِ لايُذمَمْ ومن يُهدَ قلبُه ... الى مُطمَئِنِّ البر لايتجمجمِ [5]
ومن هابَ أسبابَ المنايا ينَلْنَهُ ... وإن يَرقَ أسبابَ السماءِ بسلَّمِ
ومن يجعلِ المعروفَ فى غيرِ أهلِهِ ... يكُنْ حمدُهُ ذمًّا عليهِ ويندمِ
ومن لم يَذُدْ [6] عن حوضِهِ بسلاحِهِ ... يُهدَّمْ ومن لايَظلِمِ الناسَ يُظلَمِ [7]
ومهما تكنْ عند امرىءٍ من خليقةٍ [8] ... وإن خالَها تَخفَى على الناس تعلَمِ

ومما سبق فيه غيره قوله يمدح هَرماً :

قد جعل المبتغون الخيرَ فى هَرِمٍ ... والسائلون الى أبوابه طُرقا [9]
من يَلقَ يوماً على عِلّاته هرماً ... يلقَ السماحة منه والندى خُلُقا [10]
لو نالَ حىٌّ من الدنيا بمكرمةٍ ... أُفقَ السماء لنالت كفُّه الأفقا

---

(١) من نابغى شعراء الدولة العباسية قتل لاتهامه بالزندقة

(٢) ستأتى تراجمهم ، وهم من شعراء الدولة العباسية

(٣) الخبط الضرب باليد ، والعشواء الناقة التى لا تبصر ليلا ، يريد أن المنيـة كالناقة العشواء تسير على غير هدى فتصيب الناس على غير نسق معروف أو ترتيب محدود

(٤) يصنه ويحفظه (٥) يتزلزل ويضطرب (٦) يدفع ويكف

(٧) من انقبض عن الناس وكف يده عن الامتداد اليهم رأوه مهينا ضعيفا فاستطالوا عليه وظلموه (٨) طبيعة

(٩) المبتغون الطالبون ، فى هرم عند هرم أو منه ، جعل طلاب المعروف عند هرم طرقا الى أبوابه لكثرة ترددهم عليه وقصدهم اليه (١٠) على علاته أى ان تلقه على قلة مال وعدم تجده سمحا كريما فكيف به وهو على غير تلك الحال

وقوله : وأبيضَ [١] فياضٍ [٢] يداه غمامةٌ على مُعْتَفيه [٣] ماتغبّ [٤] فواضله
أخى ثقةٍ لايُهلك الخمرُ ماله ولـكنه قد يُهلك المالَ نائلُه
تراه اذا ما جئتَه متهلّلاً كأنك تُعْطيه الذى أنت سائلُه

(٤) عنترة العبسى

هو عنترة بنُ عمرو بن شـدّاد العبسى أحـد فُرسان العرب وأغْربَتِها [٥] وأجوادها وشعرائها المشهورين بالفخر والحماسة

منشؤه ونسبه

وكانت امُّه أمَةً حبشية تسمى زُبَيْبَةَ ، وأبوه من سادات بنى عَبْس

وكان من عادات العرب ألاّ تُلحِق ابنَ الأمةِ بنسبها ، بل تجعله فى عِداد العبيد ، ولذلك كان عنترة عند أبيه منبوذاً بين عبدانهِ ، يَرعى له إبلَه وخيلَه . فربأ بنفسه عن خِصال العَبيد ، ومارسَ الفُروسية ومَهَر فيها ، فشبّ فارساً شجاعاً هُماماً . وكان يكره من أبيه استعبادَه له وعدمَ إلحاقه به ، حتى أغار بعضُ العرب على عبس واستاقوا إبلهم ، ولحقتهم بنو عبس وفيهم عنترةُ لاستنقاذِ الابل ، قال له أبوه : كُرّ ياعنترة . قال : العبدُ لايُحْسن الـكرّ ، انما يُحْسن الحِلابَ والصَّر [٦] قال كرّ وأنت حُر ، فقاتل قتالاً شديداً حتى هزَم القومَ واستنقذ الابل ، فاستلحقه أبوه ..
ومن ذلك الوقت ظهر اسمهُ بين فُرسانِ العرب وساداتها وخاضَ مع عبسٍ أكثرَ وقائعها : وخاصةً حربَ داحس والغَبْراء ، حتى أصبح فارس حومتها ، وحامىَ بَيْضتها وحتى ضُرِب به المثل فى الشّجاعة والاقدام . قيل له يوماً أنْت أشجعُ العرب وأشدُّها. قال : لا . قيل : فبماذا شاع لك هذا فى الناس ، قال كنت أُقْدِم اذا رأيت الإقدام عزْماً ، وأُحْجِم اذا رأيت الاحجام حزماً ولا أدخل موضعاً لا أرى منه مخْرجاً .

---

(١) نقى من العيوب (٢) كثير العطاء (٣) الطالب لمعروفه
(٤) أى لا تأتى فى الغبّ (والغب ان تأتى يوماً وتنقطع آخر) بل هى دائمة لا تنقطع
(٥) اغربة العرب سودانهم والاغربة فى الجاهلية عنترة ، وخفاف بن ندبة ، وأبو عمير بن الحباب ، وسليك بن السلـكة (٦) الحلاب الحلب ، والصر شد ضرع الناقة

وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأُثنى عليه فأقتله . وطال عمر عنترة حتى ضَعُف جسمه وعجز عن شن الغارات ومات قبيل البعثة

*
* *

شعره

شعره — لم يشتهر عنترة أوّل أمره بشعرٍ غير البيتين والثلاثة ، وانما غلبت عليه الفروسية مكتفياً بها حتى عيَّره يوماً بعض قومه سواده وأنه لا يقول الشعر ، فاحتج لسواده بخلقه وشجاعته ، واحتج لفصاحته بنظم معلقته المشهورة التى كانت تسمى المذهَّبة أيضاً وأوّلها :

هل غادر الشعراء من مُتردَّمِ أمْ هل عرَفْتَ الدارَ بعدَ توهم[1]

وقد ضمنها خصاله ومكارم قومه . وحسن دفاعه عنهم ووفرة جُوده ، معرّجاً فيها على أوصاف أمور شتَّى ، وهى من أجمل المعلقات وأسهلها لفظاً ، وأكثرها انسجاماً ، وأبدعها وصفاً ، وأشدّها حماسة وفخراً ، وكذلك كل ما عرف من شعره

وأكثر ما فى سيرته الموضوعة فى زمن الفاطميين ، وما في الديوان المنسوب اليه المستخرج من هذه السيرة منحولٌ له لا يعتدّ به

ومن قوله فى معلقته :

لما رأيتُ القوم أقبل جمعُهم يتذامرون[2] كررتُ غير مذمَّم
يدعون عنترَ والرماح كأنَّها أشْطان[3] بئرٍ فى لَبان[4] الأدْهم[5]
مازلت أرْميهم بثغرة[6] نحره ولَبانه حتى تَسرْبل بالدم
فازورّ[7] من وقع القَنا بلَبانه وشكا الىَّ بعَبْرة وتَحَمْحم[8]

---

(١) تردم الرجل ثوبه رقعه و « ام » بمعنى بل والتوهم التفرس ، والمعنى لم يترك الشعراء لى شيئاً أصلحه ثم خاطب نفسه قائلا هل عرفت دار محبوبتك بعد شدة بحثك عنها
(٢) يحض بعضهم بعضاً على القتال (٣) الحبال التى يستقى بها (٤) اللبان الصدر
(٥) الحصان الاسود (٦) أعلى نحره (٧) مال (٨) العبرة تردد البكاء فى الصدر ، والتحمحم من صهيل الفرس ما كان فيه شبه الحنين ليرق صاحبه له

لو كان يَدْرِى ما المحاورةُ اشتكى ولكان لو علِم الكلامَ مُكلِّمى
ولقد شفى نفسى وأبرا سُقمَها قِيلُ الفوارس وَيْك[1] عنترُ أقدِم
والخيلُ تقتحمُ الخَبار[2] عوابسا من بين شَيْظَمةٍ[3] وأجْرَدَ[4] شَيْظَم

ومنها :

أثْنِي عليَّ بما علمتِ فانني سَمْحٌ مخالطتى اذا لم أُظلم
فاذا ظُلمتُ فانّ ظُلمى باسل مُرٌّ مذاقتُه كطعم العَلقم

ومن جيد قوله :

بَكَرَتْ تُخوِّفُنى الحتوف[5] كأننى أصبحت عن غرض الحتوف بمعْزل
فأجبتها : ان المنية منْهلٌ[6] لا بد أن أُسقى بكأس المنْهل
فاقْنَيْ[7] حياءكِ (لا أبالك[8]) واعلمى أني امرُؤ سأموتُ ان لم اقتَل
ان المنيــة لو تُمثَّل مُثِّلتْ مَثْلى اذا نزلوا بضنك[9] المنزِل
انى امرؤ من خير عبس منصِباً شطرى[10] ، وأحمى سائرى بالمنْصُل[11]
واذا الكتيبة[12] أحجمت[13] وتلاحظت[14] أُلفِيتُ خيراً من مُعِمٍّ مُخْول[15]
والخيلُ تعْلم والفوارس أنَّنى فرّقت جمعهم بضربة فيْصل
والخيل ساهمة[16] الوجوه كأنما تسقى فوارسها نقيع الحنظل
ولقد أبيت على الطَّوى[17] وأَظَلُّه حتى أنال به كريم المأكل

ومن إفراطه قوله :

وأنا المنية في المواطن كلّها والطعن منى سابق الآجال

---

(١) وى كلمة يقصد منها التعجب والكاف للخطاب (٢) الارض اللينة
(٣) الفرس الطويل (٤) الاجرد القصير الشعر الرقيقه
(٥) الحتف الموت (٦) مشرب (٧) الزمى (٨) كلمة يراد بها هنا التنبيه والاعلام لا الجفاء والشدّة (٩) ضيق (١٠) نصفى (١١) السيف (١٢) الطائفة من الجيش
(١٣) تأخرت عن الاقدام (١٤) نظر بعضهم بعضا بمؤخر عينه من شدة الهول
(١٥) كريم الاعمام والاخوال (١٦) متغيرة عابسة (١٧) الجوع

(٥) عمرو بن كلثوم

هو أبو الاسود عمرو بن كلثوم بن مالك التغلبي سيد تغلب وفارسها وأحد فتاك العرب وشعرائها المشتهرين بقصيدة واحدة ، والمجيدين للفخر . وأمه ليلى بنت مهلهل أخي كليب . نشأ عمرو في قبيلة تغلب بالجزيرة الفراتية شجاعاً هماماً خطيباً جامعاً لخصال الشرف ، وساد قومه وهو ابن خمس عشرة سنة ، وقاد الجيوش مظفراً في كثير من أيامهم ؛ وأكثر ما كانت تكون تغلب وحربها مع أختها بكر بن وائل بسبب الحرب المشئومة المشهورة بحرب البسوس ، وكان آخر صلح لهم فيها على يد عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة من آل المنذر . ولم تمض مدة يسيرة بعد الصلح حتى حدث بين وجوه القبيلتين ملاحاة ومشاحة في مجلس عمرو بن هند قام أثناءها شاعر بكر الحارث بن حلزة اليشكري وأنشد قصيدته المشهورة . وما فرغ منها حتى ظهر لعمرو بن كلثوم أن هوى الملك مع بكر ، فانصرف ابن كلثوم وفي نفسه ما فيها : ثم خطر في نفس ابن هند أن يكسر من أنفة تغلب بإذلال سيدها وهو عمرو بن كلثوم ، فدعاه وأمه ليلى بنت مهلهل ، وأغرى هنداً امه ان تستخدمها في قضاء أمر من أمورها ، فصاحت ليلى : واذلاه ! فثار به الغضب وقتل ابن هند في مجلسه ، ثم رحل توا الى بلاده بالجزيرة وأنشد معلقته التي أولها :

> ألا هبي بصحنك[1] فاصبحينا[2]   ولا تبقى خمور الأندرينا[3]

يصف فيها حديثه مع ابن هند ، ويفتخر بأيام قومه وغاراتهم المشهورة ، ثم كان يخطب بها في عكاظ وغيرها ، وحفظها بنو تغلب وأكثروا من روايتها . ومات عمرو بن كلثوم قبل الاسلام بنحو نصف قرن

منشؤه

***

شعره — كان عمرو بن كلثوم من عظماء الجاهلية وأشرافهم وفرسانهم الذين

---

(١) الصحن القدح العظيم (٢) اسقينا الصبوح وهو ما أصبح عندهم من الشراب
(٣) قرية بالشام

شغلتهم الرياسة وخوض الحروب عن أن يُفيضوا فى الشعر ويطرقوا أكثر أبوابه كدأبِ من يتّخذون الشعرَ مهنةً وتجارة ، ولذلك لم يشتهر الاّ بمعلقته الواحدة التى قامت له مقامَ الشعرِ الوفير : لحسن لفظها ، وانسجام عبارتها ، ووضوح معناها ورشاقة أسلوبها ، وعُلوّ فخرها ، ونبالة مقْصِدها ، ولولا أنه افتخر فيها وعدّدَ مآثر قومه ما قالها ؛ ورويت له مقطّعات لم يخرج بها عن أغراض معلقته ؛ ولعل شهرته بالخطابة لا تقل عن شهرته بالشعر

ومن سامى فخره فى معلقته :

وقد علِم القبائلُ من مَعدٍّ ... اذا قُبَبٌ بأبطَحِها[1] بُنينا
بأنّا المطْعِمون اذا قدَرنا ... وأنّا المُهْلِكون اذا ابتُلِينا
وأنّا المانعون لما أردْنا ... وأنا النازلون بحيث شِينا
وأنّا التّاركون اذا سخِطنا ... وأنّا الآخذون اذا رَضِينا[2]
ونشْرب إن وَرَدْنا الماء صفْواً ... ويشربُ غيرُنا كَدِرا وطينا
إذا ما المَلْكُ سام الناس خَسفاً[3] ... أبينْا ان نُقِرَّ الذلَّ فينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها ... ونبطِش حين نبطِش قادرينا
بغاةً ظالمين وما ظُلِمْنا ... ولكنّا سنبدأ ظالمينا
ملأنا البَرَّ حتى ضاق عنا ... ونحن البحرَ نملؤه سَفِينا
اذا بلغ الرضيع لنا فِطاما ... تخِرُّ له الجبابرُ ساجدينا

وقال يتوعد عمروَ بنَ أبى حجر الغسانى :

ألا فاعلم (أبيتَ اللعنَ) أنّا ... على عَمْدٍ سنأتى ما نريد
تعلَّمْ أن محمِلنا ثقيل ... وأن ذِياد[4] كُبَّتِنا[5] شديد
وأنّا ليس حىٌّ من مَعَدٍّ ... يوازننا اذا لبس الحديد

---

(١) الابطح والبطحاء مسيل واسع فيه دقاق الحصى
(٢) لانقبل عطايا من غضبنا عليه ونقبل هدايا من رضينا عنه (٣) اولاهم ذلا
(٤) دفاع (٥) جماعتنا

(٦) طرفة بن العبد

منشؤه

هو عمرو بنُ العبدِ البكريّ أقصر فحول الجاهلية عمراً ، وأجودهم طويلةً ، وأوصفهم للناقة . مات أبوه وهو صغير ، وولي أمرَه أعمامُه ، ومال الى البطالة واللهو والأخذ بأسباب الصَّبْوةِ والفتوَّة وقولِ الشعْر والوقوع به فى أعراضِ الناس ، حتى هجا قومَه وأهله ، وحتى هجا عمرو بنَ هند ملكَ العرب على الحيرة ، مع أنه كان يتطلَّبُ معروفَه وجوده . فبلغ عمروَ بنَ هند هجاءُ طرفةَ له ، فاضطغنها عليه ، حتى اذا ما جاءه هو وخالُه المتلمِّس يتعرضان لفضله — وكان قد بلغه عن المتلمسِ مثلُ ما بلغه عن طرفة — اظهر لهما البشاشةَ والودادَ ليؤمّنَهما ، وأمرَ لكل منهما بجائزة ، وكتب لهما كتابين وأحالهما على عامله بالبحرين ليستوفياها منه . وبينا هما فى الطريق ارتاب المتلمسُ فى صحيفته ، فعرَّجَ على غلامٍ يقرؤها له . (ومضى طرفة) . فاذا فى الصحيفة الأمر بقتله ، فألقى الصحيفة ، وأراد أن يلحق طرفة فلم يدركه ، وفرّ الى ملوك غسّان ، وذهب طرفةُ الى عاملِ البحرين وقُتلَ هناك وعمره بضعٌ وعشرون سنة

***

شعره

شعره — قال طرفةُ الشعرَ وهو صبيّ فنبغ فيه حتى عدَّ من الفحول ولم يُنيّف على العشرين ، وزاد عليهم بقصيدتِه الطويلة التى وصف فيها الناقةَ بخمسةٍ وثلاثين بيتاً ، وصفاً لم يسبقْهُ اليه أحد ، وتعد معلقتُه من أجودِ المعلقات وأكثرها غريباً وأغزرها معنًى ، وأدقها وضعاً . ورُوِى له غيرُها من الشعر ولكنه قليل بالنسبة الي شهرته ، وربما دل هذا على أن الرواة قد جهلوا أكثره

ويجيدُ طرفةُ الوصف فى شعره مقتصراً فيه على بيان الحقيقة مع قصدٍ فى الغلو ومعاظلةٍ فى بعض التراكيب واسترسالٍ فى حوشى اللفظ وخفيّ المعنى (1) ، وكذلك كان

---

(١) قال يصف ناقته :

لها فخذان اكمل النحض فيهما	كأنهما بابا منيف ممرد
وطىّ محال كالحنيّ خلوفه	وأجرنة لزت بدأي منضد
كأن كناسى ضالة يكنفانها	وأطر قسىّ تحت صلب مؤيد

هجاؤه على شدَّة وقعه ، ومطلع معلقته :

لخَوْلَة (١) أَطلالٌ ببُرقة (٢) ثَهْمَدِ (٣) تَلُوح (٤) كباقي الوَشْم (٥) في ظاهر اليد

ومن أجودها قوله :

ارَى الموتَ يَعْتام (٦) الكرامَ ويصطفى عَقيلَة (٧) مال الفاحش المُتَشَدِّد

أَرَى العيشَ كَنزاً ناقصاً كلَّ ليلةٍ وما تَنْقُص الأيامُ والدهرُ ينفَدِ

لعَمْرُكَ إن الموتَ (ما أخطأ الفتى) لكالطِّوَلِ المُرْخَى وَثِنْياه (٨) باليدِ

متى ما يشأْ يوماً يقُدْه لحَتْفه ومن يكُ في حبل المنيةِ ينْقَدِ

ومن أبياته السائرة :

وظُلْمُ ذوى القُربى أشدُّ مَضاضةً على المرء من وقْعِ الحُسامِ المُهنَّد

أَرَى الموت أَعدادَ (٩) النُّفوس ولا أَرى بعيداً غداً ، ما أقربَ اليومَ من غدِ !

ستُبْدِي لك الأيامُ ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار مَنْ لم تُزَوِّد

قد يَبْعَثُ الامرُ الصغير كبيرَه حتى تظلّ له الدماءُ تَصبَّبُ

ومن قوله يفتخر :

نحن في المَشْتاةِ (١٠) ندعو الجَفَلى (١١) لا نرى الآدِبَ (١٢) فينا ينتقِرْ (١٣)

حينَ قالَ الناسُ في مجلسِهم أَقُتارٌ (١٤) ذاكَ أم ريحُ قُطُرْ (١٥)

---

(١) اسم محبوبته (٢) البرقة مكان اختلط ترابه بحجارة أو حصى

(٣) موضع في ديار بني عامر (٤) تلوح تلمع

(٥) النقش على اليد وغيرها بالنيلج وهو المسمى الآن (بالدق)

(٦) يختار (٧) كرام المال

(٨) الطِّوَل الحبل الذي يُطوَّل للدابة فترعى فيه والثِّنْي الطرف والجمع أثناء ، والمعنى أقسم بحياتك أن الموت مدة مجاوزته للفتى بمنزلة حبل طُوِّل للدابة ترعى فيه وطرفاه بيد صاحبه ، فكما ان الدابة لا تُفلت ما دام صاحبها آخذاً بطرفي طِوَلها فكذلك الانسان لايهرب من الموت

(٩) جمع عدد ، أي لكل انسان ميتة فاذا ذهبت النفوس ذهبت ميتتهم كلها ، أو جمع عِد بالكسر وهو الماء الذي لا تنقطع مادته وكل أحد يرده

(١٠) أي زمن الشتاء والبرد وهو أشد الزمان عندهم لما فيه من المحل والجدب

(١١) الدعوة العامة الى الطعام (١٢) الذي يدعو الى المأدبة

(١٣) يدعو النقرى وهي الدعوة الخاصة (١٤) ريح شواء (١٥) العود الذي يتبخر به

بجفانٍ تعترى نادينـا (١) من سديفٍ (٢) حين هاجَ الصِّنَّبِرْ (٣)
كالجوابى (٤) لا تني (٥) مُترعةً (٦) لقِرى (٧) الأضيافِ أو للمُحْتضر (٨)
ثم لا يُخْزَنُ فينـا لحمُها انمـا يُخْزن لَحمُ المدَّخِرْ
ولقـد تعْلَمُ بكرٌ أننـا آفةُ الجُزرِ مساميحُ يُسُرْ (٩)
ولقـد تعلم بكرٌ أننـا فاضلو الرأيِ وفى الرَّوْعِ وُقُرْ (١٠)
يكشفونَ الضُرَّ عن ذى ضُرِّهم ويُبِرُّون على الآبى المُبِرّ (١١)
فُضُلٌ أحلامُهم عن جارِهم رُحُبُ الأذْرُعِ بالخيرِ أُمُرْ (١٢)
ذُلُقٌ فى غارةٍ مَسفوحة ولدى البأسِ حُماةٌ ما نفِرْ (١٣)
نُمْسِكُ الخيلَ على مكروهها حينَ لا يُمْسِكها الا الصُّبُرْ (١٤)

(٧) أعشى قيس

هو أبو بصيرٍ ميمُونٌ الأعشى بنُ قيس بن جندل التميسى ، رابعُ فحول الجاهلية ، وأمدحهم للملوك ، وأوصفهم للخمر وأغزرهم شعراً ، وأكثرهم عروضاً وافتناناً ، وطوالاً ، جياداً . وينتهى نسبه إلى بكر بن وائل ، وكان من أهل اليمامة ، يسكن قرية منها تسمَّى منْفوحة . ونشأ فى بدء أمره راويةً لخاله المسيَّب بن عَلَس أحد الشعراء المقلّين المجيدين . وكان الاعشى يُطْرى شعره ويأخذ منه ،

(١) تلم وتأتى نادينا (٢) شحم السنام (٣) أشد ما يكون من البرد
(٤) جمع جابية وهي الحوض العظيم (٥) لا تفتر بل هى لا تزال (٦) مملوءة
(٧) لاكرام الاضياف (٨) النازلين معنا على الماء
(٩) الجزر جمع جزور والمساميح الاسخياء واليسر الداخلون في الميسر والمفرد يسور
(١٠) جمع وقور أي لا تنزعزع (١١) ابر عليه غلبه ، والآبى الممتنع ، والمبر الغالب ، أى يغلبون الغالبين للناس (١٢) جمع أمور وهو الكثير الأمر
(١٣) أى مسرعون الى الغارة ، متقدمون فيها وأصله من ذلق السيف اذا كان يخرج من غمده ، ومسفوحة مصبوبة
(١٤) أى نمسك الخيل على ما تلقاه من شدة الحرب وجهدها ولا نهزم ، وانما ذكر مكروه الخيل لانها اذا أصابها مكروه فى الحرب فهم أحذر أن يصيبهم

حتى إذا جاد شعره ونبُه شأنه ، قصد الملوكَ والاجواد ، وطوَّف اليهم الآفاق ، وأقاصي البُلْدان مادحاً لهم مُستَجدياً عطاياهم . وهو أوّل من صرح فى شعره بالسؤال وطلب الحاجة ، فوَضع ذلك من شأنه ؛ وكان الشعراء قبله يمدحون ولا يسألون ، وكان يَنْتاب بالمديح بنى عبد المَدَان ملوكَ نَجران وأساقِفَتها ، يُقيم عندهم ما يشاء ، يشرب الخمرَ ويسمع الغناء ويأخذ عنهم بعض آرائهم في العقائد ، فجاد لذلك وصفُه للخمر ، وظهر بعض معتقدهم فى كلامه ، كما كان ينتاب ملوكَ الحيرة وخاصةً الأسودَ أخا النعمان بن المنذر . وما زال هذا شأنه ، حتى طمِع فى جوائز كسرى ، فرحل اليه يمدحه بالشعر العربىّ فأجزَل عطاءه ، وان لم يرقْ عنده شعرُه ، لسوء ترجمته له

وعمِيَ الأعشى ، وطال عمره ، حتى كان الاسلامُ وعظُم أمر النبي صلى الله عليه وسلم بين العرب ، فأعدَّ له قصيدةً يمدحه بها وقصده بالحجاز ، فلقيه كفار قُريش وصدّوه عن وجهِه على أن يأخذ منهم مائة ناقة حمراء ويرجعَ إلى بلده : لتخَوُّفهم أثرَ شعره ، ففعل. ولما قرُب من اليمامة سقط عن ناقته فدُقت عنقه ومات . ودفن ببلدته منفوحة باليمامة

***

شعره — يُعَدُّ الأعشى عند الكثيرين رابعاً لثلاثة الفحول : امرئ القيس ، والنابغة ، وزهير ، وإن كان يمتازُ منهم بغزارة شعره ، وكثرة ما روى له من الطوال الجياد ، ونظمِه من أكثر أعاريض الشعر وضروبه ، وتفنُّنه في كل فنّ من أغراضه ، واشتهر من بينهم بالمبالغة في وصف الخمر ، حتى قيل : أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير اذا رغِب ، والنابغة اذا رَهِبَ ، والأعشى إذا طرِب . ولشعره طلاوة وروْعة ليست لكثير من شعر غيره من القدماء . ولقوّة طبعه وجلَبَة شعره سُمِّي صَنَّاجة [1] العرب حتى ليُخيَّل إليك إذا أنشدت شعره أن آخرَ ينشِد معك. ولجلالة شعر الأعشى فى صدور العرب ، وسرعة طيرانه بين قبائلهم كان يرفع الوضيع الخامل ، **أثر شعره**

(١) وقيل سمى صناجة لذكره الصنج في شعره وهي آلة موسيقية (العمدة)

ويخفض الشريف النابه . ومن الذين رفعهم شعر الأعشى المحلّق [1] ، وقد كان أبا ثماني بنات عوانس رغبت عن خطبتهنَّ الرجالُ لفقرهنَّ . فأضافه على فقره ، فمدحه الأعشى ونوَّه بذكره في عكاظ ، فلم يمض عام حتى لم تبق جارية منهنَّ إلاّ وهي زوج لسيد كريم . وكان الأعشى يتظرَّف في شعره ، ويتملَّح بذكر بعض أسماء الادوات والأزهار باللغة الفارسية [2] إعلاناً منهُ أنهُ دخل بلاد القوم ، وجالسهم ، وصدر عن ملوكهم . وعدّه بعضهم من أصحاب المعلقات ، وذكر قصيدته التي يمدح بها الاسود الكندى ، ومطلعها :

استعماله للالفاظ الاعجمية

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالى وما تردُّ سؤالى

ومن جيد شعره قصيدتهُ التي أعدّها ليُنشدها بين يدىْ رسول الله صلى الله عليه وسلم يمدحه فيها فلم يفُزْ بذلك وأوَّلها :

ألم تغتمِضْ عيناكَ ليلةَ أرْمَدَا [3] وبتَّ كما باتَ السليمُ [4] مُسهَّدَا [5]

ومنها يتحدَّث عن ناقته ويمدح النبي صلى الله عليه وسلم :

فآليت لا أرْثى لها من كلالة [6] ولا من حَفىً [7] حتى تُلاقي محمدا

متى ماتُناخي عند باب ابن هاشم تُراحِي [8] وتلْقىْ من فواضله ندى

نبيٌّ يرى ما لا يروْن وذكرُهُ أغار لعمرى في البلاد وأنجدا [9]

له صدقات ما تُغِبُّ [10] ونائل وليس عطاء اليوم يمنعه غدا

وقصيدته في مدح المحلَّق وأوَّلها :

أرقتُ [11] وماهذا السُّهادُ المُؤرِّق وما بيَ من سقْم وما بي تعشّق

---

(١) سمي كذلك لان فرساً عضه فصار موضع عضته كالحلقة

(٢) وشاهدنا الجل والياسمين والمسمعات بأقصابها
وبربطنا دائم معمل فأى الثلاثة أزرى بها

(٣) رجل أرمد به رمد في عينيه (٤) الملدوغ ، وسمى بذلك تفاؤلا

(٥) لاينام (٦) تعب (٧) رقة القدم (٨) تستريحى (٩) اغار دخل الغور وهو كل ما انحدر مغربا عن تهامة ، وانجد دخل النجد وهو ضد الغور (١٠) تنقطع (١١) سهرت

ومنها :

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة ... الى ضوء نار فى اليَفاع [١] تحرَّق

تُشَبُّ لِمَقرُورَين [٢] يصطَليانها [٣] ... وبات على النار الندى [٤] والمحلق

رضيعىْ لِبان ثدىَ أُمٍّ تقاسما ... بأسْحَمَ داجٍ عَوْضُ لا نتفرّق [٥]

ترى الجود يجرى ظاهراً فوق وجهه ... كما زان متن الهِنْدُوانىّ رونقُ

يداه يدا صدق فكفٌّ مبيدة [٦] ... وكفٌّ اذا ما ضُنَّ بالمال تنفق

ومن أبياته السائرة :

عُلّقتُها عرَضاً وعلّقتْ رجُلا ... غيرى وعُلق أخرى ذلك الرجل

كناطح صخرةً يوماً ليُوهنَها ... فلم يضِرْها وأوهى قرنَهُ الوعِلُ

(٨) الحارث بن حِلِّزَة

هو الحارث بن حِلِّزة اليشكرىّ البكرىّ أحدُ أصحاب المعلقات ، والمشهورين بالواحدات ، والمجيدين على البديهة والارتجال ، والمضروب بهم المثل فى الحماسة والافتخار ؛ ويتصل نسبه الى بكر بن وائل . وكان فيها بمنزلة عمرو بن كلثوم فى تغلب ولم يؤثرْ عنه غيرُ قطعٍ يسيرة وقصيدتِه المعلقة التى مطلعها :

آذنتْنا [٧] ببَينها [٨] أسماءُ ... رُبَّ ثاوٍ [٩] يُمَلُّ منه الثَّواءُ

سبب ارتجال المعلقة

وكان من أمر هذه المعلقة أن عمرَو بنَ هند أحد ملوك الحيرة أصلح بين بكر وتغلب بعد حربهما المشهورة بحرب البسوس . وأخذ من كلا الفريقين رهائنَ من أبنائهم ليكفَّ بعضَهم عن بعض ، وليُقيِّدَ منها للمعتدَى عليه من المعتدى ، فحدث أن سرّح الملكُ ركباً من تغلِب فى بعض حاجتِه ، فزعَمتْ تغلِبُ أن الركبَ نزلوا على ماءٍ لبكر فأجلوْهم عنه وحملوهم على المفازة فماتوا عطشاً ، وتزعُم بكرٌ أنهم سقوْهم

---

(١) التل (٢) أصابهما البرد (٣) يستدفئان بهـا (٤) الكرم (٥) بأسحم داج يريد ليلا شديد السواد ، والمعنى ان الكرم والمحلق رضعا من ثدى واحد وتعاهدا على انهما لا يفترقان أبدا (٦) متلفة (٧) أعلمتنا (٨) فراقها (٩) مقيم

وأرشدوهم الطريق فتاهوا وضلوا وهلكوا . وذهب الفريقان يتدافعان عند عمرو بن هند ، وكانت ضِلَعه مع تغلب ، فهاج ذلك الحارثَ بن حلزة وكان فى المجلس مستوراً عن الملك بستارة لما فيه من البَرص ، فارتجل قصيدته هذه ارتجالاً يفتخر فيها بقومه وفعالهم ، وحسن بلائهم عند الملك وعظم أيامهم معه ، فما أتم قصيدته حتى انقلب الملك إلى جانب البكريين واستدنى الحارث ورفع السِتْر بينه وبينه حتى صار معه فى مجلسه . وعُمِّر الحارث طويلاً حتى قيل : انه أنشد هذه القصيدة وعمره خمسٌ وثلاثون ومائة سنة

***

شعره

شعره — أكثر الرواة ونقدة الشعر معجَبون بارتجال الحارث بن حلزة قصيدته على طولها وإحكام نظمها ، وكثرة غريبها ، وتعدد فنونها ، واشتمالها على كثيرٍ من أيام العرب ووقائعها

ومن قوله فيها وهو أوجز ما قيل فى وصف التأهب للارتحال وأصدقه وأوضحه تصويراً للحقيقة :

أجمعوا أمرهم عِشاءً فلمّا ... أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء [(1)]

من منادٍ ومن مُجيبٍ ومن تَصْـ ... ـهال خيل ، خلالَ ذاك رُغاء [(2)]

ومن قوله فيها :

لا يُقيم العزيزُ بالبلدِ السّهْـ ... ـلِ ولا ينفعُ الذليلَ النّجاء [(3)]

ليس يُنْجى مُوائلاً [(4)] من حِذارٍ ... رأسُ طودٍ وحَرّةٌ رجلاء [(5)]

ومن قوله فى غير المعلقة :

مَنْ حاكمٌ بيني وبيـ ... ـن الدهر مال علىّ عمْدا

(١) الضوضاء اختلاط الاصوات (٢) الرغاء صوت البعير (٣) الاسراع فى السير

(٤) وأل هرب وفزع كواءل (٥) الحرة الارض ذات الحجارة السوداء النخرة ، والرجلاء الغليظة الشديدة التى يترجل فيها ، يريد ان الشر كان شاملا لم يسلم منه العزيز ولا الذليل ، وان الهارب منهم لم ينجه تحصنه بالجبل ولا بالحرة الغليظة الشديدة

أودَى بسادتنا وقد تركوا لنا حَلَقاً[1] وجُرْدا[2]
خيلى وفارسها وربِّ م أبيك كان أعزَّ فَقْدا
فلو أنّ ما يأوى الىّ م أصاب من ثَهْلاَنَ[3] هُدَّا
فضعى قناعك[4] ان ريـــب الدهر قد أفنى مَعَدَّا
فلـكَم رأيتُ معاشِراً قد جمَّعوا مالاً ووُلْدا
وهمُ رَبَاب حائرٌ[5] لا يُسْمِع الآذانَ رعدا
فعش بجَدٍّ لا يضِرْ ك النَّوْكُ[6] مالاقيت جَدًّا[7]
والعيش خير فى ظلا ل النَّوْك ممن عاش كدًّا

ومن قوله:

ان السعيد له فى غيره عظة وفى التجارب تحكيم ومُعتبَر

(٩) لَبِيد بن ربيعة

هو أبو عُقَيل لبيدُ بن ربيعة العامرىّ ، أحد أشراف الشعراء المجيدين، والقُوّاد الفُرسان المعمَّرين ، والاجواد العريقين والحـكماء المحنّـكين . وهو من بنى عامر بن صعْصعة احدى بطون هوازن من مضر ، وأمُّه عبْسيَّة . نشأ لبيد جواداً شـجاعاً فاتكا : أما الجود فورِثه عن أبيه الملقب بربيعةِ المُقْتِرين ، وأما الشجاعةُ والفتكُ فهما خصلتا قبيلته ، اذ كان عمُّه مُلاعِبُ الاسنّة أحدَ فُرْسان مضرَ فى الجاهلية . وكان بين قبيلته وبين بني عبس أخوالِه عداوةٌ شديدة ، فاجتمع وفداهما عند النعمان بن المنذر ، وعلى العبسيين الربيع بن زياد ، وعلى العامريين ملاعب الأسنة ، وكان الربيع مقرَّباً عند النعمان يؤاكله وينادمه ، فأوغر صدره على العامريين ، وعدَّد معايبهم ومخازيهم . فلما دخل وفْدهم على النعمان غضّ منه وأعرضَ عنه ، فشق

منشؤه

---

(١) سلاحاً (٢) خيلاً (٣) جبل لبني نمير (٤) القناع ما تستر به المرأة رأسها
(٥) سحاب أبيض لم يتجه جهة (٦) الحمق (٧) حظا

ذلك عليهم وخرجوا غضابا يتذاكرون فى أمرهم مع الملك ، ولبيدٌ يومئذٍ صغيرٌ يسرح إبلهم ويرعاها ، فسألهم عن خطبهم فاحتقروه لصغره ، فألحَّ حتى أشركوه معهم ، فوعدهم أنه سينتقم لهم منه غداً عند النعمان أسوأ انتقام : بهجاء لا يجالسه بعدَه ولا يؤاكله ، فكان ذلك ، ومقت النعمان الربيع ولم يقبل له عُذراً ولم يجتمع به بعد ، واكرمَ العامريين وقضى حوائجهم . فكان هذا أوَّلَ ما اشتهرَ به لبيد .

سبب قوله الشعر

ثم قال بعد ذلك المقطعات والمطوّلات ، وشهد النابغة له وهو غلام بأنه أشعر هوازن حين سمع معلّقته التى أوّلها :

عفتِ الديارُ محلُّها فمقامُها   بمِنًى تأبّد غَوْلُها فرِجامُها (1)

ومن حوادثِ فتكه أن الحارث الاعرجَ الغسَّانى أرسلَ مائة من الفتيان الفتّاك على رأسهم لبيد ، ليغتالوا المنذرَ بنَ ماءِ السماء ملكَ الحيرة ، فذهبوا إليه وأظهروا أنهم أتوه داخلين فى طاعته ، فأدناهم إليه ، ولما صادفوا منه غِرةً قتلوه وهربوا ، فتبعهم جنودُ المنذر وقتلوا كثيراً منهم وفرّ البقية وفيهم لبيد — ولما ظهر الاسلام وأقبلت وفود العرب على النبى صلى الله عليه وسلم جاءَ لبيد فى وفد قومه بني جعفر ابن كلاب بن عامر وأسلم وعاد إلى بلاده وحسن اسلامه ، وتنسَّك وحفِظ القرآن كله وهجر الشعر حتى لم يروَ له فى الاسلام غير بيت واحد وهو (2) :

اسلامه وهجره للشعر

ما عاتب الحرّ الكريمَ كنفسِه   والمرء يصلحه الجليسُ الصالحُ

وبعد أن فتحت الامصار ذهبَ إلى الكوفة زمنَ عمر واختارها دار إقامة .

ومن أحاديث جوده أنه نذر فى الجاهلية (ألاَّ تهبَّ الصبا إلاَّ أطعم) وألزم ذلك نفسَه فى الاسلام ، وكانت له جفنتان يغدو بهما ويروح على مسجد قومه بالكوفة فهبت الصَّبا والوليد بن عقبة والى الكوفة على المنبر ، ولبيد يومئذٍ قليل

---

(1) الديار فى الاصل ماحلّ فيها لايام معدودة ، والمقام ما طالت الاقامة به ، ومنى موضع بنجد غير منى مكة ، تأبد توحش ، الغول ما انهبط من الارض ، والرجام واحده رجمة وهى الهضاب وقيل الغول والرجام موضعان

(2) وقيل هو :   الحمد لله اذ لم يأتنى أجلى   حتى اكتسيت من الاسلام سربالا

المال ، فحرّض في خطبته الناس أن يعينوه على مروءته ففعلوا ، وبعث هو إليه مائة بكرة ، فشكرته ابنة لبيد عن أبيها على ذلك بشعر جميل . وما زال بالكوفة حتى مات في أوائل خلافة معاوية سنة احدى وأربعين من الهجرة ؛ ومن ذلك تعلم أنه من كبار المعمرين ، وقد قيل إنه عاش ثلاثين ومائة سنة

شعره

شعره — انما جعلنا لبيداً في فحول الجاهلية وإن عُمّر في الاسلام أكثر من أربعين سنة : لأنه كما قدمنا لم يكن شاعراً في الاسلام ، بل لم يصح عنه فيه إلا بيت واحد . وقال لبيد الشعر ونبغ فيه وهو غلام ، وجرى فيه على سَنن الأشراف والفرسان : كعنترة وعمرو بن كلثوم ، فلم يجعله مورد كسب ، ولذلك ترى في شعره ولا سيما معلقته نبالة الفخر والتحدّث بالفتوة والنجدة والكرَم وإيواء الجار وعزة القبيل . ويشابه علوّ همته جزالة لفظه ، وفخامة عبارته ، ودقة معانيه ، وشرف مقاصده ، وقلة اللغو في قوله ، وكثرة اشتماله على عقائد الايمان والحكمة الصادقة والموعظة الحسنة . وقد ثبت في الصحيحين شهادة النبي صلى الله عليه وسلم له بقوله أصدق كلمة قالها شاعرٌ كلمة لبيد (ألا كل شيء ماخلا الله باطل) . وهو ممن يجيد الرثاء من الجاهليين ، ويأتي فيه بأبدع الحكم والامثال التي تذهب الاحزان ، وتسلي الهموم ، وتهوّن على النفس ألم المصيبة ، وعبارته فيه سهلة تخلص إلى النفس بلا عائق من غرابة في لفظ ، أو تعقيد في معنى

ومن جيد شعره قوله في معلقته مفتخراً بفعاله وقوله وقومه :

إِنّا إذا التقتِ المجامعُ لم يزل ... منا لِزَازُ عظيمةٍ جَشّامُها (١)

ومقسّمٌ يُعطي العشيرةَ حقّها ... ومُغَذْمِرٌ لحقوقها هَضّامُها (٢)

---

(١) رجل لزاز الخصوم يصلح لان يلز بهم أي يقرن ليغلبهم ويقهرهم ، جشم الامر كسمع تكلفه على مشقة وجشام مبالغة منه أي لاتخلو المجامع من رجل منا يتحلى بقمع الخصوم ويتكلف الخصام (٢) الغذمرة الغضب ، والهضم الظلم . يريد منا الذي يقسم الغنائم فيوفر على العشائر حقوقها ويتغضب عند اضاعة شيء منها ويهضم حقوق عشيرته اذا ظلمت وجارت

فضلاً ، وذو كرم يُعين على الندى | سمحٌ كسوبُ رغائبٍ غُنّامُها (١)
من معشرٍ سنَّتْ لهم آباؤهم | ولكل قومٍ سنَّةٌ وإمامها
لا يطبَعون ولا يبورُ فَعالُهم | اذ لا تَميلُ مع الهوى أحلامها (٢)
فاقنع بما قسمَ المليكُ فانما | قَسَمَ الخلائقَ بيننا علاّمُها
واذا الامانةُ قُسِّمت فى معشرٍ | أوفى بأوفرِ حظنا قسّامُها
فبنى لنا بيتاً رفيعاً سَمكُهُ | فسما إليهِ كَهلُها وغلامُها
وهمُ السُّعاةُ إذا العشيرةُ أُفظِعَت | وهمُ فوارسُها وهمْ حكّامُها (٣)
وهمُ ربيعٌ للمجاورِ فيهمُ | والمُرمِلاتِ إذا تطاولَ عامُها (٤)
وهم العشيرةُ أن يبطِّىءَ حاسدٌ | أو أن يميلَ مع العدوِّ لئامُها (٥)

ومن قوله فى النعمان يرثيه :

ألا تسألان المرءَ ماذا يحاول | أنحبٌ فَيُقْضَى أم ضلالٌ وباطل (٦)
أرى الناس لا يدرون ماقدر أمرهم | بلَى كل ذى لبٍّ إلى الله واسل (٧)
ألا كل شىء ما خلا الله باطل | وكل نعيم لا محالة زائل (٨)
وكل أناس سوف تدخل بينهم | دوَيْهيةٌ تصفرُّ منها الانامل (٩)

---

(١) الرغائب جمع رغيبة وهى العطاء الكثير ، والامر المرغوب فيه ، وفضلاً أى يفعل ذلك تفضلا
(٢) الطبع تدنس العرض وتلطخه ، والبوار الفساد ، والاحلام العقول
(٣) افظعت اصيبت بأمر فظيع (٤) ارمل القوم نفد زادهم أى هم لمن جاورهم وللنساء اللاتى نفدت ازوادهن بمنزلة الربيع لعموم نفعهم واحيائهم اياهم بجودهم
(٥) هم متعاضدون كراهية ان يبطىء الحساد بعضهم عن نصر بعض أو ان يميل لئامهم الى الاعداء
(٦) السؤال بمعنى الاستفهام ، والمحاولة استعمال الحيلة ، والنحب النذر — اسألوا هذا الحريص على الدنيا عما هو فيه أهو نذر نذراً على نفسه فلا بد من فعله أم هو ضلال وباطل من أمره
(٧) الواسل الطالب والراغب الي الله — أرى الناس لا يعرفون ماهم فيه من خطر الدنيا وسرعة زوالها فالعاقل من يتوسل الى الله بالطاعة والعمل الصالح
(٨) كل شىء غير الله تعالى زائل وفائت ومضمحل ليس له دوام
(٩) التصغير للتعظيم والمراد الموت ، والمقصود من الانامل الاظفار لأن صفرتها لا تكون الا بالموت

وكل امرئٍ يوماً سيعلم غيبه ... اذا كُشّفت عند الإله الحصائل (١)
إذا المرء أسرى ليلة خال أنه ... قضى عاملاً والمرء ما دام عامل (٢)
فقولَا له إن كان يَقسم أمره ... ألمّا يعظْك الدهر ، أمُّك هابل (٣)
فتعلمَ أن لا أنت مدرك ما مضى ... ولا أنت مما تحذَر النفسُ وائل (٤)
فان أنت لم ينفَعك علمك فانتسب ... لعلك تهديك القرون الاوائل (٥)
فان لم تجد من دون عدنان والداً ... ودون معدٍّ فلْتزَعْك العواذلُ (٦)

(١٠) أُمية بن أُبي الصَّلْت

هو أبو عثمان أمية بن أبي الصلت عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي شاعر ثقيف وأحد الملتمسين للدين في الجاهلية

منشؤه — نشأ بالطائف ، وكان أبوه شاعراً مشهوراً ، فأربى أمية عليه ، واستزاد النظر في الاديان ، وتطلبها من أهل الكتاب ، وروى الكثير من أخبار اليهود والنصارى ، وما بقي في رءوس شيوخ الجاهلية من ملة ابراهيم واسماعيل . وحدّث عن خلق السموات والأرض والملائكة والجن وشرائع الانبياء والرسل . وخاض في التوحيد وأمر الآخرة ، وتعبد ولبس المُسوح وحرّم الخمر على نفسه . وشك في الاوثان . ورأى في هذه الكتب ما يبشر ببعثة نبيّ من العرب فطمِع أن يكونه . فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كسف باله ، وحمله الحسد والكمد

(١) جمع حصيلة والمراد الحسنات والسيئات
(٢) اذا سهر المرء في عمل ظن انه فرغ منه ، وهو ماعاش يعرض له مثل ذلك
(٣) يقسم يدبر ، هبلته أمه ثكلته (٤) فتعلم بالنصب جواب النفي ، ووائل من وألت بمعنى نجت والموئل المنجى
(٥) ان لم تنتفع بعلمك فانتسب وقل ابن فلان بن فلان فانك لا ترى أحداً بقي ، لعلك تهديك وترشدك هذه القرون الخالية .
(٦) تزعك تكفك ، العواذل هنا الحوادث ، وعدنان جده الاعلى — يقول لم يبق لك أب حي الى عدنان فكف عن الطمع في الحياة

أن ينابذه ويكفر بدينه على علمه بصحته ، ويحرض عليه قريشاً ، ويرثى قتلاهم في وقعة بدر . فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن رواية شعره فى ذلك . وروى أنه هو الذى نزلت فيه آية « واتلُ عليهم نبأ الذى آتيناه آياتِنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين » وكان عليه الصلاة والسلام اذا سمع شعره فى التوحيد والإيمان والثناء علي الله يقول : آمن لسانه وكفر قلبه . واختص بأكثر مدائحه فى الجاهلية عبد الله بن جُدْعان (أحد سَراة قريش وأجوادها) حتى كان منه بمنزلة زهير مع هرِم . وأقام بقية حياته بالطائف الى أن مات بها كافراً سنة تسع للهجرة

شعره — يعد أمية من أكبر شعراء القرى على قلة الشعر فيهم ، غير أن الذى أزرى بشعره فى نظر بعض علماء العربية حتى أسقطوا الاحتجاج به كثرة استعماله للدخيل من العبرية والسريانية فى شعره ، كأنهم أنكروا عليه حق التعريب لشدة مخالطته للأعاجم وان كان عربياً صريحاً كما أنكروه على عدى بن زيد لادخاله الكثير من ألفاظ الفرس فى شعره وطول معاشرته لهم

وكان أمية يسمّى السماء صاقورة ، وحاقورة ويزعم أن للقمر غلافاً يدخل فيه اذا خسف ويسميه (الساهور) ويسمى الله فى شعره السُّلطّيط ، والتَّغرور ونحو ذلك

ويمتاز شعره ببعض السهولة فى لفظه وبذكره بعض العجائب من القصص الخيالية والأساطير الخرافية ، وخلق العالم وفنائه ، وأحوال الآخرة وصفات الخالق والخشوع له ويذكر من ذلك مالم يذكره أحد من الشعراء قبله ، ويتخلل ذلك شيء من الحكم والامثال

ومن شعره :

الحمد لله مُمسانا ومُصبَحنا ... بالخير صبّحنا ربى ومسّانا

ربّ الحنيفة[1] لم تنفَد خزائنه ... مملوءة طبّق الآفاق سلطانا

ألا نبيّ لنا منا فيخبرنا ... ما بعد غايتنا من رأس مَحيانا

(١) يريد بها ملة ابراهيم

وقد علمنا لو أن العلم ينفعنا　　أنْ سوف تُلحق اخرانا باولانا

وعتب على ابن له فأنشأ يقول :

غذوْتك مولوداً ومُنتك يافعاً　　تعلُّ بما أجنى اليك وتنهْل
اذا ليلةٌ نابتْك بالشجو لم أبِتْ　　لشكواك الاَّ ساهراً أتململ
كأنّى أنا المطروق دونك بالذى　　طرقت به دونى فعينىَ تهمل
تخاف الرَّدى نفسى عليك وإننى　　لأَعلم أن الموت حتم مؤجَّل
فلما بلغْتَ السّن والغاية التى　　اليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة　　كأنك أنت المنْعم المتفضل

ومن قوله فى المدح :

عطاؤك زين لامرئٍ قد حبوْته　　بخير وما كل العطاء يزين
وليس بشيْن لامرئٍ بذْل وجهه　　اليك كما بعض السّؤال يشين

ومن قوله وقد حضرته الوفاة :

إن تغفر اللهمّ تغفر جمَّا　　وأىُّ عبدٍ لك لا ألمَّا



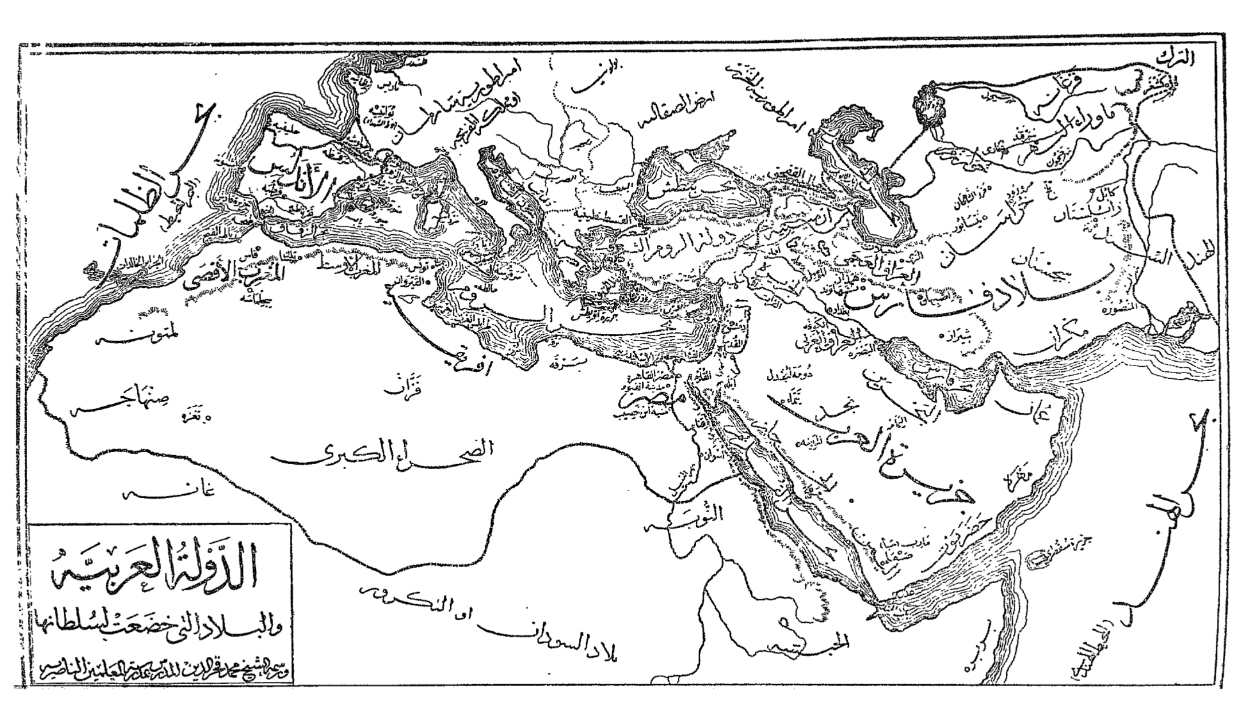
الرواية والرواة

قد علمنا مما تقدم أن عامة المرويّ من كلام العرب : شعرها ونثرها وأخبارها معزوّ الى أهل البدو الأميين ، ولذلك لم يصل الينا كتابٌ يجمع بين دفّتيه الكثير منها ، الاّ ماروى عن هشام بن الكلبي : من أنه استخرج أخبار ملوك الحيرة من بعض صحفهم ، والاَّ ما قيل من حديث الطُّنوج (١) التى عثر عليها المختار الثّقفيّ تحت قصر النعمان بالحيرة ؛ وما روى لنا من كلام فصحاء العرب ليس الاّ النزر اليسير بوجوه مختلفة : من نقص وزيادة ، وتقديم وتأخير ، ووضع لفظ موضع آخر ، إذ لا يعقل أن الناس كيفما قويت ملكة الحفظ فيهم (كما هو شأنها فى الأمة العربية) يضبطون كل ما يسمعونه طبق أصله بلا تغيير ولا تبديل ، ولو كان هذا الأمر ممكناً لغنيت أمة به عن الكتابة ولن تغنى . وبالطبع لا يحفظ هذه الوديعة الاّ أهل الحفاظ عليها والاعتداد بها ، وهم الشعراء والمتأدّبون وأرباب الأحساب والمفاخر ، فقد كان امرؤ القيس راوية أبى دواد الايادى ، وزهير راوية أوْس بن حجر والأعشى راوية المسيَّب بن عَلَس

واشتهر من قريش أربعة بأنهم رواة الناس للأشعار وعلماؤهم بالأنساب وهم : مَخْرمة بن نَوْفل ، وأبو الجَهْم بن حُذَيفة ، وحُويْطب بن عبد العُزَّى وعَقيل بن أبى طالب

---

(١) الكراريس ولا واحد لها



الدولة العربية
والبلاد التي خضعت لسلطانها
وضعها الشيخ محمد فخر الدين المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية
الترك
فرغانة
ما وراء النهر
خراسان
بلاد فارس
سجستان
مكران
الهند
العراق العجمي
العراق العربي
أرمينية
دولة الروم الشرقية
القسطنطينية
بحر بنطش
أرض الصقالبة
مصر
جزيرة العرب
نجد
عمان
حضرموت
النوبة
الحبشة
بربرة
الصحراء الكبرى
بلاد السودان أو التكرور
غانة
صنهاجة
لمتونة
فزان
افريقية
برقة
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط
فاس
القيروان
الأندلس
بحر الظلمات
المحيط الهندي

العصر الثانى

عصرُ صدرِ الاسلام ، ويشملُ بنى أُمَيَّةَ (١)

حالة اللغة وآدابها فى ذلك العصر

ملخص حالة اللغة فى الجاهليه

كانتِ العربُ فى أُخْرَياتِ جاهِليَّتِها بحسب طبيعة أرضها أُمماً بَدويّةً ، وقبائلَ رحّالةً ، ليس لها من وسائلِ العُمران وأسبابِ الرّخاءِ ما يحمِلُها على تبحُّرٍ فى علم ، أو تبصُّرٍ فى دين ، أو تَفَنُّنٍ فى تجارة ، أو تأنُّقٍ فى زراعة ، أو تدبُّرٍ فى سياسة ؛ وكانت من التدابُرِ والتقاطعِ والتصاوُلِ (٢) على حالٍ لم تقتصِر على سكّانِ القَفْرِ والوَبَر ، بل عمّتِ المُدنَ والمدَرَ (٣) ، وعلى وَفق ذلك كانتِ اللغة العربيةُ لا تعدُو أغراضَ المعيشة البدوية ووصفَ مرافقها ، وإثارةَ المنازعات والمشاحنات ، إلاَّ أن رُوحاً من الله تَنَسّمَ (٤) بين أرجائها فأيقظها من رَقدتها ، ونبّهها لضَرورة التعاون على الخير فى معاشها ولغتها وجماعتها ؛ فظهر ذلك بيِّناً فى الاسواق التجارية اللغوية الاجتماعية وفى الإذعان فيها إلى حكومة الأشراف والفصحاء والنبلاء من قريش وتميم وغيرهما . مما هيّأهم لأن يجتمعوا تحت لواء واحد ، ويتفاهموا بلسان واحدة ، فكان ذلك إيذاناً من الله باظهار الاسلام فيهم . وما ألفِت نفوسُهم هذا النمطَ الجديدَ إلاَّ وقد جاءَ النبى الكريم لامّاً لشَعَثهم ، موحّداً لكلمتهم ، مهذّباً لطباعهم ، منشّئاً لهم تَنشِئةً جديدة ، مبيِّناً طريقَ الحق ، وجادّةَ الصواب ، بشريعة عظيمة ، تتمثّلُ فى كلام

---

(١) خلفاء بنى أمية هم :

١	معاوية بن ابى سفيان	(٤١ ــ ٦٠)
٢	يزيد بن معاوية	(٦٠ ــ ٦٤)
٣	معاوية بن يزيد	(٦٤ ــ ٦٤)
٤	مروان بن الحكم	(٦٤ ــ ٦٥)
٥	عبد الملك بن مروان	(٦٥ ــ ٨٦)
٦	الوليد بن عبد الملك	(٨٦ ــ ٩٦)
٧	سليمان بن عبد الملك	(٩٦ ــ ٩٩)
٨	عمر بن عبد العزيز	(٩٩ ــ ١٠١)
٩	يزيد بن عبد الملك	(١٠١ ــ ١٠٥)
١٠	هشام بن عبد الملك	(١٠٥ ــ ١٢٥)
١١	الوليد بن يزيد بن عبد الملك	(١٢٥ ــ ١٢٦)
١٢	يزيد بن الوليد الاول	(١٢٦ ــ ١٢٦)
١٣	مروان الجعدى	(١٢٧ ــ ١٣٢)

(٢) التواثب والمهاجمة (٣) الحضر (٤) تنفس

الله وكلام رسوله ؛ فكان من نتيجة ذلك أن أسست لهم جامعة قومية ملية وملك كبير

أثر الاسلام فى اللغة

وبالتفاف العرب حول صاحب هذه الدعوة وأنصاره ، وتفهمهم شريعته وكلامه ثم خضوعهم بعد لزعامة[1] قومه وخلفائه ، وولاتهم وأعوانهم وأنصارهم ، وفتوحهم تحت ألويتهم ممالك الأكاسرة والقياصرة وغيرها : من جبال البرانس[2] الى الهند والصين ومخالطتهم أهلها بالجوار والمصاهرة ، حدث فى حياتهم الفكرية واللسانية ما يمكن اجماله فى الأمور الآتية :

الأول — شيوع اللغة القرشية ، ثم توحد لغات العرب وتمثلها جميعها فى لغة قريش ، واندماج سائر اللهجات العربية فيها . وبعض أسباب هذا يرجع الى ما قبل الاسلام بتأثير الأسواق والحج واختيار قريش ، وأكثرها يرجع إلى نزول القرآن بلغتهم ، وظهور ذلك الداعى العظيم منهم ، وانتشار دينه وسلطانه على أيديهم ، إذ كانوا هم القائمين بأمر الاسلام بعد فتح مكة ، ومنهم كان الخلفاء والأمراء وقادة الجيوش ورجالات الدولة وأصحاب الحل والعقد الذين تألفت منهم عصبية[3] العرب فى الاسلام ، وكان لهم الغلب على كل قبائله وامه ؛ وبحكم الضرورة تكون لغتهم هى اللغة الرسمية بين كل القبائل . واذا علمنا أن أكثر رجال الدولة العربية من السلالات المضرية ، وهم أولاد عم قريش ، سهل علينا أن نعرف وجه انتحال أكثر العرب لغة قريش فى زمن قليل . أما ما كان باقياً من لغة حمير فلم يكن متميزاً من لغة قريش بأمر جوهرى فى إعراب أو أسلوب أو تصريف ، بل كان باختلاف بعض الألفاظ فى دلالتها على المعانى المتحدة ؛ فمثلاً الشناتر ، بلغة حمير : الأصابع بلغة قريش ؛ والكتع عند حمير : الذئب عند قريش ؛ وأنطى فى كلام حمير : أعطى فى كلام قريش . الى غير ذلك مما له نظائر بين لغات بعض قبائل مضر أنفسها ولغات بعضها الآخر ؛ فمثلاً السدفة : الظلمة عند تميم ، والضوء عند قيس وهكذا . ولذلك لم تتخلف

---

(١) رياسة (٢) جنوبى فرنسا

(٣) العصبية تناصر العشيرة والقبيلة بعضها لبعض والمراد هنا القوة

لغة حمير عن اللحاق بأخواتها من لغات العرب واندماجها فى لغة قريش

الثانى — انتشار اللغة العربية فى ممالك الفرس والروم وغيرهما بالفتوح والمغازى[1] وهجرة قبائل البدو اليها ، واستيطانهم لها ، واختلاطهم بأهلها ، وتقرب هؤلاء الأعاجم اليهم بتعلم لغتهم والدخول فى دينهم المستمد من القرآن العربى المبين

الثالث — ظهور اللحن فى الكلام بين المستعربين : من الموالى ، وأبناء العرب من الفتيات ، وبعض العرب المكثرين من معاشرة الأعاجم

اتساع أغراض اللغة

الرابع — اتساع أغراض اللغة بسلوكها منهجاً[2] دينياً ، واتباعها خطة نظامية تقتضيها حال الملك وسكنى الحضر وتتضح فيما يأتى :

(١) تبيين العقائد الدينية التى جاء بها الاسلام : من اثبات وجود الخالق ، وتوحيد ذاته ، وتقديس صفاته ؛ ومن الايمان بالبعث والنشور والثواب والعقاب وغير ذلك ، مما لم يكن يفقه بعضه الا بعض خاصة الجاهلية ، وأصبح بعد الاسلام الشغل الشاغل لجميعهم بل للأمة الاسلامية جمعاء

(٢) تبيين الشريعة واستنباط الأحكام الملائمة لاحوال الزمان والمكان ، والكافلة لحسن معيشة المرء فى منزله ، ومعاملته للناس والسلطان

(٣) استعمالها فى ضبط أمور الملك ونظام العمران ، ونشر الامان والعدل ، وفيما تستدعيه مرافق أهل الحضر والأمصار

(٤) وضع مبادئ بعض العلوم ، وترجمة اليسير من العلوم الطبعية والرياضية والطبية

معانى اللغة

الخامس — ارتقاء المعانى ، ويظهر ذلك فى الأمور الآتية :

(١) اتساع مادة المعانى باتساع مادة المشاهدات والمعقولات

(٢) حسن نظامها ومراعاة الوفاق بينها. لارتقاء الفكر وتثقيفه بالنظر الصحيح فى أمور الدين والملك والاقتباس من حضارة الفرس والروم ، وتنوع صور الخيال وروعة جماله ، تبعاً لتنوع المرئيات الجميلة التى انتزع منها

---

(١) الغزوات (٢) المنهج الطريق

السادس — تغير الألفاظ والأساليب بما يأتي :

عبارة اللغة

(١) تهذيب ألفاظ اللغة : بمحاكاة ألفاظ القرآن الكريم والسنة في مجانبة حُوشيّ الألفاظ الذي ينبو عنه السمعُ ، ويمجه الذوق السليم

(٢) التوسع في دلالة الألفاظ : باخراجها من معنى إلى معنى بينه وبين الأوّل مناسبة ، ومن ذلك الالفاظُ التي استعملها الشارع في غير معناها الأصلي : كالصلاة والصيام والزكاة ، والمؤمن والكافر والفاسق والمنافق وغير ذلك ، والألفاظُ التي استعملت في نظام الملك ، ومصطلحات العلوم والصناعات التي عرفت في ذلك العصر

(٣) موتُ ألفاظٍ حظر الشارع استعمال مدلولاتها أو أعاض منها غيرها كالمرباع (١) والنَّشيطة (٢) والفُضُول (٣) وكعِمْ صباحاً ، وعِمْ ظلاماً

(٤) دخولُ طائفةٍ من الألفاظ الاعجميةِ في الكلام وتسمى الكلمة حينئذٍ معرّبة (٤)

---

(١) المرباع ربع الغنيمة ، وكان يختص به قائد الغارة وفارسها

(٢) ما كانوا يغنمونه عفوا في طريقهم الى غارة مقصودة

(٣) الفضول ما فضل من القسمة مما لا يمكن قسمه على الغزاة كفرس ونحوه ويعطى لفارس الغارة أيضاً قال الشاعر العربي :

لك المرباع فينا والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

(٤) التعريب أن تدخل العرب كلمة من كلام العجم في لغتها ، وتجريها غالباً على منهاج أبنية كلمها وتنطق بها من مخارج حروفها ، ويسمى اللفظ الأعجمي بعد استعماله « معرباً » أو دخيلا » والصحيح منه في غير الاعلام (على ماقاله أئمة اللغة) ماوقع في القرآن الكريم ، أو الحديث الصحيح ، أو الشعر القديم ، أو كلام من يوثق بعربيته ، وهم عرب الجاهلية ؛ وعرب الاسلام الفصحاء ؛ الى أواسط القرن الثاني . وما عرّبه المتأخرون من المترجين والاطباء وغيرهم يسمى مولداً ، سواء أكان أعجميّ الأصل أم محرفاً من العربي . وقد أخذ العلماء على صاحب القاموس ذكر بعض الكلمات المولّدة في مُعجَمه من غير أن ينبه عليها ، فأوقع بعض الناس في لبس . والاشتقاق من الالفاظ الأعجمية سماعي كالتعريب نفسه : مثل ألجم وملجم من اللجام ؛ ومدرهم ومدنر من الدرهم والدينار

هذا واذا احتجنا الى وضع أسماء لمسميات لم تعرفها العرب ، ولم تضع لها ألفاظاً ، وجب أن نأخذها من الألفاظ العربية المهجورة القابلة للتصريف والخفيفة على السمع ، بشرط أن يكون بين المعنيين مناسبة ما ، ويسمى هذا بالوضع العرفيّ أو الاصطلاحيّ ، وهو قياسيّ عند علماء اللغة : لأنه مبني على المجاز القياسي

(٥) التأنق فى صوغ الأساليب والتفنن فى أنواعها وإحكام نظمها ، ووصولها فى البلاغة إلى غايتها : لانبعاث روح القرآن الكريم فى قلوب المتكلمين بها ، وسلوكهم سبيله فى البيان وحسن الأداء مؤثرين الايجاز على الاسهاب فى أكثر المواضع إلى أن تقاصرت دونه أفهامُ الناشئين فى الحضر من العرب والمستعربين من العجم آخرَ هذا العصر ، فأصبح للاسهاب نصيب من عنايتهم لا يقل عن الايجاز

ولما كان معظم هذه التغيرات يرجع إلى القرآن الكريم والحديث النبوى ، ناسب أن نذكر قُلًّا من كُثْر مما ينبغى أن يقال فيهما

القرآن الكريم وأثره فى اللغة

القرآن (كتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُه ثم فُصِّلَتْ من لَدُنْ حكيمٍ خبيرٍ) فيه آياتٌ بَيِّنات ، ودلائلُ واضحات ، وأخبارٌ صادقة ، ومواعظُ رائقة ، وشرائعُ راقية ، وآدابٌ عالية ، بعباراتٍ تأخذُ بالألباب ، وأساليبَ ليس لأحد من البشر بالغاً ما بلغ من الفصاحة والبلاغة أن يأتى بمثلها أو يفكّرَ فى محاكاتها ؛ فهو آيةُ الله الدائمة ، وحجّته الخالدة ، (لا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) . أنزله الله على رسوله ليبلّغه قومَه وهم فحول البلاغة ، وأمراء الكلام ، وأباة الضيم ، وأربابُ الأَنَفَةِ والحَمِيَّة ، فبهرَهم بيانُه ، وأذهلهم افتنانُه ، فاهتدى به من صحّ نظرُه واستحصَفَ [1] عقلُه ، ولطف ذوقُه . وصدَّ عنهُ [2] أهلُ العناد والمكابرة واللَّجاج [3] فتحدّاهم [4] أن يأتوا بمثله فنكصوا [5] ، ثم بعشر سور مثله فعجزوا ، ثم بسورةٍ من مثله فانقطعوا [6] ؛ فحق عليهم إعجازُه [7] ، قال تعالى

---

(١) استحكم (٢) أعرض عنه (٣) الخصومة (٤) تحدى الرجل خصمه باراه ونازعه الغلبة فى الشىء (٥) احجموا (٦) انقطع فى المحاجة غلب وسكت بهراً وانقطعت حجته

اعجاز القرآن — (٧) أجمع المسلمون على أن القرآن معجز ، وسلكوا الى بيان اعجازه طرقاً شتى ، ونشير هنا الى نقطة من بحر مما قالوه ، فهو معجز

(قلْ لَئِن اجتمعتِ الإِنسُ والجنُّ على أنْ يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتون بمثلِه ولوْ كانَ بعضُهم لبعضٍ ظهيراً)(١)

وقد علمتَ مما تقدم في حالة اللغة ما كان له من الأثر البيّن في توحيد اللغة ونشرها وترقيتها من حيث أغراضُها ، ومعانيها ، وألفاظها ، وأساليبها ؛ ونزيد هنا أنه قد أثر فيها ما لم يؤثّره أيُّ كتاب سماويًّا كان أو غير سماويّ في اللغة التي كان بها ؛ إذ ضمن لها حياة طيبة وعمراً طويلاً ، وصانها من كل ما يشوّه خَلْقَها ، ويُذوي(٢) غضارتها (٣) ؛ فأصبحت وهي اللغة الحيّة الخالدة من بين اللغات القديمة التي انطمست آثارها ، وصارت في عِداد اللغات التاريخيــة الأثريَّة — وأنه قد أحدثَ فيها علوماً جَمّة وفنوناً شتّى لولاه لم تخطُر على قلب ، ولم يخُطَّها قلم : منها اللغةُ ، والنحو ، والصرف ، والاشـتقاق ، والمعاني ، والبديع ، والبيان ، والأدب ، والرسم ،

أولاً — من جهة أغراضه ومقاصده — فتجده في كل غرض وموضوع غاية في الابانة والجلاء ، ونهاية في الاصابة واطراد الاحكام : فمن تشريع خالد ، وتهذيب بارع ، وتعليم جامع ، وأدب بالغ ، وارشاد شامل ، وقصص واعظ ، ومثل سائر ، إلى حكمة بالغة ، ووعد ووعيد ، وإخبار بمغيب ، وغير ذلك من الاغراض والمقاصد

وقد كان فحول البلاغة لا يبرّز أحدُهم إلا في فن واحد من أنواع القول : فمن يبرع في الخطابة لا ينبغ في الشعر ، ومن يحسن الرجز لا يجيد القصيد ، ومن يستعظم منه الفخر لا يستعذب منه النسيب ، ولأمرٍ ما ضربوا المثلَ بامرىء القيس اذا ركب ، وزهير اذا رَغِب ، والاعشى اذا طرب ، والنابغة اذا رَهِب

ثانياً — من جهة ألفاظه وأساليبه — فلا تجـد منه الا عذوبة في اللفظ ، ودماثة في الاساليب ، وتجاذباً في التراكيب ، وليس فيها وحشيّ متنافر ، ولا سُوقيّ مبتذل ، ولا تعبير عويص . ولا فواصلُ متفككة ، على شيوع ذلك في كلام المُفْلِقين ، وأهل الحيطة المتروّين ، حتى إنك لترى الجملة المقتبسة منه في كلام أفصح الفصحاء منهم تفرّعة جمالاً ، وتشمله نوراً ، وتكسوه روعة وجلالة ، الى اجمالٍ في خطاب الخاصة ، وتفصيلٍ في تفهيم العامة ، وتكنيةٍ للعربي ، وتصريح للاعجمي ، وغير هذا مما يقصُرُ عن احصائه الالمام ، ولو أن ما في الارض من شجرة اقلام

ثالثاً — من جهة معانيه — فانك تجدُها من غير معين العرب الذي منه يستقون : لاطراد صدقها وقرب تناولها ، واطمئنان النفوس اليها ، وابتكارها البـديع على غـير مثالٍ معهود : من حجج باهرة ، وبرهانات قاطعة ؛ وأحكام مسلمة ، وتشبيهاتٍ رائعة ، على تمازجٍ وتواصل ، وبراءة من التقاطع والتدابر . وهو في جملته نزهةُ النفوس وشِفاءُ الصدور . وهو الكتاب الخالد الذي لا تبديل لكلماته ، ولا ناسخَ لاحكامه ولا ناقض ، إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون

(١) مساعداً ومعيناً (٢) يذبل (٣) غضارة النبات والعيش نضارته

والقراءات ، والتفسير ، والأصول ، والتوحيد ، والفقه

نظم القرآن

ونظم القرآن من نوع النثر وان لم يجر على مألوف العرب فى نثرها المرسل وسجعها الملتزم ، بل هو آيات وفواصل يشهد الذوق السليم بانتهاء الكلام عندها ، فتارة تكون سجعاً ، وطوراً تكون موازنة وازدواجاً ، واحياناً لا تكون هذا ولا ذاك

وفى القرءان الكريم من الحكم والأمثال وجوامع الكلم ما كان به هداية الحكيم ، وارشاد الأديب ـ فمنها :

طائفة من الآيات الكريمة

أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم — وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ـ (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون) — (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) — قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى — لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ـ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ـ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ـ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ـ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ـ من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيرا ـ (ما على الرسول إلا البلاغ) ـ قل لا يستوى الخبيث والطيب ـ {لكل نبأ مستقر} ـ (ما على المحسنين من سبيل) ـ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ـ لكل أجل كتاب ـ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً — قل كل يعمل على شاكلته — لله الأمر من قبل ومن بعد — ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه — وحيل بينهم وبين ما يشتهون — ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ـ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون — هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ـ فاعتبروا يا أولى الأبصار ـ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى

جمع القرآن وكتابته

نزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم منجّماً على حسب الوقائع ومقتضيات الاحوال فى بضع وعشرين سنة ؛ وكان عليه الصلاة والسلام يأمر كتّابَ وحيه بكتابةِ ما ينزِّل ، فكانوا يكتبونه بين يديه فى عُسُبٍ [١] أولِخافٍ [٢] أو أكتافٍ [٣] ، وهو يرشدهم إلى وضع كل آية من السورة التى ينبغى أن تكون فيها . وفى صحيح البخارىّ أن جبريل كان يعارض [٤] النبى صلى الله عليه وسلم بالقرآن كل عام مرة ، وانه عارضه به مرتين فى العام الذى توفّى فيه . وفى الاتقان [٥] للسيوطى أن زيد بن ثابت أكبر كتّاب الوحى شهد العَرْضة الاخيرة التى بُيّن فيها ما نسخ وما بقى ، وكتبها للرسول صلى الله عليه وسلم وقرأها عليه ، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر فى جمع القرآن ، وولاه عثمان كتابة المصاحف .

وتوفى رسول الله والقرآن كله مكتوب ، وفى صدور الصحابة محفوظ ، وان لم يتفقوا فى حفظه وترتيبه لأسباب شتّى . ولما رأى عمر رضى الله عنه أن القتل قد استحرّ [٦] بالحفاظ فى وقعة اليمامة [٧] حتى قُتلَ منهم سبعمائة أشفق من ضياع القرآن ، فذهب إلى أبى بكر وأخبره الخبر ، وبعد أخذ وردّ اتفقا على جمع القرآن وكتابته ، وعهدا بذلك إلى زيد بن ثابت ، فجمعه من العُسُب واللخاف والاكتاف والصدور وكتبه صحفاً ، فكانت تلك الصحفُ عند أبى بكرٍ حياته ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند أم المؤمنين حفصة بنتِ عمر

وفى مدة عثمان كثرتِ الفتوح وانتشر القراء فى الأمصار وقرءوا القرآن بلغاتهم على تعدُّدها ، وأدّى ذلك إلى تخطئة بعضهم بعضاً ، فخشى عثمانُ تفاقم [٨] الأمر ،

---

(١) اصل السعف الذى لا ينبت عليه الخوص من الجريد (٢) حجارة بيض رقاق
(٣) مفردها كتف وهو عظم الاوح من الحيوان (٤) يقابله ويصنع معه مثل مايصنع فى القراءة
(٥) كتاب للسيوطى خاص بعلوم القرآن (٦) اشتد (٧) وهى الواقعة التى قتل فيها خالد ابن الوليد مسيلمة المتنبي الكذاب (٨) تعاظم

فأمر زيدَ بنَ ثابت ، وعبدَ الله بنَ الزبير ، وسعيدَ بنَ العاص ، وعبدَ الرحمن بن الحارث بنِ هشام ، فنسخوا تلك الصحف فى مصحفٍ واحدٍ مرتبِ السور ، واقتصر فيه من جميع اللغات على لغة قريشٍ لنزوله بلغتهم

الحديث النبوى

كانَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أفصح الناسِ وأبينهم وأحكمهم ، وكانت حياته كلها هداية ونوراً ، وأفعاله وأقواله جميعها مَدَداً يستمد منه الخلق سَدادهم ورشادهم فى معاشهم ومعادهم ؛ ولهذا حرَص المسلمون على حفظ ذلك الأثر العظيم حرصاً لم توفق إلى مثله أمة فى حفظ آثار رسولها ؛ فجمعوا من كلامه ووصف أفعاله وأحواله الأسفار الضخام ووعوْا منها فى صدورهم ما لا يدخل تحت حصر . وكلامُه صلى الله عليه وسلم منزَّه عن اللغو والباطل ، وانما كان فى توضيح قرآن أو تقرير حُكْم ، أو ارشاد إلى خير ، أو تنفير من شر ، أو فى حكمة ينتفع الناس بها فى دينهم ودنياهم — بعبارة هى فى الفصاحة والبلاغة والايجاز والبيان بالدرجة الثانية بعد القرآن ، ولذلك كان تأثيرها فى اللغة والأدب بالمنزلة التالية لكلام الله تعالى ، ولا سيما حِكَمُه وجوامعُ كلمه التى هى القدوة الحسنة للأديب ، والحلية التى يزدان بها كلام الكاتب والخطيب

طائفة من الاحاديث الشريفة

فمن جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم :

انما الأعمالُ بالنيات ، وانما لكل امرئٍ ما نَوى — المؤمن للمؤمن كالبنيان يشُدّ بعضُه بعضاً — اليد العُلْيا خير من اليد السُّفْلي وابدأ بمن تعول [1] — يد الله مع الجماعة — كلٌّ ميسَّر لما خُلق له — دَعْ ما يَريبك [2] إلى ما لا يريبك — الناس كلهم سَواسِيَةٌ كأسنان المُشْط — وقوله يخاطب الأنصار: انكم لتقِلُّون عند الطمع ، وتكثُرون عند الفزع — إن أحبَّكم إليّ وأقربكم منى مجالسَ يوم القيامة أحاسِنُكم

(١) تكفل (٢) يجعلك شاكا فيه لست على بينة من أمره

أخلاقاً الموطّئون(١) أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ، وان أبغضكم إليّ وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة الثّرثارون(٢) المتشدّقون(٣) المتفيهقون(٤) . ومن عجائب تمثيله وروائع كلامه قوله صلى الله عليه وسلم : إن قوماً ركبوا في سفينة فاقتسموا ، فصار لكل رجل منهم موضع ، فنقر رجل منهم موضعه بفأس، فقالوا له ما تصنع ؟ قال هو مكانى أصنع فيه ماشئت ، فان أخذوا على يده نجا ونجوْا ، وان تركوه هلك وهلكوا

النثر

لغة التخاطب — الخطابة — الكتابة

لغة التخاطب

كانت لغة التخاطب فى مبدإ الاسلام بين العرب الخُلَّص والموالى النابتين فيهم هى العربية الفصيحة المعْربة ، وكانت لغة الموالى الطارئين عليهم تقرُب من الفصيحة أو تبتعد عنها على حَسَبِ طول لُبْثِهِم فيهم أو قصر مُقامِهِم عندهم ؛ ولذلك أُثِر عمن دخل فى الاسلام حينئذٍ من غير العرب (وكانت إقامته بينهم غير كافية لنسخ عُجْمته جُمْلةً) أنهم كانوا يميلون فى كلامهم العربى الى أساليب لغتهم الأولى ومخارج حروفها وإن لم يقع منهم اللحن ، أو وَقَع قليلاً ؛ فقد رُوِيَ أن بِلالاً(٥) كان يرتضخ(٦) لُكنةً حبشية ، وسَلمان(٧) لُكنةً فارسية ، وصُهيباً(٨) لُكنةً رومية ؛ وأن رجلاً لحَنَ أمام النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أَرْشِدوا أخاكم فقد ضَلّ

أثر الفتوح في لغة التخاطب

ولما فتح المسلمون الامصار، وكثر عندهم سَبْيُ الأعاجم وأسرى الحروب، ودخل

---

(١) الممهدة جوانبهم أى السهلة أخلاقهم

(٢) الثرثار المهذار والصياح (٣) المتشدق الذى يلوى شدقه للتفصح (٤) المتنطع فى كلامه المتوسع فيه كأنه يملأ به فمه (٥) هو بلال بن رباح الحبشى مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦) ينزع الى العجم فى الفاظ من الفاظهم (٧) هو سلمان ابن الاسلام فارسىّ أسلم وصحب رسول الله ومحض المسلمين النصح (٨) صهيب بن سنان عربىّ الاصل سباه الروم وهو صغير ثم عاد الى العرب وأسلم وصحب رسول الله وبقيت فى لسانه لكنة رومية

فى الاسلام منهم ألوف الألوف ، وأصبحوا لهم اخواناً وشركاء فى الدين ، وتم بينهم التزاوج والتناسل ، نشأ للعرب ذرية من فتياتهم الأعجميات اختلطت عليهم ملكة العربية ، لتلقيهم عن آبائهم عربية فصيحة وعن أمهاتهم خليطاً منها ومن الأعجمية . وكذلك كان الشأن فى المتعربين من الأعاجم ؛ اذ أصبحت لهم لغة تخاطب عربية مشوبة بشيء من اللحن والكلمات الدخيلة وغير ذلك من أنواع التغيير والتبديل والتصحيف والتحريف . أما العرب أنفسهم بعد الفتوح فكانت لغتهم في جزيرتهم مثل ما كانت عليه فى جاهليتهم ، وأما سكان الأمصار منهم وأولادهم من الحرائر، فالعامة منهم المخالطون للأعاجم كثيراً بالمعاملة والتسوق [1] لم تخل لغتهم من لحن أو هجنة ، والخاصة منهم تشددوا فى المحافظة على سلائقهم وتحاموا التزوج بالأعجميات وبالغوا فى تربية أبنائهم على إلف الملكة العربية ، فكانوا يرسلونهم إلى البادية ليروضوهم على الفصاحة ، وينشئوا نشأة الأعراب الفصحاء ، أو يحضرون لهم المؤدبين والمعلمين من أفصح الناس وأعلمهم : ليخرجوهم فى الإعراب واللسن ؛ كذلك كان يفعل خلفاء بنى أمية وأمراؤهم اقتداء بكبيرهم معاوية بن أبى سفيان فى تربية ابنه يزيد . ومن لحن من خلفاء بني أمية وأمرائهم وأشراف العرب فى زمانهم ولو مرة عدوا ذلك عليه عاراً لا يمحى ، وسبة لا تزول ؛ ومن هؤلاء اللحانين عبيد الله [2] بن زياد ، والوليد [3] بن عبد الملك وخالد القسرى [4] مع أن بعضهم كان من أبلغ الناس وأبينهم .

ومن هنا تعلم السر فى تسرع القوم إلى وضع النحو وتدوينه والشكل والإعجام

---

(١) تسوق القوم اذا باعوا واشتروا فى السوق

(٢) كان واليا على العراق فى مدة معاوية ويزيد ابنه وكانت أمه فارسية

(٣) هو الخليفة الأموى أشفق عليه أبوه أن يرسله الى البادية فتربى فى المصر وتعلم العربية بالصناعة فعرض لكلامه بعض اللحن (٤) هو خالد بن عبد الله القسرى والى العراق من قبل الخليفة هشام ، وكانت أمه نصرانية وكان من أبلغ الناس وأخطبهم وعد عليه بعض اللحن

الخطابة فى هذا العصر

لما كان مبدأ كل انقلاب عظيم فى أى أمة : إما دعوة دينية وإما دعوة سياسية ، وكانت تلك الدعوة تستدعى ألسنة قوالة من أهلها لتأييدها ونشرها ، وألسنة من أعدائها وخصومها لإدحاضها والصد عنها ، وذلك لا يكون الا بمخاطبة الجماعات وأصحاب النجدات فى الحفل والمنتديات ، والحج والمواسم والاسواق ، ومواطن الزحف ومقدم الوفود ونحو ذلك — كان ظهور الاسلام بالأمر الجلل والشأن الخطير والدعوة العظمى التى لم يعهد لها من قبل فى العالم مثيل من أهم الحوادث التى أنشطت الالسن من عقلها وأثارت الخطابة من مكمنها ، وأغرت العقول بإحكامها والافتنان فيها ، واختلاب النفوس بسحر بيانها ، فوق ما كانت عليه فى جاهليتها . فكان العمل الأكبر لصاحب الدعوة العظمى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بادىء أمره — غير تبليغ القرآن — وارداً من طريق الخطابة . ولأمر ما جعلها الشارع شعار كل إمام فى حفل دينى أو سياسى ، كالجمعة والعيدين وموسم الحج الاكبر ، ويوم الصف وكل أمر جامع لنشر فضيلة ، أو نهى عن رذيلة أو اعلان نصر ، أو تأكيد وصية ، إلى غير ذلك من الأمور ذوات البال ؛ ولذلك كان دعاة النبى صلى الله عليه وسلم ورسله الى الملوك وأمراء جيوشه وسراياه ، ثم خلفاؤه من بعده وعمالهم كلهم خطباء مصاقع [1] ، ولسنا [2] مقاول [3] أعانهم على ذلك أنهم كانوا يخطبون عرباً مثلهم ، للفصاحة عندهم هزة [4] فى النفس وروعة فى الفؤاد ؛ وأن الشرع صرفهم عن اللهو بالشعر الذى لا ينهض بأعباء الخطابة ، ولاسيما الدينية : لشرحها الحقائق وقرعها الأسماع

أسباب رقى الخطابة

(١) جمع مصقع كمنبر البليغ أو العالى الصوت أو من لا يرتج عليه فى كلامه ولا يتتعتع

(٢) جمع لسان البليغ المتكلم عن القوم (٣) جمع مقول كمنبر مثل سابقه

(٤) الهزة النشاط والارتياح

بالحجج العقلية والوجدانية ، وترغيبها فى الثواب وترهيبها من العقاب ؛ ولخلوها عن قيود الوزن والقافية ؛ ولأنها تقال بعبارات تفهمها الخاصة والعامة : من الجندى الصغير إلى القائد الكبير ؛ وكان لهم من القرآن وأدلته وحججه والاقتباس منه مدد أيما مدد . ولما حدثت الفتنة بين المسلمين (أو الحرب الأهلية كما يقولون) بعد مقتل عثمان ، وافترقوا إلى عراقيين بزعامة على ، وشاميين بزعامة معاوية ، ولكل منهم دعوة يؤيدها ، ورغبة يناضل عنها فى تلك الحرب الشعواء التى لم ينكب الاسلام بمثلها ، ظهر من كلتا الطائفتين خطباء لا يحصى عددهم ، ولا يشق غبارهم ؛ وعلى رأس العراقيين شيخ الخطباء وفحل البلغاء على بن أبى طالب ، وعلى رأس الشاميين معاوية بن أبى سفيان . وما انتهت هذه الحرب حتى تشعبت الفتن والآراء والمذاهب والنحل ، وتفرق المسلمون إلى شيعة [(١)] وخوارج [(٢)] وجماعية [(٣)] وتفرع من هؤلاء الطوائف فروع شتى ، كل يبذل وسعه فى نشر مذهبه ، ويدفع عنه بقائم سيفه ، ولم يعدم كل طائفة منها خطباء يؤيدون دعوتها بما أوتوا من البلاغة فى الخطابة والفصاحة والبيان

وتمتاز الخطابة فى صدر الاسلام منها فى الجاهلية بأشياء :-

الأول — سلوكها طريقاً دينياً فى مثل خطب الجمع والعيدين والحج والارشاد والتعليم ونحو ذلك مما يستدعيه نشر الدعوة الدينية

الثانى — اتباعها خطة سياسية فى مثل تأليف الجماعات والأحزاب وتأثيل الملك والسلطان ؛ وما وقع للعرب فى الجاهلية من هذا القبيل فى بعض منازعاتهم فليس بذى شأن كبير ، اذا قيس بنظيره فى الاسلام [(٤)]

الثالث — قوة تأثيرها ووصولها الى قرارة النفوس وامتلاكها للوجدان

---

(١) الشيعة هم شيعة على رضى الله عنه وأنصاره وأنصار أهل بيته ، وتغالى بعضهم فى حبه وتفضيله الى حد ممقوت دينا (٢) هم قوم خرجوا فى أول أمرهم على أمير المؤمنين على واستحلوا قتاله لرضاه بأمر التحكيم فى الخلافة بينه وبين معاوية ثم خرجوا بعده على بنى أمية وبنى العباس

(٣) هم الجمهور الاعظم المستجيبون لدعوة بنى أمية والخلفاء المعقودة لهم البيعة العامة من أكثر المسلمين

(٤) انظر خطبة أبى بكر يوم السقيفة

والشعور بوعظها الزاجر ، ونصحها البالغ ، مما رقق القلوب القاسية ، وأسال الأعين الجامدة [1]

الرابع — صفاء ألفاظها ، وسهولة عباراتها ، ومتانة أساليبها ، وتجنبها سجع الكهان وقلة القصد فيها الى سرد الحِكَم القصيرة الدقيقة بمناسبة وغير مناسبة ، كما كانت تفعل خطباء الجاهلية

الخامس — بداءتها بحمد الله والثناء عليه

السادس — محاكاتها أسلوب القرءان فى الاقناع ، واستمدادُها من آياته ، حتى اشترط بعض أئمة المسلمين وجوب اشتمال خطبة الجمعة على شيء منه

السابع — تنوعُها بين الإيجاز والاسهاب حتى حُكيَ أن منها ما استغرق نصف نهار [2] ، ومنها ما لم يَزِد على فقَرَات معدودات [3] . وقصارَى الكلام أن الخطابة وصلت فى هذا العصر الى أرقى ما وصلت اليه فى اللسان العربى حتى ممن يُعَدُّ عليهم اللحن . ولم تَسعَد العربيةُ بكثرة خطباءَ ووفرةِ خُطَب مثل ماسعِدت به فى هـذا الصدر الأول ، اذ كان القوم ورؤساؤهم عرباً خلَّصاً ، يسمعون القول فيتبعون أحسنه

عادات العرب فى الخطابة

ولم يخرجْ الخطباءُ عن مألوفهم : من اعتِجار [4] العِمامة والاشتمال [5] بالرداء واختصار المِخْصَرة [6] والخطبةِ من قيام ، الاَّ ما رُوِى عن الوليد بن عبد الملك : من أنه كان يخطب جالساً ، وربما كان له عـذر من طبيعته ، أو أنه كان يرى أن الغرض من الوقوف هو الاشرافُ على السامعين ، وذلك قد حصل بتعلية بني أمية درجات المنابر ، وتبعه فى ذلك بعضُ خلفاء بنى أمية وعمالُهم

---

(١) انظر خطبة رسول الله وخطبة سحبان

(٢) كخطبة سحبان وائل التى خطبها بحضرة معاوية يوم أن حضر وفدُ خراسان

(٣) مثلُ خطبة خطيب الازدِ حين بعث الحجاجُ خطباءَ من الاخماس الى عبد الملك وهى : قد علمتِ العرب أنا حىٌّ فعال ، ولسنا بحىّ مقال وانا نُجْزى بفعلنا ، عند أحسن قولهم ، ان السيوف لتَعْرِفُ أكفَّنا ، وان الموت ليستعذب أرواحنا ، وقد علِمَتِ الحربُ الزَّبون انا نقرعُ جماحها ، ونحلب صراها (٤) لفُّ العمامة دون التلحى (٥) اشتمل بالثوب اداره على جسده كله

(٦) كمكنسة مايتوكا عليها وما يأخذه الملك يشير به اذا خاطب ، والخطيب اذا خطب ، واختصر المخصرة أخذها

نماذج من الخطب والوصايا

خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فحمد الله بما هو أهله ثم أقبل على الناس فقال[1] : أيها الناس ان لكم معالم[2] فانتهوا الى معالمكم ، وان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم ، فان العبد بين مخافتين : أجل قد مضى لا يدرى ما الله فاعل فيه ، وأجل باق لا يدرى ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الممات ، فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب[3] ، ولا بعد الدنيا من دار الا الجنة والنار .

وخطب معاوية رضى الله عنه (وهى آخر خطبة خطبها) فبعد أن صعد المنبر حمد الله وأثنى عليه ، ثم قبض على لحيته وقال :

أيها الناس إنى من زرع قد استحصد ، وقد طالت عليكم إمرتى حتى مللتكم ومللتمونى ، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقى ، وإنه لا يأتيكم بعدى الا من هو شر منى ، كما لم يأتكم قبلى الا من كان خيراً منى ، وإنه من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، اللهم انى أحببت لقاءك فأحبب لقائى . ثم نزل فما صعد المنبر حتى مات

وخطب عمرو بن سعيد[4] عند عقد البيعة ليزيد

لما عقد البيعة معاوية رحمه الله لابنه يزيد قام الناس يخطبون ، فقال معاوية لعمرو بن سعيد : قم يا أبا امية ، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فان يزيد بن معاوية أمل تأملونه ، وأجل تأمنونه . إن استضفتم الى حلمه وسعكم . وإن احتجتم الى رأيه أرشدكم ، وان افتقرتم الى ذات يده أغناكم . جذع[5] قارح[6] سوبق فسبق ، وموجد فمجد . وقورع ففاز سهمه ، فهو خلف أمير المؤمنين ولا خلف منه . فقال معاوية أوسعت يا أبا امية فاجلس

---

(١) رواية الكامل للمبرد (٢) معلم الشىء كمقعد ما يستدل به عليه (٣) استرضاء

(٤) هو عمرو بن سعيد بن العاص المشهور بالاشدق الاموى جعله مروان ولى عهده فى الخلافة ثم جعله ولى عهد ابنه عبد الملك فخرج على عبد الملك فاحتال عليه فقتله سنة ٧٠ هـ

(٥) الشاب الحدث (٦) أى شديد مجرب

وخطب عمر بن عبد العزيز وهي أول خطبة له :

أيها الناسُ أصلحوا سرائركم ، تصلُحْ لكم علانيتكم ؛ وأصلحوا آخرتكم ، تصلُحْ دُنياكم ، وان امرأً ليس بينه وبين آدم أب حي لمُعرِق في الموت

وأوصى قيس بن عاصم المِنْقَرى[1] بنيه عند احتضاره فقال :

يا بَنيَّ احفظوا عني ثلاثا فلا أحَدَ أنصحُ لكم مني ، اذا أنا مُتُّ فَسَوِّدوا كبارَكم ولا تسوِّدوا صغاركم ، فيَحتقِرَ الناسُ كبارَكم ، وتَهونوا عليهم ؛ وعليكم بحفظ المال ، فانه مَنْبَهَة للكريم ، ويُستغنى به عن اللئيم ؛ وإياكم والمسألةَ فانها أَخِر[2] كسبِ الرجل

وأوصى عمر بن الخطاب الناس فقال : علموا أولادكم العَوْم ، والرِّماية ، ومروهم فليثبوا على الخيل وثْبا ورَوُّوهم ما يَجمل من الشِّعر.

وروى المبرد في الكامل : ان عبد الله بن عباس قال : قال لي أبي : يا بُنيَّ إني أرى أمير المؤمنين قد اختَصَّك دون من ترى من المهاجرين والأنصار فاحفظ عني ثلاثاً : لا يُجرِّبَنَّ عليك كذباً ، ولا تَغْتَبْ عنده مُسلماً ، ولا تُفْشِيَنَّ له سرًّا — قال فقلت له يا أبت كل واحدة منها خير من ألف ، فقال كل واحدة منها خير من عشرة آلاف.

الخطباء

ليس في عصور أدب اللغة عصرٌ أحفل بالخطباء المعروفين نسباً وقولا وعملا من هذا العصر ؛ إذ كانت الخَطابة فيه سَلِسة القِياد على خلفائه وزُعمائه : لفطرتهم العربية ومحلهم من الفصاحة والبيان ، وانطباعهم على أساليب القرآن ، واتساع مداركهم ؛ ولهذا نكتفي بذكر الخطباء من الخلفاء الراشدين ، وبعض وُلاة المسلمين وفصحاء الناس : لأن الخطابة إذ ذاك كانت من أعظم أعمال الامامة والولاية.

---

(١) منقر بطن من سعد من تميم . وفد على رسول الله سنة تسع فأسلم وقال فيه النبي صلى الله عليه وسلم « هذا سيد أهل الوبر » وكان من احلم الناس

(٢) بقصر الهمزة أدنى وأرذل — من الكامل للمبرد

١ - أبو بكر الصديق - رضى الله عنه

هو أبو بكر عبد الله عَتيق[١] بن أبي قُحافة عثمان صاحب رسول الله ، وأوّل خليفة له فى الاسلام ، وخطيب يوم السقيفة

ويجتمع نسبه مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مُرَّةَ بن كعب . ولد بعد مولد رسول الله بسنتين وبضعة أشهر ، ونشأ من اكرم قريش خُلُقاً ، وأرجحهم حلماً ، وأسماهم يداً وأشدهم عِفَّة . وكان أعلمهم بالانساب وأيام العرب ومفاخرها . صحِب رسولَ الله قبل النبوّة . وكان أوّلَ من آمن به من الرجال وصدّقه فى كل ما جاء به : ولذلك سمى الصدّيق ، وأنفق أمواله فى تأييد دعوته ، وهاجر معه الى المدينة مؤثِراً صحْبته على كل أهله وولده ، وشهِد معه اكثر الغزوات ، وما زال ينْفق ماله وقوّته فى معاضدة رسول الله حتى انتقل صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ، واختلفت العرب وارتدت عن الأسلام ومنعت الزكاة إلاّ أهل المدينة ومكة وثقيف بالطائف ، فجرد عليهم الجيوش حتى قمعهم ، وجمع العرب على الاسلام وساقهم توًّا إلى فتح ممالك كسرى وقيصر ، وما مات إلاّ وجيوشه تهزم جيوش الفرس والروم ، وتستولى على مدائنهم وحصونهم . وكانت وفاته سنة ١٣ هـ

وكان رحمه الله فصيحاً بليغاً ، خطيباً مفوَّهاً حاضِر البديهة ، قوىّ الحجة ، شديد التأثير ، يشهد بذلك خطبته يوم السقيفة . وذلك انه لما مات رسول الله اختلفت الصحابة فيمن يبايعونه خليفةً له عليهم : فأبت الأنصار إلاّ أن يكون الخليفة منهم ، وأبي المهاجرون من قريش إلاّ أن يكون منهم ، واشتد النزاع حتى كادت تقع الفتنة ، فخطبهم خطبة[٢] لم يلبث الجميع بعدها أن بايعوه خليفةً

---

(١) هو لقب لأبى بكر لقب به لجماله ، أو لان النبي صلى الله عليه وسلم قال له : أنت عتيق من النار

(٢) ويظن أنها خطبة طويلة لم يبق فى حفظ الرواة منها الا اليسير ، ومن وصفها ماقاله عمر رضى الله عنه : وقد كنت زوّرت فى نفسى مقالة أقدمها بين يدى أبى بكر ، وقد كنت اداري منه بعض الحد وكان هو أوقر منى وأحلم ، فلما أردت ان أتكلم قال على رسلك فكرهت ان أعصيه فقام فحمد الله واثنى عليه فما ترك شيئا كنت زورت فى نفسى أن أتكلم به لو تكلمت الاّ وقد جاء به أو بأحسن منه

خطبته يوم السقيفة

حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناسُ نحن المهاجرون وأوّل الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسَطُهم داراً ، وأحسنُهم وجوهاً ، وأكثر الناس ولادةً فى العرب وأمسُّهم رحِماً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلمنا قبلكم ، وقُدِّمنا فى القرآن عليكم فقال تبارك وتعالى (وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ والأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتبعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ) فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار : اخوانُنا فى الدين ، وشركاؤنا فى الفَىء [1] ، وأنصارُنا على العدوّ ، آويتم وواسيتم فجزاكم الله خيراً ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تدين العرب إلاّ لهذا الحى من قريش فلا تَنْفَسُوا [2] على اخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله

٢ — عمر بن الخطاب — رضى الله عنه

هو أمير المؤمنين أبو حفص عمرُ بن الخطاب القرشى ، ثانى خليفة لرسول الله وأوّل من تسمى من الخلفاء بأمير المؤمنين ، وأوّل من أرخ بالتاريخ الهجرى ، ومصر الأمصار ، ودوّن الدواوين

ولد رضى اللهُ عنه بعد مولد النبى صلى الله عليه وسلم بثلاثَ عشرة سنة ، وكان فى الجاهلية من كبار قريش وزعمائها ، فكان يُسْفِر بينها و بين قبائل العرب فى الحروب والمفاخرات ونحوها ، وكان شجاعاً صنديداً ، وحازماً أيدا ، وكان فى مبدإ الدعوة الى الاسلام من أكبر أعداء الرسول ، ثم هداه الله فأسلم ، وأعز الله به دينه وحضر مع رسول الله الغزوات كلها ، ثم لما قُبض أعان أبا بكر على توليه الخلافة . ولما أحس أبو بكر بالموت عهِدَ بها اليه ، فقام باعبائها خير قيام ، وأتمّ

---

(١) الغنيمة والخراج (٢) نفس عليه خيراً حسده عليه ، ولم يره له أهلاً (أساس)

بحزمه وعزمه وسياسته وكياسته وزهده وعفته وحرصه على مصلحة المسلمين جميع ما شرع فيه أبو بكر : من فتح ممالك كسرى وقيصر.

وقتله غِيلةً غلامٌ مجوسىٌّ هو الشقىُّ أبو لؤلؤةَ عبدُ المغيرة بن شُعبةَ : لأنه لم ينصفه على زعمه فى تخفيض مايدفعه لسيده من أجرة عمله . وكان قتله سنة ٢٣ هـ

وكان رحمه الله من أبين الناس منطقاً ، وأبلغهم عبارة ، وأكثرهم صواباً وحكمة وأرواهم للشعر وأنقدهم له.

ومن خطبه خطبته إذ ولى الخلافة (١)

صعد المنبر فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال يأيها الناس ؟ انى داع فأمّنوا ، اللهم انى غليظ فليِّنى لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقنى الغلظة والشدة على اعدائك وأهل الدَّعارة (٢) والنفاق من غير ظلم منى لهم ولا اعتداء عليهم ، اللهم انى شحيح فسخِّنى فى نوائب المعروف قصداً من غير سرَف ولا تبذير ولا رياء ولا سُمعة ، واجعلنى أبتغى بذلك وجهك والدارَ الآخرة ، اللهم ارزقنى خفضَ الجناح ولينَ الجانب للمؤمنين ، اللهم انى كثير الغفلة والنسيان فألهمنى ذكرك على كل حال وذكرَ الموت فى كل حين ، اللهم انى ضعيف عن العمل بطاعتك فارزقنى النشاط فيها والقوة عليها : بالنية الحسنةِ التى لا تكون الاَّ بعزتك وتوفيقك ، اللهم ثبتنى باليقين والبر والتقوى وذكر المقام بين يديك ، والحياء منك ، وارزقنى الخشوعَ فيما يُرْضيك عنى والمحاسبةَ لنفسى ، واصلاح الساعات ، والحذر من الشُّبُهات ، اللهم ارزقنى التفكير والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك ، والفهمَ له ، والمعرفة بمعانيه ، والنظر فى عجائبه والعملَ بذلك ما بقيتُ ، انك على كل شىء قدير.

---

(١) من العقد الفريد (٢) الخبث والفجور

٣ — عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه

هو أمير المؤمنين عثمان بن عفان القرشيّ الاموىّ ، ثالث الخلفاء الراشدين ، وموجد نسخ القرآن المبين . ولد فى السنة السادسة من مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، وآمن فى السابقين الاولين ، وبذل ماله الكثير فى تأييد الاسلام ومعونة المجاهدين ، وشهد مغازى رسول الله كلها إلاّ بدراً . وقد كان عمر قبل وفاته عهد بالخلافة إلى ستة هو منهم تنتخب الأمة أحدهم خليفة ، فانتخبوا عثمان ، فأكمل مغازى عمر . ومضت على خلافته ست سنين لم يحدث عليه فيها شغب، ثم ثار عليه بعض الاعراب النازلين بمصر والعراق ، بحجة أنه يؤْثر أقرباءه بولاية الاقاليم ، غير ناظرين إلى كفايتهم ، ولا إلى وثوق الخليفة بهم ، ونصحهم له . فحاصروه فى داره بالمدينة وتسوّروها عليه وقتلوه وهو يتلو القرآن فى المصحف سنة ٣٥ هـ فكان قتله سبب الفرقة بين المسلمين واجترائهم على مقام الخلافة وقتل الخلفاء والخروج عليهم

وكان رحمه الله من بلغاء الخلفاء وأوجزهم لفظاً وأجزلهم معنى وأسهلهم عبارة ، ومن خطبه خطبته بعد أن بويع ، وهى بعد الحمد والثناء :

أما بعد فانى قد حُمّلت وقد قبِلت ، ألا وإنى متّبع ولست بمبتدع ، ألا وان لكم علىّ بعد كتاب الله عزَّ وجلَّ وسُنةِ نبيّهِ صلى الله عليه وسلم ثلاثاً : اتباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسَنَنْتُمْ ، وسَنَّ سنَّة أهل الخير فيما لم تسنُّوا عن ملأ ، والكفَّ الاّ فيما استوجبتم . ألا وان الدنيا خضِرة قد شهّيت الى الناس ومال اليها كثير منهم ، فلا تركنوا الى الدنيا ، ولا تثقوا بها ، فانها ليست بثقة . واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها

٤ — علىّ بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه

هو أميرُ المؤمنين أبو الحسن علىّ بن أبي طالب . وابنُ عم رسولِ الله ، وزوج ابنته ورابعُ الخلفاء الراشدين ، وأمامُ الخطباء من المسلمين

ولد رحمه الله بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم باثنتين وثلاثين سنة ، وهو أوّل من آمن من الصبيان . وكان شجاعاً لا يُشَقّ له غبار ، أيِّداً جليداً ، شهد الغزوات كلها مع النبي إلاّ غزوة تَبُوكَ ، وأبلى فى نُصرة رسول الله ما لم يُبْلِه أحد . ولما قتل عثمان بايعه الناس بالحجاز وامتنع عن بيعتِه معاويةُ وأهلُ الشام شيعةُ بنى أمية غضباً منهم لمقتل عثمان وقلة عنايته بالبحث عن معرفة القتلة على حَسَب اعتقادهم . فحدث من جَرّاء ذلك الفتنةُ العظمى بين المسلمين وافتراقهم الى طائفتين . فتحاربوا مدة من غير أن يستتب الأمر لعلىّ أو معاوية حتى قَتل أحد الخوارج علياً غِيلةً بمسجد الكوفة سنة ٤٠ هـ

وكان رحمه الله أفصحَ الناس بعد رسول الله ، وأكثرهم علماً وزُهداً وشدّة فى الحق ، وهو امامُ الخطباء من العرب على الاطلاق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وخطبه كثيرة — منها خطبته كرم الله وجهه بعد التحكيم وهى :

الحمد لله وان أتى الدهر بالخطْب الفادِح [1] ، والحَدَث الجَلَل [2] ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريكَ له ليس معه إله غيرُه ، وأن محمداً عبدُه ورسولُه صلى الله عليه وعلى آلهِ . أما بعد فان معصيةَ الناصِح الشفيقِ العالم المجرِّب تُورِث الحَيْرة وتُعقب الندامة ، وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة [3] أمرى ، ونَخلت لكم مخزونَ رأيى ، لو كان يطاعُ لقصير [4] أمر ، فأبيتم علىَّ إباءَ المخالفين الجُفاة ،

---

(١) من فدحه الدّين أثقله (٢) العظيم

(٣) أي حكومة الحكمين عمرو بن العاص وأبى موسى الاشعرى (٤) هو مولى جذيمة الابرش ، وكان حاذقاً ، وكان قد أشار على سيده جذيمة أن لا يأمن للزباء ملكة الجزيرة فخالفه وقصدها اجابة لدعوتها الى زواجه فقتلته فقال قصير (لا يطاع لقصير أمر) فذهبت مثلا

والمنابذين العصاة حتى ارتاب الناصحُ بنصحه ، وضنَّ الزَّند بقدْحه ، فكنت وإياكم كما قال أخو هوزان[1] :

أمرتُهم أمرى بِمُنْعَرَج اللوى   فلم يستبينوا النصح إلا ضُحَى الغد

٥ — سَحبان وائل

هو سحْبَان بن زُفر بن إياد الوائلى ، الخطيب المِصْقَع ، المضروب به المثل فى البلاغة والبيان . نشأ فى الجاهلية بين قبيلة وائل احدى قبائل ربيعة . ولما ظهر الأسلام أسلم وتقلبت به الأحوال حتى التحق بمعاويةَ رضى الله عنه ، فكان يُعِدُّه للملمات ، ويتوكأ عليه عند المفاخرة : لقوة عارضته وسُرعة خاطره

قدم على معاوية وفدٌ من خُراسان وفيهم سعيد بن عثمان بن عفّان ، فطلب سَحْبان فلم يجده فى منزله ، فاقتُضِب من ناحية اقتضاباً وادخل عليه . فقال له معاوية تكلم فقال : أحضروا لى عصاً — قلوا وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين ؟ — قال : ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه — فضحك معاوية وأمر له باحضارها ؛ فلما وصلت إليه رَكَلَهَا[2] فلم تَرُقْ فى نظره فطلب عصاه فأخذها ، ثم خطب من صلاة الظهر الى أن حانت صلاةُ العصر ، ما تنحنح ، ولا سَعَلَ ، ولا توقف ، ولا تَلَكَّأ ، ولا ابتدأ فى معنى وخرج منه وقد بقى منه شئ ، فما زالت تلك حاله حتى دَهِشَ منه الحاضرون ، فأشار اليه معاوية بيده ، فأشار اليه سحبانُ لا تقطعْ علىّ كلامى — فقال معاوية : الصلاة ، قال هى أمامك ، نحن فى صلاة وتحميد ، ووعد ووعيد. فقال معاوية : أنت أخطبُ العرب — قال سحبان : والعجم والجن والانس

وكان سحبانُ اذا خطب يَسيل عرقاً ، ومات فى خلافة معاوية سنة ٥٤ هـ

ومما يؤثر من خطبه قوله[3] :

---

(١) هو دريد بن الصمة (٢) ركل الشيء برجله رفسه والمراد هنا خبرها ليعرف صلابتها

(٣) ونسبها القالى فى الامالي لبعض الاعراب فى صدر بنى العباس . ولعل السر فى عدم تدوين خطبه أنه كان يميل الى الاطالة التى يعجز الرواة معها عن الحفظ ، على انها لم تكن سياسية والقوم فى هذا العصر مغرمون بالسياسة

إن الدنيا دار بَلاغ ، والآخرة دار قرار ، أيها الناس فخذوا من دار مَمرّكم لدار مقرّكم ، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم ، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها حَيِيتم ، ولغيرها خُلِقْتم . إن الرجل إذا هَلك ، قال الناس : ما ترك ؟ وقال الملائكة : ما قدَّم ؟ قدِّموا بعضاً يكون لكم ولا تُخَلّفوا كُلاًّ يكون عليكم

٦ — زياد بن أبيه

هو أحد دهاة العرب وساستها ، وخطبائها وقادتها

منشؤه — كان للحارث بن كَلدَة الثّقفيّ طبيب العرب ، أمَة تسمى سُمَيَّة قد قرنها بعبد له روميّ يدعى عَبيداً ، فولدت له زياداً هذا فى السنة الأولى من الهجرة فنشأ غلاماً فصيحاً ، شجاعاً داهياً ، قارئاً كاتباً ، فما افتتحت العرب الممالك والامصار حتى عرف منه ذلك ، فاستكتبه أبوموسى الأشعرى والى البصرة من قِبل عمر (رضى الله عنه) ، فأظهر من الحِذق وحِدّة الذكاء وبُعد الغور ما جعل أمير المؤمنين يقول عندما عزله عن عمله « إنه لم يعزله لعجز ولا لخيانة ، وانما كرِه أن يحمل على الناس فضل عقله» غير أن ذلك لم يكن ليصُدَّه عن استكفائه بعْضَ مهامّ أموره ، فكان فى جميعها مرضىّ المقام ، محمود الأثر ، حتى قال فيه عمرو بن العاص « لله هذا الغلام لو كان أبوه من قريش لساق الناس بعصاه ! »

ولما رأى أبو سفيان بن حرب بعد اسلامه حصافة عقل زياد ، وحسن بلائه وفصاحة لسانه ، أسرَّ الى بعض قريش ومنهم علىّ (كرّم الله وجهه) بأن زياداً ابنه ، اشتملت عليه سميةُ منه وهو مشرك ، ولكنه لم يستلحِقه علانية أنفةً من العار ، وخشية من عُمر

ولما ولى أمير المؤمنين علىّ الخلافة اضطربت عليه فارس ، فاستشار الناس فيمن يكفيه أمرها ، فأشار بعضهم بزياد ، فسار الى فارس بجمع كثير ، فتمكن بخداعه

ودهائه من ايقاع النفور والشقاق بين رؤساء المشاغبين ، وما زال يضرب بعضهم ببعض حتى سكنت ثائرتهم ، ولم يلق منهم حرباً ولا كيداً . وبقي يتولى لعلي الاعمال حتى قتل عليّ ، فخافه معاوية واهتم لهُ كثيراً ، فأرسل اليه المُغيرةَ بن شُعْبَة يتلطف له ويستقدمه ، فقدم عليه فادَّعاه أخاً له ، واستلحقه بنسب أبيه أبي سفيان بشهادة شهود في محضر من الناس ، وصار يسمى زياد بن أبي سفيان بدل زياد بن عبيد ، والمتورعون يسمونه (ابن سُمية أو ابن أبيه)

وولاه معاوية البَصْرة وخُراسان وسِجستان ، ثم جمع له السند والبحرين وعُمان ، ثم ضم اليه الكوفة ، فأصبح بذلك والياً على العراقين ، وهو أول من جُمع له بينهما ، فسار في الناس سيرة لمَّ بها الشعَث ، وأقام المعْوج ، وكبح الفتنة ، واشتَطَّ في العقوبة ، وأخذ بالظِّنّة . وعاقب على الشبهة ، حتى أكَّد المُلْك لمعاوية ، وحتى شمِل خوفُهُ جميع الناس ، فأمِن بعضهم بعضاً

وكان الشيء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرِض له أحد ، حتى يأتي صاحبه فيأخذه ، بل كان لا يُغلق أحد بابه . وكان زياد يقول : « لو ضاع حبل بيني وبين خراسان لعرفت آخذه » وكان مكتوباً في مجلسه عنوانُ سياسته وهي الشدة في غير عُنف ، واللين في غير ضعف ، المحسن يجازى باحسانه والمسيء يعاقب باساءته

أما فصاحته فيكفيك في وصفها ما رواه الجاحظ عن الشعبي قال : « ماسمعت متكلما على منبر قط تكلم فأحسن إلاَّ أحببت أن يسكت خوفاً من أن يسيء إلاَّ زياداً ، فانه كلما أكثرَ كان أجود كلاماً » وتوفي بالكوفة في رمضان سنة ٥٣ هـ

ومن خطبه البليغة خطبته حين قدم الى البصرة وهي (١) :

أما بعدُ فان الجهالةَ الجهلاء والضَّلالة العمياء ، والغيَّ المُوفيَ بأهله على النار مافيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حُلماؤكم : من الأمور التي ينبُت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعدّ الله من الثواب

---

(١) كما في صبح الاعشى وتروى في البيان والتبيين والطبرى والعقد الفريد بروايات مختلفة

الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، فى الزمن السرمدىّ الذى لا يزُول. انه ليس منكم إلاّ من طَرَفت عينَهُ الدنيا وسدّت مسامعَهُ الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الاسلام الحدث الذى لم تُسْبَقوا اليه: من تَرْككم الضعيفَ يُقهر، والضعيفة المسلوبة فى النهار لا تُنصر، والعددُ غير قليل، والجمع غير مفترق. ألم يكن منكم نُهاةٌ يمنعون الغُواة عن دَلَج الليل وغارة النهار! قَرَّبتم القرابة! وباعدتم الدين، تعتذرون بغير العذر، وتُغْضُون على النُّكْر. كل امرئٍ منكم يرد عن سفيهه، صنْعَ من لا يخاف عقاباً، ولا يرجو مَعاداً. فلم يزل بهم ما تَرَوْن من قيامكم دُونهم حتى انتهكوا حُرَم الإسلام ثم أطرقوا وراءكم كُنوساً (١) فى مكانِسِ الرِّيب. حرام علىَّ الطعام والشراب حتى أُضعَ هذه المواخير بالأرض هدْماً واحراقاً! انى رأيت آخِرَ هذا الأمر لا يصلح الا بما صلَح به أوّله: لينٌ فى غير ضعف وشدّة فى غير عنف، وانى لأقسم بالله لآخُذَنَّ الولى بالمَوْلى، والمقيمَ بالظاعن، والمطيعَ بالعاصى، حتى يلقى الرجل أخاه فيقولَ «انْجُ سعْدُ فقد هلَكَ سَعيد» (٢) أو تستقيم لى قناتُكُمْ. انَّ كِذْبة الأمير بَلْقاء (٣) مشهورة، فاذا تعلقتم علىَّ بكذبة فقد حلّت لكم معصيتى. وقد كان بينى وبين قوم إحَنٌ (٤) فجعلت ذلك دَبْرَ (٥) أذنى وتحت قدَمى. انى لو علمت أن أحدكم قد قتله السِّلُّ من بغضى لم أكشف له قناعاً، ولم أهتك له ستراً، حتى يبْدِىَ لى صفحته، فاذا فعل ذلك لم أناظره. فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم، فربَّ مبتئسٍ بقدومنا سيسر، ومسرورٍ بقدومنا سيَبْتئس! أيها الناس انا قد أصبحنا لكم ساسةً، وعنكم ذادةً (٦)، نسُوسكم بسلطان الله الذى أعطانا، ونذود عنكم بفىء الله الذى خوّلنا، فلنا عليكم السمعُ والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدلُ فيما وَلينا، فاستوجبوا عدلنا وَفَيْئَنا بمناصحتكم لنا

---

(١) جمع كانس أى مستتر — ومكانس الريب مكامنها المستترة
(٢) مثل يضرب فى تتابع الشر (٣) أى كالدابة البلقاء لأن شيتها تشهرها (٤) أحقاد
(٥) خلف (٦) مدافعين

٧ ـ الحجّاج

هو أبو محمد الحجاج بن يوسف الثّقفى ، رجلُ ثقيف ، وأحد جبابرة العرب وساستها وقادتها وحُكّامِها ، ومُوَطّدُ ملك بنى أمية ، وأحد البلغاء والخطباء المصاقع

ولد سنة ٤١ هـ وكان هو وأبوه يعلمان الصبيان بالطائف موطن ثقيف ، ثم لحق بِرَوْح بن زِنباع الجُذَامى أحدِ أعوان عبد الملك بن مروان فكان فى شُرْطته ثم صار رئيسها (١)

وأوّلُ ما اشتهر من أمره قيادته الجيشَ الذى وُجّه لقتال عبدالله بن الزبير . فسار اليه وحاصره بمكة ثم قتله وأزال ملكه ، فولاّه عبد الملك العراق وكانَ كلُّه ناراً ملتهبة بفتنة الشّيعة والخوارج ، فاستعمل من الشدّة والقسوة وسفك الدماء وارهاب الأمة ما لم يُسْمَع بمثله ، وجدّدَ الملك لبنى أمية ، وكان عاقبة أمره أمرين عظيمين : أولهما يُمْدَح عليه : وهو جمع أشتات المسلمين تحت راية واحدة هى راية الخليفة العربى الأموى ، ثانيهما يُذَم به : وهو اذلال الامة العربية اذلالاً لم تَعْهَدْه منذ خُلقت : بما قتل من نَخْوتها ، وسلب من حريتها ، وأخرس من

---

(١) وأول ما عرف من كفايته أن عبد الملك بن مروان شكا ما رأى من انحلال العسكر وأن الناس لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله حين توجه الى الجزيرة لقتال زفر بن الحارث عندما عصى عليه — فقال له روح بن زنباع يا أمير المؤمنين ان فى شرطتى رجلا لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لارحلهم برحيله وأنزلهم بنزوله يقال له الحجاج بن يوسف ـ قال فانا قد قلدناه ذلك فكان لا يقدر أحد أن يتخلف عن الرحيل والنزول الا أعوان روح بن زنباع فوقف عليهم يوما وقد رحل الناس وهم على طعام يأكلون ـ فقال لهم ما منعكم ان ترحلوا برحيل أمير المؤمنين ـ فقالوا له انزل يا ابن . . . فكل معنا — فقال هيهات ذهب ما هنالك ، ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم فى العسكر وأمر بفساطيط روح بن زنباع فاحرقت بالنار فدخل روح بن زنباع على عبد الملك بن مروان باكياً فقال له مالك فقال يا أمير المؤمنين الحجاج بن يوسف الذى كان فى عديد شرطتى ضرب عبيدى وأحرق فساطيطى — قال علىّ به ! فلما دخل عليه قال ما حملك على ما فعلت قال ما أنا فعلته يا أمير المؤمنين — قال ومن فعله قال أنت والله فعلت ، انما يدى يدك وسوطى سوطك وما على أمير المؤمنين ان يخلف على روح بن زنباع للفسطاط فسطاطين وللغلام غلامين ولا يكسرنى فيما قدمنى له . فأخلف لروح بن زنباع ما ذهب له وتقدم الحجاج فى منزلته وكان ذلك أول ما اعجب عبد الملك منه

ألسنتها ، فدخلت بعده فى طورْ خضوع وامتثال للحكام المستبدين أكمل بقيته نصراء الدولة العباسية من الأعاجم

وخدم الحجاج بولايته عبدَ الملك بن مروان وابنه الوليد ، حتى كان ملكه ما بين الشام والصين . ومات سنة ٩٥ هـ فى مدينة واسط [١] التى بناها بالعراق

وكان الحجاج آية فى البلاغة وفصاحة اللسان وقوة الحجة . قال الاصمعى : — أربعة لم يلحنوا فى جِدّ ولا هزل : الشّعبي ، وعبد الملك بن مروان ، والحجاج بن يوسف [٢] ، وابن القِرّيّةِ [٣] ، والحجاج أفصحهم . وقال مالك بن دينار ما رأيت أحداً أبين من الحجاج : إنه كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه الى أهل العراق وصفحه عنهم وإساءتهم إليه ، حتى انى لأَحسَبه صادقاً وأظنهم كاذبين

ومن مآثره ما يأتى لك من اهتمامه بوضع النَّقط والشكل للمصحف وغيره ، ونسخِهِ عدة مصاحِفَ من مصاحف عثمان : وارسالها إلى بقية الأمصار

ومن خطبه المشهورة خطبته لما قدم أميراً على العراق ؛ فانهُ دخل المسجد معتَمّاً بعمامة قد غَطّى بها أكثَرَ وجهه مُتَقَلِّداً سيفاً ، متنكباً [٤] قوساً يؤمُّ المنبر ، فقام الناس نحوه حتى صعِدَ المِنبر فمكث ساعة لا يتكلم ، فقال الناس بعضهم لبعض قَبّح الله بنى أمية حيث تَستعمل مثل هذا على العراق : حتى قال عُميْر بن ضابىء البُرْجُمى: ألا أحصِبُه لكم — فقالوا أمْهل حتى ننظر ، فلما رأى عيونَ الناس اليه حَسَر اللّثام عن فيه ونهض ثم قال :

---

(١) بلد بالعراق (٢) زعم بعضهم ان الحجاج قد اخطأ ونسب له ما يأتى : قال الحجاج للشعبي كم عطاءك فى السنة قال الفين ـ قال ويحك كم عطاؤك قال الفان ـ قال وكيف لحنت أولا ـ قال لحن الامير فلحنت فلما اعرب اعربت ، ولم أكن ليلحن الامير فاعرب انا عليه فأكون كالمقرع له والمستطيل عليه بفضل القول . وروى أيضا ان الحجاج قال ليحي بن يعمر أتسمعنى ألحن قال فى حرف واحد قال فى أى قال فى القرآن قال ذلك اشنع . ثم قال له ماهو قال : تقول « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله » فتقرأ احب بالرفع قال الحجاج لاجرم انك لا تسمع لى لحنا بعد هذا ثم الحقه بخراسان (٣) هو ايوب بن يزيد والقرّية امه

(٤) تنكبت القوس القيتها على منكبى

أنا ابنُ جلا وطلاعُ الثنايا　　متى أضع العمامة تعرفونى

ثم قال : يأهل الكوفة إنى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافهـا ، وانى لصاحبها ، وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى ، ثم قال :

هذا أوانُ الشدِّ فاشتدِّى زيمْ(١)　　قد لفَّها (٢) الليل بسوَّاق حُطَمْ(٣)

ليس براعى إبل ولا غنَمْ　　ولا بجزَّار على ظَهْرِ وَضم (٤)

قد لفَّها الليل بعَصْلَبيِّ (٥)　　أرْوَعَ(٦) خرَّاج من الدَّوِّىِّ (٧)

مهاجر ليس بأعرابىّ

قد شمَّرت عن ساقها فشُدّوا　　وجدَّت الحربُ بكم فجِدّوا

و القوْسُ فيها وترٌ عُرُدُّ (٨)　　مثلُ ذِراع البَكر (٩) أو أشدّ

لابُدَّ مما ليس منه بدّ

إنى والله يأهل العراق ما يُقعقَع لى بالشِّنان (١٠) ولا يُغمز جانبى كتغماز التين ولقد فُرِرت(١١) عن ذكاء ، وفُتِّشت عن تجربة ، وان أمير المؤمنين اطال الله بقاءه نَثَر كِنانته (١٢) بين يديه فعَجَم (١٣) عيدانَها فوجدنى أمرَّها(١٤) عُوداً وأصلبَها مَكْسِراً فرماكم بى : لأنكم طالما أوْضَعْتُم (١٥) فى الفِتنة واضطجعتم فى مراقد الضلال ، والله لأحزِمنّكم حزْمَ السَّلَمَة(١٦) ولاضربنّكم ضربَ غرائب(١٧) الإبل

---

(١) اسم فرس أو ناقة (٢) جمعها

(٣) لايبقى من السير شيئاً (٤) كل ماقطع عليه اللحم -(٥) شديد (٦) ذكى

(٧) الدو الصحراء أى خراج من كل عمياء شديدة ، والداوية الصحراء المتسعة التى تسمع لهـا دويا بالليل (٨) شديد (٩) الفتىّ من الابل (١٠) الشنان جمع شن وهو الجلد اليابس فاذا قعقع به أى ضرب نفرت الابل منه ، يضرب ذلك مثلاً لنفسه (١١) فر الدابة كشف عن اسنانها لينظر ماسنها ، وعن الامر بحث عنه

(١٢) الكنانة جعبة السهام من جلد (١٣) عضها لينظر أيها اصلب (١٤) اقواها

(١٥) الايضاع حمل الدابة على الاسراع . والمراد : أسرعتم فى الشر

(١٦) نوع من الشجر ، وذلك لان الاشجار تعصب اغصانها ثم تختبط بالعصى لسقوط الورق وهشيم العيدان (١٧) وهى تضرب عند الهرب وعند الحلاط وعند الحوض اشد الضرب

فانكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . وانى والله ما أقول إلاّ وفيت ، ولا أهمّ إلاّ أمضيت ، ولاأخلق[1] الاّ فريت[2] وأن أمير المؤمنين أمرنى باعطائكم اعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوّكم مع المهلّب[3] بن أبى صفرة. وانى أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام الاّ ضربت عنقه

الكتابة

للكتابة كما أسلفنا معنيان : خطيّة وانشائية

الكتابة الخطية

كان الخط الذى يكتب به العرب فى مبدأ ظهور الاسلام هو الخط الأنبارى الحيرى ، المسمّى بعد انتقاله الى الحجاز بالحجازى ، وهو أصل النسخ . وكان يكتب به النزر اليسير من العرب عامة وبضعة عشر من قريش خاصة ، وبعض أفراد من أهل المدينة ومجاوريهم من اليهود . فلما انتصر النبى صلى الله عليه وسلم على قريش فى يوم بدر وأسر منهم جماعة كان فيهم بعض الكتاب ، فقبل الفداء من أميّهم وفادى الكاتب منهم بتعليم عشرة من صبيان المدينة ، فانتشرت الكتابة بين المسلمين ، وحض النبي علي تعلّمها ، وتمكن أمرها بعد فتح مكة واجتماع شمل المهاجرين منها والأنصار . فما تم نزول القرآن حتى كان لرسول الله أكثر من أربعين كاتباً

---

(١) اقدّر (٢) قطعت (٣) هو ابو سعيد المهلب بن ابى صفرة الازدى البصرى قائد قواد الامويين ومبيد الخوارج ومبتدع الركب الحديدية . ولد بالبصرة ونشأ بها وظهر امره فى مقاتلة الخوارج مدة الحجاج وقد ابلى فى مقاتلتهم هو واولاده اعظم بلاء حتى أخلى البصرة منهم فنسبت اليه فقيل بصرة المهلب . وولاه الحجاج خراسان فأقام بها حتى مات سنة ٨٢ ﻫ على ماارواه الطبرى . وله كلمات مأثورة منها : الحياة خير من الموت ، والثناء الحسن خير من الحياة — لو اعطيت مالم يعطه احد لأحببت ان تكون لى أذن اسمع بها مايقال فىّ غدا اذا مت — يابنى احسن ثيابكم ماكان على غيركم

ومن اشهر كُتّاب الصحابة النفر الأربعة الذين كتبوا المصاحف لعثمان : وهم زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام . ولما فتح المسلمون الممالك ومصروا الامصار ونزلت جَمْهَرة الكُتاب منهم الكوفة ، عُنوا بتجويد الخط العربي وهَنْدَسةِ أشكاله وتمطيط عَراقاته (كاساته) ، حتى صار خطُّ أهل الكوفة ممتازاً بشكاله من الخط الحجازى ، واستحق أن يسمى باسم خاص وهو (الكوفى) وبه كانت تُكتبُ المصاحفُ المجَوَّدةُ الخط ، وحِلى القصور والمساجد ، وسكك النُّقود . وبقى الحجازىُّ مستعملا فى المكاتبات العادية . ثم حدث فى الكوفى أنواع بعد هذا العصر نذكرها بعد

وكان الصحابة وتابعوهم من بنى أمية يكتبون بلا إعجام[١] ولا شكل إلاّ قليلا ، اعتماداً منهم على معرفة المكتوب إليهم باللغة واكتفائهم بالرمز القليل فى قراءة اللفظ . فلما فسد اللسان باختلاط العرب بالعجم ، وظهر اللحن والتحريف فى الألسنة وفى قراءة القرآن ، اشْفَقَ المسلمون على تحريف كلِم الكتاب الكريم ، فوضع أبو الأسود الدُّؤَلى[٢] علاماتٍ فى المصاحف بصبغ مخالف ، فجعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف ، والكسرة نقطة أسفله ، والضمة نقطة من الجهة اليسرى ، وجعل التنوين نقطتين . وكان ذلك فى خلافة معاوية

ووضع نصر بن عاصم ويحيى بن يَعمَر بأمر الحجاج نَقْط الإِعجام بنفس المداد الذى كان يكتب به الكلام حتى لا يختلط بنقط استاذهما ابى الاسود . وكان ذلك فى خلافة عبد الملك بن مروان . ثم شاع فى الناس بعدُ ، كما ترى ذلك واضحاً فى النماذج الآتية :

---

(١) لعل الاعجام بالنقط لتمييز الحروف سابق هذا العهد الا أنه لم يكن ملتزما وربما لم يكن شاملا لجميع ما أعجمه نصر ويحيي

(٢) هو ظالم بن عمرو الدؤلى من سادات التابعين وأعيانهم كان من أكمل الرجال رأيا وأسدهم عقلا ، وهو أول من وضع النحو واخترع الشكل بالنقط توفي بالبصرة سنة ٦٩ هـ عن خمسة وثمانين عاما

صورة كتاب النبي عليه الصلاة والسلام الى المقوقس عظيم القبط

والصورة الآتية كتاب توضيح ما يقرأ منه هكذا :

. . . . .

أما بعد فان هشام بن عمر

كتب الىّ يذكر

جالية له بأرضك

وقد تقدمتُ الى

العمال وكتبت اليهم

ألاّ يؤوا جالياً فاذا

جاءك كتابى هذا

فادفع اليه ما كان

له بأرضك من جاليته

ولا أعرفن ماردت

رسله أو كتب الى

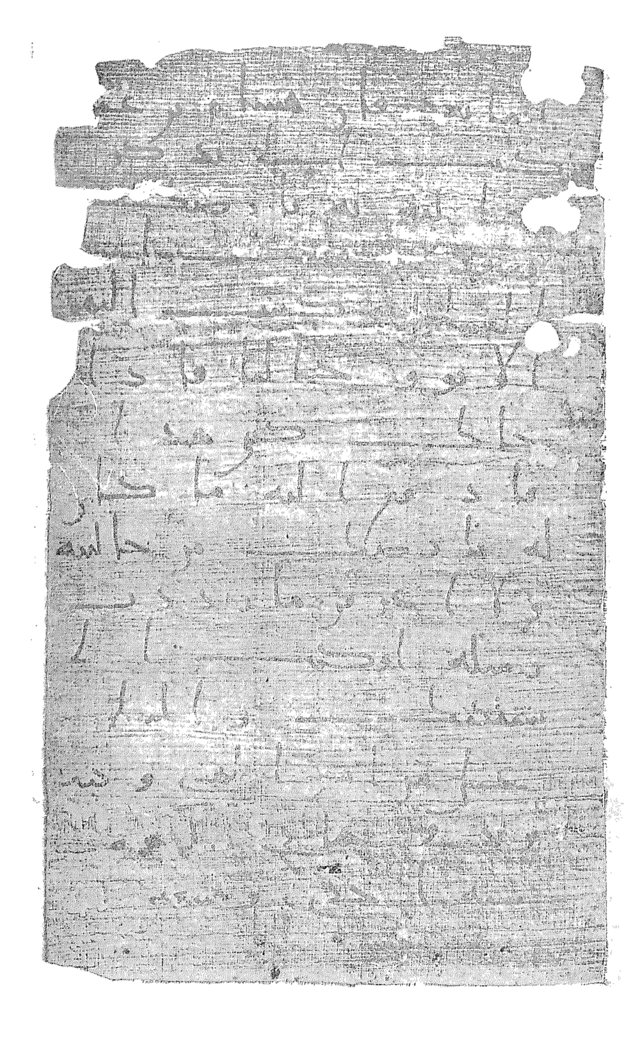
يشتكيك والسلام

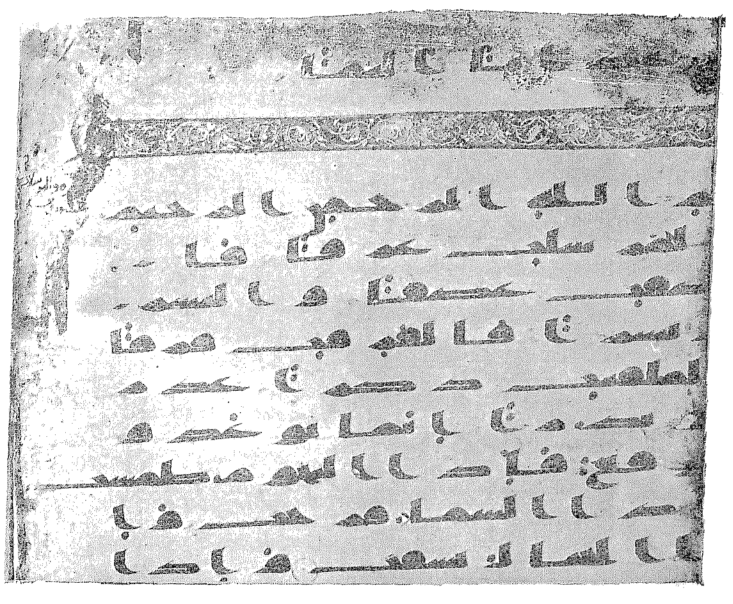
على من اتبع الهدى وكتب

يزيد في جمادى الآخرة

سنة احدى وتسعين

والنموذج الآتى منحرف عن الهيئة الكوفية إلى الهيئة التى نكتب عليها نحن الآن وخال من النقط الاّ قليلا





عذاباً أليماً (نموذج مضبوط بالنقط على طريقة ابى الاسود)

بسم الله الرحمن الرحيم
و الْمُرْسَلٰتِ عُرْفاً فا
لْعٰصِفٰتِ عَصْفاً فَالنَّشِرٰت
نَشراً فَالْفٰرِقٰتِ فَرْقاً
فالْمُلْقِيٰتِ ذِكْراً عُذْراً
أَوْ نُذْراً إِنَّمَا تُوعَدُونَ
لَوٰقِعٌ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ
وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ وإِ
ذا الْجِبَالُ نُسِفَتْ وَإِذَا

الكتابة الإنشائية

وهى قسمان : كتابة رسائل ودواوين[١] ، وكتابة تدوين وتصنيف

كتابة الرسائل والدواوين

كان زُعماء العرب وفصحاؤهم كلهم كُتَّاباً يُنْشِئُون بملكتهم ولولم يَخُطُّوا بيمينهم ؛ فكان النبي وأصحابه وخلفاؤه يُملُون كُتبَهم على كُتَّابهم بعبارتهم ، وبعضهم يكتبها بيده ، وكان من ذلك أيام ظهور الاسلام وأزمان الفتوح والمغازى مئات الرسائل والعهود

ولما اتسعت موارد الخلافة ووفرت الغنائم وأعطيات الجُنود منها ، أصبحت الخلافة الاسلامية فى حاجة الى انشاء الدواوين لضبط ذلك ، فكان عمرُ أوّلَ من دَوَّن الدواوين فى الاسلام وكانت مقصورة على الضَّرورىّ منها لمكان البداوة من الامة.

وكان كُتَّابُ الرسائل للخلفاء وعمالهم إمّا عرباً وإمَّا مَوَالِيَ يُجيدون العربية

أما كُتَّابُ الخَراج ونحوه فكانوا فى كل اقليم من أهله يكتبون بلغتهم فيكتبون فى فارس والعراق بالفارسية ، وفى الشام بالرومية ، وفى مصر بالقبطية . ولما نبغ من العرب من يحسن عَملهم حُوّلتْ هذه الدواوين الى العربية زَمَنَ عبد الملك بن مرْوان والوليد ابنه ، وجرى خلفاء بني أمية فى كتابة الرسائل على ما كان عليه الامر زمن الخلفاء الراشدين

ثم لما اتسعت رُقْعة المملكة وقرّت أمور الدولة وازدادت الأعمال وشُغِل الخلفاء عن أن يَلُوا الكتابة بأنفسهم أو بخاصة عشيرتهم ، عهدوا بها الى كبار كُتَّابهم فتوفَّروا عليها حتى أوشكت في أواخر دولتهم أن تصير صناعة عَتيدة[٢] متَّحدة الأصول متشعبة الفروع بما أدخله فيها الناشئون من أبناء الكُتَّاب والموالى بعد نقل الدواوين الى العربية

---

(١) الديوان الكتاب يكتب فيه أهل العطية ، وأول من وضعه عمر رضى الله عنه ، ثم صار يطلق على المكان الذى يجتمع فيه الكتاب (٢) مهيأة محكمة

وكان كثير منهم يعرف اللغة الرومية أو الفارسية أو اليونانية أو السريانيةوهى لغات أمم ذات حضارة وعلوم ، ونظام ورسوم ، ومن هؤلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك أحد الواضعين لنظام الرسائل ، وأستاذ عبد الحميد الكاتب الذى آلت اليه زعامة الكتابة آخر الدولة الاموية . ومع كل ذلك لم تصل درجة الكاتب العظيم فى هذا العصر الى ماوصلت اليه بعد من ارتقاء مرتبة الوزارة.

مميزات الكتابة الانشائية

وتمتاز الكتابة فى هذا العصر بالميزات الآتية :

(١) الاقتصار فى أغراضها على القدر الضرورى لدولة عربية : لقلة تجزئة الأعمال وضبط الأمور الصغائر ، ولشمول العدالة والثقة أكثر عمال الامة وانصاف الناس بعضهم بعضاً.

(٢) الاقتصار فى معناها على الالمام بالحقائق وتوضيحها بلا مبالغة ولا تهويل

(٣) استعمال الألفاظ الفخلة ، والعبارات الجزلة . والأساليب البليغة ؛ اذ كان الكاتب والمكتوب اليه عربا فصحاء ، وكان البيان غاية النبيل منهم ؛ فقد كانوا يتوخون ملاءمتها لحال المكتوب اليه : فتارة تكون موجزة سهلة وذلك اذا كانت لغير العرب ليسهل على من له إلمام باللغة ترجمتها كما ترى ذلك فى كتبه صلى الله عليه وسلم الى كسرى أبرويز ملك فارس [1] أو هرقل قيصر الروم ، وتارة تكون عالية العبارة متينة الاسلوب اذا كان المخاطب عربياً فصيحاً كما كان ذلك

---

(١) وهو: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله وآدعوك بدعاية الله عز وجل ، فانى انا رسول الله الى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، وأسلم تسلم ، فان توليت فان إثم المجوس عليك

في كتبه صلى الله عليه وسلم الى بني نهدٍ (*) ، والى وائل بن حُجْر وأهل حَضْرَموْت

(٤) مراعاة الايجاز غالباً الا حيث يستدعى الحال الإسهاب . وبقى الأمر على ذلك حتى جاء عبد الحميد الكاتب آخرَ الدولة الاموية ، فأسهب فى الرسائل ، وأطال التحميدات فى أوّلها ، وسلك طريقه من أتى بعده

(٥) قلةُ التفنن فى أنواع البدء والختام ، فقد كانت الجاهلية تكتب في أوّل كتبها باسمك اللهمَّ ، وبعدها تكتب من فلان الى فلان ويَمضون فى الغرض . وكان صلى الله عليه وسلم يفتتح كتبه بالبسملة ، وبعدها من محمد رسول الله الى فلان ، ويبتدئ غالباً صدورَها بالسلام عليكم أو السلام على من اتّبع الهدى ، ويثني بالتحميد بعد السلام فيقول : انى أحمد اليك الله الذى لا إله إلاّ هو ؛ ويتخلص من صدر الكتاب الى المقصود تارة بأما بعد ، وأخرى بغيرها ؛ وكان يختمها في الاكثر بالسلام عليكم ورحمة الله ، أو السلام على من اتبع الهدى

(٦) التعبير غالباً عن النفس بلفظ الإفراد مثل (أنا ، ولى ، وجاءنى ، ووفدَ علىَّ) ، ومخاطبة المكتوب إليه بكاف الخطاب وتائه ، وعند التثنية بلفظها مثل (أنتما ولكما) وعند الجمع بلفظه أيضاً مثل (أنتم ولكم) . وبقى الامر متبعاً فى خلفائه وخلفاء بنى أمية الى أن ولى الوليد بن عبد الملك فجوَّد القراطيس ، وجلّل الخطوط ، وفخّم المكاتبات ،

(*) قبيلة باليمن ونصّ الخطاب كما فى صبح الاعشى : من محمد رسول الله الى بنى نهد . السلام على من آمن بالله ورسوله ، لكم يا بنى نَهْدٍ في الوظيفة الفَريضَةَ ، ولكم الفارضُ والفَريش وذو العِنان الرَّكوب ، والفَلُوُّ الضَّبيس ، لا يُمنع سَرْحكم ، ولا يُعضَد طَلْحكم ، ولا يُحبس درّكم ، ما لم تُضمروا الإماق ، وتأكلوا الرِّباق . من أقر فله الوفاء بالعهد والذمة ، ومن أبى فعليه الرَّبوة

الوظيفة النصاب فى الزكاة . الفريضة الهرمة . الفريش الفرس اذا حُمل عليه بعد النتاج . ذو العنان الركوب الفرس الذلول . الفلو المهر الصغير . الضبيس ، الذى لم يذلل . السرح ـ المواشى . الدر اللبن والمراد ذوات الدر . الاماق ـ الحمق والمراد الغدر ، الرباق عروة في الحبل تكون فى عنق البهيمة والمراد نقض العهد . الربوة ـ الزيادة فى الفريضة الواجبة عليه كالعقوبة له

وتبعه من بعده من الخلفاء على ذلك الا ما كان من عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد فانهما جريا في ذلك على طريقة السلف . ثم رجع الأمر الى مروان بن محمد آخر خلفائهم وكتب له عبد الحميد بن يحيى ، وكان من اللسن والبلاغة على ما اشتهر ذكره ، فأطال الكتب وأطنب فيها حيث اقتضى الحال تطويلها والإطناب فيها كما تقدم

نماذج من الرسائل والأمثال والحكم

كتب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الى خالدِ بنِ الوليد :

من محمدٍ رسول الله الى خالدِ بن الوليد

سلامٌ عليك ، فاني أحمدُ اليك الله الذى لا إله إلاّ هو . أما بعد فانّ كتابك جاءَني مع رسولِك ، يخبرنى أنَّ بَني الحارث قد أسلموا قبل أن تُقاتلَهم ، وأجابوا إلى ما دعوتهم اليه من الاسلام ، وشهدوا أن لا إله الاّ الله وأنّ محمداً عبدُه ورسولُه ، وأنْ قد هداهم اللهُ بهُداه ، فبشّرْهم وأنذِرْهم ، وأقْبِلْ وليُقْبِلْ معك وفدهم . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته !

وكتب أبو بكر الى المسلمين يعهد إلى عمر بالخلافة :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما عهد به أبو بكر خليفةُ محمدٍ رسول الله صلى الله عليه وسلم عند آخرِ عهده بالدنيا ، وأول عهده بالآخرة ، فى الحال التى يُؤْمِن فيها الكافر ، ويتّقى فيها الفاجر . انّى استعملتُ عليكم عمر بن الخطاب ، فان برَّ وعدل فذلك علمى بهِ ورأيى فيه ، وان جار وبدّل فلا علم لى بالغيب ، والخيرَ أردْتُ ، ولكل امرئٍ ما اكتسب . (وسيعلَمُ الّذِينَ ظَلَمُوا أيَّ منقَلَبٍ ينقلبُون)

وكتب سيدنا عثمان لسيدنا علىّ يستنجده :

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد فقد بلغ السيل الزُّبى [1] ، وجاوز الحزام الطُّبْيين [2] ، وطمِع فىّ من لا يدفعُ عن نفسه ، ولم يَغلبك مثلُ مُغَلَّب [3] فأقْبِلْ إلىَّ صديقا كنت أو عدوّا

---

(١) جمع زبية وهي حفيرة تحفر في اعلى الجبل للاسد اذا أرادوا صيده
(٢) الطبي حلمة الضرع لذوات الاربع (أى اشتد الامر) (٣) المغلوب مرارا

فان كنتُ مأكولا فكن خيرآ كلٍ وإلاّ فأدركنى ولمّا امزّقِ

وكتب بشر الى عبد العزيز بن مروان يعتذر عن كتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

لولا الهفوة لم أحتج الى العذر ، ولم يكن لك فى قبوله منى الفضل ، ولو احتمل الكتاب أكثر مما ضمنْته لزدت فيه

وبُقيا الأكابر على الأصاغر ، من شيم الأكارم . ولقد أحسن مسكين الدارمى حين يقول :

أخاك أخاك ان من لا أخا له . كساع إلى الهيجا بغير سلاح
وإن ابن عم المرء (فاعلم) جَناحُه وهل ينهض البازى بغير جناح

وقال كَعْبٌ العَبْسِيُّ لعُرْوَةَ بنِ الزبير : قد أذنبتُ ذنباً الى الوليد بن عبدالملك وليس يُزيل غضبه شيءٌ فاكتب لى اليهِ فكتب اليه :

لولم يكن لكعب من قديم حرمته مايغفرله عظيمَ جَريرتهِ لوجَبَ ألاّ تَحْرِمه التفيُّوء بظلِ عفوك الذى تأمله القلوبُ ، ولا تعلَقُ به الذنوب . وقد استشفع بى اليك ، فوثقْتُ لهُ منك بعفو لا يخالطه سُخْط . فحقِّقْ أمَلَه وصدِّق ثقتى بك ، تجدِ الشكر وافياً بالنِّعمة

فكتب اليه الوليد :

قد شكرت رغبته اليك ، وعفوتُ عنه لمعوّله عليك ، وله عندى ما يحب ، فلا تقطع كتبك عنى فى أمثاله وفى سائر أمورك

وهاك طرفاً من الأمثال :

إن من البيان لسحرا [١] — إن المُنْبَتّ [٢] لا أرضاً قطع ولا ظهرا [٣] أبقى [٤] — إن مما يُنْبِتُ الربيع ما يقتُل حَبَطا [٥] أو يلمّ [٦] — ان لله جنوداً منها العَسَل [٧] —

---

(١) مثل قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم يضرب فى استحسان المنطق وايراد الحجة البالغة
(٢) المنقطع عن أصحابه فى السفر (٣) دابة (٤) قائله رسول الله ويضرب لمن يبالغ في طلب الشيء ويفرط حتى ربما يفوّته على نفسه (٥) انتفاخ يعترى الابل من كثرة الاكل
(٦) يقارب : قائله رسول الله ، يضرب فى النهى عن الافراط (٧) قائله معاوية رضى الله عنه: ويضرب عند الشماتة بما يصيب العدو

إن البلاءَ موكّل بالمنْطق (١) — انما أُكِلتُ يوم أُكل الثورُ الأبيض (٢) — أنا جُذَيلُها (٣) المُحَكَّك (٤)، وعُذَيقُها (٥) المُرجَّب (٦) — إياكم وخضراءَ الدِّمَن (٧) — حَرّك لها حُوارها تحنّ (٨) — عند الصباح يحمَد القوم السُّرَى (٩) — وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم التمسوا الرزق فى خبايا الأرض — رُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع — وقال أبو بكر رضى الله عنهُ : ليستْ مع العزاء مصيبة — الموتُ أهون مما بعده، وأشدُّ مما قبله . أصلحْ نفسك يَصْلُحْ لك الناسُ، اذا فاتك خيرٌ فأدركْهُ، وان أدركك شر فاسبقْه — وقال عمر رضى الله عنه : من كتم سره كان الخيارُ فى يده . أعقلُ الناس أعذرهم للناس . لا تؤَخّرْ عمل يومك لغدك . لا ينفع تكلُّم بحق لا نَفاذ له — وقال عثمان رضى الله عنه : ما يَزَعُ الله بالسلطان أكثر مما يزَعُ بالقرآن . الهدية من العامل اذا عُزِلَ مثلها منه اذا عمل . يكفيك من الحاسد أن يغتمّ وقت سرورك — وقال علىٌّ رضى الله عنه : من رضِىَ عن نفسه كثر الساخط عليه . من صارع الحقّ صرعه . العَفَافُ زينةُ الفقر، والشكر زينة الغنى . الخُرْقُ المعاجلةُ قبلَ الامكان، والأَناة بعد الفرصة . الأمانىُّ تعمى أعين البصائر . قيمة كل امرئ ما يحسنه . الولايات مضامير الرجال — ومن كلام ابن عباس رضى الله عنه : الحرمان خير من الامتنان . صاحب المعروف لا يقع فان وقع وجد متكأً — وقال عمر بن عبد العزيز : من يزرع خيراً يُوشِك أن يحصُدَ غِبطة، ومن يزرع شرًّا يوشك أن يحصُد ندامةً

---

(١) قائله أبو بكر رضى الله عنه : يضرب فى الاحتراس من عثرات اللسان

(٢) قائله على رضى الله عنه : يضرب للرجل يرزأ بأخيه (٣) تصغير الجذل وهو اصل الشجرة

(٤) الذى تتحكك به الابل الجربى من عود ينصب فى مبارك الابل أو اصل شجرة

(٥) تصغير العذق وهو النخلة (٦) الذى جعل له رجبة وهى دعامة تبنى حول النخلة الكريمة من الحجارة لئلا تقع : قائله الحباب بن المنذر الانصارى يوم السقيفة ويضرب للرجل يستشفى برأيه وعقله

(٧) خضراء الدمن البقلة الحسنة تنبت فى الدمن وهى منبت خبيث، ويضرب فى الحسن الظاهر والخبيث الاصل وقائله الرسول الكريم (٨) الحوار ولد الناقة الرضيع قائله عمرو بن العاص، ويضرب فى تذكير المرء بما يهيجه (٩) السرى السير ليلاً، قائله خالد بن الوليد، ويضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة

الكُتّاب

كُتّاب هذا العصر كثيرون ، فقد كان الخلفاء والامراء والقوادُ كلهم كتّابا بلغاء . وانك لترى كثيراً من رسائلهم وعهودهم فى تاريخ الطبرى وغيره من كتب المغازى والفتوح . ولما صارت الكتابة صناعة تداولها كثير من الاعاجم وغيرهم ، واشتهر من بين هؤلاء عبد الحميد الكاتب ، وهاك ترجمته :

عبد الحميد بن يحيى الكاتب

هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامرىّ وَلاءً الشامىّ دارا ، شيخُ الكتاب الأوائل ، وأوّل من أطال الرسائل

كان عبد الحميد من اهل الشام من مَوالى بنى عامر ، وتخرّج فى البلاغة والكتابة على خَتَنه (١) أبى العَلاء سالم مَولى هشام بن عَبد الملك وكاتب دولته وأحد بلغاء عصره والنقلة من اليونانية . وكان عبد الحميد فى أوّل أمره معلِّمَ صِبيان يَتَنَقَّل فى البلدان حتى فَطِنَ له مَرْوان بن محمد أيام تولّيه أرمينيَةَ وانتدابه لتسكين فتنتها ، فكتب له مدة ولايته حتى اذا بلغه مبايعة أهل الشام له بالخلافة ، سجد مروان لله شكراً وسجد أصحابه إلا عبد الحميد . فقال له مروان لم لاتسجد ؟ فقال ولِمَ أسجُد ؟ أعلى أن كنتَ معنا فَطِرْتَ عنا ؟ قال اذاً تطير معى — قال الآن طاب لى السجود وسجد ، فتخذه مروان كاتب دولته . فصدر عنه من الرسائل ما صار نَموذَجاً يحاكيه من بعده

ولَمّا دَهِمَتْ مرْوان جيوشُ خُراسان أنصارُ الدعوة العباسية وتوالت عليه الهزائم كان عبد الحميد يلازمه فى كل هذه الشدة — فقال له مَرْوان : قد احتَجت أن تصيرَ مع عدوّى وتُظهرَ الغَدْر بى ؛ فإن إعجابهم بأدبك ، وحاجتهم الى كتابتك

---

(١) الختن هنا كل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ

تحوجهم الى حسن الظن بك ، فان استطعت أن تنفعنى فى حياتى ، والاّلم تعجز عن حفظ حُرَمى بعد وفاتى — فقال له : ان الذى أشَرْت به علىّ أنفعُ الامرين لك وأقبحُهما بى ، وما عندى الاّ الصبر حتى يفتح الله عليك أو أُقتل معك . وأنشد :

اسِرّ وفاءً ثم أُظهرُ غَدْرة ! فَمَنْ لى بعُذْرٍ يُوسِعُ النّاس ظاهره ؟

وبقى معه حتى قتل مروان سنة ١٣٢ ه ، ففرّ واختبأ عند صديقه ابن المقفع ففاجأه الطلب وهو فى بيته — فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبدُ الحميد ؟ — فقال كل منهما : أنا ، خوفا على صاحبه . وخاف عبد الحميد أن يُسْرِعوا الى ابن المقفع فقال : تَرفَّقوا بنا فان كلاّ منا له علامات ، فوكّلوا بنا بعضكم ويمضى بعض آخر ويذكر تلك العلامات لمن وجهكم ففعلوا ، وأخِذَ عبد الحميد الى السفّاح فقتله سنة ١٣٢ ه

آثاره فى الكتابة

منزلته فى الكتابة — اتفقت كلمة البلغاء وأهل الأدب على أن عبد الحميد هو الاستاذ الاوّل لأهل صناعة كتابة الرسائل ، وذلك أنه أوّل من مهّد سُبُلها ، ومَيّز فصولها ، وأطالها فى بعض الشئون ، وقصّرها فى بعضها الآخر ، وأطال التحميدات فى صدرها ، وجعل لها صوَراً خاصةً ببدئها وختمها ، على حسب الأغراض التى تكتب فيها ، بل هو الذى رقّى هذه الصناعة التى كانت من مِهَن الموالى ، حتى صارت بعده سُلَّماً يعرُج فيه الكاتب الى مرتبة ليس فوقها إلا الخلافة : وهى مرتبة الوزارة

بلاغة عبد الحميد

وكان لبلاغة عبد الحميد عمل يَعْجز عنه السحر فى خَلْب الافئدة وجذب النفوس ؛ فيقال إنه لما ظهر أبو مسلم الخُراسانى بدعوة بنى العباس كتب اليه عن مروان كتاباً يستجلبه به وضمّنه مالو قُرِئ لأدّى الى وقوع الخلاف والتخاذل — وقال لمروان : قد كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره فإن يك ذلك وإلا فالهلاكُ .

وكان الكتاب لكبر حجمه يحمل على جمل . فلما وصل الكتاب الى داهية خراسان أبي مسلم ، أمر باحراقه قبل أن يقرأه وكتب على جُذاذة (١) منه الى مروان

محا السيفُ أسطارَ البلاغةِ وانتحى عليك ليوث الغاب من كل جانب

طائفة من نثره

نموذج من كتابته :

ومما كتبه عبد الحميد موصياً بشخص :

حقٌّ موصل كتابي عليك ، كحقّهِ عليّ ؛ إذ جعلك موضعاً لأمله ، ورآني أهلاً لحاجته ، وقد أنجزت حاجته . فصدِّق أمله

وكتب الى أهله وهو منهزم مع مروان :

أما بعد فان الله جعل الدنيا محفوفةً بالمكاره والشرور ، فمن ساعده الحظ فيها ، سكن اليها ، ومن عضَّته بنابها ، ذمها ساخطاً عليها ، وشكاها مستزيداً لها ، وقد كانت أذاقتْنا أفاويق (٢) استحليناها ، ثم جمحت (٣) بنا نافرة ، ورمحتنا (٤) مُوَلّية ، فمَلُحَ عذبها ، وخَشُنَ لينّها فأبعدتنا عن الاوطان ، وفرّقتنا عن الاخوان ، فالدار نازحة (٥) والطير بارحة (٦) ، وقد كتبت والايام تزيدنا منكم بعداً ، واليكم وَجْداً ، فان تتمّ البلية الى اقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا ، وان يلحقنا ظُفُر جارح مِن أظفار مَن يليكم نرجع اليكم بذل الإسار ؛ والذل شرُّ جار . نسأل الله تعالى الذى يُعز من يشاء ويذل من يشاء أن يَهَب لنا ولكم أُلفةً جامعة ؛ فى دار آمنة ، تجمع سلامة الابدان والاديان ، فانه رب العالمين ؛ وأرحم الراحمين

---

(١) قطعة (٢) الفيقة بالكسر اسم اللبن يجتمع فى الضرع بين الحلبتين والجمع فيق وفيقات وافواق وجمع الجمع افاويق (٣) جمحت الفرس غلبت راكبها

(٤) رمحته الفرس كمنع رفسته (٥) بعيدة (٦) البارح من الطير مامر من ميامنك الى مياسرك وهو يتشاءم منه

موازنة بين النثر الجاهلي ونثر صدر الاسلام

أسبقنا الكلام في نثر الجاهلية أنهم كانوا لا يَحفلون بانتقاء الالفاظ والتعمق فى المعانى وترتيبها ، ولا يُولَعون بالتأنق فى صوغ العبارات وسجع الكلام ، ولا يبعدون الشقة بين طَرَفى الجملة وبخاصة الحكمة والمثل ، على قصدٍ منهم إلى الايجاز فى الالفاظ ، وتعمد الى استيفاء المعنى من غير إخلال ، اعتماداً على سليقة المتفهم لكلامهم ودقيق كناياتهم

ويرى القارئ بعد تلاوة ما كتب فى أحوال النثر فى صدر الاسلام :
ان أهل هذا العصر لِما طرأ عليهم من الحوادثِ الاجتماعيةِ والسياسية والدينية قد خالفوا طريقة سابقيهم بما يمكن اجماله فيما يأتى : —

١ — اتساعُ وجوه الكلام ومقاصده لإتساع الملك ودواعى السياسة وشعائر الدين

٢ — عناية أهل هذا العصر بعض العناية بتهذيب ألفاظهم ، فهجروا بعضاً وحَرَصوا على آخر ، وسعد من بين هذه الالفاظ بالاستعمال والرواج مادار فى عبارات القرآن والسنة ، مع حَفْلهم بتوليدِ الحديثِ من القديم

٣ — تأنقهم فى صوغ عباراتهم ومحاكاتهم فيها لأساليبِ الكتاب والسنة ، واقتباسِهم منهما واستشهادهم بهما ، وقلة اقتصارهم على الجمل القصيرة والمسجوعة ، وبقاؤهم على اتباع خطةِ الايجاز أول هذا العصر ، وميلهم الى الاطناب أواخرَه ، وغلبة استعمالهم فى مبادئ الرسائل والخطب التحميداتِ والصلاةِ على الرسول الكريم والثناء على الله ونحو ذلك

٤ — ترتيبُهم للمعانى والأفكار بدون تغلغل فيها ، ويظهر ذلك جليا فى الخطب التى كانوا يُعِدونها قبل القول ؛ وفى الرسائل التى كانت تدور بين الخلفاء والأمراء أُخريات هذا العصر

وقصارى القول أن هذه الحوادث الطارئة فى هذه المدة قد صبغت اللغة بصبغة دينية سياسية اجتماعية ، وشملت من الأغراض ما لم تكن تتسع له من قبل ، وان لم تصل هذه الدرجة الى حد الكمال الا فى صدر العصر العباسى

التدوين والتصنيف

انقضى زمن الخلفاء الراشدين ولم يدوّن فيه كتاب إلاّ ما كان من أمر كتابة المصحف . وكان مرجعُ الناس فى أمر دينهم ودنياهم كتابَ الله تعالى وسنةَ رسوله ، فاذا اشتبه عليهم أمر من أمور الدين رجعوا الى الخلفاء وفقهاء الصحابة أو استخاروا الله فيه واستظهروا باجتهادهم رأياً عملوا به . وقد كانوا لا يكتبون أقوال النبى صلى الله عليه وسلم وفتاوى الصحابة خشيةَ أن يجرَّهم ذلك الى الاعتماد على الكتب وإهمال حفظ القرآن الكريم والسنة ، ولأن الكتابَ عُرْضة للضّياع والتصحيف والتحريف ، ولو عرض للكتاب عارض فات معه علم الدين

سبب عدم التدوين

ثم لما انتشر الاسلام زمن بنى أمية فى مشارق الأرض ومغاربها واختلطت العرب بالأمم المختلفة من الاعاجم ، ففسدت فيهم ملكة اللسان العربى ، وفشا اللحن وأشفقوا على القرآن من التحريف وعلى اللغة من الفساد — دوّنوا النحو بعد إحجام وإقدام وأخذ وردّ ، وكان أوّل من كتب فيه أُبو الأسود الدؤلى ، وقد تلقى مبادئه عن الامام علىّ ، وأخذ عنه فِتيانُ البَصرة وخصوصاً الموالى ، اذ كانوا أحوج الناس إلى النحو . واشتغل أهل الكوفة به بعد أن فشا بالبصرة ، ولم ينقضِ هذا العصرُ حتى اشتغل به طبقتان من البصريين وطبقة من الكوفيين

تدوين النحو

ثم لما حدثت الفتن وتعدَّدَتِ المذاهب والنّحل وكثرت الأقوال والفتاوى والرجوع فيها الى الرجال والرؤساء ومات أكثر الصحابة ، خافوا أن يعتمد الناس على رؤسائهم ويتركوا سنة رسول الله ، فأذِن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز

تدوين الحديث

لأبى بكر محمد [1] بن عمر بن حَزْم فى تدوين الحديث بعد أن استخار الله أربعين يوماً ، فدوّن ما يحفظ من حديث رسول الله فى كتاب بعث به عمر الى الأمصار ولم يعرف له بعد ذلك خبر

وبقى كثير من التابعين مُحْجِماً عن التدوين والتصنيف تورّعاً منهم ، وبعضهم كَتَب أو سمح لمن يكتب عنه فى الحديث ورواية أقوال الصحابة فى التفسير ، وانقضى هذا العصر ولم يدون فيه من علوم اللغة والدين غير النحو وبعض الحديث وبعض التفسير . أما العلوم الأخرى فيُرْوى أنَّ خالد بن يزيد بن معاوية حُبّب اليهِ مُطالعةُ كتب الاوائل من اليونان فتُرجمت له ونبغ فيها ووضع كتباً فى الطب والكيمياء . وأن معاوية استقدم عبيد بن شَرْيَة [2] من صَنْعاء ، فكتب له كتاب (الملوك وأخبار الماضين) . وأن وهب بن مُنبّه الزُّهْرى [3] وموسى بن عقبة كتبا فى ذلك أيضاً كتباً ، وأن زياد بن أبيه وضع لابنه كتاباً فى مثالب قبائل العرب . وأن ماسَرْجَوَيهِ [4] متطبّب البصرة تولى فى الدولة المرْوانية ترجمة كتاب أهرُون [5] ابن أعين من السريانية الى العربية وأن يونُس [6] الكاتب ابن سليمان ألفَ كتاباً فى الأغانى ونِسبتها الى من غنّى فيها

تدوين الطب والكيمياء

تدوين التاريخ

الترجمة الى العربية وتدوين الاغانى

ولكن ذلك لم يُقْنِع الباحثين فى تاريخ العلوم وتصنيفها أن يَعتبروا هذا العصر عصر تصنيف وتدوين اذ لم تتم فيه كتب جامعة حافلة ، وانما كان كل ذلك مجموعاتٍ تدون على حسب ورودها واتفاق روايتها

---

(١) هو نائب عمر بن عبد العزيز فى القضاء والولاية على المدينة وتوفى سنة ١٢٠ ه

(٢) أدرك النبي ولم يسمع منه وكان يروى عن الكيس النمرى وعاش الى ايام عبد الملك بن مروان (٣) هو أبو عبدالله صاحب القصص والاخبار وسير الملوك واحوال الانبياء وتوفى بصنعاء سنة ١١٦ ه (٤) يهودى عاش الى صدر بنى العباس وزاد على كتاب اهرون مقالتين عند ترجمته

(٥) هو قس متطبب تبلغ كناشته فى الطب ٣٠ مقالة عاش فى مبدأ الاسلام

(٦) نشأ بالمدينة وكان من الكتاب واخذ الغناء عن معبد وابن سريج وابن محرز والغريض واستقدمه الوليد بن يزيد فلازمه حتى قتل

الشعر والشعراء

الشعر (*)

جاء النبي الكريم ، والشعر ديوان العرب ، ومجمع مكارمهم ، ومنبع مفاخرهم ، ومعرض فصاحتهم ، ومظهر نبالتهم ، وموضع الرغبة من نفوسهم ، فأتاهم بالأمر العظيم والحادث الخطير ، حاملاً بأحدى يديه القرآن يدعو الناس إلى توحيد الله والتمسك بالفضيلة وشاهراً بالأخرى سيف الحق لحماية هذه الدعوة ، وما كان أشد ذهولهم لخطبهما ! وانزعاجهم من وقعها ! فهبوا يتحسسون الأول ويتمرسون بألفاظه ومعانيه ، ويتفرسون في أساليبه ومغازيه : من بين معاند يتلمس مطعناً فيه ، ومؤمن يستبينه ويستهديه ، وتأهبوا للثاني : من بين ضال يناوئه ، ومهتد يعاضده ، فصار ذلك صارفاً لهم عن التشاغل بالشعر والتلهي به والتنافس فيه ، محولاً مجرى أفكار المؤمنين منهم عن أكثر فنونه وأغراضه المنحرفة عن سنن الشرف والحق : كالتشبيب ، والمغازلة ، والمدح الباطل ، والاستجداء والهجاء . وبغض اليهم تلك الفنون المرذولة إزراء القرآن على الشعر الذي يقال فيها ويقصر عليها بقوله (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا) ولهذا لم يكن شعراء المسلمين عن قوله فيما يطابق روح القرآن : كالحث على العمل الصالح ، والموعظة الحسنة ، ومدح الرسول وأنصاره ، والانتصاف للاسلام ممن ظلمه واعتدى عليه بهجاء أهله وذم نبيهم ، فقابلوا هجوهم بهجو كان أشد عليهم من وقع السهام في غبش الظلام .

أثر القرآن في الشعر

أغراض الشعر بعد الاسلام

ولبث الحال على ذلك مدة حياة النبي الكريم ، حتى إذا ما ثاروا لاسكان فتن

(*) وتشمل هذه المقالة الموازنة بين شعر الجاهلية وشعر هذا العصر

أهل الردة وفتح الممالك والامصار ، أضافوا الى ما ألفوه من أغراض الشعر ، الاكثار من التباهي بالنصر ، ووصف المعارك وأحوال الحصار وآلات القتال ، وما استعمل فيها من الادوات العجيبة ، وما شاهدوه من الحيوانات الغريبة ، وغنم الغنائم ، ومقاساة أحوال الحر والبرد ، مما امتلأت به كتب الفتوح والمغازي [١] وأخبار علي ومعاوية

الشعر والسياسة

ولما آل الأمر الى بني أمية وشغب عليهم [٢] كثير من فرق المسلمين : كالشيعة والخوارج وأتباع عبد الله بن الزبير [٣] ، والمختار [٤] وغيرهم ، أصبح الشعر لساناً يعبّر عن مقاصد كل حزب ، والقوم عرب : الشعر أسير الاقوال عندهم ؛ وأيسر الوسائل لإعلاء شأنهم ، واعلان أمرهم

وكان لخلفاء بني أمية في اجتذاب الشعراء اليهم وتحبيبهم فيهم همة لا تني ، وعزيمة لا تنل ، فأغدقوا عليهم جزيل العطايا ، وفرضوا لهم الارزاق في بيوت الاموال ، وأكرموا وفادتهم وقبلوا شفاعتهم ، وبثوا فيهم روح التسابق الى أبوابهم والتنافس في جانب مرضاتهم ، وقصر أشعارهم عليهم دون غيرهم ، بل دون ولاتهم ورؤساء شيعتهم ، وتبعهم في ذلك عمالهم وولاتهم [٥]

ولم يقف خلفاء بني أمية عند هذا الحد ، بل بالغوا في اكرام بعض الشعراء دون بعض : ليقع الشقاق بينهم ؛ ويتابعوهم في ذلك قبائلهم ، فيلهوهم بذلك عن مناوأتهم ومراقبة أعمالهم ، ويستتبع ذلك اشتغال طبقة المتعلمين والمتأدبين بالاخذ عنهم ، والبحث في أقوالهم ، والتعصب لشاعر دون شاعر ، ونحو ذلك مما يبعدهم عن الخوض في السياسة وأمور الملك . وبذلك عاد الشعر الى ما كان عليه ، ونبغ فيه الشعراء من

---

(١) راجع تاريخ ابن جرير الطبري

(٢) شغبهم وبهم وعليهم كمنع وفرح هيج الشر عليهم (٣) أول من ولد من المهاجرين بعد الهجرة ، وبويع له بالخلافة بمكة سنة ٦٤ بعد وفاة يزيد بن معاوية واستمر تسع سنين واجتمعت له العراق واليمن والحجاز ومصر وكاد يتم له الامر ثم قتله الحجاج في مكة سنة ٧٣ هـ

(٤) أحد الخوارج الذين خرجوا بالكوفة مطالبين بدم الحسين وتبعه خلق كثير فقتل كثيراً من قتلته ثم قتله مصعب بن الزبير بالكوفة سنة ٦٧ هـ (٥) راجع العمدة

كل القبائل حتى قريش التى لم يكن لها شأن فيه من قبل

الشعراء والخمر والعصبية

واستعمل فى كل أغراضه السابقة اللهمَّ إلاَّ ما كان من وصف الخمر والترغيب فيها فان جمهور شعراء المسلمين نَزَّهوا شعرهم عنها[1] وانما أوّل من وصفها منهم وجعلها كدّه وقصده هو أبو الهندى من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية كما صرح بذلك صاحبُ الاغانى ؛ والاّ ما كان من العصبية الذميمة ، فان الشيعة ودعاة بنى العباس أثاروا عَجاجها [2] وأشعلوا نيرانها أواخر الدولة الأموية على يد الكُميت ومتابعيه .

وقصارى القول أن الشعر أصبح حرفة عتيدة ، وصناعة جديدة ، ومورد ثروة لكثير من البيوت والعشائر ، وأصبحت دراسته ونقده وروايته دَأْبَ العلماء والأدباء حتى الخلفاء وأولياء عهودهم ، إذ لم يكونوا أقلَّ من هؤلاء عناية وحرصاً على تعلمه .

ويمكن وصفُ ما كان عليه الشعر فى هذا العصر من حيث أغراضه وفنونه ، ومعانيه وأخيلته ، وألفاظه وأساليبه ، وأوزانه وقوافيه ، بما يأتى :

أغراضه وفنونه

(١) نشرُ عقائدِ الدّين وحِكمه ووصاياه والحثُّ على اتّباعه وخاصّةً زمن النبي وخلفائه الراشدين .

(٢) التحريض على القتال والترغيبُ فى نيل الشهادة اعلاءً لكلمة الله وذلك فى أزمانِ غزواتِ النبي وفتوح الأمصار

(٣) الهجاء ــ وكان أوّلاً فى سبيل الدفاع عن الاسلام بهجو مشركي العرب بما لا يخرج عن حدّ المروءة ، وبما رضيه النبي من حسّان شاعرِه فى هجاء قريش وعشيرة النبي من بني عبد مَنَاف . وكان يتحرج عنه المسلمون ولو بالتعريض زمن النبي

---

(١) أكثر شعراء النصارى كانوا يصفون الخمر فى هذا العصر وجاراهم قليل من الخلعاء والمغذين على خشية ورقبة وندرة قول (٢) غبارها

وخلفائه : ولذلك عاقب عمر أمير المؤمنين الحطيئة وهدده بقطع لسانه لنيله من بعض المسلمين . ثم صار يتساهل فى خطبه حتى أصبح الشعراء يهجون أنفسهم [١] ويسب بعضهم قبائل بعض أمام خلفاء بنى أمية بل برضاهم وباغرائهم للأسباب السياسية التى ذكرناها قبل ؛ حتى كان الهجاء غاية براعة الشاعر [٢] وان لم يصل فى الإقذاع [٣] والفحش الى الحد الذى وصل اليه فى العصر الآتى — ومن ذلك التهاجى المشهور بين جرير والفرزدق والأخطل

(٤) وصف القتال وحصار المدن وفتحها وغير ذلك مما سبق ذكره آنفاً

(٥) المدح — وقلما كان مبدأ الاسلام فى غير النبى من حيث الاهتداء بهديه ونشر الحق على يديه . وكان خلفاؤه يأنفون مدحهم بما تزهى به نفوسهم تورعاً وتواضعاً ، ثم استرسل الشعراء فيه وقبل ذلك منهم الخلفاء الى أن كان المدح من أهم الدعائم لتوطيد أركان الدولة ، وتفخيم مقام الخلفاء والولاة والإشادة [٤] بعظمتهم، فكان إذ ذاك بمثابة الصحف العظمى المشايعة لأهل الدولة أو لأحد زعماء الاحزاب فى زماننا

(٦) استعماله فى النسيب والغزل العفيف بما يخالف مسلك أهل الجاهلية فيه ، وأكثر ما كان ذلك فى أهل البدو وبين العشاق منهم

معانيه وأخيلته

لم يخرج شعراء هذا العصر فى جملة تصورهم وتخيلهم عما ألفوه زمن الجاهلية ، وان فاقوهم كثيراً فى ترتيب الفكر وتقريب المعنى الى الأذهان والوجدان ، بما هذب نفوسهم ، ورقق طباعهم من دراسة كتاب الله وحديث رسوله ، وهما من المعانى

---

(١) ممن هجا نفسه الحطيئة بقوله :

(أرى لى وجهاً شوه الله خلقه … فقبح من وجه وقبح حامله)

(٢) قال الاصمعى انما وضع من ذى الرمة انه لا يحسن أن يهجو ولا ان يمدح

(٣) قذعه كمنعه رماه بالفحش وسوء القول كاقذعه (٤) أشاد بذكره شهره ومدحه

والحكمة ماهما ، وربما نوّع خيالهم وأنمى معارفهم : من مشاهد الحضارة و بدائع الصناعات ، غير أننا لانجد فى شعرهم من المبالغة والتهويل والتعمق فى المعانى العقلية العسرة الادراك مانجده لأهل العصر التالى : لاشتغال القوم بالفتوح والمغازى وتأسيس الحضارة والعُمران

ألفاظه وأساليبه

وكذلك لم يَخرُجوا جملةً فى هيئة تأليف اللفظ ونسجه ومتانة أسلوبه عن نظائرهم فى الجاهلية ، وانما آثروا جزَالة اللفظ وفخامته وحسنَ جرْسه ونَغْمته ، ومؤالفته لسابقه ولاحقه دون غرابته وحوشيَّته وتنافره مع قرينه ، كما آثروا جودة الاسلوب ومتانته وروعة تأثيره ، ولا سيما أهلُ النسيب (١)

وربما انطبق كل هذا الوصف على القصيد دون الرجز إذ كانت الغرابة كأنها من ألزم طبائعه ، ولا شك أن جل التأثير فى ترقيق حاشية عبارة الشعر العربى يرجع الى حفظ القرآن والحديث ودراستهما كما قدمنا

اوزانه وقوافيه

لم يطرأ على أوزان الشعر العربى حَدَثٌ غيرُ ماعُرِف عنهُ فى الجاهلية ، وانما شاع فى هذا العصر نظمُ الاراجيز والتطويلُ فيها واستعمالُها فى جميع أغراض القصيد حتى فى افتتاحها بالنسيب والتخلص منه الى المدح والذم ونحو ذلك

نماذج من الشعر فى الأغراض الآتية

١ — الحماسة — قال قَطَرِىُّ بن الفُجاءة

أقول لها وقد طارت شَعاعا   من الأبطال ويحكِ لن تُراعى (٢)

---

(١) مثل عمر بن أبى ربيعة وجميل بثينة وكثير عزة

(٢) الشعاع المتفرق — وتراعى من الروع وهو الفزع

فإنكِ لو سألتِ بقاءَ يوم ... على الأجل الذى لك لم تُطاعى

فصبراً فى مجال الموت صبراً ... فما نَيْلُ الخلودِ بمُستطاع

ولا ثوبُ البقاء بثوبِ عزٍّ ... فيُطوَى عن أخى الخَنَع[1] اليَراع[2]

سبيلُ الموت غايةُ كلِّ حىٍّ ... فداعيهِ لاهل الأرض داعِ

ومن لا يُعْتَبَطْ[3] يَسأمْ ويَهْرَمْ ... وتُسْلِمْهُ المَنونُ الى انقطاع

وما للمرء خيرٌ فى حياةٍ ... اذا ما عُدَّ من سَقَطِ[4] المتاع

وقال ربيعة بن مَقروم الضّبيّ :

ولقد شهدت الخيل يوم طِرادها[5] ... بسليمِ أوْظِفَةِ[6] القوائمِ هَيْكل[7]

فدعوْا نَزالِ فكنت أول نازلٍ ... وعلامَ أرْكَبُهُ اذا لم أنزلِ

وألَدَّ[8] ذى حَنَقٍ[9] علىَّ كأنما ... تَغْلى عَداوةُ صدره فى مِرْجَل[10]

أوْجبتْه[11] عنى فأبصر قصده ... وكويته فوق النواظر من عل

٢ — المدح — قال أبو دَهْبَلٍ الجُمحىُّ يمدح النبى صلى الله عليه وسلم :

إن البيوتَ معادنٌ فنِجارُهُ[12] ... ذهبٌ وكلُّ بيوته ضَخْمُ

عُقِمَ النساءُ فما يَلِدْنَ شبيهَه[13] ... إن النساءَ بمثله عُقْمُ

متهلّلٌ[14] بنعَمْ بلا متُباعدٌ ... سِيّانِ منهُ الوَفْرُ والعَدْمُ

نَزْرُ الكلام من الحياء تخاله ... ضَمِناً[15] وليس بجسمه سقْمُ

وقال الحطيئة يمدح بغيض بن لأى :

تزور[16] امرأً يُؤْتِى على الحمدِ مالَه ... ومن يُؤتِ أثمانَ المحامد يُحْمَدِ

يرَى البُخلَ لا يُبْقِى على المرء مالَه ... ويعلم أنّ البخلَ غيرُ مُخلِّد

---

(١) الذل (٢) الجبان (٣) يمت من غير علة (٤) سقط المتاع رديئه (٥) طراد الفرسان حمل بعضهم على بعض (٦) جمع وظيف وهو ما فوق الحافر من الفرس (٧) ضخم (٨) شديد الخصومة (٩) غيظ شديد (١٠) قدر من حجارة أو نحاس (١١) قهرته وأذللته (١٢) اصله (١٣) منعن عن ان يأتين بمثله (١٤) أى يجيب وهو مستبشر بلفظ (نعم) عند ما يسأل ويبتعد عن لفظ (لا) كناية عن كرمه (١٥) سقيما (١٦) الضمير يعود على الناقة

كَسُوب ومِتلاف اذا ماسألتَه ... تهلّل فاهتز اهتزازَ المهنَّد
متى تأتِه تعشُو (١) الى ضوء ناره ... تَجِدْ خيرَ نارٍ عندها خير مُوقِدِ

ومن جيد مدح الأخطل فى بني أمية :

حُشُدٌ (٢) على الحق عيّاف الخنا أُنُف (٣) ... إذا ألمّتْ بهم مكروهةٌ صبروا
شُمسٌ (٤) العداوة حتى يُستقاد (٥) لهم ... وأعظم الناس احلاماً إذا قدروا

٣ — الرثاء — قال عَبدة بن الطّيّب يرثى قيسَ بن عاصِمٍ المِنْقَرىّ :

عليكَ سلامُ الله قيسَ بنَ عاصم ... ورحمتُه ما شاءَ أن يترحّما
تحية من غادرْتَه غرَضَ (٦) الرّدى ... اذا زارَ عن شَحط (٧) بلادَكَ سلّما
فما كان قيسٌ هُلكه هلك واحدٍ ... ولكنّه بُنْيانُ قوم تهدّما

وقال حارثة بن بَدْر الغُدانى يرثى زِيادَ بن أبيه :

صلّى الأَلهُ على قبرٍ وطَهّرَهُ ... عندَ الثّويّةِ يُسفَى فَوْقَه الْمور (٨)
زَفّتْ إليه قُرَيْشٌ نَعْشَ سيّدها ... فَثَمّ كُلُّ التقى والبرِّ مقبورُ
أبَا المُغيرة (والدُّنْيا مفجّعَةٌ) ... وإنَّ مَنْ غرَّتِ الدنيا لَمغرورُ
قد كانَ عِنْدَكَ بالمَعْرُوفِ مَعْرِفَةٌ ... وكانَ عِنْدَكَ للنَّكْرَاءِ تَنْكيرُ
وكُنْتَ تَغْشَى وتُعطي المال من سعة ... إنْ كانَ بَيْتُكَ أضحَى وهومَهْجور
ولا تلينُ إذا عوسِرْتَ معسرةً ... وكُل امْرِكَ ما يوسرت ميْسُورُ
فالحمدُ زادُكَ لم تلْحَقْكَ بائرةٌ ... وأنتَ فى صالحِ الأقوامِ مذكورُ
لو خلّدَ الخيرُ والإسلامُ ذا قدمٍ ... إذاً لخلّدكَ الإسلامُ والخيرُ

---

(١) تقصد (٢) اذا دعوا أجابوا مسرعين (٣) جمع أنوف مبالغة من أنف بمعنى استنكف (٤) جمع شموس وهو الرجل الصعب الخلق و شمس الفرس منع ظهره (٥) استقدت الامير من القاتل فاقادنى منه أى قتله (٦) تركته هدفا للهلاك ويروى عرض بالعين المهملة (٧) أى بعد ونأى (٨) الثوية مكان بالكوفة والمور التراب.

لم يعرفِ الناسُ مُذْ كُفِّنْتَ سيّدَهم ولم يُحَلِّ ظلاما عندهم نور

الناسُ بعدَكَ قد خفَّتْ حلومهمُ كأنما نَفَختْ فيها الأعاصيرُ

٤ — الهجاء — قال قَعْنَبُ بن ضَمْرَة :

إن يسمعوا ريبةً طاروا بها فرحا مني وما سمعوا من صالح دفنُوا

صمٌّ اذا سمِعوا خيراً ذُكِرتُ به وان ذُكِرتُ بشرٍّ عندهم أذِنوا

جهلا علينا وجبنا عن عدوّهمِ لبئستِ الخلَّتانِ الجهل والجُبن

وقال عبد الرحمن بن الحكم :

لحا الله قيساً قيسَ عَيْلان إنها أضاعت ثغورَ المسلمين وولّت

فشاول[1] بقيس فى الطعان ولا تكن أخاها اذا ما المشرفية[2] سُلّت

وقال جوّاس بن القعْطَلِ الكلْبيّ :

صبغت أمية بالدماء رماحنا وطوت أمية دوننا دنْياها

أأُمَيَّ رُبَّ كتيبةٍ مجهولة صيدٍ[3] الكماة عليكمُ دعواها

كنا ولاة طِعانها وضِرابها حتّى تجلّت عنكم غُمَّاها

فالله يجزى لا أمية سعينا وعلاً شددنا بالرماح عراها

جئتم من الحجُز البعيد نياطه والشام تنكِر كهلها وفتاها

اذْ أقبلت قيس كأن عيونها حدق الكلاب وأظهرت سيماها

٥ — الاعتذار :

وقال الحطيئة يعتذر الى عمر بن الخطاب من ذمه الزبرقان بن بدر :

أتتني لسانٌ فكذبتها وما كنت أرهبها أن تقالا

(١) شال به وشاول رفعه أى ارفعها من عداد الطاعنين لجبنها

(٢) المشرفية السيوف تنسب الى مشارف الشام أى القرى التى تشرف عليه من بلاد العرب

(٣) أى ان كماتها صيد جمع أصيد وهو الاسد أو الرافع رأسه كبرا

بأنّ الوُشاةَ بلا حُرمةٍ أتوكَ فراموا لديك المُحالا
فجئتُكَ معتذِرًا راجياً لعفوكَ أرهبُ منك النَّـكالا
فلا تسمَعَنْ بي مَقالَ العِدا ولا تُؤْكِلَني (هُدِيتَ) الرِّجالا
فانك خيرٌ مِن الزِّبرَقانِ أشدُّ نـكالا وخيرٌ نوالا

وقال الـكُمَيتُ يعتذر الى هشام بن عبد الملك :

كم قال قائلكم لَعاً[1] لك عند عثرته لعاثرْ
وغفرتُمُ لذوى الذنو ب من الاكابر والاصاغرْ
أبنِي أُميّـة إنـكم أهل الوسائل والأوامرْ
ثِقتى لـكل مُلِمَّةٍ وعشيرتى دون العشائرْ
أنتم معادن للخلا فة كابرا من بعـد كابرْ
بالتسعة المتتابعيـ ن خلائفاً وبخـير عاشرْ
والى القيامة لا تزا ل[2] لشافع منكم ووِاترْ

٦ — **الوصف** — قال أبو عثمان الهذلى يصف المسلمين وبلاءهم فى فتح مكة وقد لامتْه امرأته على الهزيمة التى كانت منهـم عند ما دخلها عليهم خالد بن الوليد من جبل الخندمة :

انكِ لو شهدْتِ يوم الخَنَدمهْ[3] إذ فرَّ صفوانُ وفرَّ عِكْرِمهْ
ولحِقَتْنا بالسيوف المُسْلِمهْ يَفْلِقْنَ كلّ ساعد وجُمجمهْ
ضرباً ولا تسمع إلاَّ غمْغَمَهْ[4] لهم نهيتٌ[5] حولنا وحَمحَمَهْ[6]
لم تنطقى فى اللَّوم أدنى كلمهْ

---

(١) لعا لك كلمة دعاء يقال للعاثر بمعنى أقال الله عثرتك
(٢) أى لاتزال الخلافة فيكم
(٣) الخندمة جبل بمكة (٤) الغمغمة اصوات الابطال عند القتال
(٥) النهيت الزئير والزحير (٦) الحمحمة خفاء الكلام وعدم بيانه

وقال النابغة الجعدى يصف ذئباً افترس جُؤْذَرا :

فبات يُذكّيه (١) بغير حديدةٍ · أخو قنص يُمسى ويُصبح مفطرا

اذا ما رأى منه كُراعا تحرّكت · أصاب مكان القلب منه وفرفَرَا (٢)

وقال أبو زبيد الطائى يصف حال الحيوان عند اشتداد الهجير :

ليت شعرى وأينَ منّى ليتٌ · انّ ليتاً وان لوًّا عناء

أىُّ ساعٍ سعى ليقطع شُربى · حين لاحت للصابح الجوزاء (٣)

واستظل العصفور كرهامع الضب · م وأذكت نيرانَها المَعزاء (٤)

ونفى الجُنْدَب الحصى بكراعيـــه وأوفى فى عوده الحرباء (٥)

وقال حصين بن معاوية الراعى يصف بيضة نعام حضنها ظليم بالليل وتركها عند طلوع الشمس ينتفض :

وما بيضة بات الظليمُ يحفُّها · بوعساءَ أعلى تُربها قد تلبّدا (٦)

فلما علته الشمس فى يومِ طلْقةٍ · وأشرف مُكّاء الضحى فتفردا (٧)

أراد قياماً فازبأرّ عِفاؤه · وحرّك أعلى جيده فتأوّدا (٨)

وهزَّ جناحيه فساقط جيدُه · فَراشا وهى عن متنه فتبدّدا

فغادر فى الأُدحِيّ صفراءَ تَرِكة · هِجانا اذا ما الشرق فيها توقدا (٩)

بألين مسًّا من سُعاد للامس · وأحسن منها حين تبدى مجرّدَا

٧ — الحكم والامثال — قال سيدنا كعب بن زهير :

لو كنتُ أعجبُ من شئ لأعجبنى · سعىُ الفتى وهو مخبوءٌ له القدَر

---

(١) يذبحه (٢) قطع ومزق (٣) تطلع الجوزاء فى الصيف

(٤) المعزاء الارض ذات الحصى والحجارة من الصوان ونحوه (٥) الجندب نوع من الجراد والحرباء دويبة من الهوام لاتزال تستقبل الشمس برأسها (٦) الوعساء الارض ذات الرمل اللين

(٧) الليلة الطلقة التى لاحرّ فيها ولا برد — أى يوم ليلة طلقة — والمكاء طائر فوق العصفور كثير الصفير (٨) العفاء ما كثر من ريش النعام — وازبأر تنفش

(٩) الادحى الافحوص الذى يبيض فيه النعام — والتركة بيضة النعام — والهجان البيضاء

يسعى الفتى لأمور ليس يُدركها والنفس واجدة والهمُّ منتشر
فالمرء ما عاش ممدودٌ له أملٌ لا ينتهي العمر[1] حتى ينتهي الاثر[2]

وقال ابو الاسود الدُّؤَلى :
لا تهنِي بعد اكرامك لى فشديدٌ عادة مُنتَزَعة
لا يكن برقك برقاً خُلَّبا ان خير البرق ما الغيثُ معه

وقال مسكين الدارمى :
اصحب الأخيار وارغب فيهمُ رُبّ من صاحبته مثل الجربْ
واصدق الناس اذا حدثتهم ودع الكذْب لمن شاءَ كذب
رب مهزول سمين عِرضه وسمين الجسم مهزولُ الحسب

٨ — الاجتماع والسياسة — قال مسكين الدارمى وقد أوعز اليه معاوية حينما عزم على البيعة ليزيد ولكنه تهيَّب ذلك لكثرة المرشّحين ، وكان قد بلغ معاوية ما كرهه من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر فلما اجتمعوا عنده قال مسكين قصيدة طويلة منها :

ألا ليت شعري ما يقول ابنُ عامرٍ ومرْوان أم ماذا يقول سعيد
بني خلفاء الله مهلاً فانما يبوّئها الرحمن حيث يريد
اذا المنبر الغربي خلاَّه ربه فان أمير المؤمنين يزيد
على الطائر الميمون والجدُّ صاعد لكل اناس طائر وجدود
فلازلتَ أعلى الناس كعباً ولا تزل وفود تساميها اليك وفود
ولا زال بيت الملك فوقك عالياً تُشيَّدُ أطناب له وعمود
قدور ابن حرب كالجوابى وتحتها أثافٍ كأمثال الرئال ركود

---

(١) الحياة (٢) الاثر الاجل وسمى به لانه يأثر العمر ويتبعه

فلما انتهى منها قال معاوية ننظر فيما قلت يامسكين ونستخير الله . فلم يتكلم أحد بغير الموافقة

وقال كعب بن جعيل شاعر أهل الشام وتمثل به معاوية فى ردّه على كتاب لعلى

أرى الشام تكره مُلْكَ العراق ... وأهل العراق له كارهينا
وكلاًّ لصاحبه مبغضاً ... يرى كلَّ ما كان من ذاك دينا
اذا ما رمينا رميناهُمُ ... ودِنّاهُمُ مثل ما يُقرضونا
فقالوا عليٌّ امام لنا ... فقلنا رضينا ابنَ هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا له ... فقلنا ألا لا نرى أن نَدينا
ومن دون ذلك خرط القَتَاد ... وضرب وطعن يفُضّ الشئونا

وفى رد علىّ عليه ذكر شعراً للنجاشى أحد بنى الحارث بن كعب من شعراء أهل العراق ، منه :

دعاً يا معاوى ما لن يكونا ... فقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم علىّ بأهل العراق ... وأهل الحجاز فما تصنعونا

الشعراء

شعراء هذا العصر ممن خَلَصت عربيّتهم واستقامت ألسنتهم ، ولم يمتد اليهم اللحن . ولقد زادتهم مدارسة القرآن الكريم فصاحة وبلاغة ، وإحكاماً وإتقاناً ، حتّى فضلهم بعض الرواة على سابقيهم من الجاهليين ، ولذلك لم ير العلماء بدًّا من الاحتجاج بشعرهم ، بل بشعر بعض المخضرمين ممن أدرك الدولتين الأموية والعباسية كابن هَرْمة (١) وبشار

ومن أشهر شعراء هذا العصر كعب بن زهير ، والخنساء ، والحُطَيْئة ،

(١) هو ابو أسحق ابراهيم آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم وكان مولعاً بالشراب منقطعا للطالبيين ، توفى فى خلافة الرشيد حوالى سنة ١٥٠

وحسّان بن ثابت ، والنابغة الجَعْدِى ، وعمرو بن معد يكرب من المخضرمين [1] وعُمَر بن أبي ربيعة ، والأخطل ، والفرزدق ، وجرير ، والكميت ، وجميل ، وكثيّر ونُصَيْب ، والراعى ، وذو الرُّمة من الاسلاميين

تكسب الشعراء بالشعر

كانت غاية المادحين من قدماء الشعراء فى الجاهلية إما شكرَ الممدوح على حسن صنيعه ، وإما التباهى بمناقبه والافتخار بالانتماء اليه ، وإما التَّدَرّع الى الاستنجاد به ونحو ذلك لا طمعاً فى قَنْص ماله واستجداءً لمعروفه ، حتى نشأ فيهم مَنْ قَبِلَ الثواب على المدح بلا مسألة له : كزُهير ، ثم مَن قَبِله من الملوك خاصة بعد التعرُّض لهم أو التعريض لسؤالهم كالنابغة وأميَّة ثم مَن قَبله من الملوك والسُّوقة والعرب والعجم بعد مسألتهم : كالأعشى ؛ ثم من أَلْحَفَ فى السؤال وضرع ، وتوعد بالهجاء من مَنَع ، كالحطيئة ؛ فأصبح الشعرُ مِهنةَ كَسْبٍ يمقُتُها الاشرافُ ويُؤْثِرون عليها الخطابة فى بيان مقاصدهم

وجاء الإِسلامُ وقد ألفَ الناسُ المدح والاثابةَ عليه فأثاب النبى صلى الله عليه وسلم كعبَ بن زهير وغيره . ولم يعدِل الخلفاء الراشدون عن سنّنه فيها ؛ وانما كان ذلك منهم بمثابة اهداء ، أو تكريم ، أو أداء حق لابن سبيل ، لا اغراء منهم بكسل أو اذلال نفس ، أو اسقاط مروءة ؛ قال عمر بن الخطاب « نعم ما تعلمته العرب : الأبياتُ من الشعر يقدمها الرجل أمامَ حاجته »

فلما قامت الدولةُ الأموية بسياسة القهر والحيلة لم تَجِدْ بُدًّا من اشتراء ألسنة الشعراء بالمال تتقى به هجاءهم ، وتستأثر بمدحهم ، وتتخذ منهم أبواقاً تستنفرُ بها الناسَ للذود عنها ، وتحشُدُهم علي دعوتها ، وتحرّشُ بعضهم ببعض ليلهوا عن التعرض لسياستها والنعى على استبدادها وأثرتها ، كما تفعله أرباب الدولة والأحزاب من شراء الصحف الكبرى فى زماننا ؛ فكان من شعر جرير والفرزدق والأخطل

---

(١) من معانى المخضرم الاسود الذى أبوه أبيض ولعل تسمية الشاعر الذى أدرك الجاهلية والاسلام أخذ من هذا

والكميت وغيرهم معرضٌ لتهارُش الشعراء ، ومظهرٌ لدهاء الخلفاء مع ما يستتبعه ذلك من نشر اللغة ، وترفيه الأدب وهما من أقوى عُدد العرب السياسية . ولذلك صار الشعر فى هذا العصر مَتْجَراً رابحاً ، وزاحم الشعراء العلماء والقوادَ في مجالس الخلفاء وأصبحوا بعطاياهم فى عداد الأغنياء ، وسارت صناعة الشعر على هذا الدرب هذا العصْرَ وعصْرَ الدولة العباسية

على أن الشعر لم يَعْدَمْ فى كلّ زمان ومكان من يَرْبَا به عن السؤال ويقوله فى تأييد مذهب ، أو ترويح خاطر ، أو شكوى غرام ، كجميل بن عبد الله بن معمر وعمر بن أبى ربيعة من شعراء هذا العصر

١ — كعب بن زهير

هو كعب بن زهير بن أبى سُلْمَى أحد فحول المخضرمين وصاحب « بانت سعاد » فى مدح النبى الأمين

وهو ابن زهير صاحب المعلقة . قال الشعرَ فى حداثته فكان والده ينهاه عنه مخافة أن يقول مالاخير فيه فيُروَى عنهُ فيلزمه عاره الدهرَ فلم ينته ، فآذاه فلم يرتدع ، فامتحنه امتحاناً شديداً فكان يقول على البديهة ما يحب زهير ، فأجازه له فمضى ونبغ فيه حتى كان من فحول عصره

ولما ظهر الاسلام ذهب أخوه بُجَيْر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم ، فغضب كعب لإسلامه ، ونهاه عن الاسلام وهجاه وهجا رسول الله وأصحابه ، فتوعده النبى صلى الله عليه وسلم وأهدر دمه ، فحذّره أخوه العاقبة الاَّ أن يجىء الى النبى مُسْلِماً تائباً ، فهام كعب يترامى على القبائل أن تُجيرَهُ فلم يُجِرْهُ أحد ، وأرْجَفَ الناسُ أنه مقتول لا محالة . فلما ضاقت الأرض فى وجهه جاء أبا بكر رضى الله عنه بالمدينة وتوسّلَ به الى الرسول فأقبل به عليه فعاذ به وآمن ، وأنشده قصيدته المشهورة يمدحه بها وهى من جيّد شعره ، ومطلعها :

بانَتْ [١] سُعادُ فقلبى اليوم متبولُ [٢] ... متيّمٌ [٣] إثرَها لم يُفْدَ مكبول [٤]

---

(١) فارقت (٢) تبله الحب أسقمه وأضناه (٣) معبد ومذلل (٤) مقيد

فخلع عليه النبي بردته فبقيت فى أهل بيته حتى باعوها لمعاوية بعشرين ألف درهم ، ثم بيعت للمنصور العباسى بأربعين ألفاً

***

شعره : كان كعب من الشعراء المُجيدين المشهورين بالسبق وعُلُوّ الكعب فى الشعر ، وكان خلفٌ الأحمر أحدُ علماء الشعر يقول اولا قصائدُ لزهير ما فضَّلته على ابنه كعب ، وكفاه فضلا أن الحطيئة مع ذائع شهرته رجاه أن ينوّه به فى شعره فقال :

فمن للقوافى شانَها من يحُوكُها (١) اذا مامضى كعب وفوَّزَ جَرْوَلُ (٢)

وكان يكثر من غريب الألفاظ على جَوْدة فى الوصف وسهولة فى العبارة فى بعض المواضع وصعوبة فى بعضها الآخر

ومن شعره قوله فى قصيدته بانت سعاد :

وقال كل خليل كنت آمله لا أُلْهِينَّكَ انى عنك مشغول
فقلت خَلُّوا سبيلى « لا أبالكُمُ » فكل ما قدَّر الرَّحمنُ مفعول
كل ابن أنثى وان طالت سلامته يوماً على آلةٍ حَدْباءَ (٣) محمول
أُنْبِئْتُ أن رسول الله أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذى أعطاك نافلةً (٤) الـقرءان فيها مواعيظٌ وتفصيل
لا تأخذنّى بأقوال الوشاة ولم أُذْنِب وقد كثرت فىّ الاقاويل

ومن قوله أيضاً :

ان كنت لا ترهب ذمّى لما تعرف من صفحى عن الجاهل
فاخش سكوتى اذ أنا مُنْصِت فيك لمسْموع خنا (٥) القائل
فالسامع الذمّ شريكٌ له ومُطْعِمُ المأكول كالآكل

---

(١) شان ضد زان ، وحاك الثوب نسجه والقصيدة نظمها (٢) فوّز مات ، وجرول اسم الحطيئة الشاعر (٣) يريد النعش ، وقيل الآلة الحالة ، والحدباء الصعبة الشديدة (٤) كل عطية تبرع بها معطيها (٥) فحش

مقالة السوء الى أهلها أسرعُ من منحدِر سائل
ومن دعا الناس الى ذمّه ذمّوهُ بالحق وبالباطل

٢ — عمرو بن معديكرب الزُّبيدي

هو أبو ثَوْر عمرُو بن معديكرب الزبيدىّ المَذْحِجِىّ ، فارس اليمانين ، وأحد الشعراء المُعمّرين . والخطباء الموفَدِين

منشؤه وصفاته — نشأ عمرٌو بين قومه مُحمَّقًا أكولاً لا يُؤَمَّلُ منه خير ، ولا تلْحَظُ فيه سيادة ، على ضخامة فى جُثّة ، وجهارة فى صوتٍ ، حتى بلغ زبيداً أن خَثعَمَ ستشُن الغارة عليهم ، فتأهبوا ، ودخل عمرو على أخته ، فقال أشبعينى ، ان غداً الكتيبة ، فأخبرت أباه ، فقال : سلى هذا المائق مايشبعه ، فأكل عنزاً بثلاثة آصع ذرة ، وأتتهم خثعم فتبلَّدَ حتى رأى لواء أبيه مال وانهزمت زبيد ، فثار وكر على خثعم . وتراجع اليه قومه فهزموا الأَعداء ، فأصبح يسمَّى فارس زُبيد ، بعد أن كان يسمى مائق زبيد . واشتهر بالشجاعة حتى هابته أبطال العرب ، وضرب به المثل فى الشجاعة ، وفى ذلك يقول أبو تمام :

إقدام عمرو ، فى سماحة حاتم ، فى حلم أحنفَ ، فى ذكاء إياس

ومع ذلك قد يصدق عن نفسه بأنها ربما حدثته بالخوف والفِرار ، فيأخذها بصدق العزيمة والأَنَفَة من العار ، فيثبت فيكون له الفوز والغلب ، وهذا معنى قولهم (الشجاعة ، صبر ساعة) وفى شجاعته يقول عن نفسه : لو سرت بظعينة وحدى على مياه معَدّ كلها ما خفت أن أغلَبَ عليها مالم يلقنى حُرّاها أو عَبداها ، فأما الحران : فعامر بن الطُفَيْل ، وعُيَيْنَة بن الحارث بن شهاب ، وأما العبدان : فاسود بنى عبس (يعنى عنترة) والسُّليك بن السُلَكة ، وكلهم قد لقيت . على أنه مع طول تعميره فى الجاهلية والاسلام وحضوره الوقائع الكثيرة أخلفه الظفر فى عدة مواطن فقهره ربيعة بن مُكَدَّم فى الجاهلية وخالد بن سعيد بن العاص فى الاسلام

ولما فشا الاسلام فى قبائل العرب وفد مع بعض قومه على رسول الله مُنْصرَفَه

من وقعة تبوك سنة تسع من الهجرة ، فأسلم ثم رجع الى قومه ، فلما ارتدت العرب كان ممن ارتد فسار اليه خالد بن سعيد بن العاص فقاتله فانهزم وأخذ خالد صمصامته. ولما رأى أمداد أبي بكر تتوالى على المسلمين دخل على المهاجر (أحد قواد جيش المسلمين) بغير أمان فاوثقه وبعث به الى أبي بكر ، فقال له أبو بكر : أما تستحي تجيء كل يوم مهزوماً أو مأسوراً . لو عززت هـذا الدين لرفعك الله . قال لاجرم لأقبلنّ ولا أعود . فأطلقه وعاد الى قومه ثم عاد الى المدينة . فبعثهُ أبو بكر الى الشام، فشهد يوم اليَرْمُوك وأبلَى فيه بلاءً حسناً وذهبت فيه احدى عينيه ، ثم بعث به عمر رضي الله عنه الى العراق فشهد القادسية وهو الذى ضرب خرطوم الفيل بالسيف وكان ذلك من أسباب الفتح . ثم لما مُصّرت الكوفة أقام بها حتى كانت وقعة نهاوند فحضرها تحت لواء النعمان بن مُقَرّن . ومات بها سنة إحدى وعشرين على خلاف فى ذلك .

ويُعدّ عمرو من الشعراء المخضرمين ، ويأتى شعره فى الطبقة الثانية من الجودة ويغلب عليه وصف الوقائع والتحدث عن نفسه بالشجاعة ، وله ديوان شعر شرحه بعض أئمة اللغة ، وهو أحد الخطباء الذين أوفدهم النعمان على كسرى

ومن شعره قوله فى صدقه عن نفسه فى الحرب :

ولما رأيت الخيلَ زُوراً كأنها جداوِلُ زرع أرسِلت فاسبَطرّتِ
فجاشت إلىَّ النفسُ أوّل مرة فرُدّت على مكروهها فاستقرت
علامَ تَقُولُ الرُّمْحُ يُثْقِلُ عاتِقِى اذا انا لم اطْعَنْ اذا الخيلُ كَرَّت

ومن قوله أيضاً :

أمِن رَيْحانَةَ الدَّاعى السَّميعُ يُؤرّقُنى وأصحابى هُجوعُ
أشابَ الرَّأس أيامٌ طِوَالٌ وهمٌّ ما تَضَمَّنُهُ الضلوع
وسوْق كتيبةٍ دَلَفَتْ لأخرى كأنّ نهارَها رأسٌ صَليع
اذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع
وصِلْه بالزَّماع (١) فكل امر سَما لك أو سموت له وَلوع

---

(١) المضاء فى الأمر والعزوم عليه

وقوله :

كم من أخٍ لىَ صالحٍ بوَّأته بيدَىّ لَحْدا
ما إن جزِعتُ ولا هَلَعْـــت ولا يَرُد بكاى رُشدا
ذهَبَ الذين أحِبُّهم وبَقِيتُ مثلَ السيفِ فَرْدا

ومن خطبه خطبته التى قالها أمام كسرى وهى على ما فى العقد الفريد :

انما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه، فبلاغ المنطق السداد ، ومِلاكُ النُّجعة الارتياد، وعفو الرأى خير من استكراه الفكرة ، وتوقيف الخبرة خير من اعتساف الحيرة. فاجتبذ طاعتنا بلفظك ، واكتظم بادرتنا بحلمك ، وألن لنا كنفك يلن لك قِيادنا ، فانا اناس لم يُوقِس[1] صَفَاتَنا قراعُ مناقير من أراد لنا قضماً ؛ ولكن منعنا حمانا من كل من رام لنا هضماً

٣ — الخنساء

هى السيدة تُمَاضِرُ الخنساء بنت عمرو بن الشَّريد السُلَمِيَّة ، أرقى شواعر العرب وأحزن من بكى وندب

كان أبوها عمرو وأخواها : معاوية وصخر ساداتِ بنى سُليم من مضر ، وكانت هى من أجمل نساء زمانها ، فخطبها دُرَيد بن الصِّمّة فارس جُشَم ، فرغبت عنه ، وآثرت التزوجَ فى قومها فتزوَّجت منهم

وكانت تقول المقطّعات من الشعر . فلما قُتل شقيقها معاوية ثم أخوها لأبيها صخر ، جزعت عليهما جَزَعا شديداً وبكتهما بكاءً مرّا ، وكان أشدُّ وجدها على صخر : لأنه شاطَرَها هى وزوجها أمواله مراراً ، فهاج حزنُها الشعر فى نفسها ، فقالت المراثى المطوَّلاَت ، وفاقت النساء والرجال فيها ، وأطالت عليهما البكاءَ والعويلَ حتى تقرَّحت مآقيها ، وحتى ضرب بها المثل فى الحزن والبكاء وكثرة الرثاء . وجاء الاسلام فوفدت مع قومها على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلمت . وكان يُعْجِبُه شعرها ويستنشدها ، ويقول هِيهِ ياخُناس ، ويومىء بيده

---

(١) من أوقست الابل : اصيبت بالجرب . والصفاة الصخرة الملساء اى لم يضرنا اعداؤنا

وما فَتِئَتْ تبكي صخراً قبل الاسلام وبعده حتى عَميت . وبقيت الى أن شهدت حربَ القادسية [1] مع أولادها الأربعة ، فأوصتهم وصيتها المشهورة ، وحضتهم على الصبر عند الزحف فقُتِلوا جميعاً . فقالت : الحمد لله الذى شرفني بقتلهم ، ولم تحزن عليهم حزنها على أخويها ، وتوفيت بالبادية فى خلافة معاوية

شعرها — أغلب علماء الشعر على انه لم تكن امرأةٌ قبلَ الخنساء ولا بعدها أشعرَ منها ، ومن فضَّل ليلى الأخيلية عليها لم ينكر أنها أرثى النساء . وكان بشارٌ يقول لم تقل امرأة شعراً الا ظهر الضعف فيه ، فقيل له وكذلك الخنساء ، فقال تلك غلبت الفحول

ولم يكن شأنُها عند شعراء الجاهلية أقلّ منه عند شعراء الإسلام فذاك النابغة الذبياني يقول لها وقد أنشدته بسوق عُكاظ قصيدتها التى مطلعها :

قَذًى بعينيك أم بالعين عوَّارُ [2] أم ذَرَّفت [3] اذ خلت من أهلها الدار

لولا أن أبا بصير (يعنى الاعشى) أنشدنى قبلكِ لقلتُ إنكِ أشعر من بالسوق

ولشعر الخنساء رَنين فى السمع ، وهزّة فى القلب ، ووقْع فى النفس : لانه صادرٌ عن فؤاد محزون ، وما خرج من القلب حل فى القلب ، وكان فوق ذلك ليّن اللفظ ، سهلَ الاسلوب ، حسنَ الديباجة

وسئل جرير مَن أشعر الناس قال أنا لولا الخنساء ، قيل فبمَ فضلتك قال بقولها :

إنّ الزمان (وما يَفنى له عَجَبٌ) أبقى لنا ذنَبًا واستؤْصِل الراس

إن الجديدين [4] فى طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسُد الناس

---

(١) واقعة عظيمة كانت بين العرب والفرس فى السنة الخامسة عشرة من الهجرة ، انتصر فيها المسلمون بقيادة سعد بن أبى وقاص انتصاراً باهراً

(٢) مرض (٣) قطرت (٤) الليل والنهار

ومن جيد شعرها ترثى أخاها صخراً :

يذكِّرُنى طلوعُ الشمس صخراً ... وأذكره لكل غروب شمس [1]

فلولا كثرة الباكين حَوْلى ... على اخوانهم لقتلت نفسى

ولكن لا أزال أرى عَجُولا [2] ... ونائحةً تنوح ليوم نحس

هما كلتاهما تبكى أخاها ... عشيةَ رُزْئه أو غِبَّ أمس

وما يبْكين مثل أخى ولكن ... أسَلّى النفس عنه بالتأسى [3]

فقد ودَّعتُ يوم فِراق صخر ... أبى حسانَ [4] لذّاتى وأنسى

فيالهفى عليه ولهفَ أمى ... أيصبح فى الضريح وفيه يُمسى

ومن قصيدتها التى تقدم مطلعها :

وانَّ صخرا لَكافينا وسيدُنا ... وانَّ صخرا اذا نَشْتُو لنحّار

أغَرُّ [5] أبلجُ تأتم الهداة به [6] ... كأنه عَلَم [7] فى رأسه نار

حَمَّال ألْوية ، هَبَّاطُ أودية ، ... شَهَّادُ أندية ، للجيش جَرَّار

ومن قولها ترثيه أيضاً :

ألا ياصخر ان أبكيت عينى ... فقد أضحكتنى زمناً طويلا

دفعتُ بك الخطوب وأنت حىٌّ ... فمن ذا يدفع الخطبْ [8] الجليلا

اذا قَبُح البكاء على قتيل ... رأيت بكاءك الحَسَنَ الجميلا

٤ — حسان بن ثابت

هو أبو الوليد حسان بن ثابت الأنصارى شاعرُ رسول الله وأشعر أهل المدَر، وفحل شعراء المخضرمين ، وهو من بنى النجار من أهل المدينة

نشأ فى الجاهلية ونَبُه شأنه فيها اذ أدرك فحولها فلم يُقصّر عن اللّحاق بهم .

---

(١) يعنى أنها تتذكر أول النهار للغارة وآخره للأضياف (٢) العجول المرأة الثكلى
(٣) الاقتداء (٤) كنية صخر (٥) مشهور (٦) واضح (٧) جبل (٨) الأمر الشديد ينزل

بل بذّ[١] الكثير منهم . وكان يمدح الملوك والمناذرة والغساسنة فى الجاهلية ، ويرحل اليهم فينال منهم جزيل العطايا . وأكثر من كان يمدحهم ويكثر انتجاعهم آل جفنة من ملوك غسّان لما بين أهل يثرب[٢] والغساسنة من صلة النسب وقرب الجوار، فكان له من جوائزهم مدد لا ينقطع ، حتى ناله منهم شىء بعد أن أسلم وتنصّروا .

ولما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأسلم الانصار ، أسلم معهم ودافع عنه بلسانه كما دافع عنه قومه الانصار بسيوفهم ، فكان لقوله من النكاية فى قريش وأعداء النبى أحسن بلاء وأحمد أثر

وعاش حسان بعد رسول الله مُحبَّباً الى خلفائه مرضيًّا عنه ، يُفرض له العطاء الكافى من بيت المال . وعُمّر قريباً من ١٢٠ سنة . وبقى أكثر حياته ممتعاً بحواسه وعقله ، ووهن فى أواخر عمره وكُفَّ بصره ، ومات فى خلافة معاوية سنة ٥٤ ﻫ

* * *

شعره — كان حسان شاعر أهل المدر فى الجاهلية ، وشاعر اليمانية فى الاسلام، ولم يكن فى أصحاب رسول الله ولا فى أعدائه عند دعوته الى الله أشعر منه ، ولذلك رمى مشركى قريش من لسانه بالداهية التى لم يكن لهم قِبَلٌ بها ، فأوجعهم وأخرسهم من غير فُحش ولا هُجر . ولما أَذِن له النبى فى هجائهم ، قال له : كيف تهجوهم وأنا منهم قال : أسلُّكَ منهم كما تُسَل الشعرة من العجين . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينصِب له منبراً بالمسجد ويسمعُ هجاءه فى أعدائه ويقول (أجبْ عنى اللهمَّ أيده بروحُ القدس) وكان فى شعر حسان زمن الجاهلية شدّةٌ وغرابةُ لفظ ووُعورة مسْلَك، فلما أسلم وسمع القرآن ووعاه وكَثُرَ ارتجاله الشعر لكثرة الحوادث التى تستدعى ذلك لَانَ شعره وسَهل أسلوبه ، ودَمِثَتْ معانيه حتى ظن بعض أئمة الشعر أن شعره فى الإسلام أضعفُ منه فى الجاهلية ، محتجًّا بأن الشعر لا يقوى إلاّ فى باب الشر الذى يحظُره الإسلام ، وربما كان لتعليله هذا وكبر سنّ حسان وكثرة ارتجاله أثرٌ فى بعض شعره

---

(١) فاق وغلب (٢) المدينة المنورة

ويغلب على شعره بعد المدح والهجاء [١]الفخر بنفسه وبقومه

ومن شعره فى الجاهلية :

ولقد تُقَلِّدُنا العشيرة أمرها ... ونسود يوم النائبات ونعتلى

ويسودُ سيدُنا جحاجح [٢]سادةً ... ويصيب قائلُنا سواءَ المَفْصِلِ [٣]

ونحاول الأمر المهمَّ خطابةً ... فيهم ونفصل كل أمرٍ مُعْضِلِ

وتزور ابواب الملوك ركابُنا ... ومتى نُحَكَّمْ فى البرية نعدلِ

ومن شعره فى الاسلام يفاخر وفد تميم بقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن الذوائب [٤]من فهرٍ [٥]واخوتهم ... قد بينوا سُنَناً للناس تُتَّبَعُ

يرضى بها كلُّ من كانت سريرته ... تقوى الإله وبالامر الذى شرعوا

قومٌ إذا حاربوا ضرّوا عدوّهمُ ... أوحاولوا النفع فى أشياعهم [٦] نفعوا

سجيةٌ تلك فيهمْ غيرُ مُحدَثَةٍ ... ان الخلائق [٧] (فاعلم) شرُّها البِدَعُ [٨]

لا يرْقَعُ الناسُ ما أوهت اكفهمُ [٩] ... عندَ الدِّفاع ولا يُوهون ما رَقَعوا

ان كان فى الناس سبّاقون بعدهمُ ... فكل سبْق لأدنى سَبْقِهم تبعُ

وقال يهجو:

أبوك أب حرّ وأمك حرّة ... وقد يلد الحُرّان غيرَ نجيب

فلا يعجَبَنَّ الناس منك ومنهما ... فما خَبَث من فضة بعجيب

---

(١) طلب الحارث بن عوف من النبي ان يبعث معه من يدعوهم للدين على ان يكون جارا له فكان ذلك ، ثم غدر بالحارث عشيرته فقدم الي الرسول فقال عليه السلام اين حسان فما رأى الحارث قال:

ياحار من يغدر بذمة جاره ... منكم فان محمداً لم يغدر

وامانة المرى حيث لقيته ... مثل الزجاجة صدعها لم يجبر

ان تغدروا فالغدر منكم شيمة ... والغدر ينبت فى أصول السخبر

فقال الحارث انا عائذ بك يامحمد من شره ، اكففه عنى على ان أؤدى لك دية الخفارة ، فأداها وكانت سبعين ناقة عشراء

(٢) سيد جحجاح مسارع في المكارم (٣) سواء وسط ، والمفصل كمسجد كل ملتقى عظمين من الجسد ، أى يصيب شاكلة الصواب (٤) السادة (٥) قبيلة من قريش

(٦) اتباعهم وأنصارهم (٧) جمع خليقة وهي الطبيعة (٨) المستحدث من الاخلاق لا ما هو متأصل فى النفوس (٩) يرقع يصلح • أوهت : افسدت وأضعفت

ومن أبياته السائرة قوله :

وإنَّ امرَأً يُمسِى ويُصبح سالماً ... من الناس الاَّ ماجنى لَسعيد [1]

رُبَّ حلمٍ أضاعه عدم الما ... ل وجهلٍ غطَّى عليه النعيم

فلو كان مجد يُخْلِد الدهرَ واحداً ... من الناس أبقى مجدُه الدهرَ مُطعِمَا [2]

٥ — الُحطَيْئة

هو أبو مُلَيكة جَرْوَلٌ الحطيئة العبسىُّ الشاعر المشهور ، أحد كبار الهجائين والمدّاحين المجيدين . وكانت أمه فى بيت رجل من عبس فجاءت منه بالحطيئة ، ولكن نسبه لم يثبت صريحاً منه . ولذلك نشأ معلول النسب ، وضيع الشرف، حاقداً على أمه وأبيه ، متبرماً بالناس [3] فلم يشف علته من الجميع الاَّ بتعامه الشعر وهجاهم جميعاً ؛ فهجا أمه [4] وأباه وذوى قرابته وقومه [5] وزوجه [6] ، بل هجا نفسه [7] ؛ ونشأ كما قال الأصمعي جَشِعاً ، سئولاً ، مُلحِفاً ، دنىء النفس ، كثير الشر ، قليل الخير ، بخيلا ، قبيح المنظَر ، رثَّ الهيئة ، مغموز النسب ، فاسد الدين . وعاش الحطيئة مدة فى الجاهلية وجاءَ الاسلام فأسلم . ولم يكن له صحبة برسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم عاشَ متنقلا فى القبائل يمدح هذه تارة ويذم تلك أخرى ، وينتسب الى عبس طوراً وطوراً الى ذُهْل ، ويهجو اليوم من يمدحه بالأمس ، وكل قبيلة تخطب وُدَّه وتتقى شر لسانه

وقد هجا الزبرقانَ بن بدر صاحب رسول الله وعامل عمر بن الخطاب علي الصدقات ، وكان قد أنزل الحطيئة بجواره وأحسن اليه؛ فاستماله بغِيض أحد بني أنف

---

(١) أى ان السعيد من الناس من سلم من ألسنتهم وتقولاتهم ولم يذكروه الا بما فيه

(٢) مطعم بن عدى أحد من قام فى نقض الصحيفة ، مات ولم يسلم وكان قد أجار النبي حين قدم من الطائف الى مكة بعد أن دعا ثقيفاً الى الاسلام (٣) أى لتحديدهم الشرف بحدود وضعوها

(٤) كقوله : جزاك الله شراً من عجوز ... ولقاك العقوق من البنينا

(٥) كقوله : لحاك الله ثم لحاك حقا ... أبا ولحاك من عم وخال

(٦) كقوله : أطوف ما أطوف ثم آوي ... الى بيت قعيدته لكاع

(٧) كقوله : ارى لى وجها شوه الله خلقه ... فقبح من وجه وقبح حامله

الناقة وأنزله عنده ، فمدحه وقومه بالشعر الكثير ، ورفع عنهم عارَ اسمهم ببيته المشهور وهو :

قوم همُ الأنف والأذناب غيرهمُ ... ومن يسوّي بأنف الناقة الذنبا

وحمله بغيض على ذم الزبرقان فذمه . فاستعدى عليه الزبرقانُ أمير المؤمنين عمر ابن الخطَّاب فحبس الحطَيئة . فما زال يستشفع اليه بالناس وقول الشعر حتى أطلقه وهدّده بقطع لسانه ان هجا أحداً ، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم ولكنه نكث وأوغل فى الهجاء بعد موت عمر . وبقى كذلك حتى مات سنة ٥٩.

* * *

شعره

شعره — لولا ماوصم به الحطيئة من خسة النفس ودناءة الخلق وجهالة النسب ورقة الدين والغدر والبخل الشديد والاساءة الى من أحسن اليهِ وسؤاله الرّعاع والسُّوقة طمعاً فى جمع المال من أىّ سبيل ، لكان باجادته فى كل ضرب من ضروب الشعر شاعر المخضرمين على الاطلاق ، الاَّ أنهُ لم يقف ببراعته وفصاحته موقفاً لله ولا للشرف ، ولا للفتوّة والمروءة — ومن الغريب أنه تخرَّج على زهَير فى الفصاحة والإجادة فى المدح وتعلّم الشعر والمبالغة فى تجويده وإحكامه بملازمته إياه وروايته عنه ؛ ولم يقتبس عنه حكمته وعفته وحسن خلقه ، وقلّما يُوجَد فى كلام الحطيئة مَظِنة ضعف أو مغمزٌ لغامز : من ركاكة لفظ ، أو غَضَاضة معنى ، أو اضطراب قافية

طائفة من شعره

ومن مدحه الذى لا يُلْحق له فيه غبار قوله :

يسوسُون أحلاماً (١) بعيداً أناتُها (٢) ... وإن غضبوا جاءَ الحفيظة (٣) والجدُّ

أقِلُّوا عليهم (لا أبا لأبيكمُ) ... من اللوم أو سُدُّوا المكان الذى سَدُّوا

أولئك قوم إن بنَوْا أحسنوا البِنا ... وان عاهدوا أوفَوْا وان عقدوا شدُّوا (٤)

وان كانت النعماء فيهم جزَوْا بها ... وان أنعموا لا كدَّروها ولا كدُّوا (٥)

مَطاعِينُ فى الهيجا مكاشيفُ للدُّجى ... بنى لهمُ آباؤهم وبنى الجد

ويَعْذُلنى أبناء سعد عليهمُ ... وما قلتُ الاَّ بالذى علمتْ سعد

(١) عقولا (٢) حلمها أى بعيدة عن الغضب (٣) الغضب (٤) وثقوا (٥) اتعبوا من اعطوهم بالمن والاذى

ومن أبياته التى استعطف بها أمير المؤمنين عمر ، وهو فى سجنه قوله :

ماذا تقول لأفراخ بذى مَرَخ [١] زُغْبِ [٢] الحواصل لاماءٌ ولاشجرُ
ألقيتَ كاسبَهم فى قعر مُظْلِمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر
أنت الامين الذى من بعد صاحبه ألقى اليك مقاليدَ النُّهى البشر
لم يُؤْثروك بها إذْ قدّموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الخِيَر

ومن أبياته التى يعرّض فيها بهجو الزبرقان قوله :

أزمعت يأساً مُبينا من نوالكم ولا يرى طارداً للحر كالياس
دعِ المكارم لا ترَحلْ لبُغْيتها واقعُدْ فانك أنت الطاعم الكاسى
من يفعل الخير لا يَعْدَمْ جَوازِيَه [٣] لا يَذْهبُ العُرْف بين الله والناس

٦ — النابغة الجَعْدى

هو أبو ليلى حسانُ بن قيس بن عبد الله الجعدىّ العامرىّ ، أحد القدماء المعمَّرين ، والشعراء المُخَضْرَمين ووصّاف الخيل المشهورين

منشؤه وحياته

هو أحد بنى جَعْدة بن كعب بن ربيعة . عاش زمناً فى الجاهلية ، وحضر كثيراً من أيامها ووقائعها . وقال الشعر فى الجاهلية ثم أجْبَل [٤] دهراً ، ثم نبغ فى الشعر عند ظهور الاسلام وبعده : ولذلك سُمّى النابغة . وهو ممن فكّر فى الجاهلية ، وأنكر الخمر لما تفعل بالعقل ، وهجر الأزلام والأوثان ، وذكر دين ابراهيم ، وصام واستغفر . ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنشده قصيدته المشهورة التى يمدحه بها ويقول فى أولها :

خَليلىّ عُوجا ساعةً وتهجَّرا ونُوحا على ما أحدث الدهر أو ذَرا

---

(١) واد بالحجاز (٢) الزغب أول مايبدو من الشعر والريش (٣) جمع جازية أو جزاء
(٤) اجبل الشاعر صعب عليه القول

فأعْجب بها رسول الله ودعا له . وعاش طويلاً فى الاسلام ، فاقام زمناً مهاجراً حتى أيام عثمان رضى الله عنه فأحس بضعف فى نفسه ، فاستأذن عثمانَ فى الرجوع الى البادية فأذن لهُ . ثم لما كانت خلافة عليّ (رضى الله عنه) شهد معهُ وقائع صفّين ، وظاهرَه بيده ولسانه ، ونال من معاوية وبنى أمية

وعند ما آلت الخلافة الى معاوية كتب الى مروان أن يأخذ أهل النابغةوما له ، فدخل النابغة علي معاوية وعنده مروان فأنشدهما أبياتاً منها :

فإن تأخذوا أهلى ومالى بِظنَّة فانى لَحَرَّاب الرجال مُحَرَّب
صبور على ما يكره المرءُ كله سوىالظلم إنى انظُلمتسأغْضب

فالتفت معاوية الى مروان ، فقال ما ترى ؟ — قال أَرى ألا تردّعليه شيئاً — قال ما أهونَ والله عليك أن يَنْجَحر هذا فى غار ثم يُقَطع عرضى عليَّ ثمّ تأخذَه العرب فترويه ، أما والله ان كنتَ لِمَمّن يرويه . ارددْ عليه كل شيء أخذته . ثمّ كان فى شيعة عبد الله بن الزبير حين خروجه على يزيد ومروان وعبد الملك ، وجاء ابن الزبير ومدحه فأجزل لهُ العطاء على بخل فيهِ . وبعد سكون الفتن خرج مهاجراً الى الامصار المفتتحة فمات بأصبهان بعد أن عمّر على ما قيل مائة وثمانين سنة

*
* *

شعره — كان النابغة الجعدى شاعراً مطبوعاً فى الجاهلية والإسلام . وهوأوّل من سبق الى الـكناية فى الشعرعن اسم من يَعْنِى الى غيرها ، وتبعه الناس بعد ، قال

أُكْنى بغير اسمها وقد عَلِمَ الله خَفيات كلّ مُكتَتَم

وكان ممن يصفون الخيل فلا يُلحق لهم فى ذلك غُبار ، حتى ضُرب به المثل ، قال الاصمعى : ثلاثة يصفون الخيل فلا يقاربهم أحد : طُفَيْل الغنوى وأبو دُواد الإيادى ، والنابغة الجعدى . وما كان ينتحى طريقة زهير والحطيئة وأشباههما ممن يبالغون فى تهذيب الألفاظ وتنقيح المعانى ، بل كان يلقى القول على عَواهنِه وكما تهديه اليه بديهته ؛ فتارة يأتى جيداً متيناً ، وتارة يجئ ضعيفاً رديئاً ، وأحياناً يسلك

بين ذلك سبيلاً ، حتى قال عنه الاصمعى: عنده مِطْرَف[١] بآلاف ، وخِمار[٢] بواف[٣]

ومع ذلك كله كان مغلَّباً ، ما هاجى أحداً إلاّ غلبه : هاجى أوس بن مَغْراء ولم يكن أوس مثله ولا قريباً منه فى الشعر فغلبه ، وهاجى كعب بن جُعيْل فغلبه أيضاً ، وهاجى ليلى الأخيلية فغلبته . وله فى الفخر والهجاء والمديح والرثاء شعر كثير ، ومن أشعره قصيدته التى مدح بها الرسول الكريم وهى :

شىء من شعره

خليليّ عوجا[٤] ساعةً وتهجَّرا[٥] ... ونُوحا على ما أحدث الدهر أوذرا

ولا تجزَعا ، إن الحياة ذميمة ... فخِفّا لروعات الحوادث أوقِرا[٦]

وإن جاء أمر لا تُطيقان دفعَه ... فلا تجزْعا مما قضى الله واصبرا

ألم تريا أن الملامة نفعُها ... قليلٌ ، إذا ما الشيء ولّى وأدبرا

تهيج البكاء و الندامة ثم لا ... تغيّر شيئاً غير ما كان قدّرا

أتيت رسول الله اذ جاء بالهدى ... ويتلو كتاباً كالمَجَرَّة[٧] نيِّرا

اقيمُ على التقوى وأرضى بفعلها ... وكنت من النار المخوفة أحذرا

ومنها فى الفخر :

وانا لقوم ما تعوّد خيلنا ... إذا ما التقينا أن تحيد وتَنْفِرا

وننكر يوم الروع[٨] ألوان خيلنا ... من الطعن حتى نَحْسَبَ الجَون أشقرا[٩]

بلغنا السماء مجدُنا وجدودُنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

ولما سمع رسول الله (بلغنا السماء البيت) قال لهُ فأين المظهر ياأبا ليلى ؟ قال الجنة قال لهُ ان شاء الله ! و لما أتمّ قصيدته ، قال لهُ الرسول أجدت لايفضض الله فاك فأتت عليه مائة سنة أو نحوها وما انفضّت من فيه سنٌّ

(١) رداء من خز مربع ذو أعلام (٢) ثوب تغطى به المرأة رأسها
(٣) الوافى درهم واربعة دوانق (٤) قفا (٥) سيرا فى الهاجرة (شدة الشمس)
(٦) وقر كوعد رزن أو جلس بوقار (٧) نجوم كثيرة لاتدرك بمجرد البصر وانما ينتشر ضوءها فيرى كأنه جدة بيضاء (٨) الفزع والمراد الحرب (٩) الجون من الخيل الادهم ، والاشقر منها الاحمر

ومن قوله يرثى ابنه محارباً وأخاه وَحْوحا :

بَدَتْ فعلَ ذى ودّ فلما تبعتها تولّت وأبقتْ حاجتى فى فؤاديا
وحلّتْ سواد القلب لا أنا باغيا سواها ولا عن حبها متقاليا
اتيحت لهُ والهم يختضر [1] الفتى ومن حاجة الإنسان ماليس لاقيا

ومنها :

ألم تعلمى أنى رُزئتُ محاربا ∴ فما لكِ منهُ اليوم شيء ولاليا
ومن قبله ماقد رُزئت بوحوحٍ ∴ وكان ابن أمى والخليلَ المصافيا
فتى كان فيه مايسرُّ صديقَه ∴ على انَّ فيه ما يسوء الأعاديا
فتى كملتْ خيراته غير أنه ∴ جواد فما يُبقى من المال باقيا

٦ — عمر بن أبى ربيعة

هو أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة القرشى المخزومى ، أشعر قريش وأرق أصحاب الغزل ، وأوصف الشعراء لاحوال النساء

ولد بالمدينة ليلة مات عمر بن الخطاب رضوان الله عليه . وكانت امه نصرانية، وكان ابوه تاجراً موسراً وعاملاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللخلفاء الثلاثة من بعده ؛ فشب فى نعيم وترف . وقال الشعر صغيراً ، وسلك فيه طريق الغزل، ووَصف أحوال النساء وتزاوُرَهن ومُداعبَة بعضهن لبعض ، وما يعتَدْن قوله من الكلام ، مما يتوقَّر الشعراء الفحول عن الخوض فيه ، ولذلك لم يحفِلوا بشعره وعدّوه من هذَيان خُلَعاء المدينة ، فما زال يعالج الشعر والشعر ينقاد له ، حتى ملك ناصيته وقبض على زمامه وبزّ الشعراء ، وقال رائيته المشهورة على طريقته المبتكرة ، وهى التى أولها :

أمِنْ آلِ نُعْـمٍ أنت غادٍ فمُبكِرُ غداةَ غدٍ أم رائحٌ فمُهَجّرُ

والتى قال فيها جرير حين سمعها : مازال يهذى هذا القرشى حتى قال الشعر.
ثم استطار شره فى التشبيب بالنساء : من يعرفها و من لا يعرفها، وتعرض للمحصنَات

---

(١) اختضر النبات اخذ طرياً غضاً ، والشاب مات فتيا

المتعففات من نساء قومه ومن غيرهن ، فوقعن منه فى بلاء عظيم ، وصرن يخفْن الخروج الى الحج لأنه كان يتلقاهن بمكة ، ويترقب خروجهن للطواف والسعي ويصفهن وهن محرمات . وحلُمت عليه رجالات قريش لمكانة نسبه منهم ولترقب توبته وإقلاعه . فلما تمادى فى أمره وشبَّب ببنات السادات والخلفاء ، غضب عمر بن عبد العزيز ونفاه الى دَهْلَك [1] . ثم رأى ابن أبى ربيعة أن يكفر عن سيئاته بالتوبة والجهاد فغزا فى البحر فاحترقت السفينة التى كان فيها واحترق هو أيضاً سنة ٩٣ ﻫ

*
* *

شعره — كانت العرب تقرُّ لقريشٍ بالتقدّم عليها فى كل شىء إلاّ فى الشعر حتى كان عمر بن أبى ربيعة فأقرت لها الشعراء به أيضاً ، وكان أكثر الشعراء الاسلاميين يُحجِمون عن التشبيب بالنساء امتثالا لأمر الدين ومحافظة على الآداب العربية الاسلامية ، وكان أكثر تشبيبهم فى بكاء الاطلال ومنازل الاحباب ، فلما ظهر عمر سلك فى الغزل طريقاً لم يسلكوه : فوصف أحوال النساء فى منازلهن وتزاورهن ومحادثتهن ومداعبة بعضهن لبعض وتلاومهن وما يعتَدْن قوله من الكلام والعبارات فى أسلوب يغلب عليه القَصص ، وحكاية ما شاهده فى شعر رقيق ، ولفظ رشيق ، ومعنى أنيق ؛ وبهر الشعراء بهذه الطريقة حتى قال فيه جرير وهو من شعراء الغزل : هذا والله الذى أرادته الشعراء فأخطأته وتعللت بوصف الديار ، وكذلك قال الفرزدق . ولسهولة شعر عمر وقرب فهمه من جميع الطبقات وشدة تأثيره فى قلوب الخلعاء وأهل اللهو أولع به المغنون والمغنيات من القيان والموالى انشاداً وتلحيناً ، ولذلك قال فيه بعض متورعى الانصار : ما عُصِى الله بشىء كما عُصِى بشعر ابن أبى ربيعة [2] ومن قوله :

التغنى بشعره

---

(١) جزيرة أمام مدينة مصوع (٢) قالت ظبية لمولاتها فاطمة بنت عمر بن مصعب : مررت بجدك عبد الله وانا داخلة منزله وهو بفنائه ومعى دفتر فقال ماهذا معك ، ودعانى فجئته وقلت شعر عمر بن ابى ربيعة فقال ويحك تدخلين على النساء بشعر عمر ، ان لشعره لموقعا من القلوب ، ومدخلا لطيفاً ، لو كان شعر يسحر لكان هو ، فارجعي به ، ففعلت

ليت هنداً أنجزتنا ما تَعِد وشفت أنفسنا مما نجد
واستبدّت مرة واحدة انما العاجز من لا يستبد
ولقد قالت لجارات لها ذات يوم وتعرت تبترد
أكما ينعتنى تبصرننى (عمركن الله) ام لا يقتصد
فتضاحكن وقد قلن لها : حسن فى كل عين من تود
حسداً حملنه من أجلها وقديماً كان فى الناس الحسد

ومن قوله وقد كتب به إلى الثريا :

كتبت اليكِ من بلدى كتاب موَلَّهٍ كمِد
كئيب وا كف العينـــين بالحسرات منفرد
يؤرّقه [(١)] لهيب الشو ق بين السَّحر والكبد
فيُمسك قلبه بيدٍ ويَمسح عينه بيد

وقال يصف أثر السفر فى شخصه :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضحَى [(٢)] وأما بالعشى فيخْصَر [(٣)]،
أخا سفرٍ جوَّابَ أرْض تقاذفتْ به فلواتٌ فهو أشعثُ أغبر
قليلا على ظهر المَطيّة ظله سوى ما نفى عنه الرداء المُحبّر

٨ — الاخطلُ

هو أبو مالك غِياثٌ الاخطلُ بن غوْث التغْلَبى النصرانى ، شاعر الأمويين وأمدح ثلاثةِ شعرائهم المقدّمين والمتفرّد بالتعمق فى وصف الخمر دون الاسلاميين.

نشأ بين قومه بنى تغلب النازلين بسقى الفرات من ارض الجزيرة ، وقال الشعر وهو صبىّ ، وما لَبِثَ أن زاحَمَ شاعرَ تغلب وقتئذٍ كعب بن جُعيل ، وهاجاه وظهر عليه وأخْمله . ولما طلب يزيدُ بن معاوية قبل أن يَلى الخلافةَ من كعب هِجاءَ

---

(١) أرقه أسهره والسحر الرئة (٢) تصيبه الشمس (٣) يبرد

الأنصار لتعرُّض عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري لأخته فى شعره ، أبى عليه ذلك كعب ، وقال ارادِّى أنت فى الشرك ؟ أأهْجو قوماً نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآووْه ؟ ولكنى أدلُّك على غلام منا نَصْرانىّ كأنَّ لسانه لسانُ ثوْر ، لا يبالى أن يَهجوَهم ، فدلّه على الأخطل . وكأنه كان يريد به الشر لتوقُّعِه أن يفتِك به الأنصار ، فكان ذلك سببَ جَدّهِ ، وظهور شأنه ، فأن يزيد بعث اليه وأمره بهجائهم ، فهجاهم بقصيدة منها : —

سبب ظهوره.

ذهبت قريش بالسَّماحة والنّدى ... واللؤم تحت عمائم الأنصارِ

فدعُوا المكارمَ لستمُ من أهلها ... وخذوا مَساحِيَكم[1] بنى النَّجَّار

وبلغ الشعرُ كبارَ الأنصار فغضبوا وشكَوْه الى معاوية فوعدهم بقطع لسانِه ، فاستجار بيزيد ، فما زال يزيد بأبيه حتى عفا عنه . ولما وَلى يزيدُ الخلافة قرَّبه اليه ، وتابعه فى ذلك خلفاء بنى أمية ، وبخاصةٍ عبد الملك اذ كان يستعين به على مضر وشعرائها لانحيازهم الى أعدائه فى السّياسة من آل الزبير وغيرهم ، فمدحه بمدائح جليلة قلّما قال نظيرها فيه شاعرٌ من شعراء زمانه ، فقرَّبه اليه وأدناه ، وسمح له بالدخول عليه بلا إذن وأجزل له العطايا ، وسمَّاه شاعرَ الخليفة

ولما حدثت المهاجاةُ بين جرير والفرزدق ، وحُكّم فيهما أيُّهما أشعر عرّض بتفضيل الفرزدق ، فهجاه جرير ، فردّ عليه الأخطل وكانت الشيخوخة قد بلغت منه فلم يلحق جريراً . وكان الاخطل يقيم أزماناً بدمشق ، وأحياناً ببلاده من أرض الجزيرة . ومات فى أول خلافة الوليد وقد نيَّف على السبعين

سبب دخوله فى المهاجاة بين جرير والفرزدق

***

شعره — كان الأخطل أحدَ الشعراء الثلاثة السابقين سواهم من فُحول الاسلاميين وكان مطبوعاً على الشعر ، بعيداً عن التكلف والتعمُّق فيه ، وامتاز

شعره.

(١) سحا الطين قشره والمسحاة أداة السحى

بإجادة المديح والابداع في معانيه والتنويع في ضروبه والتريُّث فيه ، حتى ربما لبث في بعض مِدَحاته سنة كاملة ، وربما نظمها تسعين ثم يَكُرُّ عليها بالتمحيص والاختيار حتى يحذف منها ستين ويُبقي الثلاثين ؛ كما امتاز لنصرانيته بوصف الخمر والترغيب فيها ؛ ولم يقصّر في الهجاء عن صاحبيه كثيراً . وفضلهما بقلة التعرض الفحش والبذاءة ولكنهُ كان دونهما في بقية فنون الشعر ؛ فكان بكيئاً في الرثاء [1] : مات زيد وهو سبب نعمته ، فلم يستطع رثاءه بأكثر من أربعة أبيات

وليس للأخطل سوى سبع مطوَّلاتٍ فاقهما بها . ولذلك لم ير قدماء أهل العلم والرواة تسويته بهما لتقصيره عنهما في التصرف في سائر أبواب الشعر

طائفة من شعره

قال يمدح بني أمية ويخص بشر بن مروان :

إن يحلُموا عنك فالأحلام [2] شيمتهم	والموتُ ساعةَ يحمى منهمُ الغضبُ
كأنهمْ عند ذاكمْ ليس بينهمُ	وبين من حاربوا قُرْبَى ولا نَسب
كانوا موالىَ حقٍّ يطلبون به	فأدركوه وما ملُّوا ولا لَغبوا [3]
ان يكُ للحق أسبابٌ [4] يُمَدُّ بها	ففي أكفهمُ الأرسان [5] والسبب
همُ سعوْا بابن عفَّانَ الامامِ وهم	بعد الشِّماس مَرَوْها ثُمَّتَ احتَلبوا [6]

ومنها :

اذا أتيْتَ أبا مروانَ تسْأله	وجدتَه حاضراهُ الجُودُ والحَسَبُ
ترى اليه رِفاقَ [7] الناس سائلةً	من كل أوْبٍ [8] على أبوابه عُصَب
يَحتضِرون سِجالا [9] من فواضله	والخير مُحتَضَرُ الأبواب مُنتَهَب [10]

---

(١) ناقة بكىء وبكيئة قليلة اللبن والمراد قليل الرثاء (٢) جمع حلم وهو الاناة (٣) اللغب اشد الاعياء (٤) حبال (٥) جمع رسن وهو الحبل وما كان من زمام على انف (٦) الشماس الحران — مرى الناقة مسح على ضرعها لتدر أي هم سعوا للخلافة بسبب الاخذ بثار عثمان وبعد أن امتنعت عليهم انقادت لهم وذلت (٧) جمع رفقة (٨) فج (٩) السجل الدلو العظيمة المملوءة والجمع سجال (١٠) يتهافت الناس على أبواب الكرام ليصيبوا من كرمهم وعطاياهم

والمطعِمُ الكُومَ (١) لا ينفكُّ يَعقِرُها ... إذا تلاقى رِواقُ البيتِ واللهَبُ (٢)

كأن حِيرانَها في كل منزلةٍ ... قتلى مجردةُ الأوصالِ تُستلَبُ (٣)

وقال يرثي يزيد بن معاوية :

لعمري لقد دلّى الى اللحد خالد (٤) ... جنازةَ لا كابي الزِّنادِ ولا غُمْرِ

مقيم بحُوّارينَ (٥) ليس يَريمها ... سقته الغوادي من ثويٍّ ومن قبر

تصيح الموالي أن رأت أمَّ خالد ... مُسلّبةً (٦) تبكي على الماجد الغَمْر

إذا جاء سِرب من نساء يَعُدْنها ... تعرَّيْن الا من جلابيبَ أو خُمْر

وقال يهجو :

وكنت إذا لقيتَ عبيدَ تَيم ... وتيمًا قلتُ أيُّهم العبيد

لئيم العالمين يسود تيما ... وسيدهم وان كرهوا حسود

وقال يصف سكران :

صريع مدام يرفع الشَّربُ رأسه ... لتحيا، وقد ماتت عظام ومفصِل

تهاديه أحياناً، وحيناً تجره، ... وما كان الا بالحُشاشة يعقل

اذا رفعوا عظما تحامل صدره ... وآخرُ مما نال منها مخبَّل

ومن أمثاله السائرة قوله :

وان امرأ لا يَنثني عن غَواية (٧) ... إذا ما اشتهتها نفسه لجهول

٩ — الفرزدق

هو أبو فِراس هَمَّامُ بنُ غالب التميمي الدارمي أخرُ ثلاثة الشعراء الأمويين، وأجزل المقدَّمين في الفخر والمدح والهجاء

---

(١) جمع كوماء وهي الناقة الضخمة السنام (٢) أي علت نيران القرى حتى اتصلت بالرواق وهو ما بين يدي البيت وذلك كناية عن كرمهم في وقت الشتاء وقت اشتداد المحل والازل

(٣) الحيران جمع حوار والاوصال المفاصل والمعنى أن مفاصلها وعظامها خالية من اللحم كأنها قتلى قد سلب ماعليها (٤) هو ابن يزيد وكان يكنى به (٥) مات يزيد ودفن بحوارين من بلاد حمص (٦) لابسة ثياب الحداد (٧) الغواية الضلالة والافساد

ولد سنة ١٩ هـ ونشأ بالبصرة بين فصحاء آبائه وقومه منذ أول تمصيرها، وهي يومئذٍ حاضرةُ العرب فلم تشُب لهجتَه عجمةٌ ولا لحن، فأخذه أبوه برواية الشعر ونظمه فرواه ونظمه ونبغ فيه. وأتى به أبوه يوماً الى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرَّمَ اللهُ وجهه فسأله عنه — فقال هذا ابني يُوْشك أن يكون شاعراً مُجيداً — فقال أَقْرِئْه القرآن فهو خيرٌ له، فما زالت كلمته في نفس الفرزدق حتى قيَّدَ نفسه بقيد وآلى أن لا يَفُكَّهُ حتى يحفظ القرآن، فما فَكَّهُ حتى حفظه بالرغم من كونه اميًّا لايقرأ ولا يكتب. ولنشأة الفرزدق بالمصر والبوادي القريبة منه كان قريب التَّعَرُّف بولاة البصرة والكوفة وعمالهم، يمدحهم تارة ويهجوهم اخرى، ويحبسه هذا حيناً، ويفر من وجه ذلك طوراً، وفي أثناء ذلك يرحل الى خلفاء بني أُميَّة بالشام يمدحهم وينال جوائزهم، وأخص من كان يمدحه منهم عبد الملك بن مروان ثم أولادُه من بعده. وامتُحِنَ بمنافسة جرير له في الشعر ومهاجاته

التهاجي بين جرير الفرزدق

والسبب في تهاجيهما أن جريراً كان يهاجي شاعراً اسمه البَعِيث لانه ظاهَر عليه شاعراً آخر يسمى غسَّان فنصر الفرزدق البَعِيث على جرير لمنافسته له في الصناعة تلك المنافسة التي أفضت بهما الى التَّهاجي والتساب طول عمرهما وسهّل على الفرزدق هجاء جرير الترفعُ عليه في شرف حسبه وكرم مَحْتِده، وسيادةِ آبائه في الجاهلية والاسلام، وضعةِ آباء جرير وخُمول ذكرهم مما جعل الفرزدق يغري بجرير أكثر من ثمانين شاعراً يهجونه

وكان الفرزدق فوق إقذاعه في الهجو وفُحْشه في السِّباب وقذف المحصنات يُرمَى بالفُجُور وقلة التمسك بشعائر الدين ثم تاب في أواخر شيخوخته على يد الحسن البصري، ورجع عن قذف المحصنات ونهش الاعراض، ونسُك وحسنت خاتمته. وكان فيه

تشيع الفرزدق

تشيعٌ يستره أيام اختلافه إلى بني أمية، ثم كاشف به آخرَ حياته حتى أمامَ هشامٍ ولي عهد الخلافة عند ما رأى الناسَ تفسح طريق الطواف بالكعبة مهابة واجلالاً لعلي بن الحسين، فسألَ عنهُ كالمتجاهل لأمره، فشق ذلك على الفرزدق وأنشد

قصيدته الميمية الآتية يُعرِّفُ بعليّ ويُنْكر على هشام تجاهله. فحَبَسه هشامٌ ثم أطلقه.
وعاش الفرزدق قريباً من مائة سنة ومات بالبصرة سنة ١١٠ هـ

***

شعره

شعره — يمتاز شعر الفرزدق بفخامة عبارته، وجزالة لفظه، وكثرة غريبه، ومُداخلة بعض ألفاظه في بعض[1]: من حيثُ التقديمُ والتأخيرُ، والفصل والوصل، وكثرةُ تنوع التراكيب والأساليب، والاشتمالُ على المعاني الدقيقة؛ وكان يجرى فيه على أسلوب الجاهلية في شعرهم، ولذلك يُعْجَب به أهلُ اللغة والنحوِ، ويُفْسِحُ لهم مجالُ القول فيه وقياسُ مسائله عليه؛ فكان يقال لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث اللغة

ويعتبر الفرزدق من أفخر شعراء العرب وأشدّهم وَلوعاً بتَعدادِ مآثر آبائه وأجداده وتحدّى منافسيه بمكارمهم حتى في مدْحِهِ للخلفاء، وحتى كان ذلك سبباً في حرمان بعضهم له العطاء واحالته على آبائه[2]، فكان بذلك شعره مشتملاً على كثير من أيام العرب ومفاخرها ومثالبها وفروع انسابها مما استخْرِج منه العلم الجمّ من أنساب العرب وأحوالها

نموذج من شعره

ومن كلامه قوله يصف ذئباً صادفه أثناء سفره فأطعمه من زاده :

وأطلسَ[3] عسّالٍ[4] وما كان صاحباً	دعوتُ لنارى موْهِناً[5] فأتانى
فلما أتى قلت : ادنُ، دونك، انني	وإياك في زادى لَمُشتركان
فبتُّ أقُدُّ[6] الزادَ بينى وبينه	على ضوءِ نار مرَّة ودخان
وقلت له لما تكَشَّرَ ضاحكاً	وقائمُ سيفى من يدى بمكان

---

(١) كقوله : وما مثله في الناس الا مملكا — ابو امه حى ابوه يقاربه
وكقوله : وكل رفيق كل رحل، وانهما — تعاطى القنا قوماهما، اخوان

(٢) استنشد سليمان بن عبد الملك الفرزدق فانشد مفتخرا عليه قطعة منها :
اذا استوضحوا نارا يقولون ليتها — وقد خصرت ايديهم نار غالب
يريد اباه فغضب. ثم انشده نصيب فقال سليمان ياغلام أعط نصيبا خمسمائة دينار وألحق الفرزدق بنار ابيه (٣) أغبر اللون (٤) مضطرب في مشيه (٥) نحواً من نصف الليل (٦) اقطع

تَعشَّ ، فان عاهـدتنى لاتخوننى ... نكن مثل مَن (ياذئب) يصطحبان.
وأنت أمرؤ (ياذئب) والغدرُ كنتما ... أُخيَّين كانا أُرْضِعا بِلبان.
ولو غيرَنا نبَّهتَ تلتمسُ القِرى ... رماك بسهم أو شَبَاة [١] سِنان.
وكلّ رفيقَيْ كلِّ رحل ، وإن هما ... تَعاطى القنا قوماهما ، أخوان.

ومن أبياته السائرة :

فياعجبا حتى كليبٌ تَسبُّنى ... كأنّ أباها نَهْشَل ومجاشع [٢].
وكنا اذا الجبار صَعَّر خدَّه [٣] ... ضربناه حتى تَستقيمَ الاخادع [٤].

قَوارِصُ [٥] تأتيني وتحتقرونها ... وقد يملأ القطرُ الإِناءَ فيُفعِمِ [٦]

اذا ما وُزِنَّا بالجبال رأيتَنا ... نميل بأطواد الجبال الأَضاخم.

أحلامُنا تزن الجبالَ رزانة ... وتخالنا جِنًّا اذا ما نجهَلُ

ترى الناس ماسرنا يسيرون حولنا ... وان نحن أَوْمأنا الى الناس وَقّفوا.

وقال يهجو :

ولو تُرمَى بلؤمِ بنى كُلَيب ... نجومُ الليـل ما وَضحت لسار
ولو يُرمَى بلؤمهمُ نهارٌ ... لدنَّس لؤْمُهمْ وَضَحَ النهار
وما يغـدو عزيزٌ بنِي كليب ... ليطلبَ حاجةً الا بجار

ومن جيد شعره قوله يمدح على بن الحسين (وتروى أبيات منها لغيره) :

هذا الذى تَعرِفُ البطحاءُ [٧] وطأته ... والبيتُ يعرفه والحلُّ والحرمُ
هذا ابنُ خـيرِ عباد الله كلِّهم ... هذا التقىُّ النقىُّ الطاهر العلم
وليس قولك : من هذا ؟ بضائره ... العُرب تعرف من أنكرت والعَجم
اذا رأتْه قريشٌ قال قائلها ... الى مكارم هـذا ينتهى الكرم

---

(١) طرف (٢) ابنا دارم التميمى ، من أجداده
(٣) اماله عن الناس اعراضا وتكبراً (٤) جمع أخدع وهو شعبة من الوريد (٥) القارصة الكلمة المؤلمة (٦) فعم الاناء ملأه كافعمه (٧) مسيل واسع فيه دقاق الحصى

يُغضى حياءً ويُغضَى من مهابتهِ (١) فلا يُكلَّمُ إلاّ حين يبتسمِ
بكفّهِ خيزرانٌ ريحها عَبِقٌ من كفّ أروع (٢) فى عرنينه شممُ (٣)
يكاد يُمسكه عرفانَ راحتهِ ركنُ الحطيم (٤) اذا ماجاء يستلم
ينشقّ ثوبُ الدجى عن نور غرّته كالشمس تنجاب عن إشراقها الظُّلم
من معشر حبُّهم دينٌ وبغضهم كفرٌ وقربهمُ منجًى ومعتصَم
إن عُدَّ أهلُ التقى كانوا أئمتهم أو قيل من خير أهل الأرض؟ قيل هم

١٠ — جرير

هو أبو حَزْرة جرير بن عطية بن الخَطَفَى التميمى اليَرْبوعي، أحدُ فحول الشُّعَراء الاسلاميين، وبُلغاء المدّاحين الهجّائين، وأنسبُ ثلاثتهم المُفلقين. وهو من بنى يربوع أحد أحياء تميم. وُلِد باليمامة من بيت اشتهر بالشعر، ونشأ بالبادية وفيها قال الشعر ونبغَ فيه. وكان يختلِف الى البصرة فى طلب المِيرَةِ ومدحِ الكبراء، وينزل على من يسكن البصرة من قومه، فرأى الفرزدقَ وما كسَبه الشعرُ من المنزلةِ عند الامراء والوُلاةِ وهو تميمى مثلُه، ووَدَّ لو يسبقهُ الى ما ناله، وأغراه قومُه به للتنويه بشأنهم وتفخيم أمرهم؛ إذ كان الشعرُ في ذلك العصر هو وسيلةَ الاعلان عن الشرف وكريم الخصال؛ فوقعت بينهما المُهاجاة والمُلاحاة عشرَ سنين، كان أكثرُ اقامة جرير أثناءها فى البادية، وكان الفرزدقُ مقيما بالبصرة، مصر العرب يملأ عليه الدنيا هجاء وسباً، فما زال به بنو يربوع حتى أقدموه البصرة فكان يُقيم بها كثيراً. واتصل بالحجاج ومدحه فأكرمه ورفع منزلته عنده، فعظُم أمره وشرَّق شعرُه وغرّب، حتى بلغَ الخليفة عبدَ الملك، فحسد الحجاجَ عليه، فأوفده الحجاج مع ابنه محمدٍ الى الخليفة بدمشق ليصل بذلك الى مدحه. فلما دخل عليهِ مع الوفد استأذنه

---

(١) لاجل مهابته (٢) الاروع من يعجبك لحسنه وجهارة منظره أو لشجاعته كالرائع
(٣) العرنين الانف والشمم الارتفاع أى سيد شريف (٤) الحطيم حجر الكعبة، أو جدارها، أو ما بين الركن وزمزم والمقام

فى إنشاده فأبى ، وقال لهُ انما أنت للحجاج . فما برح يتوسل اليهِ حتى قبل مدحه وأجازه عليهِ جائزة سنية . ومن ذلك الحين عُدَّ من مداح خلفاء بنى أمية ، ودخل فى غمار المتزاحمين على أبوابهم والمتنافسين فى نيل جوائزهم ، وجره ذلك الى مُعاداة منافسيه ومهاجاتهم ، وحرَّش الفرزدق بينهُ وبينهم وأغراهم عليهِ بالمال ، ونصب له منهم نحو ثمانين شاعراً فغلبهم كلهم وأخرسهم، وثبت لهُ من دونهم الفرزدق والأخطل فبقيت حرب المهاجاة بينهم سجالاً ، حتى مات الاخطل ، وغبر الفرزدق وجرير يتسابان بقية حياتهما الاَّ مدَّة قليلة تنسك فيها الفرزدق وتاب . ثم مات ولم يطل عمر جرير بعده الاَّ نحو ستة أشهر ومات باليمامة سنة ١١٠ هـ

مهاجاة جرير للشعراء و للفرزدق

***

وكان فى جرير على هجائه للناس وخوضه فى أعراضهم عفَّةٌ ودين وحُسن خلق ورقَّةٌ طبع ظهر أثرها فى شعره

موازنة بين جرير و الفرزدق والاخطل

شعره — اتفق علماء الأدب وأئمة نقْد الشعر على انهُ لم يوجد في الشعراء الذين نشئوا فى ملك الاسلام أبلغ من جرير والفرزدق والأخطل ، وانما اختلفوا في أيُّهم أشعر ولكلٍّ هوًى وميْل فى تقديم صاحبه : فمن كان هواه فى رقة النسيب ، وجودة الغزل والتشبيب ، وجمال اللفظ ولين الاسلوب ، والتصرف فى أغراض شتَّى ، فضل جريراً ؛ ومن مال إلى إجادة الفخر ، وفخامة اللفظ ، ودقة المسلك ، وصلابة الشعر وقوة أسْره ، فضَّلَ الفرزدق ؛ ومن نظر بعد بلاغة اللفظ ، وحسن الصوغ ، الى اجادة المدح والامعان فى الهجاء ، واستهواه وصف الخمر واجتماع الندمان عليها ، حكم للأخطل ؛ وهناك فريق يُدْخِل فى الموازنة بينهم ما ليس من موضوع الأدب ، فأهل الحسب والنسب يقدّمون الفرزدق ، وأهل الدّين والعفة يقدّمون جريراً ، وأدباء المَسيحيين يُقدّمون الاخطل ، ولا عبرة بذلك فى باب صناعة الشعر ؛ على أن طائفة من أهل النقد المعتدّ بهم يرون جريراً أشعر الثلاثة : لأنه طرق جميع أبواب الشعر ولم يُقصِّر فى باب ، وأن الفرزدق امتاز بالفخر ، والأخطل بالمدح والهجاء

ووصف الخمر ، ويحتجّون بأنه لما ماتت أمرأة الفرزدق لم تندبها النوادب الاَّ بشعر جرير في رثاء امرأته ، وأن الفرزدق كان يحسده على رقة شعره ويقول : ما أحوج جريراً مع عفافه الى صلابة شعرى ! وأحوجنى مع شهواتى الى رقة شعره ، وان له فى كل باب من الشعر أبياتاً سائرة هى الغاية التى يضرب بها المثل ؛ فيقال ان أغزل شعر قالته العرب هو قوله :

انّ العيون التى فى طرفها حوَر[1] قتلننا ثمَّ لم يُحْيين قتلانا
يَصْرَعْن ذا اللب حتى لاحراك به وهن أضعفُ خلق الله انسانا

وانّ أمدح بيت قوله :

ألستُم خيرَ من ركِب المطايا وأندَى العالَمين بطونَ راح

وان أفخر بيت قوله :

إذا غضِبت عليك بنو تميم حسِبتَ الناس كلهمُ غضابا

وان أهجى بيت مع التصوّن عن الفحش قوله :

فغُضّ[2] الطرف انك من نُمَير فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

وان أصدق بيت قوله :

إنّى لأرجو منك خيراً عاجلاً والنفس مُولَعة بحب العاجل

وان أشد بيت تهكماً قوله :

زعم الفرزدقُ أن سيقتل مِربعاً[3] أبْشِرْ بطول سلامة يا مِربَعُ

ونحو ذلك كثير فى شعره . قيل وقد لَعِب جرير وجَدّ فى قصيدة يهجو بها الأخطل التغلبى بما لو أراده غيره لامتنع عليه ، ففى لعبه يقول :

ان الذين غدَوْا بلُبك غادروا وَشَلاً[4] بعينِك لا يزال مَعيناً[5]

---

(١) الحور شدة سواد العين مع شدة بياضها (٢) اخفض (٣) هو راوية جرير
(٤) الوشل الماء القليل (٥) جارياً

غَيَّضْنَ (١) من عَبَراتهن (٢) وقلن لى　　ماذا لقيت من الهوى ولقينا

وفى جدِّه يقول :

ان الذى حَرَم المكارمَ تغلباً　　جعل الخلافة والنبوّة فينا
مضرٌ أبى وأبو الملوك فهل لكم　　يا خُزْرَ (٣) تغلِب من أب كأبينا
هذا ابن عمى فى دِمَشْقَ خليفةً　　لو شئتُ ساقكمُ الىّ قطينا (٤)

فلما بلغ عبدَ الملك هذا الشعر قال مازاد ابن المَراغة (٥) أن جعلنى شُرْطيًّا (٦) أَمَا لو أنه قال : لو شاءَ ساقكم الى قطيناً ، لسقتهم اليه كما قال

ومن جيد شعره قوله من قصيدة يرثى بها امرأته وهى التى نُدِبت بها نَوار امرأة الفرزدق :

لولا الحياء لهاجنى استعبارُ (٧)　　ولزرت قبرَكِ والحبيب يزارُ
ولّهتِ قلبى اذ علتنىَ كَبرة (٨)　　وذوو التمائم من بَنيكِ صِغارُ
لا يُلبِثُ القرناءَ أن يتفرّقوا　　ليلٌ يكُرّ عليهمُ ونهار
صلّى الملائكة الذين تُخُيّروا　　والطيبون عليكِ والأبرار
فلقد أراكِ كُسيتِ أحسنَ منظرٍ　　ومعَ الجمال سكينةٌ ووَقار

وقال يهجو تغلب قبيلة الاخطل :

فلو أنّ تغلبَ جُمِّعت أحلامُها　　يوم التفاضل لم تزن مثقالا
تلقاهمُ حلماء عن أعدائهم　　وعلى الصديق تراهمُ جهالا
لا تطلبنّ خؤولة فى تغلبٍ　　فالزنج أكرم منهمُ أخوالا

١١ — الكُمَيْتُ

هو الشاعر الخطيب الراوية النسّابه أبو المستهلّ الكُميتُ بن زيدٍ الاسدى الكوفى ، أشعرُ شعراء الشّيعة الهاشمية ، ومُثير عصبية العدنانية على القحطانية

(١) غاض الماء ذهب وغيضن أذهبن (٢) جمع عبرة وهى الدمعة قبل أن تفيض (٣) الخزر ضيق العيون وصغرها (٤) خدماً (٥) كلمة لقّب بها الفرزدق أم جرير والمراغة الاتان (٦) كترى وجهى أعوان الملك (٧) استعبرت عبرته جرت دموعه (٨) الكبر والضعف

ولد سنة ٦٠ هـ ونشأ بالكوفة بين قومه بني أسد احدى قبائل العرب الفصحاء من مضر ، فلقن العربية ، وعرف الأدب والرواية ، وعلم أنساب العرب وأيامها ومثالبها بمدارسة العلم والاخذ عن الأعراب ، وكان له جدّتان أدركتا الجاهلية تقصّان عليه أخبارها وأشعار أهلها ، فخرج أعلم أهل زمانه فى ذلك ، وأقر له حمادٌ الراوية بالسبق عليه . وقال الكميت الشعرَ وهو صغير ، وكان لا يُذيعه ولا يتكسب به ، ويكتفى بحرفته تعليم صبيان الكوفة بالمسجد . ولما حَصُفَ شعرُه وقوى أثره ، ولاسيما قصائده التى أعلن فيها تَشَيُّعه لبني هاشم وآل عليّ أنشد الفرزدقَ مستنصحاً له فى أمر إذاعته اذا أعجبه ، فأمره بإذاعته (١) ، فقال قصائده البليغة المطوّلة المسماة بالهاشميات ، ثم تكسب بالشعر ومدح الامراء والولاة وساداتِ أهل البيت من أبناء على رضى الله عنه ، واحتجّ لهم بشعره ودافع عنهم ، وعرّض نفسه من أجلهم

(١) كان اول ما قال الكميت من الشعر الهاشميات فسترها ثم اتى الفرزدق فقال له ياأبافراس انك شيخ مضر وشاعرها وانا ابن اخيك الكميت بن زيد الاسدى قال له صدقت أنت ابن اخى فما حاجتك قال نفث على لسانى فقلت شعرا فاحببت ان اعرضه عليك فان كان حسنا امرتنى باذاعته وان كان قبيحا امرتنى بستره وكنت اولى من ستره على قال الفرزدق اما عقلك فحسن وانى لارجو ان يكون شعرك على قدر عقلك فانشدنى ماقلت قال : طربت وما شوقا الى البيض اطرب . قال الفرزدق فيم تطرب يابن اخى فقال : ولا لعبا منى وذو الشيب يلعب . قال العب يا بن اخى فانك فى اوان اللعب . فقال :

ولم يلهنى دار ولا رسم منزل ولم يتطربنى بنان مخضب

قال مايطربك يابن اخى فقال :

ولا السانحات البارحات عشية امر سليم القرن أم مر أعضب

قال اجل لاتتطير فقال :

ولكن الى اهل الفضائل والتقى وخير بني حواء والخير يطلب

قال ومن هؤلاء ويحك قال :

الى النفر البيض الذين بحبهم الى الله فيما نابنى اتقرب

قال ارحنى ويحك من هؤلاء قال :

بني هاشم رهط النبي فاننى بهم ولهم ارضى مرارا و اغضب
خفضت لهم منى الجناح مودة الى كنف عطفاه اهل ومرحب
وكنت لهم من هؤلاء وهؤلا محبا على انى أذم وأقصب
وارمى وارمى بالعداوة اهلها وانى لأوذى فيهم وأؤنب

فقال له الفرزدق يابن اخى اذع ثم اذع فانت والله اشعر من مضى واشعر من بقى .

سبب هجائه اليمانية

إلى الموت مراراً ، وبَقِيَ هذا شأنه حتى هجا حكيمُ الكلبيُّ من اليمانية وأهل الشام آل عليٍّ وشيعته وسائر مضر ، فردّ عليه شعراء المضرية فلم يفلِحوا فأغرَوْا به الكميتَ فاعتذر ، فأسمَعوه هجاءَه في بنات عمِّه وخالِه ، فحَمِيَ الكميت لعشيرته وهجا الكلبيّ واليمانية جمعاءَ . وكان خالد بن عبد الله القسْري والى العراق بالكوفة يمانياً فغضِب وسعى به الى هشام بن عبد الملك ، واحتال حتى أبلغه شعره في ذم بني أمية ومدح بني هاشم ، فأمره بقتله ، فقبض عليه وسجنه ، فاحتال الكميت وفرَّ من سجنه ؛ ورحل الى الشام ، واستجار بقبر معاوية بن هشام فآمنه ، وخطب بحضرته خطبة بليغة ، وارتجل قصيدته التي يعتذر فيها ويتوب من تشيعه ؛ ويمدح بني امية ويقول :

اليوم صرت الى أميـــةَ والأمور لها مصاير

فعفا عنه وأجازه ، وكتب لخالد ألاَّ يتعرض له . وبقي الكميت على شأنه في هجاء اليمانية ، حتى كان شعره من أشدّ الامور التي أثارت العداوة بين الأُمتين وبقيت نارها تتأجج حتى أواسط الدولة العباسية ، واذ ذاك استولى الاعاجم على الملك وأخفتوا صوت العرب جميعاً عدنانيّها وقحطانيها ومات الكميت سنة ١٢٦ هـ

شعره — كان الكميت من فحول شعراء الامصار ، كثير الشعر والارتجال ، على إجادة واحسان ، وكان لكثرة حفظه لاشعار العرب يأتي في شعره ببعض جمل أو أبيات من كلامهم ، فيتذرّع بذلك متعصبو اليمانية الى اتّهامه بسرقة الشعر ؛ ومن هؤلاء خلَفٌ الاحمر أحد رواة الشعر [١] . وكان لشعره من التأثير السياسى والمذهبي أثر سيئ بين تلك الآثار التي شتّتت شمل الوحدة العربية وعادت عليها بالنكال بما أحياه من العصبية الذميمة وأغرى الشيعة بمناظرة خصومهم اذ يقول الجاحظ : ما فتح للشيعة الحِجَاج بالشعر إلا الكميت بقوله :

فان هي [٢] لم تصلح لحى سواهم فانّ ذوى القربى أحقُّ وأوجبُ

---

(١) هو الراوية المشهور توفى سنة ١٨٠ هـ (٢) يريد الخلافة

يقولون لم يُورَثْ [1] ولولا تُراثه   لقد شَرِكت فيه بَكيلٌ وأرحبُ [2]

ومن هاشمياته :

أَلاَ هل عمٍ فى رأيه متأملُ   وهل مدبرٌ بعد الاساءة مقبلُ [3]

وهل أمَّــة مستيقظون لرشدهم   فيكشفُ عنهُ النَّعسةَ المتزمّل [4]

فقد طال هذا النومُ واستخرج الكَرَى   مساويَهم لو كان ذا الميلُ يُعْدَل

وعُطّلت الأيام حتى كأننا   على ملةٍ غير التى نتنحّل

كلامُ النبيين الهداة كلامُنا   وأفعالَ أهل الجاهلية نفعل

رضينا بدنيا لا نُريد فراقها   على أننا فيها نموت ونُقتل

ونحن بها مُستمسكون كأنها   لنا جُنة [5] مما نخاف ومَعْقِل [6]

ارانا على حبّ الحياة وطولها   يُجَدّ بنا فى كل يوم ونهْزِل

وقال الكميت يمدح خالد بن عبدالله القسرى [7] :

لو قيل للجود من حليفك [8] ما   إن كان إلاّ اليك ينتسب

أنت أخوه وأنت صورته   والرأس منه وغيرك الذنب

أحرزت فضل النّضال [9] فى مهَل   فكلَّ يوم بكفّك القصب [10]

لو أن كعباً [11] وحاتماً [12] نُشِرا   كانا جميعاً من بعض ماتهب

لاتُخْلِفُ الوعد ان وعدت ولا   أنت عن المعتفين [13] تحتجب

ما دونك اليوم من نوالٍ ولا   خلفك للراغبين منقلب

---

(١) نائب الفاعل الرسول (٢) حيان من همدان (٣) اما آن للعاقل ان ينتبه وللنائم ان يستيقظ (٤) الملتف (٥) وقاية (٦) ملجأ

(٧) هو امير العراق المقتول سنة ١٢٦ ه (٨) حليفك هو الذى يعاهدك على ان يكون امركما واحداً فى النصرة والحماية (٩) المباراة فى الرمى (١٠) القصب كل نبات ذى انابيب الواحدة قصبة واحرز القصب أو قصب السبق غلب (١١) هو كعب بن مامة من اياد احد اجواد العرب المضروب بهم المثل في الكرم (١٢) هو حاتم بن عبد الله الطائى الجواد الطائر الصيت والشاعر المجيد ، مات قبيل الاسلام (١٣) طلاب المعروف والرزق

وقال يهجو :

فقل لبنى أمية حيث حلوا ـ وان خفت المهند والقطيعا ـ
أجاع الله من أشبعتموه وأشبع من بجوركم أجيعا
بمرضِىّ السياسة هاشمىّ يكون حياً لامته ربيعا

الرواية والرواة

ظهر الإسلام وعمدة العرب فى ضبط علومهم وآدابهم الحفظ والرواية، فجاءهم من كتاب الله وسنة رسوله بالأمر الخطير، والعلم الكثير، فكانت عنايتهم بحفظهما فى الصدور أكثر من كتابتهما فى السطور. ولما اتسع علم المسلمين بما أضيف اليهما من تفسير الصحابة والتابعين ومن أقوالهم فى الدين، تعددت طوائف الرواة للقرآن والحديث وفنون الأدب

واذ كان الانسان عرضة للنسيان، وأحوال الناس تختلف فى الصدق والكذب تشدّد الصحابة والمتألهون [١] من التابعين وتابعيهم فى تصحيح الرواية وشدة التوثق من صدق الرواة تحرّجاً منهم أن يدخل فى الدين ماليس منه

ولما خاف عمر بن عبد العزيز أن تموت السنة الصحيحة بموت رواتها وبما وضعه الزنادقة والشيعة والخوارج ودسوه فيها، أمر العلماء بتدوين الحديث

وبقى الأمر فى الشعر والأدب كما كان فى الجاهلية : لكل شاعر راوٍ أو عدة رواة. ومن أشهر هؤلاء هُدْبة [٢] بن خَشْرم راوية الحطيئة، وجميل [٣] راوية هدبة، وكثيّر [٤] راوية جميل، وأبو شَفقل وعبيد أخو ربيعة بن حنظلة راوية الفرزدق، ومربع راوية جرير والفرزدق معاً، ومحمد بن سهل راوية الكميت، وصالح بن سليمان راوية ذى الرُّمّة [٥] وذو الرمة راوية الراعى [٦]

---

(١) المتنسكون المتعبدون (٢) قتل قوداً بالمدينة وعليها سعيد بن العاص من قبل معاوية

(٣) هو ابن عبد الله بن معمر العذرى الشاعر الغزل المتوفى سنة ٨٢ هـ (٤) هو تلميذ جميل وراويته وأحد شعراء النسيب المشهورين المتوفى سنة ١٠٥ هـ (٥) هو غيلان بن عقبة صاحب مية المتوفى سنة ١١٧ هـ

(٦) هو حصين بن معاوية وسمى بالراعى لانه كان يكثر وصف الرعاء فى شعره

وبقى الأمر كذلك حتى أواخر هذا العصر فاشتغل العلماء بالرواية ، وصار الراوى منهم يروى لمئات من الشعراء والشواعر وان لم يكن هو شاعراً ، وأكثر هؤلاء العلماء من الرواة أدرك عصر بني العباس فيذكر فيه

ومع تشدد الناس فى تصحيح الرواية سنةً وأدباً حدث فى الشعر والخطب كثير من التصحيف والتحريف والنقص والزيادة ونحو ذلك

العصر الثالث

عصر الدولة العباسية [1] من ١٣٢ — ٦٥٦ هـ

أثر الحضارة العباسية فى أحوال اللغة وآدابها

نقصد بأحوال اللغة العربية فى ذلك العصر أحوالها بين أهل البلاد الإسلامية فى آسيا وإفريقية والاندلس وجزائر بحر الروم من أوربة ، ولو لم يكونوا تابعين للدولة العباسية فى الملك والسياسة

تأثير الحوادث السياسية والاجتماعية فى اللغة والادب

كان بنو أمية شديدى التعصب للعرب والعربية ، فكان كلُّ شيء فى دولتهم عربىّ الصّبغة . وكانت جمهرة العرب [2] منتشرةً فى كل مكان امتدّ اليه سلطانُها فلما قامت الدولة العباسية بدعوتها لم تجد لها من العرب أنصاراً وأعواناً مثلَ من وجدت من الفرس وأمم الاعاجم ، فاكتسحت بهم دولةَ بنى أمية ، وأسست دولةً

---

(١) خلفاء بنى العباس الى سنة ٣٣٣ :

الخليفة	المدة	الخليفة	المدة
أبو العباس عبدالله السفاح	(١٣٢ ـ ١٣٦)	محمد المنتصر	(٢٤٧ ـ ٢٤٨)
أبو جعفر المنصور	(١٣٦ ـ ١٥٨)	ابو العباس احمد المستعين	(٢٤٨ ـ ٢٥٢)
محمد المهدى	(١٥٨ ـ ١٦٩)	ابو عبدالله المعتز	(٢٥٢ ـ ٢٥٥)
موسى الهادى	(١٦٩ ـ ١٧٠)	محمد المهتدى بالله	(٢٥٥ ـ ٢٥٦)
هارون الرشيد	(١٧٠ ـ ١٩٣)	احمد المعتمد على الله	(٢٥٦ ـ ٢٧٩)
محمد الامين	(١٩٣ ـ ١٩٨)	احمد المعتضد بالله	(٢٧٩ ـ ٢٨٩)
عبدالله المأمون	(١٩٨ ـ ٢١٨)	على المكتفى بالله	(٢٨٩ ـ ٢٩٥)
أبو اسحاق محمد المعتصم	(٢١٨ ـ ٢٢٧)	جعفر المقتدر بالله	(٢٩٥ ـ ٣٢٠)
أبو جعفر هارون الواثق	(٢٢٧ ـ ٢٣٢)	ابو منصور محمد القاهر	(٣٢٠ ـ ٣٢٢)
جعفر المتوكل على الله	(٢٣٢ ـ ٢٤٧)	ابو العباس احمد الراضى	(٣٢٢ ـ ٣٢٩)
		ابراهيم المتقى لله	(٣٢٩ ـ ٣٣٣)

(٢) جمهرة الناس والاشياء جلها ومعظمها كالجمهور . والجمهرة اصلها مصدر استعمل اسم ذات

قوية كان أكثرُ النفوذ فيها للموالى ؛ فاستخدمهم الخلفاء والأمراء فى كل شيء من سقاية الماء الى قيادة الجيوش والوزارة . وابتدأ شأنُ العرب السياسيّ يتضاءَلُ[1] من ذلك الحين شيئاً فشيئاً حتى ضعُفت النُّعَرَةُ العربيةُ[2] فيهم ، وخمدت جذْوةُ[3] التباهى بكرم الأصل والنِّجار[4] بينهم ؛ بحيث لم يمض قريبٌ من قرن على تكوين الدولة العباسية حتى لم يكن لعرب المشرق فى السياسة شأنٌ يُذكر ، وقُطِعت أرزاقهم من ديوان الجُند[6] ، واندمجوا فى غُمار العامة ، واشتغلوا بالصناعة والفِلاحة والحِرَف المختلفة ، واختلطوا بالاعاجم بالتصاهُر والتجاور ، وانغمروا فى مدنية الفرس وحضارتها أيما انغمار ؛ فكان من المجموع شعبٌ ممتزجٌ لغةً وعادةً وخلقاً واعتقاداً وفكراً وخيالاً ؛ فأثر ذلك كله تأثيراً بيّناً فى اللغة لفظاً ومعنى ، وشعراً ونثراً ، وكتابة وتأليفاً . ولم يظهر ذلك بالطبع فى جميع الممالك بنسبة واحدة ؛ بل كان فى أواسط آسيا أظهر منه فى مصر والشام . أما حال ممالك الغرب والأندلس صدرَ هذا العصر فلم تَبْعُد كثيراً عما كانت عليه فى العصر الماضى ؛ ثم سرت اليها عدوى تقليدها للمشارقة فى أكثر الأمور . ويمكن تقريبُ ذلك بأن كلَّ تغيّرٍ فى لغة أو اختراع لفن أو علم فى المشرق كان أثره يظهر فى الاندلس بعد نصف قرن أو يزيد قليلاً ، إلاَّ أنّ الصّبغة العربية كانت مرعيَّة بالاندلس فى الجملة . وكذلك كانت فى إفريقية[5] من ممالك البربر معُظَمَ هذا العصر .

ويمكن ارجاعُ جميع هذه التغيرات إلى ثلاثة أمور : الاول — ما يتعلق بالأغراض التى تؤدّيها اللغة . الثانى — ما يتعلق بالمعانى والافكار . الثالث — ما يتعلق بالألفاظ والأساليب

أغراض اللغة

كانت أحوالُ الدولة العربية فى العصر السابق تقرُب من الغَضاضة والبداوة

---

(١) تضاءل الشى خفى وتصاغر شخصه (٢) النعرة الخيلاء والكبر (٣) الجذوة مثلثة الجمرة من النار (٤) الاصل (٦) فعل ذلك المعتصم بن الرشيد ومن بعده

(٥) افريقية هنا هى المسماة الآن بلاد تونس

لاستقلالها بالآداب العربية الاسلامية ؛ فلم تكن اللغة تتناول من المقاصد والأغراض غير ما يتعلق بالدين ومعيشة الجِدّ القليلةِ الترف . فلما قامت الدولة العباسية بما علمت ، وتشبّه الخلفاء والأمراء والولاة والرؤساء بملوك الفرس ودهاقينهم [١] فى أكثر أمور السياسة والمعيشة ، وحاكتهم العامة فى ذلك بتقليد أمثالهم من طبقات الأعاجم ، تناولت اللغة فى المشرق أغراضاً لم تُعْهَد فيها من قبلُ بنقْل علوم تلك الأمم وآدابها وعاداتها وطرق معيشتها . ثم تناولت هذه الأغراضَ فى المغرب بعدئذ بفرق يسير ، على أن المسلمين من العرب وغيرهم كانوا قد ارتاحت عقولهم ونضج استعدادهم لوضع الأنظمة والقوانين ، واستنباطِ أحكام الشريعة من أصولها ، وتدوين العربية لحفظ اللسان والدين ، فكان من تلك الأغراض ما يأتى :

(١) تدوينُ العلومِ الشرعية واللسانية والعقلية ولم يكن دُوّنَ من ذلك فى صدر الإسلام إلاّ نزرٌ يسيرٌ لا يذكر بجانبِ مادوّن فى هذا العصر

(٢) الترجمةُ من اللغات الأجنبية الى العربية . ولم يُتَرْجم فى العصر الماضى الى العربية بعد حساب الدفاتر الديوانية إلاّ بعضٌ من الرسائل العلمية قلَّما يُعْرَف له خبرٌ . واختص المشارقة بالترجمة دون المغاربة لعَراقة دولهم فى الملك وعَتاده ، ولأنهم ورِثُوا ممالكَ ذات علوم وحضارة عظيمة

(٣) تأديةُ مقاصدِ الصناعات المختلفة ، وخاصةً بعدَ دخول العرب فى غُمار [٢] الصُّنّاع وبعد تَعَرُّب الأعاجم

(٤) تأديةُ مقاصدِ أنواع الخلاعة والسُّخْرِيَة والمجَانة [٣] مما قلَّ نظيرُه في صدر الإسلام

(٥) المحاضرة والمناظرة والبحث والجدَل وتدريس العلوم

(٦) تأديةُ المقاصدِ التى استدعاها الانغماسُ فى الترف والتنعمُ بلذائذ الحضارة التى

---

(١) جمع دهقان (بكسر الدال) وهو من العجم تاجرهم أو زعيم فلاحيهم أو رئيس اقليمهم
(٢) غمار الناس جماعتهم ولفيفهم (٣) مجن (من باب قعد) مجونا ومجانة لم يبال قولاً وفعلا

جرتْ فيها الامم الاسلاميةُ عصْرَ الدولة العباسـية الى أمد [١] بعيد ، أو اقتضتها أساليبُ نظام الملك والدفاع عنه : كالإمعان فى وصف الأشياء النفيسة من القُصور وما فيها من الفراش والرياش والآنية والحلي والجَوَارى والقِيان [٢] ، والبساتين وما فيها من أنواع الرياحين والأزهار والثمار والخُضر ، ومايتبع ذلك من مجالس الشرب والمنادمة ومصايد الطير والسمك وأشـكال الملاعب ، مما لم يُعرف للعرب فى صدر الإسلام أو عُرِف وكان قليلاً ممقوتاً ؛ وكوصف البحر والأساطيل الحربية والمعارك البحرية ، وامتاز بأكثرِ ذلك المغربُ والأندلس ، كما امتازت الأندلسُ بالاجادة فى وصف مناظر الطبيعة ومحاسن الوجود لملاءمة بيئتها لذلك ، وكادت تلحق بها فى الوصف صِقليَة وافريقية إبَّانَ ازدهائهما اهـ

المعانى والأفكار

إنَّ ماحدثَ فى مشارق الممالك الإسـلامية ومغاربها أثناء العصر العباسى من الانقلابات السياسية والاجتماعية كان له نتيجةٌ ظاهرة فى الحركة الفكرية للمتـكلمين بالعربية . ظهر ذلك فى نثرهم وشعرهم بصور مختلفه ؛ فمنها :

١ — شيُوعُ المعانى الدقيقة ، والأفكارِ الجميلة ، والأخيلةِ البديعة فوق ما كان عليه الأمرُ فى صدر الإسلام

٢ — التهويلُ والغلوّ فى التفخيم المقتَبَسُ فى المشرق من اللغة الفارسـية ، والسارى بعضه بالعدوَى الى أهل المغرب والأندلس فى أخريات زمانهم

٣ — كثرةُ التعويلِ على القياس والتعليلِ فى الأحكام الفكرية : بالإكثار من الحججِ والبراهينِ العقلية ، وانتحاءِ [٣] مذاهب الفلاسـفة فى الشعر والكتابة والتدريس ولا سيما بعدَ عصر الترجمة ، وأكثرُ ما كان ذلك بالمشرق . وقلَّما عُني به أهل المغرب

---

(١) الامد الغاية (٢) جمع قينة (بالفتح) وهى الأمة المغنية (٣) مصدر انتحى بمعنى قصد

الألفاظ والاساليب

غلب على عبارة اللغة العربية فى هذه المدة أمران عظيمان : السهولة ، والمحسنات البديعية . ويشمل ذلك ما يأتى :

(١) انتقاء الألفاظ الرشيقة السهلة [١] والتأنق فى صوغ العبارات وتوثيق الربط بينها ، والإكثار من استعمال ألفاظ القرآن الكريم وعبارته [٢] والاقتباس منه والاستشهاد به : لاستعمال الروية ، وقلة الحاجة الى الارتجال ، وضيق نطاق المحفوظ على المتكلم بالعربية بالدرس والصناعة لا على المتكلم بالطبيعة والفطرة كما كان الأمر فى العصرين الماضيين وزاد فى ذلك المشارقة على المغاربة

(٢) تفاقُمَ الخَطْب فى استعمال الكلمات الأعجمية فى كثير من الاشياء ، ولا سيما ألوان الأطعمة وأنواع الآنية والفُرُش وأدوات الصناعات والعقاقير [٣] الطبية وأسماء الأمراض

(٣) التوسع والإكثار من ألفاظ المجاز والتشبيه والتمثيل والكناية والمحسنات البديعية كالجناس والطباق والتورية ونحو ذلك ، وخاصة أواخر هذا العصر . وكانت عناية المغاربة بالمجاز والتشبيه أكثر من عنايتهم بالتورية والجناس

(٤) التوسعَ فى ادخال ألقاب التعظيم على أسماء الخلفاء والامراء وأرباب المناصب العالية . وكان ذلك فى الأندلس آخرَ حياتهم

(٥) الميلَ الى استعمال السجع ، وازدادَ أمرُه فى النصف الثانى من هذا العصر

(٦) التطرف الى غاية حَدَّىِ الاطناب والإيجاز ولكل منهما مقام . وكان الأندلسيون إلى الأطناب أميل

---

(١) نقصد بالسهل هنا ما كان خفيفاً فى النطق وعلى السمع ، مألوف المعنى والاستعمال عند أوساط البلغاء فى عصره فقد يكون السهل فى زمان صعباً فى آخر

(٢) واطرد ذلك فى كل شىء حتى شارات الدولة من البنود (الاعلام) والطراز (علم الثوب أى ما يكون فى حاشيته من النقش والكتابة) والسكة أى الاداة التى يضرب عليها الدرهم والدينار (٣) جمع عقار ككتان : ما يتداوى به من النبات أو أصوله

(٧) وضع اصطلاحات العلوم والفنون والصناعات وادارة الحكومة وأسماء آلات الحرب وغيرها، واحداث لغة تأليفية لتعليم العلوم تقاس بمعيار المنطق لا بمعيار البلاغة.

واذ كانت اللغة إما نثراً وإما شعراً ، والنثر محادثة ، وخطابة وكتابة ، ناسب أن نُلِمّ بمُجْمَل كلٍّ منها فنقول :

النثر

المحادثة (أو لغة التخاطب)

قدمنا لك أن لغة التخاطب بين الخاصة من العرب فى أواخر العصر الماضى كانت العربية الفصيحة الخالية من اللحن إلاّ من آحاد استهجن منهم ، وعيبوا به ، وأن لغة العامة والسوقة من العرب المختلطين بالعجم هى العربية المشوبة بشىء من اللحن ، ولغة المتعربين من العجم تقل عن هذه فى الفصاحة ، وتزيد عليها فى اللحن بمراتب مختلفة .

فلما تمّ امتزاج العرب بالعجم عصر الدولة العباسية ، تكونت بين العامة فى البلاد التى تكثر فيها جمهرة العرب لغات تخاطب عامية مؤلفة من العربية المحرّفة وشىء من الدخيل الأعجمى إلاّ بين أهل جزيرة العرب ، فلم يزل تخاطبهم باللسان العربى الفصيح الى أواسط القرن الرابع . وبقيت لغات التخاطب فى البلاد التى تقل فيها جاليتهم هى اللغات الوطنية الاعجمية ممزوجة ببعض الألفاظ العربية التى أدخلها عليها الاسلام

وخاف الخلفاء والخاصة من هَوْل تغلُّب العامية على أبنائهم ، وأشفقوا أن تستطيل على الفصيحة ، فيستغلق على المسلمين فهم الكتاب والسُّنة وهما كلُّ الدين ، فحرّضوا العلماء على تدوين اللغة والإكثار من العناية بضبط النحو وفنون البلاغة وعلوم الدين ، وكافئوهم ببِدَر (١) الأموال ، وحشدوا فى قصورهم أئمة اللسان يؤدّبون أولادهم وخاصتهم ، فكانوا أمراء الكلام وفحول البلاغة ، كما كانوا أمراء الملك وسادة

(١) جمع بَدرة (بالفتح فالسكون) كيس المال ، قيل : الف ، وقيل عشرة آلاف من الدراهم . وقيل سبعة آلاف من الدنانير

الدولة . ولكنّ ذلك كلّه لم يوقف تيار العامية الزاخر ، واستمر فى طُغيانه الى أن غلب فى النصف الأخيرِ من عصرِ هذه الدولة على جميع لغات التخاطب ، حتى لغةِ الخلفاء وعلماءِ العربيةِ أنفسِهم ، وأصبح لكل بلادٍ عربيةٍ لغةُ تخاطبٍ عاميةٌ خاصةٌ بها

ولم يدوِّن أسلافُنا اللغاتِ العاميةَ خشيةَ أن تزاحِمَ العربيةَ الفصيحة وهى اللسان العامُّ بين جميعِ ممالكِ الإسلام فتَنسَخها ، فيُرتَجَ باب الدين ، وتتقاطعَ الامم الاسلامية ، فتقتصرَ كلُّ أمةٍ على كتبها ولغتها ، وفى ذلك من انحلال الروابط السياسية والعلمية والدينية ما لا يخفى . ونعم إن الاندلسيين والمغاربة فى أواسط هذا العصر وأواخره قد رَفّهوا العامية قليلاً بما نظموا بها كثيراً من الموشّح ، وأنواعِ الزجل . والشعرِ العامىّ ، وعروضِ البلد[1] ، وما دوّنوه منها الاّ أن ذلك والحمدُ لله لم يكن طويلَ الأمد ، ولم تعمَّ به البَلوى ؛ فلم تُصبِح العاميةُ به لغةَ علمٍ وأدب .

الخطابة

لما كان قيامُ الدولةِ العباسيةِ فى المشرق والادريسيةِ[2] فى المغرب الاقصى ، والأموية الثانيةِ فى الاندلس[3] ، من الامورِ التى ينشأ عنها كثيرٌ من الانقلابات السياسية والمذهبية والاجتماعية ، وكان ذلك يستدعى تأليفَ العصابات ودعوةَ الناس الى التشيُّع لزعماء الاحزاب ، وكان التفاهُمُ بالعربية الفصيحة والانجذابُ بالبلاغةِ لا يزال مستحكماً صدرَ هذا العصر — بقيتْ دواعى الخطابةِ متوافرةً لتوافُرِ أسبابها ؛ فكان بين قوّاد هذه الدول ودعاتها وخلفائها وولاتها ورؤساء وفودها خطباءُ مصاقعُ ، وبلغاء فطاحل[4] ثم لما فترت هذه الدواعى باستقرار الدول ، واشتد اختلاط العرب بالأعاجم ، وتولى كثير من الموالى قيادةَ الجيوش وعمالة الولايات والمواسم — ضعُفَ شأنُ الخطابة لضعف قدرتهم عليها ، وقلة المستجيبين لها : لتناقص العناصر العربيةِ فى الجند وأهل

---

(١) ذكرنا أمثلة ذلك فى العصر التالى لكثرة شيوعه فيه (٢) اسسها ادريس بن عبدالله حفيد الحسن بن على بن أبى طالب بالمغرب الاقصى سنة ١٧٢ هـ وبقيت الى سنة ٣١٩ (٣) اسسها عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك سنة ١٣٩ هـ وبقيت الى سنة ٤٢٧ هـ

(٤) جمع فطحل كهزبر وهو فى الاصل الضخم من الابل

النجدة . فلم يمض قرن ونصف من قيام تلك الدول حتى بَطَلَ شأنُ الخطابة السياسية والمذهبية ، الاَّ قليلاً فى المغرب أيام الحَفْل وقدوم الوفود ، وبقيت الخطابة مقصورة على خطب الجمعة والعيدين والمواسم وخطب الزّواج ونحو ذلك ؛ وقلّ فيها الارتجال أو عُدِمَ جُملةً ، وحلّ محلّ الخطابة فى الأمور السياسية نشرُ المنشورات ، وفى الامورِ الدينية مجالسُ الوعظ والتزهيد ، والتدريسِ فى المساجد والمدارس

نماذج من الخطب

حج المنصور بعد بناء بغداد فقام خطيباً بمكة فكان مما حفظ من كلامه (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ انَّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبَادِيَ الصَّالِحُون) أمرٌ مبرم وقولٌ عدل ، وقضاءٌ فصل ، والحمدُ لله الذى أفْلَجَ حجتَه [١] ، وبُعداً للقوم الظالمين الذين اتخذوا الكعبة غَرَضاً ، والفَيْءَ إرْثاً ، وجعلوا القرآنَ عِضِين [٢] لقد حاقَ بهم ما كانوا به يستهزئون ، فكم ترى من بئر معَطلةٍ ، وقصر مَشيد ، أمهَلَهم الله حتى بَدَّلوا السنة ، واضطهدوا العِترة ، وعَنَدوا واعتدوا واستكبروا ، وخاب كلُّ جبارٍ عنيد ، ثم أخذَهم فهل تُحِسّ منهم من أحد أو تسمع لهم رِكْزاً [٣]

وخطب المأمون بمَرْو [٤] وقد ورد عليه كتاب الامين يُعزّيه بالرشيد ويحثه على أخذ البَيْعة فقال : ان ثمرة الصبر الأجر ، وثمرة الجزع الوِزْر ، والتسليمُ لأمر الله عزّ وجل فائدة جليلة ، وتجارة مُرْبحة ، فالموت حوض مورود ، وكأس مشروب . وقد أتى على خليفتكم ما أتى على نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فإنا لله وانا اليه راجعون . فما كان الاَّ عبداً دُعى فأجابَ ، وأمر فأطاعَ . وقد سدّ أمير المؤمنين ثَلْمه ، وقام مقامَه ، وفى أعناقكم من العهد ما قد عرفتم . فأحسنوا العزاء على إمامكم الماضى ، واغتبطوا بالنعماء والوفاء فى خليفتكم الباقى . يأهل الدنيا الموتُ نازلٌ . والأجل طالبٌ . وأمسِ واعظ . واليوم مغتنَم . وغداً منتظر . ثم نزل

---

(١) افلج حجته اظهرها (٢) العضة القطعة وجمعها عضون وجعلوا القرآن عضين أى فرقاً فجعلوه كذبا وسحراً وكهانة وشعراً (٣) صوتا خفيا (٤) بلدة بفارس وهى قاعدة بلاد خراسان

وخطب عبد الله بن طاهر الناس وقد تهيأ لقتال الخوارج فقال — انكم فئة الله المجاهدون عن حقه ، الذّابون عن دينه ، الذائدون [1] عن محارمه ، الداعون الي ما أمر به من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاة أمره ، الذين جعلهم رعاة الدين ، ونظام المسلمين ، فاستنجزوا مَوْعِدَ الله ونصره بمجاهدة عدوّه وأهل معصيته الذين أشِروا [2] ، وتمردوا ، وشقوا العصا ، وفارقوا الجماعة ، ومَرَقوا من الدين ، وسَعَوْا فى الارض فساداً ؛ فانه يقول تبارك وتعالى ، ان تنصروا الله يَنْصرْكم ويُثَبّتْ أقدامكم ، فليكن الصبر مَعْقِلَكم [3] الذى اليه تلْجئون ، وعُدّتكم التى بها تَستَظْهرون ؛ فانه الوَزَرُ [4] المَنيع الذى دلكم الله عليه ، والجُنّة [5] الحصينة التى أمركم الله بلباسها ، غضوُّا أبصارَكم وأخْفِتوا أصواتكم فى مصافّكم ، وامضوا قُدُماً على بصائركم ، فارغين الى ذكر الله والاستعانة به كما أمركم الله ؛ فانه يقول (اذا لَقيتم فِئَةً فاثْبُتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) أيدكم الله بعز الصبر ، ووَلِيَكم بالحياطةِ والنصر

الخطباء

اشتهر فى صدر الدولة العباسية جملة من الخطباء جلُّهم من بنى هاشم عباسيين وعلويين ثم من الخوارج ، ومن بعض خطباء الأمصار من بنى مِنْقر وآل الرّقاشى وآل خاقان بالبصرة وبعض زعماء بنى امية وفقهائهم بالأندلس [6] ، وآل الأغلب فى إفريقية . ومن أشهرهم داود بن على ، وشبيب بن شيبة ، وهاك ترجمتهما

داود بن علىّ

هو داودُ بن علىّ بن عبد الله بن عباس خطيب بني العباس ، وأحد مؤسسى دولتهم ، نشأ هو واخوته وكانوا اثنين وعشرين رجلاً فى قرية الحُمَيْمَة من أعمال

---

(١) الذود المنع والطرد (٢) بطروا (٣) ملجأكم (٤) الوزر بفتحتين الملجأ
(٥) الجنة بالضم كل ماوق (٦) وأشهرهم المنذر بن سعيد البلوطى

عمّان[1] وكان الوليد بن عبد الملك أجلى عليّ بن عبد الله بن عباس وأهل بيته اليها غضباً عليه

وأخذ هو واخوته علمهم وأدبهم عن أبيهم عليّ حبر قريش وابن حبرها وبليغها ووارث علم أبيه عبد الله بن عباس وعابد أهل زمانه ، كما أخذوا الفصاحة من البدو النازلين فيهم من قبائل لَخْم وجُذام وتَنُوخ وغسّان وقيس ، فانطبعت فيهم صفات البدو من الشجاعة والبصر بالقتال وإباء الضيم والاستقلال وفصاحة اللسان والبطش وحبّ الانتقام ، وجانَبتْهم صفات الحضر من الانغماس فى الترف والملذات والعكوف على الملاهى

وكان داود أحد النابغين من اخوته فى هذه الصفات ويزيد عليهم أنه كان بليغهم ولسانهم وأخطبهم فى وقته . وعاجلته منيته قبل أن يستطير سلطانه فى الدولة . ولاه أبو العباس — عقِب بيْعته بالكوفة — ولاية الكوفة وسَوادَها ، ثم ولاه إمارة الحاج فى هذه السنة ، وولاه معها ولاية الحجاز واليمن واليمامة ، فقتل من ظفر بهم من بنى أمية في مكة والمدينة فى هذا العام أى سنة ١٣٢ ﻫ وهو أول موسم ملكه بنو العباس ، وخطبهم الخطبة الآتية بعد . ثم ذهب عقب الموسم الى المدينة فتوفى بها بعد شهرين من قدومه اليها فى شهر ربيع الأول سنة ١٣٣ ﻫ

ولداود خطبة عظيمة[2] خطبها يوم بيعة أبى العباس على منبر الكوفة ، أما خطبته فى موسم مكة فهى مختصرة من خطبة الكوفة وهى « شُكْراً شكراً إنّا والله ما خرجنا لنَحفِرَ فيكم نهراً ، ولا لنبنى فيكم قصراً ، أظنَّ عدوُّ الله أن لن نقدِر عليه أن رُوخِيَ له من خِطامه حتى عَثَرَ فى فضل زِمامه ؟ فالآن[3] حيث أخذ القوس باريها ، وعادت القوس الى النزَعة[4] ، ورجع الملك فى نصابه فى أهل بيت النبوّة والرحمة ، (والله لقد كنا نتوجع لكم ونحن فى فُرشنا) ، أمِنَ الأسودُ

---

(١) بلدة على خط سكة الحديد الحجازية هى الآن مقرّ امارة شرقى الأردن

(٢) راجع تاريخ أدب اللغة في العصر العباسى (٣) ظرف لأمن الاسود (٤) جمع نازع وهو الرامى يشد الوتر اليه ليضع فيه السهم

والأحمر، لكم ذمة الله، لكم ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكم ذمة العباس؛ لا وربِّ هذه البَنِية — وأومأ بيده الى الكعبة — لا نهيج منكم أحداً »

شبيب بن شيبة

هو شبيبُ بن شَيْبَةَ بن عبد الله المِنْقَرِيُّ[1] التميمي خطيبُ البصرة فى زمانه. نشأ فى البصرة وامتاز بنَبالة نفس، وسخاء كفٍّ، وحسن تواضع، ونزاهة لسان، كما امتاز بخطبه القصيرة البليغة القريبة من حدّ الاعجاز. وهو ابن عم خالد بن صَفوان[2] الخطيب المشهور. وسمعه خالد هذا يتكلم فى رَهْطه، فقال يا بُنيّ لقد نَعى الىَّ نفسى إحسانك فى كلامك؛ فإنا أهلُ بيت ما نشأ فينا خطيبٌ الاَّ مات مَن قَبْلَه. فقال له شبيبٌ بل يبقيك الله، ويجعلنى فداءك

وقال الجاحظ : يقال إنهم لم يروا خطيباً بَلَديا[3] الاّ وهو فى أوّل تكلّفه بتلك المقامات كان مستثقَلاً مستصلَفاً[4] أيامَ رياضته كلها الى أن يتوقح[5] وتستجيب له المعانى ويتمكن من الألفاظ الا شبيب بن شيبة؛ فانهُ ابتدأ بحلاوة ورشاقة وسهولة وعذوبة؛ فلم يزل يزداد منها حتى صار فى كل موقف يبلغ بقليل الكلام ما لا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره. وقد يطول حتى يقول فيه الراجز :

اذا غدت سعد على شبيبها ... على فتاها وعلى خطيبها
من مطلع الشمس الى مغيبها ... عجبتَ من كثرتها وطيبها

وعرف شبيب أبا جعفر المنصور[6] قبل خلافته ثم اتصل به بعدها. فجعله فى حاشية ولىّ عهده المهدى[7] وبقى كذلك حتى وَلِّىَ المهدى الخلافةَ فصار من

---

(١) بنو منقر بطن من تميم (٢) كان خطيب بنى تميم فى زمنه واشتهر فى بنى أمية وأدرك عصر بنى العباس وسمر للسفاح (٣) أى من أهل الامصار لا من البادية
(٤) من الصلف وهو تجاوز الحدّ فى اظهار الظرف مع العجب والكبر (٥) يقلّ حياؤه ويجرؤ
(٦) هو أمير المؤمنين ابو جعفر عبد الله المنصور بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس
(٧) هو أمير المؤمنين محمد المهدى بن المنصور

خِيرة سُمّاره وجلسائه الى أن مات فى حدود سنة ١٧٠

ومن خطبه القِصار ما عزى به المهدىّ يوم ماتت ابنته البانوقة وجزع عليها جزعاً شديداً . ويقال إنها كانت أبلغ تعزية قيلت فى هذا اليوم وهى :

أعطاك اللهُ يا أميرَ المؤمنين على ما رُزئتَ (١) أجراً . وأعقبك صبراً . ولا اجهدَ اللهُ بلاءَك بنِقمه . ولا نزع منك نِعمه . ثواب الله خيرٌ لك منها ، ورحمةُ الله خيرٌ لها منك . واحقّ ما صبر عليه مالا سبيل الى ردّه !

الكتابة

الكتابة خطية وإنشائية

الكتابة الخطية

تنوّع فى هـذا العصر الخط الكوفى الى أنواع أربت على خمسين نوعا . من أشهرها المحرّر والمشجّر والمربّع والمدوّر والمتداخل ، وبقى مستعملاً فى المبانى والسكة الى حدود الالف ، ثم نسى جملة . وقد جدّدت منه أنواعٌ فى عصرنا

أما تاريخ خطنا المستعمل الآن فحدث فى آخر الدولة الأموية أن استنبط قطبة المحرر من الخط الكوفى والحجازى خطاً هو أساس الخط الذى يكتب بهِ الآنَ ، واخترع القلم الجليل الذى يكتب به على المبانى ونحوها ، وقلم الطُّومار (الورقة الكبيرة) وهو أصغر أنواع الجليل ، وعرض قطته ٢٤ شعرة من شعر ذنب البرْذون ، وحسّن عمله غيرُه من كتّاب صدر الدولة العباسية حتى ظهر ابراهيم الشّجرى وأخوه يوسف من كتّاب أواخر القرن الثانى ؛ فولّد ابراهيم من الجليل قلم الثلثين (أى ثلثى الطومار) وعرض قطته ١٦ شعرة ، وقلم الثلث وعرض قطته ٨ شعرات . وولّد يوسف من

---

(١) أى أصبت

الجليل القلم الرّياسى"[١] وهو قلم التوقيع

وعن ابراهيم أخذ الاحول المحرر (من صنائع البرامكة) ، واخترع قلم النصف وعرضه ١٢ شعرة ، وخفيف الثلث والمُسلسل (هو المشتبك الحروف) وغبار الحَلْبة [٢] والرقاع وغيرها . هذه هى أشهر الخطوط . وقد تولّد منها نحو من ٢٠ خطا يختص كل منها بغرض خاص . واتفقوا على أن طول الالف يُعتبر معياراً لارتفاع بقية الحروف ، وأن يكون طول الالف مربع مقدار قطة القلم

وعن الأحول أخذ مهندس الخط الاعظم الوزير أبو على محمد بن مقْلة وأخوه أبو عبد الله الحسن المتوفى سنة ٣٣٨ ﻫ وهما اللذان تم على أيديهما هندسة خط النسخ والجليل وفروعه على الأشكال التى نعرفها الآن ، وأتمَّا العمل الذى بدأ به قطبة ، فهندسا الحروف وقدَّرا مقاييسها وأبعادها ، وضبطاها ضبطاً محكماً ، واخترعا له القواعد . وعن الوزير ابن مقلة أخذ أبو عبد الله بن أسد القارئ المتوفى سنة ٤١٠ ﻫ وعنه أخذ أبو الحسن علىّ بن هلال البَغدادى المعروف بابن البوَّاب المتوفى سنة ٤١٣ وهو الذى أكمل قواعد الخط واخترع عدّة أقلام ، واليه انتهت الغاية . وكل من جاء بعده فهو تابع لطريقته : كأمين الدين ياقوت الملكى المتوفى سنة ٦١٨ ﻫ كاتب السلطان ملكشاه السلجوقى

أما الأندلسيون والمغاربة فلم يعبئوا بهذا الاصلاح وبقُوا يكتبون على طريقة الخط الحجازى الى الآن بنوع من التعديل

ضبط الحروف بالشكل — قد ذكرنا فيما تقدَّم طريقة أبى الأسود التى اتبعت فى زمن بنى أمية وصدر بنى العباس ، وبقيت مستعملة فى الأندلس الى أواسط القرن الرابع . ولما استكثر الناس من إعجام الحروف لتسهيل التعليم ، اشتبهت نقط الإعجام بنقط الشكل ، مع أن هذه كانت تُلَوَّن بمداد مخالف ، فكان من الصعب وضياع الزمن كتابتُها بمدادين . فاخترع الخليل الشكل المستعمل

---

(١) نسبة الى الفضل ذى الرياستين وزير المأمون (٢) شبه لدقته بغبار حلبة الخيل ويكتب به فى بطائق حمام الزاجل

الآن بأن كتب الضمة واواً صغيرة تكتب فوق الحرف والفتحة ألفاً ، والكسرة ياء ، والشدّة رأس شين [١] ، والسكون رأس خاء [٢] ، وهمزة القطع رأس عين [٣] . ثم اختزل شكلها وزيد عليها حتى آلت إلى الشكل المعروف الآن . وهاك نموذجاً من الخط الكوفى المصحفى مضبوطاً بضبط الخليل وأبى الاسود معاً مرسوماً فيه نقطة الشكل دائرة مفرغة



(١) مختزلة من لفظ (تشديد) (٢) مختزلة من لفظ (تخفيف) (٣) مختزلة من لفظ (قطع)

وقالوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا
غُفْرَانَكَ رَبَّنَاوَالِيكَ الْمَصِيرُ
لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاّ وُسْعَهَا
لَهَا ما كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا ما
اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا
إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخطَأنا رَبَّنَا
وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَما
حَمَلْتَهُ عَلى الَّذِينَ مِن قَبلنا رَبَّنا
وَلاَ تُحَمِّلْنَا مالاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ
واعفُ عَنَّا وَاغفِرْ لَنَا
وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَ نَا
فَانصُرْنَا عَلى الْقَوْمِ الْكافِرِين
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم
الٓمٓ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُو
الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ
عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً

ابن مقلة

هو الوزير أبو عليّ محمد بن علي بن الحسن بن مقلة، امام الخطاطين، وأحد كبار الكتاب البارعين . أخذ الخط عن الأحول المحرّر صنيعة البرامكة، وتم على يديه ويدى أخيه الحسن نقلُ الخط من الكوفيّ الى الشكل المعروف فى زماننا

وكان ابن مقلة يتولّى فى أول أمره بعضَ أعمال فارس ويَجْبى خراجها وتنقلّتْ به الأحوال الى أن استوزره الامام المقتدر بالله سنة ٣١٦، ثم كاد له أعداؤه عنده فقَبَض عليه سنة ٣١٨ ﻫ وصادر أمواله ونفاه الى فارس — ثم وزر للراضى فوشى به أعداؤه عنده فقبض عليه وعُزل وبقي مُعتزلاً الوزارة . ثم أطمعهُ نحسُهُ أن يكيد لابن رائق أمير الأمراء ببغداد عند هذا الخليفة المُسْتضْعَف، فلم يستطع الخليفة كتمان سره وأفشاه الى ابن رائق، فقبض عليه وقطع يده اليمنى . ثم ندم الراضى على ذلك وأمر الأطباء بملازمته الى أن بَرَأَ . وكان يشُدُّ القلم على ساعده ويكتب به . ثم كاد له ابن رائق لما أحس منه مطالبته للوزارة، وكان عاقبة ذلك أن قُطع لسانه أيضاً، وأقام فى الحبس مدّة طويلة قاسى فيها عناءً شديداً ولم يزل به حتى مات سنة ٣٢٨ ﻫ

ومن قوله فى تلك الحوادث :

اذا ما مات بعضك فابك بعضاً فان البعض من بعض قريب

وقوله :

ما سئمتَ الحياة لكن توثَّقــتُ بأيمانهم فبانت يمينى
بعت دينى لهم بدنياى حتى حرمونى دنياهمو بعد دينى
ولقد حُطت ما استطعت بجهدى حفظ أرواحهم فما حفظونى
ليس بعد اليمين لذةُ عيش ياحياتى بانت يمينى فبينى

الكتابة الانشائية

كتابة الرسائل الدّيوانية والإخوانية (١)

كانت كتابة الرسائل فى أوائل حكم بنى العباس جاريةً على نظام كتابتها فى أواخر عهد بنى أميةّ ، سالكةً الطريق التى سلكها عبدُ الحميد وابن المقفَّع والقاسم بن صبيح (٢) وعمارة بن حمزة (٣) ونظراؤهم : من العناية بجعل عبارتها جزلةً بليغة متناسقة الوضع والأسلوب ، لايُقْصد بها إلا إفهامُ المعْنى الجيد بوضوح وبلاغة وقوّة حجة ، غير منظور فيها الى زُخرف اللفظ ومحسّناته . وبقيت كذلك بل زادت حسناً وجمالاً ومراعاةً لمقتضى الحال الى أوائل القرن الرابع . ثم أخذت الصّناعات اللفظية تغلبُ عليها تدريجاً بتضاؤل مَلكة البلاغة فى الكتاب وتقاصُر هممهم عن استيفاء أداتها : لتغلب الأعاجم من الديلم البويهيين (٤) والترك

(١) نسبت الى الجمع من قديم وان كان القياس نسبتها الى المفرد وباب النسب واسع

(٢) أصله من القبط أسلم أبوه صبيح زمن بنى أمية وكتب ابنهُ القاسم لامرائهم ثم كتب للمنصور ، وهو جد احمد بن يوسف وزير المأمون المشهور (٣) من موالى العباسيين ويضرب به المثل فى البلاغة والكبر . كتب وعمل للمنصور والمهدى .

(٤) الدولة الديلمية البويهية من ٣٢٢ — ٤٨٨

أصل أبيهم بويه صياد ورزق السعادة فى أبنائه الثلاثة الذين اقتسموا ملك العراقين العجمى والعربى وفارس والجزيرة ، (واكبرهم) عماد الدولة أبو الحسن على (صاحب بلاد فارس)توفى سنة ٣٣٨ بغير عقب ، ونزل عن ملكه لعضد الدولة ابن أخيه ركن الدولة — (وأوسطهم)

السَّلْجُوقيين [1] على سلطان الخلفاء فى الشرق وتغلب البربر على شمالىّ إفريقية والأندلس فى الغرب ، فلم يَعُدْ فى الملوك والأمراء من يعنيهم أمر العربية وبلاغتها . وما زالت كذلك حتى سقطت الدّولة العباسية على أيدى الاعاجم من التتار [2] ، فكان ذلك عصرَ ابتداء اضمحلال الكتابة واضمحلال اللغة فى الجملة

ويمكن التنويهُ ببعض التغيرات التى طرأت على كتابة الرسائل أوغلبت عليها فى عصر الدولة العباسية بذكر الامور الآتية :

(١) تعدّدأغراض الكتابةوموضوعاتها بتعدد أعمال الدواوين الكثيرة والرسوم الوفيرة التى استُحْدِثَتْ فى الدولة وتضاعفت مراراً عما كانت عليه فى العصر الماضى ، وبما زاد على الرسائل الإخوانية : من استعمالها أواسط هذا العصر فى بعض أغراض الشعر : من الهجاء والمفاخرة كما حدث بين البديع والخُوارزمى وغيرهما

(٢) دقة المعانى واستقصاء جميع جزئياتها وترتيب الأفكار ترتيباً منطقيًّا أو نسْبيًّا [3]

(٣) الغلو فى طرفى الإطناب والإيجاز بحسب مقتضيات الأحوال ؛ فقد كانت الكتب التى تُقْرَأُ على العامة من بيعة أو منشور ، أو أخذ بسياسة ، أو احتجاج لمذهب ، أو تفصيل انتصار جيش ، أو نحو ذلك تكتب بغاية الاسهاب والتبيين

ركن الدولة أبو على الحسن (صاحب عراق العجم) توفى سنة ٣٦٦ وقسم أملاكه على أولاده الثلاثة عضد الدولة فناخسرو ، ومؤيد الدولة بويه ، وفخر الدولة على . فمات مؤيد الدولة قبل فخر الدولة فانضمت الى هذا مملكة أخيه ، ثم مات فخر الدولة وخلفه ابنه مجد الدولة — (واصغرهم) معز الدولة أبو الحسين احمد (صاحب العراق والاهواز المستولى على بغداد) توفى سنة ٣٥٦ وتولى بعده عز الدولة بختيار فاغتصب ملكه منه ابن عمه عضد الدولة وضم اليه اكثر املاك آل بويه والجزيرة فأصبح اكبر ملك فيهم وتوفى سنة ٣٧٢ وملك بعده ابناه صمصام الدولة ثم شرف الدولة ، ثم ابن الاخير بهاء الدولة ، ثم ابن هذا سلطان الدولة ، ثم اخوه مشرف الدولة ، ثم جلال الدولة بن بهاء الدولة ، ثم اضطرب أمرهم وزالت دولتهم .

(١) ينسبون الى جدهم سلجوق وأصلهم من الترك خرجوا على العباسيين فى أواخر دولتهم واستولوا على ممالكهم واستقلوا بها استقلالاً داخلياً

(٢) هم الغزاة الجبابرة الذين خروجوا من صحراء المغول وأغاروا على اكثر ممالك آسيا من الصين وما وراء النهر وخراسان وبلاد العراق وفارس والشام وأزالوا الدولة العباسية سنة ٦٥٦ بقيادة زعيمهم الاكبر هولاكو خان

(٣) كالترتيب بين الاهم والمهم والكل والجزء والمجمل والمفصل

والايضاح تقريراً لها فى أذهان العامة ، وتفخيماً لشأن السلطان وتعظيماً لنعم الله عليه وعلى أهل بيته

وعلى عكس ذلك كانت الكتب التى تصدر عن الخليفة أو الوزير أو الرئيس الى الوُلاة والمرءوسين فى أمر أونهى أو سؤال عن حدث ؛ فقد كان غلوهم فى الايجاز فيها يصل الى درجة الاشارة والرمز ، بل قد يخل بشروط الفصاحة . ومن ذلك التوقيعات [١] التى كان يوقعها الخلفاء والوزراء والرؤساء على الكتب التى تقدم بقصة حال . ومن أمثلة الايجاز كتاب عمرو بن مسعدة [٢] فى توصية (كتابى اليك كتابُ معنيّ بمن كتب له ، واثقٍ بمن كُتِبَ اليه ، ولن يَضيعَ حاملهُ بين الثقة والعناية)

(٤) سهولةُ العبارة وانتقاء ألفاظها وجودةُ رصفها ، فوق ما اتبعه المتأخرون من كتاب العصر الماضى

(٥) شيوع السجع القصير الفقرات غالباً . والوَلوع بالمحسنات اللفظية كالجناس والطباق والتلميح وحل الأبيات السائرة وضرب المثل ، والتلميح اليه ، وتضمين الاحاديث النبوية ، والحكم المأثورة أو الاشارة اليها ، والاقتباس من كلام البلغاء وتضمين الأفذاذ من أبيات الشعر ، الا أن كل ذلك لم يكن ملتزماً فى القرنين الأوّلين من عمر الدولة ، وانما كاد يُلتزم بقيةَ أزمانها وخاصة وقت هَرمها ، فغلب السجع على كل الرسائل حتى كتب الفنون . ثم طالت فقراته ، وتنوّعت أقسامه ، وأصبحت التورية محك البراعة بين الأدباء والكتاب . ولم يزل أهل الأندلس وشمالىّ إفريقية فى ذلك غلوّ أهل المشرق

(٦) زيادة أنواع البدء والختام فى الرسائل ، فزاد العباسيون فى الصورة العامة المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه صيغة الصلاة والسلام عليه بعد التحميد وتَلَقّبَ خليفتُهم فيها بالامام ، وتكني بأبى فلان . واتبعوا أيضاً صورة ابتداء عبد الحميد . وهى بعد البسملة :

---

(١) جمع توقيع وهو ان يعلق ذو الامر اسفل كتاب رفع اليه بما يراه ، بعبارة موجزة تؤثر عنه (٢) هو أحد وزراء المأمون ومن أبلغ كتاب الايجاز

(أما بعد فالحمد لله) ويكرر الحمد أو يفرد ، وقد يحذفون (أما بعد) ويبتدئون بصيغة (الحمد لله الخ)

ومن الصّيغ التى يُعْزَى اختراعُها أو مبدأ شُيوعها للعصر العباسى البُدَاءَةُ بالدعاء إما بتقديم (أما بعد) أو بغيرها ؛ وأكثر مايكون ذلك فى الرسائل الاخوانية

ومن أمثلة الدُّعاء (أدام الله نعمته عليك . وأيدك بروح من عنده . وأطال الله بقاءَ المولى أو الشيخ [1] أو الاستاذ الخ)

ومن الصور التى كانت تستعمل أيضاً :

(كتابى اليك) ويردفونه بما يناسب من دعاء أو ثناء أو وصف . ثم صاروا يخاطبون الخلفاءَ والسلاطينَ بالدّعاء لهم أو لديوانهم [2] أو لحضرتهم أو لمجلسهم أو لمقرِّهم

وكانت صور الاختتام لا تقل عن صور الافتتاح ، فقد كان بلفظ (والسلام) أو (والسلام عليكَ ورحمة الله وبركاته) ثم استعمل فى الختام (ان شاء الله) بعد الدعاء أو غيره . وقد يكون بحمدلة وصلاة وسلام . وذلك فى الكتب السلطانية ، وقد يزاد عليها الحسبلة

(٧) زيادة الرسوم فى الألقاب والدّعاء وتخصيص كل ذى مرتبة بلقب أو دعاء بما يشعر بتعظيم الملوك والأمراء وتفخيمهم والتهويل بشأنهم . وذاع ذلك أواخر هذا العصر

(٨) اختراع المقدّمات فى أوائل الرسائل المطولة والعهود والمنشورات

وجملة القول أن الكتابة فى هذا العصر عامةً ، وفى صدره خاصةً ، كانت أرقى ما وصل اليه الانشاء العربى

---

(١) شاع استعمال لفظ « الشيخ » أو « الاستاذ » أو « الرئيس » فى النصف الثانى من حياة الدولة لرؤساء الكتاب والوزراء فى الدولتين السامانية والبويهية

(٢) شاع الدعاء للديوان العزيز (أى ديوان الانشاء) وللحضرة وللمقر وللمجلس أواخر الدولة

نماذج من الرسائل والتوقيعات والمقامات (١)

كتب أحمد بن يوسف وزير المأمون يهنئ بمولود :

أما بعدُ فليس من أمرٍ يجعلُ اللهُ لك فيه سروراً الاَّ كنتُ به بَهِجاً ، أعتدّ فيه بالنعمة من الله الذى أوجب علىّ من حقك ، وعرّفنى من جميل رأيك ، فزادك اللهُ خيراً ، وأدام إحسانه اليك . وقد بلغنى أن الله وهب لك غلاماً سَرِيًّا ، أجملَ صورته ، وأتمَّ خَلْقه ، وأحسنَ فيه البلاءَ عندك ، فاشتدّ سرورى بذلك ، وأكثرتُ حمد الله عليه ، فبارك الله فيه ، وجعله بارًّا تقيًّا ، يشُدّ عَضُدَك ، ويكثر عدَدَك ، ويُقِرّ عينك

وكتب عَمرو بن مَسعَدة الى المأمون فى رجل يستشفع له بالزيادة فى منزلته عنده وجعل كتابه تعريضاً لنفسه :

أما بعدُ فقــد استشفع بى فلان (يا أمير المؤمنين) لِتطوُّلك علىَّ فى إلحاقه بنُظرائه من الخاصّة فيما يرتزِقون ، وأعلمْته أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفعين ، وفى ابتدائه بذلك تعدّى طاعتهِ والسلام — فوقع المأمون :

قد عرفنا تصريحك له وتعريضك لنفسك وأجَبْناك اليهما ، ووقفْناك عليهما

ووقع أيضاً الى رجل من أوليائه فى أمر تظلم فيه : من علامات الشريف أن يظلم من فوقه ، ويظلمه من دونه ، فأى الرجلين أنت

ومن توقيعات جعفر بن يحيى البرمكى فِي قصة مُتنصِّح : بعض الصدق قبيح (أى فى الوشاية) . ووقع أيضاً فى قصة مُستمْنِحْ قدكان وصله مِراراً : دَعِ الضَّرع يدُرّ لغيرك كما درّ لك

ومن مقامات بديع الزمان الهمذانى المقامة العلمية وهى :

حدثنا عيسى بن هشام قال كنت فى بعض مطارح الغربة مجتازاً ، فاذا أنا برجل يقول لآخر : بم أدركت العلم ؟ — وهو يجيبه — قال : طلبته فوجدته بعيد المرام ،

---

(١) جمع مقامة وهى قصة خيالية ذات مغزى أدبى تكتب بعبارة يكثر فيه الغريب والسجع والمحسنات البديعية لقصد حفظ اللغة وأساليبها

لا يُصطاد بالسهام ، ولا يُقسَم بالأزلام [1] ، ولا يرى فى المنام ، ولا يُضبط باللجام ، ولا يورث عن الاعمام ، ولا يُستعار من الكرام ، فتوسلت اليه بافتراش المَدَر [2] ، واستناد الحجر ، ورد الضجر ، وركوب الخطر ، وإدمان السهر ، واصطحاب السفر ، وكثرة النظر ، وإعمال الفكر ، فوجدته شيئاً لا يصلح الاَّ للغرْس ، ولا يُغرس الاَّ فى النفس ، وصيداً لا يقع الاَّ فى الندْر [3] ، ولا ينشَب الاَّ فى الصدر ، وطائراً لايخدعه الاَّ قنْصُ اللفظ ، ولا يَعلَقُه الا شرك الحفظ ، فحملته على الروح ؛ وحبسته على العين وأنفقت من العيش ، وخزنت فى القلب ، وحرّرْت بالدرس واسترحت من النظر الى التحقيق ، ومن التحقيق إلى التعليق ، واستعنت فى ذلك بالتوفيق. فسمعت من الكلام ما فتق السمع ، ووصل الى القلب ، وتغلغل فى الصدر . فقلت يافتى ومن أين مطلع هذه الشمس ؟ فجعل يقول :

اسكندرية دارى — لو قرّ فيها قرارى
لكنّ بالشام ليلى — وبالعراق نهارى

وكتب أبو محمد القاسم بن على الحريرىّ فصلاً من المقامة البغدادية على لسان عجوز تستمنح :

اعلموا يا مآل الآمل ، وثِمال [4] الأرامل [5] ، أنى من سَرَوات [6] القبائل ، وسَريَّات [7] العقائل [8] . لم يزل أهلى وبعلى يحُلون الصدْر ، ويسيرون القلب ، ويُمْطون الظهر ، ويُولُون اليد . فلما أرْدَى الدهر الأعْضاد [9] وفجَع بالجوارح [10] الأكْباد ، وانقلب ظهراً لبطن ، نبا الناظر ، وجفا الحاجب ، وذهبَتِ العيْن ، وفقدت الراحة ، وصَلَد [11] الزّند ، ووَهنتِ اليمين ، وضاع اليسار ، وبانت المرافق ، ولم يبق لنا ثنيّة [12] ولا ناب [13] فمذ اغبر العيش الأخضر ، وازورّ [14] المحبوب الأصفر [15]

---

(١) جمع زلم كجبل : سهام كانوا يستقسمون بها فى الجاهلية (٢) الطين اليابس (٣) النادر (٤) من يعول عليه (٥) المساكين من رجال ونساء (٦) سادات (٧) رفيعات القدر (٨) الكرائم (٩) يريد الاعوان (١٠) الاعضاء والمراد الاولاد والخدم (١١) لم يور ناراً (١٢) فتية من النوق (١٣) الجمل المسن (١٤) مال وانقبض (١٥) أى الدينار

اسودّ يومى الأبيض ، وابيضّ فَوْدى[1] الأسود ، حتى رثى لى العدو الأزرق ، فحبذا الموت الأحمر

الكتّاب

كان أكثر كتاب المشرق فى هذا العصر من سلائل فارسيّة أو سَواديّة[2] وقد بلغوا بحذقهم سياسةَ الملك ونبوغهم فى البلاغة أن ارتَقَوْا عند خلفاء العباسيين الى مرتبة الوزارة التى لم تكن معروفة قبلهم فى الاسلام ، وأوّل كاتب منهم ارتقى اليها هو أبو سلمةَ الخلاّلُ . وأشهرُ من بلغ نفوذُه وسلطانُه مبلغاً زاحم فيه الخليفةَ وأصبح المُلْكُ فى قبضته يحيى بن خالد بن برمك[3] وابناه جعفرٌ والفضلُ ، ثم محمد ابن الزيات فى زمن المعتصم والواثق . وكان كتابُ الاندلس والمغرب أكثرهم من سلائل عربية . وكانت الحجابة فى الاندلس أرقى من رتبة الوزارة . والوزير عندهم يطلق على قرينِ الخليفةِ ومستشارِه الخاص ، فاذا تولى مرتبة الكتابة والادارة للدولة سمّى ذا الوزارتين

ومن أشهر كُتاب هذا العصر فى الشرق ابن المقفَّع ، ويحيى بن خالد بن برمك وابناه : جعفر والفضل ، واسماعيل بن صبيح[4] ، وعمرو بن مسعدة ، واحمد بن يوسف وابن الزيات[5] ، والحسن بن وهب[6] ، وعلى بن الفرات[7] ، وابن مقلة ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، وأبو بكر الخوارزمى ، والبديع ، والصابى[8] والعماد الكاتب[9] والقاضى الفاضل

---

(١) الفود جانب الرأس (٢) أهل السواد عندهم سكان الفرات من سلائل البابليين والاشوريين وربما سموهم نبطاً .

(٣) كان من أكبر بطانة المهدى ومربياً لولده الرشيد ثم صار وزيراً ومدبراً لدولة الرشيد ثم وزر للرشيد ابناه الفضل فجعفر فأما جعفر فقتله الرشيد سنة ١٨٧ وأما يحيي وابنه الفضل فماتا فى سجن الرشيد (٤) كان وزيراً للرشيد بعد جعفر (٥) هو محمد بن عبد الملك الزيات كان كاتبا شاعراً داهيا جباراً وزر للمعتصم والواثق والمتوكل وقتله المتوكل سنة ٢٣٣

(٦) كان صاحب ديوان الرسائل للمتوكل (٧) كان وزيراً للمقتدر (٨) كان صاحب ديوان الرسائل ببغداد زمن عز الدولة بن بويه وهو من كتاب الاطناب (٩) كان كاتبا لنور الدين بن زنكى صاحب الجزيرة وحلب ثم صار من رؤساء الكتاب عند صلاح الدين الايوبى

ومن أشهر كتابه فى الاندلس ابنُ شُهَيد [1] ، وأبو المُطرِّف بن عميرة [2] ، وابن زيدون ، ولسان الدين بن الخطيب

ابن المقفع

هو محمد بن عبد الله بن المُقفَّع أحد فحول البلاغة وثانى اثنين مَهّدا للناس طريق الترسُّل ، ورفعا لهم معالمَ صناعة الانشاء ، أولُهما عبد الحميد

منشؤه وعمله — كان ابن المقفّع من أبناء الفرس الناشئين بين أحياء العرب . فكان أبوه داذَوَيْهِ المقفَّع يَعملُ فى جباية الخراج لوُلاة العراق من قِبل بنى أمية ، وهو على دين المجوسية وَوُلد له ابنهُ هـذا حوالىْ سنة ١٠٦ هـ وسماه (رَوْزَبَة) فنشأ بالبَصرة ، وهى يومئذٍ حَلْبة العرب [3] ومجمع الفقهاء والرواة والمُحدثين وأصحابِ اللغة ، وحاضرة البر والبحر ، وقرارةُ المِربَد [4] مُنْتَدَى البلغاء والخطباء والشعراء ، فكان لكل ذلك فوق ذكائه المُفرِط وتأديبِ أبيه وأخذه له بتعليم الفارسية وصِناعة الكتابة أعظمُ أثر فى تربيته وتهيئته لأن يصير من أكبر كتاب العربية وعُلمائِها وأدبائِها والمترجمين اليها

ولما ذاع فضلُه استكتبه فى عصر بنى أمية داود [5] بن يوسفَ بنِ عُمَرَ بنِ هُبَيْرَة . ثم كتب فى عصر بنى العباس لعيسى بن على عمّ الخليفة أبى جعفر المنصور العباسى أيام ولايته على كِرْمانَ . وعلى يديه أسلم بمحضر من الناس وتسمَّى (عبدَ الله) وتكنى بأبى محمد بدل أبى عمرو . ثم ألزمه أخوه اسماعيل بن على بعض بنيه ليؤدِّبه ، ثم كان آخر أمره فى خدمة أخيهما سليمان بن علي أيامَ ولايته على البصرة . ويظهر أنه اتصل أثناءَ ذلك بأبى جعفر المنصور اتصالَ معرفة لا اتصال خدمة ، فترجم له كثيراً من الكتب الفارسية واليونانية المنقولةِ قديماً الى الفارسية . و بقِى فى خدمة

---

(١) كان وزيراً للخليفة الناصر الأموى الاندلسى (٢) كان من كتاب ملوك الطوائف والبربر بالاندلس (٣) الحلبة جماعة الخيل للسباق ، وتستعمل مجازاً فى الطائفة من عظماء الرجال

(٤) مكان كان بطرف البصرة على طريق القادم من البادية يجتمع فيه فصحاء عرب البصرة يخطبون ويتناشدون وهو الذى خلف عكاظ فى الجاهلية (٥) أحد ولاة بنى أمية على العراق

أعمام الخليفة بقية عمره حتى قُتل بالبصرة سنة ١٤٢ قتله سفيان بن معاوية والى البصرة بعد عزل سليمان لضغينة عليه ولاتهامه بالزندقة والكَيْدِ للاسلام بترجمة كتب الزنادقة الى العربية . وكانت هذه التهمةُ مما جعل الخليفة يُهمل تحقيق مقتله عند ماشكا عماه عيسى وسليمان الوالىَ القاتلَ اليه ، لا كما يقال من أن الخليفة أمر الوالى بقتله انتقاماً منه لكتابته صورةَ أمان يؤخذُ على الخليفة لاحد أعمامه الخارجين (١) وإحراجه فيه بالايمان المغلظة اذ أن ذلك مما يجلُّ عنهُ مقامُ أبي جعفر

أخلاقه و بلاغته — كان نادرة فى الذكاء غاية فى جمع علوم اللغة والحكمة وتاريخ الفرس ، متأدباً متعففاً قليل الاختلاط الا بمن على شاكلته ، كثير الوفاء لاصحابه.

وكان أمةً فى البلاغة ورصانة القول وشرف المعانى الى بيانِ غرضٍ ، وسُهولة لفظٍ ، ورَشاقةِ أسلوبٍ. ولا توصَفُ بلاغته بأحسنَ مما وصف هو البلاغةَ حيث يقول « البلاغة هى التى اذا سمِعها الجاهل ظن أنه يحسنُ مثلَها » وكان يرى أن التتبع لغريب الكلام طمعاً فى نيل البلاغة هو العِيُّ الأكبرُ : وينصحُ للكتَّاب باتباع ما سهل من الألفاظ مع التجنب لالفاظ السِّفلة . وقد ذاعت طريقة ابن المقفّع وعبدِ الحميد فى توخى السهولة وسلامة التعبير مع العناية باجادة المعنى بين الكتَّاب من أهل زمانهما ومن بعدَهما ؛ وانما صعبت عبارةُ ابن المقفع فى الأدبين الصغير والكبير ونحوهما لأنه ساقها مساقَ الفلسفة ويغلب على أساليبه فيهما القياسُ المنطقىُّ وأفكار الفلاسفة الدقيقة التى قلما تظهر للقارىء الاّ بعد الكد . ويمتاز عبدالحميد — وان لم يكن ابن المقفع دونه فى البلاغة — بما تسني له من وضع الأنظمة للرسائل الديوانية

---

(١) هو عبدالله بن على خرج على المنصور بالشام والجزيرة فسير عليه أبا مسلم الخراسانى فهزم جموعه وفر عبدالله الى البصره محتميا بأخويه اسماعيل وسليمان فطلبه المنصور منهما فلم يجيباه الاّ بأمان لعبد الله يمليان شروطه فقبل ذلك المنصور فأمرا ابن المقفع كاتبهما أن يحرر أمانا يتصعب فى شروطه فكان مما كتب (ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله فنساؤه طوالق ودوابه حبس وعبيده احرار والمسلمون فى حل من بيعته) فاشتدّ ذلك عليه وخاصة أمر البيعة ، وحقدها على ابن المقفع فيقال انه أوعز الي سفيان والى البصرة بقتله خفية . فزاره ابن المقفع يوما لأمر فقتله وأحرقه وذرّى رماده

وتنسيق صور لها ، لانه أتيح لعبد الحميد ما لم يتح لابن المقفع من رياسة الكتابة في دواوين الخلافة ويمتاز ابن المقفع بعلمه وترجمته لكثير من الكتب الفلسفية والأدبية

نقد ترجم ابنُ المقفع كتباً عِدَّة من الفارسية الى العربية من أشهرها كتاب كليلةَ ودِمْنَة [1] . وله في الأدب كتابُ الأدب الصغير والأدب الكبير وكتابُ الدرَّة اليتيمة وهي لا تزال مكنونة في طيّ الخفاء ، وانما طبع الأدب الكبير معنوناً باسمها خطأ ثم طبع في مصر مسمى باسمه الحقيقي . وهاك نموذجا من قصار رسائله

قال في السلامة — (أما بعد) فقد أتاني كتابُك فيما أخبرتنا عنه من صلاحك وصلاح من قِبلَك . وفي الذي ذكرت من ذلك نعمةٌ مجالَّةٌ عظيمة ، يُحْمد عليها وليها المنعم المتفضّل المحمود . ونسأله أن يلهمَنا وإياك من شكره وذكره ما به مزيدها وتأديةُ حقها

وسألت أن أكتبَ اليك بخبرنا ، ونحن من عافية الله وكفايته ودفاعه على حال لو أطنبتُ في ذكرها لم يكن في ذلك إحصاءٌ للنعمة ولا اعترافٌ بِكُنه الحق . فنرغب للذي تزدادُ نِعَمُهُ علينا في كل يوم وليلة تظاهُراً ألاّ يجعل شكرَنا منقوصاً ولا مدخولاً [2] ، وأن يرزقَنا من كل نعمة كِفاءَها [3] من المعرفة بفضله فيها والعمل في أداء حقِّها انه وليّ قدير

---

(١) المشهور أن ابن المقفع ترجم هذا الكتاب من الترجمة الفارسية الفهلوية عن الهندية ويرى بعض أهل الادب من المتقدمين وكثير من ادباء الافرنج المستعربين أنه من وضعه وأنه نحله الهند القدماء لترغيب قراء زمانه في مطالعة كتب الحكمة والفلسفة التي لم يكونوا يأبهون لها الا اذا اسندت الى القدماء ونحن نتابع اصحاب هذا الرأي ولنا ولهم في ذلك ادلة كثيرة يضيق المقام من ذكرها

(٢) أى دخله شيء من الرياء ونحوه (٣) أى جزاءها

ابراهيم الصُّولى

هو أبو اسحاق ابراهيم بن العباس بن محمد بن صُول (١) كاتب العراق وأشعر أصحاب المقطعات . نشأ ببغداد فى بيت كتابة وبلاغة ، فتلقى العلم والأدب عن أهله وأئمة زمانه ، واشتغل بالشعر فى حداثته ، فبرع فيه ، وتكسَّبَ به . ورحل الى العُمَّال والأمراء يمدحُهم ويستميح جَدْواهم . ثم قصد الفَضلَ بن سهل وزير المأمون أيام مُقامه معه بخراسان (٢) ومدحه ومدح على بن موسى الرضا العلوى الذى جعله المأمون بمساعى الفضل ولىّ عهده ، فوهب له علىّ عشرة آلاف درهم . وجعله الفضل كاتباً لأحد قواده . وبعد أن قُتل الفضل وُشِىَ به الى المامون، فوجد عليه ثم عفاعنه

وبقى يتنقل فى أعمال النواحي والدواوين حتى كان زَمن الواثق عاملاً على الاهواز (٣) فتحامل عليه وزيرُه ابنُ الزيات (وكان قبل صديقاً له) فعزله وسجنه بها . فكتب اليه كتباً بليغةً وقصائد كثيرة يستعطفه بها ، فلم يزدْ بذلك إلاَّ جفاء وغلظة . ثم اطَّلع الواثق على ذلك فأطلقه . وتولى ديوان الضِّياع والنفقات فى خلافة المتوكل . وكانت بلاغتُهُ وظَرفه يستُران ضعفه فى عمله لقلة بضاعته فى الحساب . ولم يعقْه عن تقلد الوزارة إلاَّ اشتهارُه بالخلاعة . ومات بِسرُّ مَنْ رأى سنة ٢٤٣ ﻫ وعمره سبعون سنة

كتابته

وكان ابراهيم أحد كتاب الدنيا فى زمانه ويُلقّبُ بكاتب العراق

وكانت معانيه التى يستخدمها فى كتابته كلُّها مبتكرة . وباعتماده على نفسه واختراعه للمعانى صار كلامه قدوة لغيره ، حتى ضارع الامثال فى الشهرة نثراً ونظما. وهو أحد الذين راعَوْا الازدواج فى فقرات الكتابة ، فاقتدى بهم غيرُهم ، وأحد الذين اشتهروا فى التعازى

---

(١) كان صول هذا وأخوه فيروز ملكى جرجان وهما من الترك تمجسا وتشبها بالفرس ثم اسلما على يد يزيد بن المهلب بن أبى صفرة فاتح جرجان زمن بنى امية ، فلما قتل يزيد دخل ابنا صول محمد وسعيد فى الدعوة العباسية وتعلم أولاد سعيد الكتابة (٢) أقام المأمون بخراسانه مدة ولايته عليها زمن الامين كله ومدة محاربته له ، ثم بعد قتله واول الخلافة اليه بقى بها حتى خلعه أهل بغداد وولوا ابراهيم بن المهدى خليفة فرجع الى بغداد وفر ابراهيم

(٣) اقليم شرق البصرة

ومن رسائله تعزية على لسان المنتصر بالله الى طاهر بن عبد الله مولى أمير المؤمنين

(أما بعد) تولى الله توفيقَك وحياطتَك . وما يرتضيه منك ويرضاه عنك . إن أفضل النّعم نعمةٌ تُلُقّيتْ بحق الله فيها من الشكر . وأوفر حادثة ثواباً حادثةٌ أُدّى حقُّ الله فيها من الرضا والتسليم والصبر . ومثلُك من قدَّم ما يجب لله عليه فى نِعْمةٍ فشكرها ، وفى مصيبةٍ فأطاعه فيها . وقد قضى الله سبحانه وتعالى فى محمد ابن اسحاق مولى أمير المؤمنين (عفا الله عنه) قضاءَه السابقَ والموقعَ • وفى ثواب الله ورضا أمير المؤمنين (أدام الله عزه) وتقديم ما يقدّمُ مثلَه أهلُ الحجا والفهم ما اعتاضه معتاضٌ وقدّمه موفق • فليكن اللهُ (عزّ وجل) وما أطعته به وقدَّمت حقَّه فيه أولَى بك فى الأمور كلها ؛ فانك إن تتقربْ اليه فى المكروه بطاعته يحْسن ولايتك فى توفيقك لشكر نعمه عندك

ومن رسائله القصار على لسان المتوكل لاهل حمص الخارجين عليه • وهى من الرسائل التى أغنت عن الجيوش :

أما بعد فان أميرَ المؤمنين يَرَى من حق الله عليه ممَّا قوَّم به من أوَدٍ ، وعدّل به من زَيغ ، ولمّ به من مُنتَشِر ، استعمالَ ثلاثٍ يُقَدّمُ بعضَهن على بعض ، أولاهن ما يتقدَّم به من تنبيهٍ وتوقيف ، ثم ما يستظهر به من تحذير وتخويف ، ثم التى لا يقع بحسم الداء غيرُها

أناة فان لم تُغن عقّب بعدها وعيداً فان لم يُغنِ أغنتْ عزائمُه

ابن العميد

هو الاستاذ الرئيس الوزيرُ أبو الفضل محمدُ بنُ الحسينِ العميد كاتبُ المشرق ، وعمادُ ملك آل بُوَيْهِ وصدرُ وزرائهم

وهو فارسى الأصل من أهل مدينة (قُمّ) (١) كان أبوه كاتباً مترسلاً بليغاً

(١) بلد بفارس

من كبار كُتّاب الدولة السامانية [1] فنشأ ابنهُ مُولَعاً بمعرفة العلوم العقلية واللسانية، فبرّع فى علوم الحكمة والنجوم، ونبغ فى الأدب والكتابة حتى قيل فيه :(بُدئت الكتابة بعبد الحميد وخُتِمتْ بابنِ العميد) ثم رحل عن أبيه الى آل بويهِ، وتقلد شريف الاعمال فى دولتهم الى أن تولى وزارة ركن الدولة [2] سنة ٣٢٨ فساس دولتَه ووطد أركانها، وتشبه بالبرامكة ففتح بابه للعلماء والفلاسفة والشعراء والادباء وكان يشاركُهم فى كل ما يعلمون إلا الفقه. وما زال فى وزارته محَطَّ الرّحال وكعبةَ الآمال، حتى توفاه الله سنة ٣٦٠ هـ

كتابته

وكان ابن العميد أوّل من فتح بابَ الوَلوع بالرسائل البديعية، متوخياً فيها السجع القصير الفقرات، مقتبساً من القرآن الكريم بعض الآيات، ومن السُنّة بعض الأحاديث المأثورة، مشيراً الى الحوادث المشهورة، ناثراً فيها الأبيات الحكيمة، مؤْثراً بعض الحلية اللفظية: كالجناس والمطابقة، مضمناً الأمثال السائرة. وحاكاهُ فى طريقته هذه فحولُ معاصريه، فأصبح عميد رُفقتهم وضَلِيع حَلبتهم ؛ وكلهم كارع

(١) هى من الدول التى استقلت فى أواسط الدولة العباسية استقلالاً داخلياً وكانت تملك أواسط آسيا، ومقرها بخارى وماوراء النهر، وهم من سلالة الاكاسرة

أمراء الدولة السامانية

الأمير	المدة	الأمير	المدة
نصر بن احمد الساماني	(٢٦١ ـ ٢٧٩)	عبد الملك بن نوح	(٣٤٣ ـ ٣٥٠)
اسمعيل بن احمد الساماني	(٢٧٩ ـ ٢٩٥)	منصور بن نوح	(٣٥٠ ـ ٣٦٦)
احمد بن اسمعيل »	(٢٩٥ ـ ٣٠١)	نوح بن منصور	(٣٦٦ ـ ٣٨٧)
نصر بن احمد	(٣٠١ ـ ٣٣١)	منصور بن نوح	(٣٨٧ ـ ٣٨٩)
نوح بن نصر	(٣٣١ ـ ٣٤٣)	عبد الملك بن نوح	ثمانية اشهر

بقية خلفاء العباسيين

الخليفة	المدة	الخليفة	المدة
عبدالله المستكفى بالله	(٣٣٣ ـ ٣٣٤)	المنصور الراشد بالله	(٥٢٩ ـ ٥٣٠)
القاسم المطيع لله	(٣٣٤ ـ ٣٦٣)	محمد المقتفى لامر الله	(٥٣٠ ـ ٥٥٥)
أبو بكر الطائع لله	(٣٦٣ ـ ٣٨١)	يوسف المستنجد بالله	(٥٥٥ ـ ٥٦٦)
احمد القادر بالله	(٣٨١ ـ ٤٢٢)	حسن المستضىء بأمر الله	(٥٦٦ ـ ٥٧٥)
عبدالله القائم بأمر الله	(٤٢٢ ـ ٤٦٧)	احمد الناصر لدين الله	(٥٧٥ ـ ٦٢٢)
عبدالله المقتدى بأمر الله	(٤٦٧ ـ ٤٨٧)	محمد الظاهر بأمر الله	(٦٢٢ ـ ٦٢٣)
احمد المستظهر بالله	(٤٨٧ ـ ٥١٢)	منصور المستنصر بالله	(٦٢٣ ـ ٦٤٠)
فضل المسترشد بالله	(٥١٢ ـ ٥٢٩)	عبدالله المستعصم بالله	(٦٤٠ ـ ٦٥٦)

(٢) ركن الدولة هو أبو على بن بويه والد عضد الدولة المشهور

من حياضه ، قاطف من رياضه ، ان لم يكن بالاقتباس منه فبالمشاكهة له ، وان كان هو أقلهم التزاماً للمسجوع ، وأقربهم الى المطبوع

ومن رسائله إلى عبد الله الطبرى :

كتابى إليك وأنا بحال لولم ينغّصها الشوقُ اليك ، ولم يُرَنِّق[1] صفوها التزوع نحوك ، لعددتها من الاحوال الجميلة . وأعددت حظى منها فى النعم الجليلة . فقد جمعتُ فيها بين سلامة عامة ، ونعمة تامة ، وحظيت منها فى جسمى بصلاح ، وفى سعيى بنجاح . لكن ما بقى أن يصفو لى عيش مع بعدى عنك ، ويخلوَ ذرعى[2] مع خلوِّى منك ، ويسوغَ لى مطعم ومشرب مع انفرادى دونك ، وكيف أطمع فى ذلك وأنت جزء من نفسى ، وناظم لشمل أنسى ، وقد حُرمت رؤيتك ، وعدمت مشاهدتك وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام[3] وينفع أنس بيت بلا نظام[4] . وقد قرأت كتابك جعلنى الله فداءك فامتلأت سروراً بملاحظة خطك ، وتأمل تصرفك فى لفظك . وما أقرظهما ؛ فكل خصالك مقرظ عندى ، وما أمدحهما ؛ فكل أمرك ممدوح فى ضميرى وعَقْدى[5] . وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديرى فيك ، فان كان كذلك[6] وإلا فقد غطى هواك وما ألقى على بصرى

الصاحب بن عبّاد

هو كافى الكفاة أبو القاسم اسمعيل الصاحبُ بن عبَّاد وزير آل بُوَيهِ وكاتبهم وأحدُ المُذيعين للسجع والجناس

ولد سنة ٣٢٦ ه بطالَقَان قزْوين . وكان أبوه من خيرة كُتّاب دولة بنى بُويه ووزرائهم . تعلَّمَ العلمَ والأدبَ والكتابةَ من أبيه ، ثم اتصل بابن العَميد ، فلزِم صُحْبَتَهُ وأخذ عنه الأدب ، وتولّى له كتابة خاصّته . ثم تنقلت به الأحوال فى خدمة

(١) يكدر (٢) الذرع : الخلق — أى لايتسع خلق وصدرى مع خلوى منك (٣) أى شطرها عندى وشطرها عندك (٤) أى انك أنت نظامه وقد غبت عنه ففاته النظام

(٥) أى اعتقادى (٦) أى فهو ما أرجوه — وكثيراً ما يحذفون الجواب فى مثل هذا المقام

ملوك بنى بُوَيه ، فكان وزيراً لِمؤيِّد الدولة ، ثم لأخيه فخر الدولة ، وله فى ملكهما اليدُ المطلقةُ والامر النافذ حتى مات سنة ٣٨٥ هـ . وكان مجلسه على تِيهه وعُجْبه بنفسه آخرَ مجالس لوزير جمع بين العُلماء والقرّاء والكتّاب والمصنِّفين والمتكلمين والشيعة ، ولهم منه حظ موفور ، وله منهم لسان شكور

كتابته

ويُعَدّ ابن عباد فى الكتابة ثانىَ ابن العميد فى حَلْبَتِهِ وأبلغ من سلك طريقته غيرَ أنه أولعَ بالسجع والجناس ، ولا يُعرَف بعدهما من بلغ بشرف العلم والأدب مبلغهما ولا حلّ من شرف الملك والسلطان بمهنة الكتابة منزلتهما

وهو فى العلم من كبار المصنِّفين . ومن أعظم مصنّفاته الكثيرة كتابه (المحيط) فى اللغة فى سبع مجلَّدات أو عشر

ومن رسائله ما كتب به الى بعض السادة وقد أهدى الى ابن عَباد مُصْحَفاً :
البِرُّ « أدام الله الشيخ » أنواعٌ ، تَطُولُ به أبواعٌ [1] وتقصر عنه أبواعٌ ، فان يكنْ فيها ما هو أكرمُ منصباً ، وأشرف منسِباً فتحفة الشيخ ، إذ أهدى ما لا تشاكله النعمُ ، ولا تعادِله القيمُ : كتابَ الله وبيانَه ، وكلامَهُ وفُرقانَه ، ووحيهُ وتنزيلَهُ ، وهداه وسبيلَه ، ومعجزَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ودليلَهُ ، طَبَعَ [2] دون معارضته على الشفاه . وختم على الخواطر والأفواه ، فقصر عنه الثّقلان ، وبقِيَ ما بقِيَ المَلَوَان . لائحٌ سراجهُ ، واضح مِنْهاجهُ ، منيرٌ دليلهُ ، عميقٌ تأويلهُ ، يقصِمُ كلَّ شيطان مَريد ، ويُذِلُّ كلَّ جبار عنيد ، وفضائلُ القرآنِ ، لا تحصى فى ألف قرآن [3] ، فأصف الخط الذى بهر الطرْفَ ، وفاق الوصفَ ، وجمع صحةَ الاقسام [4] ، وزاد فى نَخْوة الاقلام ، بل أصفه بترك الوصف فأخباره آثاره ، وعينهُ فُراره [5] ، وحقاً أقولُ انى لا أحسَبُ أحداً ما خلا الملوك جمع من المصاحف ما جمعت ، وابتدع

---

(١) جمع باع (٢) ختم بالطابع أى لا يعارض (٣) القرءان الثانية بمعنى الجمع أى ان فضائله لاتحصى فى الف كتاب جامع (٤) أى الاجزاء أي لسبة أجزاء الحروف (٥) مصدر فر عن الامر بحث عنه و (عينه فراره) مثل يضرب لمن يدل ظاهره على باطنه

فى استكتابها ما ابتدعت ، وان هـذا المصحف لزائد عن جميعها زيادةَ الفَرْع على الغُرَّة ، بل زيادةَ الحج على العُمرة

أبو بكر الخُوَارزْمى

هو أبو بكر محمدُ بنُ العباس الخُوَارَزْمِىّ الكاتب الشاعر اللغوى الأديب الرحّالة فخرُ خُوارَزْم وصاحب الرسائل المشهورة

وُلد بخوارزم [1] ونشأ بها ، وكان ضليعاً فى كل فن من فنون العربية وخاصةً الكتابة والشعر . جاب الاقطار ، ودخل الامصار ، من الشام الى أقصى خراسان ، فى استفادة العلم والادب وافادتهما . وكان كثيرَ الحفظ للشعر غزير مادة اللغة . قيل انه قصد حضرة الصاحب بن عبّاد وهو بأَرّجان فلما وصل الى بابه قال لأحد حجابه قل للصاحب على الباب أحد الادباء وهو يستأذن فى الدخول . فدخل الحاجب وأعلمه ، فقال الصاحب : قل له قد ألزمت نفسى ألاّ يدخل علىّ من الادباء الاّ من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب ، فخرج اليه الحاجب وأعلمه بذلك : فقال له أبو بكر ارجع اليه وقل له هذا القدر من شعر الرجال أم شعر النساء ؟ فدخل الحاجب فأعاد عليه ما قل ، فقال الصاحب هذا يكون أبا بكر الخوارزمى ، فأذن له فى الدخول فدخل عليه فعرفه وانبسط له

---

(١) أقليم على بحر خوارزم المسمى الآن بحيرة أرال . وما رواه ياقوت عن بعض متأخرى أدبائها ومن مستعجمى أهلها من أنهم ينطقونها بضم الخاء ضمة مختلسة الى الفتحة وأنه لاتحقيق للواو ولا للألف أى أنه ينطق بهما كحرف (Ο) الفرنسى عدول عن التعريب الصحيح المطابق لقواعد النطق العربى ، ولذلك لم يقع فى شعر فصحاء الادباء ، من أمثال الصاحب بن عباد فى قوله :

أقول لركب من خراسان قافل　　　أمات خوارزميكم قيل لى نعم

فقلت اكتبوا بالجص من فوق قبره　　　ألا لعن الرحمن من كفر النعم

فلو نطقت فى هذا الشعر كما ينطقها مستعجمو أهلها لاختل الوزن . والذى يدل على أن تحقيق الواو والالف هو أصل العربية مارواه ياقوت نفسه عن شاعر عربى من بنى أسد فى أبيات :

وخافت من جبال السغد نفسى　　　وخافت من جبال خوارزم

لجرى الشاعر على أنها مركبة من كلمتين خوار بمعنى (لحم) ورزم بمعنى (حطب) فى قصة مروية عن قدماء أهلها . فافهم ذلك وارفض كل تعريب لايطابق الهجاء العربى

وتقلب الخوارزمى فى خدمة كثير من الملوك والامراء والوزراء ، فى الدول المتفرعة عن الخلافة ، وجُلهم يومئذٍ من الشّيعة ؛ فاصطبغ بصبغة التشيُّع أيضاً ، حتى ألقى عصا التسيار بمدينة نَيْسابور[١] وطاب عيشه بها الى ان مُنِي فى آخر أيامه بمساجلة بديع الزمان الهَمَذانى ومناظرته ومناضلته ، وأعانه عليه قوم من أعيان البَلْدَة ووجوهها ، فانخذل انخذالاً شديداً ، وكسفَ بالُه . ولم يَحُلْ عليه الحولُ حتى مات سنة ٣٨٣ هـ

كتابته

وكان الخوارزمىُّ ممن يَجرى على طريقة ابن العميد فى الكتابة متوخّياً جزالة الالفاظ محتفلا بصحة المعانى مع مَيل فيه الى الغريب

ومن قصار رسائله ما كتبه الى تلميذٍ له :

ان كنت (أعزّك الله) لا ترانا موضِعاً للزيارة ، فنحن فى موضع الاستزارة ، وان كنتَ تعتقدُ أنك قد استوفيتَ ما كان لدينا ؛ فسقط حقنا عنك وَبقِيَ حقُّك علينا ، فقد يزورُ الصحيحُ الطبيبَ بعد خروجه من دائه ، واستغنائه عن دوائه ، وقد تجتازُ الرعية على باب الامير المعزول ، فتَتَجمّلُ له ولا تعيّرُه عزلَهُ ، ولو لم تزرنا إلا لتُرِينا رُجحانك ، كما طالما رأينا نُقصانك ، لكان ذلك فعلا صائباً ، وفى القياس واجباً

بديع الزمان الهمذانى ×

هو أبو الفضل أحمدُ بن الحسن الكاتب المترسل والشاعر المبدع ؛ حافظ عصره وأذكى دهره ، وقدوة الحريرى فى انشاء المقامات ، وقريعُ الخوارزمى فى المبادَهات والمكاتبات

نشأ بهمذَان[٢] ، ودَرَس العربيةَ والأدبَ ونبغ فيهما ، وضرب فى الأرض يتكسّب بأدَبه ، ثم أقام بنيسابور مدّة أملى بها أربعمائة مَقامةٍ[٣] بلفظٍ رشيق ، وسجعٍ

---

(١) كانت مدينة شهيرة من مدن خراسان دمرها التتار عند اجتياحهم الممالك الاسلامية فخربت ولم تعمر بعد (٢) مدينة شماليّ فارس (٣) اطلقت المقامة فى ذلك العصر على كل قصة خيالية انشئت بعبارة مسجوعة غالبا ، محلاة بأنواع البديع ، مشتملة على كثير من الغريب

رقيق ؛ وعلى منْوالها نسَجَ الحريريُّ . ثم شَجَرَ بينه وبين الخوارَزمى ما كان سبباً في هبوب ريحه وُبعد صِيته ؛ إذ لم يكن فى الحُسْبانِ أن أحداً يجترئُ على الخوارزمى

وبموت الخوارزمى خلا له الجوُّ عند الملوك والامراء ، فجوَّل فى حواضرهم ، ثم استوطن هَرَاةَ (١) وصاهر أحد أعيانها العلماءَ ، فحسنت حالُه ، ونعِم باله ، ولكن المَنيَّة عاجلته وهو فى سن الأربعين سنة ٣٩٨ هـ

كتابته · وكان البديعُ أسرع أهل زمانه بديهةً . وأكثر كتابته وشعرِه مرتجل . وكانت عبارته لينةً سهلةً قصيرة السجع ، تشهد بأن صاحبَها لم يَكدحْ فيها خاطره . ولم يتعملْ في صنعتها . وكان لحِدَّةِ ذِهنه ، وغزارةِ مادَّته ، وتمكنه من صناعته ، تُلْقى عليه القصيدة الفارسية فيترجمها فى الحال الى العربية شعراً ، ويُقترح عليه الكِتابُ فيبتدئُ بآخر سطوره وينتهي بأوّله ويُخرِجه كأحسن ما يكون

(ومن كتابته : ما كتبه موصياً وارث مال) :

وصلت رُقعتك يا سيدى والمصابُ لعَمْرُ الله كبير ، وأنت بالجزع جدير ، ولكنك بالصبر أجدر ، والعزاء عن الاعزة رشد كأنه الغَيّ ، وقد مات الميت فليحى الحيّ ، فاشدُد على مالك بالخَمس ، فأنت اليوم غيرك بالأمس ، قد كان ذلك الشيخ (رحمه الله) وكيلك ، تضحك ويبكى لك ، وقد موّلك بما ألف بين سُرَاه وسيره ، وخلفك فقيراً الى الله غنياً عن غيره ، وسيعجمُ الشيطانُ عُودك ، فان استلانه رماك بقوم يقولون : خير المال ما أُتلف بين الشراب والشباب ، وأنفق بين الحَبَاب والأحباب ، والعيش بين الأقداح والقِداح ، ولولا الاستعمال ، لما أريد المال ، فان أطعتهم فاليوم فى الشراب ، وغداً فى الخراب ، واليوم واطربا للكاس ، وغداً واحربا من الافلاس . يامولاى ذلك الخارج من العود يسميه العاقل فقرا ، والجاهل نَقْرا ، وذلك المسموع من الناى هو اليوم فى الآذان زَمْر ، وغداً فى الأبواب سَمَر ، والعمر مع هذه الآلات ساعة ، والقنطار فى هذا العمل بضاعة ؛ وان لم يجد

---

(١) هى مدينة عظيمة ببلاد الافغان قيل أن الاسكندر المقدونى هو الذى بناها

الشيطان مَغمزًا فى عودك من هذا الوجه ، رماك بآخرين يمثلون لك الفقر حذاء عينك ، فتجاهد قلبك ، وتحاسب بطنك ، وتناقش عِرْسك ، وتمنع نفسك ، وتبوء فى دنياك بوزرك ، وتراه فى الآخرة فى ميزان غيرك ، لا ! ولكن قصداً بين الطريقين ، وميلاً عن الفريقين ، لامنعَ ولا إسراف ؛ والبخل فقر حاضر ، وضير عاجل، وانما يبخل المرء خيفةَ ما هو فيه ، فليكن لله فى مالك قسط ، وللمروءة قسم ، فصل الرحم ما استطعت ، وقدر اذا قطعت ، فلأن تكون في جانب التقدير ، خيرٌ لك من أن تكون فى جانب التبذير

ابن زيدون

هو الكاتبُ الشاعرُ ذو الوزارتين أبو الوليد أحمدُ بنُ عبد الله المشهور بابن زيدون المخزومى الاندلسىّ . ولد سنة ٣٥٤ ، ونشأ فى مدينة قُرطُبة[1] حيث كان أبوه من أعيان فقهائها ، وتأدب على كبار أئمتها ! وقال الشعر وأجاده ، وحفظ من مشهور شعر القدماء والمُحْدَثين ماجرى مجْرَى الأمثال ، ومن أخبار العرب وأيامها وأمثالها وحِكمها شيئاً كثيراً

ولما نُبه شأنُه بين شعراء قُرطُبة وكُتَّابها وأدبائها ، اتصل بأبى الوليد بن جَهْوَر أحد ملوك الطوائف ، فحظِىَ عنده : ومدحه بالقصائد الطنَّانة وصدرت عنه في دولته الرسائلُ البديعةُ حتى أصبح لسانَ دولتِه الناطقَ ؛ وحُسامَها المسلول. فحسده أعداؤه وأفسدوا مابينه وبين مليكه ، وأحسَّ منه ابن جهور دالَّةً عليه ظنَّها ممالأةً لأعدائه فاعتقله . ومكث فى محْبِسِه مدةً استشفع فيها اليه بقصائدَ أبْدَعها ورسائلَ استنفدَ فيها جُهدَه ، فما ألانتْ له قلباً ، ولا ثنَتْ له عِطفاً ، فأعملَ الحيلةَ فى فِراره من سجنه وخلَص الى المُعْتَضِد بن عبَّادٍ ملك إشْبيلِيَةَ[2] اذ كان أشدَّ ملوك الطوائف رغبةً

---

(١) مدينة عظيمة على نهر الوادى الكبير بالاندلس . وكانت قاعدة الدولة الاموية وآل جهور من ملوك الطوائف بعدهم (٢) مدينة عظيمة على نهر الوادى الكبير أيضا بالغرب الجنوبى من الاندلس ولا تزال الى الآن من أعمر مدنها

فيه وأكثرهم تمسكاً بالأدب كما كان أبسطهم رقعة ملك ، فألقى اليه مقاليد وزارته، وأصبح صاحبَ أمره ونَهْيه ، وشريكه في مجلس جِدّه وأنسه

ولما مات المعتضدُ وخَلَفه ابنهُ المعتمِدُ كان له كما كان أبوه وأغدق عليه بره ونعمه .

ومكث ابن زيدون على هذه الحال حتى مات باشبيلية سنة ٤٦٣ هـ

ولما كان ابنُ زيدون منذ نشأته مطبوعاً على الشعر غلبت مَلَكتهُ عليه في كثير من كتابته إذ كانت مجموعةَ أبياتٍ منثورة ، وتلميحاتٍ الى حوادث مشهورة وأمثال وحِكمٍ في فقارٍ غير مسجوعة غالباً ، سالكاً فيها طَريقَ التهويل والمبالغة فى فُروضه وأقيسته وتشبيهاته . وجرى على ذلك فى رسالتَيْه الهَزْلية التى كتبها على لسان وَلّادةَ بنت المستكفى يتهكم فيها بالوزير أبي عامر بن عَبْدوس ، والجِدّية التى استعطفَ بها ابنَ جَهْور

وقد شرحها الأدباء وعُنوا بتفصيل مافيهما من الأخبار والأشعار والحكم وتراجم الشعراء ، وأشهر تلك الشروح شرح ابن نُباته للهزلية والصفَدى للجِدّية . ولولا جمع هاتين الرسالتين لكثيرٍ من فنون اللغة والأدب والتاريخ ما نسختْ شهرته بالكتابة عند المتأخرين شهرتَه بالشعر عند المتقدّمين حتى كان يلقب عندهم ببُحْتَرِىّ المغرب . ولا يقدح ذلك فى بلاغته ، وفصاحة عبارته ، فمقام الرجل فى سعَةِ اطلاعه وسرعة خاطره أشهرُ من أن يُنَوّه به ، فقد قيل انه دفن بنتاً له ، ووقف ليشكر الناس لتشييع جنازتها فما أعاد فى ذلك الوقت عبارة قالها لأحد ، وتلك غاية لا تدرك فى القدرة على صناعة الكلام

ومن فصوله فى الرسالة الجدّية :

هذا العَتْبُ محمودٌ عواقبُهُ وهذه النَّبوةُ (١) غَمْرَةٌ (٢) ثم تنجلى ، وسحابة

---

(١) الجفوة (٢) أصلها من غمرة الماء تستعمل فى كل كربة تعترى المرء

صيفٍ عن قليل تقشع [١] ، ولن يَريبَني [٢] من سيدى أن أبطأ سَيبُه [٣] ، أو تأخَرَ ـ غيرَ ضنينٍ ـ غَناؤُه [٤] فأبطأ الدِّلاءِ [٥] فَيضاً أملؤُها ، وأثقلُ السحائب مشياً أحفلُها [٦] ، وأنفعُ الحَيَا [٧] ما صادف جَدْباً ، وألذ الشراب ما أصاب غليلاً [٨] ؛ ومع اليوم غدٌ ، ولكل أجل كتابٌ . له الحمد على اهتباله [٩] ولا عَتْبَ عليه في اغتفاله [١٠]

فان يكن الفعل الذى ساءَ واحداً ∴ فأفعاله اللائى سَرَرْنَ ألوف [١١]

القاضى الفاضل

هو أبو على عبد الرحيم البَيْساني [١٢] اللخْمى [١٣] ، كاتب الديار المصرية ، وصاحبُ الطريقة الفاضلية ، والكتابة البديعية . ولدَ بمدينة عَسْقلان [١٤] سنة ٥٢٩ وتعلم على أبيه [١٥] وغيره . ولما شدا من العربيةِ شيئاً قَدِمَ مصرَ وهو شابٌّ أواخرَ الدولةِ الفاطمية لتعلُّم الكتابة والخدمة فى الديوان وتوجّه الى ثغرِ الاسكندرية . وتعلم فى ديوان ابن حديد قاضيها وكاتبها . وظهر فضله فيما كان يرسله الى القاهرة من الرسائل ، فاستُقْدِم أيام الظافر اليها ، وكان من كتاب ديوانه . ولازم خدمة أكابر القضاة والكتاب فى الديوان وأخذ عنهم وحاكاهم

ولما سقطت الدولةُ الفاطمية تولى وزارة صلاح الدين بن أيوب ، وكان يتردَّد بين مصر والشام فى الحروب الصليبية ، ودبَّر المملكة أحسن تدبير . وبقى فى الوزارة حتى مات صلاح الدين فوزر لابنه العزيز على مصر ، ثم وزر من بعده لأخيه ، ومات سنة ٥٩٦ هـ

---

(١) تزول (٢) يوقعنى فى الريب وسوء الظن (٣) عطاؤه وعرفه ، والمراد به هنا الرضا والعفو (٤) نفعه ومعروفه (٥) جمع دلو (٦) املؤها (٧) المطر (٨) شدة عطش (٩) الاهتبال الاغتنام — أى على اغتنامى منه نعمته السابقة (١٠) أى اهماله لى (١١) البيت للمتنبي وواحداً خبر يكن (١٢) نسبة الى بلدة بفلسطين (١٣) نسبة الى قبيلة لخم اليمانية (١٤) بلدة على ساحل فلسطين شمالى غزة وهى خربة الآن (١٥) هو قاضى عسقلان بهاء الدين على البيساني

وكان خيّراً ديّناً ، مُحسناً ، وفياً ، مغرماً بجمع الكتب . وبلغ عدد ماجمعه من أقطار الأرض منها نحو مائة الف مجلد . ومهر القاضى الفاضل في الكتابة ، وطوّح به استقلاله فيها الى توليد طريقة غريبة أخذ اصولها عن بعض كُتّاب الشام والعراق ومصر فجعل أصولها السجعَ الطويل غالباً والاستعارة والطّباقَ ومراعاة النظير والتلميح . وغالى جدًّا في التورية والجناس فأصبحت الكتابة بهذه الطريقة صناعيةً محضة تجرى مع مناسبات الألفاظ أكثر من جريانها معَ اصابة الغرض والبلاغة . وكانت كتابة القاضى الفاضل مع كل هذه القيود بليغةً في ذاتها لسعة اطلاعه وغزارة مادته ، وسرعة بديهته ، وصفاء خاطره ؛ الاّ ان طريقته خدعت بعده كُتّابَ مصرَ والشام وغَرَّبَتْ الى الأندلس ، فتكلف الجرىَ عليها كلُّ قليل البضاعة من الأدب مُعْتمداً على تعمّل البديع الذى لا يكلّف صاحبَه أكثر من معرفة خمسين أو ستين نوعا منه . فظهرت سيّئات هذه الطريقة فى العصور التى تلت عصره

كتابته

كتب من رسالة يصف قَلْعة فتحت : هى نجم فى سحاب ، وعُقاب فى عِقاب[1] ، وهامة ، لها الغَمامة عِمامة ، وأُنْمُلة اذا خَضَبَها الأصيلُ كان الهلال لها قُلامة[2] عاقدة حُبْوة[3] صالحَها الدهر ألاَّ يحُلَّها بقَرعِه[4] بادية عِصمة صالحها الزمن على أن يروعها بخُلْعِهِ[5] فاكتنفت بها عقاربُ منجنيقات لم تطبع طبعَ حمص فى العقارب ، وضربتها بحجارة أظهرت فيها العداوة المعلومة فى الأقارب[6] ؛ فلم يكن غير ثلاثة إلاّ وقد أثّرت فيها الحجارة جُدَريًّا بضربها ، ولم يصل الى السابعة إلاّ والبحر مؤذن بنقبها ؛ فاتسع الخَرْق على الراقع ، وسقط سعده عن الطالع ، الى مولد من هو اليها طالع ، وفتحت الابراج فكانت أبوابا ، وسيرت الجبال فكانت سرابا

---

(١) جمع عقبة (٢) مايقص من الظفر (٣) أن يجمع الاعرابى بين ظهره وساقيه فى جلوسه بثوب أو عمامة وهى جاسة مريحة (٤) بجادثه (٥) الخلع نوع من الطلاق (٦) أى أن حجارة المنجنيقات تضرب حجارة القلعة

التدوين والتصنيف

كانت الحاجة الى التدوين قد اشتدّت فى مبدإ الدولة العباسية لاتّساع ممالك الاسلام، ولدخول كثير من الأمم المُتَحَضِّرة فيه. ولتعدُّد الوقائع والحوادث التى لم يكن لها نظيرٌ فيما سبق من السنة. فهبَّ العلماء الى تهذيب ما كَتِبَ فى الصحف المتفرّقة، وما حفِظوه فى الصدور. ورتبوه وبَوَّبوهُ وصنفوه كُتُباً. وكان من أقوى الأسباب لإِقبال العلماء على التصنيف حثُّ الخليفةِ أبى جعفر المنصورِ عليه، وحَمْلُه الأئمة والفقهاءَ على جمع الحديث والفقه، وبذله فى سبيل ذلك الاموالَ الجزيلةَ. ولم يقتصر على معاضدة العلوم الاسلامية، بل أوْعزَ الى العلماء والمترجمين من السُّريانِ والفُرس أن ينقُلوا الى العربيةِ من الفارسيـة واليونانية فنونَ الطب والسياسةِ والحِـكمة والفلَكِ والتنجيم والآداب. وتابعه فى ذلك أولاده وأحفاده، حتى زَخَرت بحور العلم واختُرِعت الفنون وتفرّعتِ المسائل ودوّنت الـكتب فى كلّ فنّ

وانقسمت بذلك العلوم قسمين عظيمين:

(ا) العلوم الإِسلامية من شرعية ولسانية (ب) العلوم الـكَوْنية المنقولة

ولكل من هذين فى نشأته طريقٌ محدودةٌ، ورجالٌ معدودة. ويعتبرون أن سنة ١٤٣ هى مبدأ النهضة العلمية العربية (١)

كتابة التصنيف والتدوين

وكانت كتابة التصنيف والتدوين فى القرن الأول وبعض الثانى من النهضة عبارةً عن سلسلةٍ من الروايات المسندةِ الى رواتها: من أحاديث نبويةٍ، أو أقاويل صحابةٍ، أو فتاوَى فقهاء، أو أشعارِ أعراب، أو أخبار فتُوحٍ، أو نوادر أو غير ذلك. وبعضُها يُروى بلفظ أصحابها غالباً: كما فى الشعر والخطب والرسائل، وبعضها

(١) وهى السنة التى حج فيها المنصور والتقى فى المدينة بمالك بن أنس وأمره بتأليف كتاب الموطأ فى الفقه والحديث، وعند رجوعه الى الامصار أوعز بنفسه وبولاته الى العلماء بتدوين الـكتب فى كل فن، وكان أكثرهم يحجم عن التأليف تورعا وخوفاً من الزلل ومن أن عملهم قد يفضى على طول الزمان الى تحريف الدين وخلطه بآراء الناس

بلفظ الراوى ، كما فى أخبار الفتوح والتاريخ والقصص . ثم ظهرت بعد ذلك فى العلوم الشرعية واللسانية طبقاتُ الاستنباطِ والتعليل والتفريع والشرح والاختصار وجمع الفروع تحت كليّات عامة ؛ فلم يكن للمؤلفين بدٌّ من حذفِ أسانيد الروايات وتركِ المحافظة على نقلها بلفظها الا فى الحديث ونحوه

أما كتب العلوم المترجمةُ فكانت عبارتها هى تفسيرَ الفاظها الأعجمية بالعربية . ولم تكن ترجمتُها جيدةً فى عهد المنصور . ثم صُحِّحت ترجمتها فى زمن الرشيد والمأمون . ثم لما أتقنَ كثيرٌ من فلاسفة المسلمين هذه العلوم كتبوا فيها بعباراتهم . وكانت أول أمرها بليغةً مفهومةً ثم عمّوْها على بعض الفقهاء المُكفّرين لهم والمغرين الأمراء والسلاطين بقتلهم ، حتى أصبحتْ عبارةُ كتب الفلسفة والتوحيدِ أصعبَ ما يُقْرَأ باللسان العربى

العلوم اللسانية ونشأتها

العلوم اللسانية هى الأدبُ ، والتاريخ ، والعروض ، والنحو ، واللغة ، والبلاغة

الأدب

علم الادب بالمعنى الذى ذكرناه فى أوّل الكتاب يمتاز من بقيّة العلوم الصناعيةِ ذوات القواعد كالنحو والبلاغة ، ومن التاريخ وفروعه ، وان كان يتوقف على الإلمام بها . وكانت كتبه أوّل هذا العصر رسائل يَبْحث كلٌّ منها فى ضرب خاصّ من ضروبه ، كرسائل ابن المقفّع ورسائلِ سهل بن هرون [1] فى الاخلاق ، وكتابِ النوادر وكتاب الاراجيز ، وكتاب الشعر للاصمعى ، وكتاب الشعر والشعراء لأبى عُبيدة [2] واذا تابعنا من يقول إن ابن المقفّع هو الذى ابتدع كتاب كليلة ودمنة ونحله الهند والفرس كان هذا الكتابُ أوّل كتاب ظهر فى الادب العربىّ الخاصّ بموضوعٍ واحد

---

(١) هو أحد الكتاب والمؤلفين من أبناء الفرس وكان شعوبيا يتفلسف ويفضل البخل على الجود، وخدم فى دولة المأمون بالترجمة والتأليف والقيامة على الكتب (٢) هو معمّر بن المثنى احد أئمة العربية وقرين الاصمعي فى المنزلة والتلمذة للخليل . وكان شعوبيا أيضا توفى سنة ٢٠٩

وأول كتاب ظهر فيه جامع لفنون كثيرة منه كتاب البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ ، واقتفى أثره احمد بن طيفور [1] فى كتابه العظيم المنظوم والمنثور فى أربعة عشر جزءاً ، ثم أبو العباس محمد المبرّد [2] فى الكامل والروضة . ثم أبو حنيفة الدّينوَرى [3] ، وأبو بكر محمد الصُّولى [4] وابن قتيْبة [5] صاحب أدب الكاتب ، وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، وأبو علِي القالى [6] صاحب الامالى ، وأبو الفرج الاصبهانى [7] صاحب الاغانى وغيرهم

ومن أشهر المؤلفين فى الأدب الجاحظ واحمد بن عبد ربه والحريرى . وها هى ذى تراجمهم :

الجاحظ [8]

هو إمام الأدب أبو عثمان عمرٌو الجاحظ بن بحْرِ بنِ محبوب الكِنانى البصرىّ صاحب التصانيف الممْتعة والرسائل المبدَعة

ولد حوالىْ سنة ١٦٠ بمدينة البصرة ، ونشأ بها ، فتناول كلَّ فن ، ومارس كلَّ علم عرف فى زمانه ، مما وضع فى الاسلام ، أو نقل عن الامم الأوائل ، فأصبح له مشاركةٌ فى علم كل ما يقع عليه الحسُّ أو يخطر بالبال ؛ فهو راويةٌ ، متكلمٌ ، فيلسوفٌ ، كاتبٌ ، مصنفٌ ، مترسلٌ ، شاعر ، مؤَرخ ، عالمٌ بالحيوان والنبات.

---

(١) هو من تلاميذ الجاحظ توفى سنة ٢٨٠ ويوجد من كتابه هذا ثلاثة أجزاء فى دار الكتب السلطانية (٢) أخذ العلم من تلاميذ الاصمعى وكان أمام البصريين فى زمنه وكتابه الكامل من خيرة كتب الادب المطبوعة وتوفى سنة ٢٨٥ (٣) هو أعلم علماء النبات وكتاب النبات له من أمهات كتب هذا الفن وله غيره تأليفات كثيرة في الادب وتوفى سنة ٢٨٢ (٤) من كبار مؤلفى الادب وظرفاء الندمان وألعب أهل زمانه بالشطرنج وتوفى سنة ٣٣٥ (٥) هو أبو محمد عبد الله ابن مسلم من كبار كتاب الادب وائمة اللغة والنحو توفى سنة ٢٧٦

(٦) كان من كبار أدباء المشرق رحل الى خلفاء بنى أمية بالاندلس وحظى عندهم وأصله من قالى قلا بأرمينية توفى سنة ٣٥٦ (٧) هو على بن الحسين من سلالة بنى أمية — وكتابه الاغانى أشهر من أن يذكر توفى سنة ٣٥٦ (٨) يسمى الجاحظ والحدقىّ أيضا لجحوظ حدقتى عينيه وكان دميم الوجه

والموات ، وصَّافٌ لأحوال الناس ووجوه معايشهم واضطرابهم وأخلاقهم وحيلهم. الاَّ انه غلب عليه أمران : الكلام على طريقة المعتزلة ، فهو بذلك امام الطائفة الجاحظيَّة من المعتزلة ، والأدبُ الممزوج بالفلسفة والفُكاهة ؛ فهو أوَّل من ألَّف الكتب الجامعة لفنونه ككتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وغيرهما

وكان غايةً فى الذكاء ودقة الحسّ وحسْن الفراسة ؛ الى دُعابةٍ فاشيةٍ ، وقلة اعتدادٍ بما يأخذ به الناس أنفسهم وينتحلونه من الرسوم والعادات وأنواع العصبيَّة المذهبية ، وعدم مبالاةٍ بوقوع المتورّعين فيه . وكان سمْحاً جواداً كثير المواساة لاخوانه . وكان على دمامة خَلْقه وتناقض خُلقه خفيف الرُّوح ، فَكِهَ المجلس ، غايةً فى الظَّرْف وطيب الفُكاهة وحلاوة الكلام . وهو على الجملة أحد أفْذاذ العالم ، وإحدى حجج اللسان العربىّ

فصاحته وكتابته

قرأ الجاحظ أكثرَ الكتب المعروفة فى زمنه اسلاميةً ومنقولةً ، فاستخلص بذكائه العجيب من كلّ ذلك علوماً جمّةً فألّف أشتاتَها على تنافرها ، ونسّق ضُروبها مع تضارُبها ، فتطامَن له بلطفه شامخُها وانقاد له بحسن رياضته حَرونها فتهيا للكتة منها جملةٌ مطاوعةٌ لارادته يستنبط منها ماشاء ويُصرّفها أنَّى شاء ، وانتحل لنفسه من طُرق البلغاء والمصنّفين طريقةً كان أبا عذرتها وابنَ بَجْدتها [1] وهى طريقته التى تحبب القرَّاء فى القراءة : بتوخّى التصنيف فى الموضوعات الشهية اللذيذة ، أو التى لم يسْبق اليها كاتبٌ ، أو الامور الحقيرة التى لا يخطر على البال أن يؤلّف فيها كلامٌ ، مع سهولةِ عبارةٍ وجزالةِ لفظٍ وإطنابٍ غير مملّ : باستعمال كثير من مترادفِ الألفاظ والجمل العذْبة واستطرادٍ مروّحٍ على النفس : بايراد طريف الأخبار والنوادر ومزج للجد بالهزل ، واستقصاءٍ وتَغَلْغلٍ فى وصف ما يعني بشرحه أو الاحتجاج له ، وتلَطفٍ لتعظيم الصغيرِ حتى يعظم وتصغير العظيم حتى يصغر

---

(١) يقال فلان ابو عذرة هذا الامر أى أول من سبق اليه ، والبجدة العلم وباطن الامر وداخله وابن بجدة هذا الامر أى العالم به

وأقام الجاحظ أكثر عمره بالبصرة يعيش معيشةَ الأدباء والعلماء محبوباً لولاتها وأعيانها محبوًّا منهم بالعطايا والمِنَح بما يصنّفه لهم من الكتب المتفقة معأهوائهم المختلفة وتكسب قليلا بالكتابة في ديوان السلطان زمن وزارة ابن الزيات وكان كثير الانتجاع للخلفاء والوزراء ورجال الدولة ببغداد وسرّ من رأى حتى فلج بالبصرة وبقي مفلوجاً بها مدّةً الى أن انتقل الى بغداد فمات بها ودفن بمقبرة الخيزران[1] سنة ٢٥٥ ﻫ وله أكثر من مائتي كتاب طبع منها في مصر كتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وكتاب البخلاء وكتاب التاج (في أخلاق الملوك) ومجموع لبعض رسائله.

أحمد بن عبد ربه

هو أديب الأندلس وشاعرها أبو عمرَ أحمد بن محمد بن عبدِ ربّه القرطبي صاحب العقد الفريد.

ولد رحمه الله تعالى سنة ٢٤٦ ﻫ، ونشأ بمدينة قرطبة، ودرس علوم العربية من الشعر والأخبار والملح والنوادر والتاريخ واللغة والنحو، فنبغ في جميعها، وحفظ منها ما لم يحفَظْه أحدٌ من علماء زمانه، وقرأ رسائل المحدثين من المَشارقة وما ترجم من كتب الأوائل في أكثر العلوم وأودعَ زُبْدَتَ ذلك كتابه العقد الفريد.

وكان رحمه الله يشتغل في حداثته بالشعر ويجرى في مضمار اللّهو والطرب ونظم في ذلك من القصائد والمقطَّعات الرقيقة الجميلة ما جعل المتنبي — على صَلَفه وكبره — حين سمع شعره يسميه (مليحَ الأندلس). ثم أقلع في كبره عن صبوته وأخلص لله في توْبته فاعتدّ أشعاره التي قالها في الغزل واللهو عملاً باطلاً وعمل على أعاريضها وقوافيها قصائد في الزُّهد يعارضها بها وسماها الممحّصات. ونال من خلفاء بني أمية بالاندلس دنيا عريضةً وحلّ عندهم في المكان الأسمى.

وبقي بقرطبة رئيساً مسوّداً حتى فلج. وعاش كذلك عدّة سنين ثم مات بها سنة ٣٢٨ ﻫ.

---

(١) الخيزران هي أم الرشيد

كتاب العقد الفريد

لا يختلف اثنان فى أن كتاب العقد الفريد من أجمل كتب الادب العربى وأرباها فائدة وأصدقها خبراً وأحسنها تبويباً وتفصيلاً

اقتصر مؤلفه فى أ كثره على جمع أخبار المشرق ، وأخبار كتابه وأدبائه ليتحف بها أهل وطنه ؛ إلاَّ أن اشتهاره وجزالة فائدته لم يقفا به عند هذا الحد ، بل رجع الى أهل المشرق وعدَّ من أركان الأدب بين كتبهم ؛ فأقبلوا على دراسته والاقتباس منه ولا سيما متأخريهم . وأما منزلة الكتاب بيننا الآن فهو استاذ كل متأدب فى عصرنا هذا ، ولبث الناس فى نصف القرن الماضى وقلَّما كانت لهم في الادب والكتابة مادَّةٌ سِواه وسوى مقدَّمةِ ابن خلدون لسبقهما فى الطبع والنشر أ كثر الكتب ؛ ولولا أنهما وَقَعا مُحَرَّفَيْن فى جميع مرار طبعهما لما فضَلهما أىُّ كتاب طبع إلى الآن .

وللعقد الفريد فوق هـذا مزيةٌ لا يعدِلُه فيها سواه ، وهى جمعه لكثير من الرسائل والخُطب والقصص والفوائد التاريخية التى بادتِ الاصول المأخوذةُ هى عنها وبقيت مخلدةً فيه مثل مشاورة المهدى لأهل بيته ، وخُطبِ الوفود وغير ذلك . ويؤخذ عليه بعضُ هفوات صغيرة فى نقله بعض أخبار المشرق بلا تحقيق ، وعذره فى ذلك مقبول

الحريرىّ

هو أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان الحريرى الكاتب الشاعر اللغوى النحوى صاحب البدائع المأثورة فى مقاماته المشهورة

وهو عربى الأصل ينتسب فى ربيعة الفَرَس . ولد سنة ٤٤٦ بمشان البصرة ، وسكن مَحَلَّةَ بنى حَرامٍ بمدينة البصرة فنُسب اليها ، وانقطع لتعلُّم اللغة والنحو والأدب حتى صار نادرة زمانه فيها ، وامتاز بصناعة الانشاء البديعى . فحاكى بديعَ الزمان الهمذانيّ فى عمل المقامات ، وأنشأ خمسين مقامةً ، أتى فيها على كثير

من موادّ اللغة وفنون الأدب ، وأمثال العرب وحِكَمها ، وبعض مسائل العلوم الدقيقة — بعبارة مُسجَّعة مزيَّنة بأنواع البديع ، ولا سيما الجناس ترغيباً للطلاب فى حفظ اللغة وأدبها وتفكيهاً لهم بقراءتها . ونَحَل وقائعها أبا زيدٍ السّرُوجىّ ، وهو أعرابىٌّ فصيحٌ من سَرُوج[1] كان قد قدِم البصرة وأُعجِب به علماؤها ، وسمى راويها عنه الحارث بن همَّام (يُريدُ نفسه) وأهداها الى الوزير جمال الدين بن صدقة وزير المسترشد العباسى ، فأصبحت هذه المقاماتُ أمثل مثال يحْتذى فى الكتابة البديعية التى غلبت على الكتَّابِ أواخر العصر العباسى وتوارثها مَن بعدهم إلى قُبيلِ عصرنا الحاضر وان لم يستطيعوا الإجادة فيها . وقد شُرِحت المقامات عِدّةَ شروح ، وترْجِمتْ إلى عدة لغات . وغاية ما أخذه كتاب الإفرنج عليها وحدة مغزاها وأن أكثرها لايخرج عن اكتساب المال بطرق خسيسة كالشحاذة والاستجداء

وللحريرى العذر فى ذلك لانفرض روايتها عن الاعراب (وهم كانوا لايقدمون المدن إلاّ منتجعين مستجدين) يجعل خياله مقبولاً

وله غير المقامات شعرٌ كثير ورسائل بديعة وكتب فى النحو واللغة ، منها كتابه درّة الغوّاص فى أوهام الخواص ، ومُلحة الإعراب فى النحو ، وتوفى بالبصرة سنة ٥١٥

فن التاريخ

قدمنا أن أوّل ما وضع فى التاريخ باللغة العربية هو الكتاب الذى وضعه عبيد ابن شَرْية لمُعاوية رضوانُ الله عليه ، وفى صدر الدولة العباسية وضع كثيرٌ من العلماء كتباً فى التاريخ بأقسامه التى من أشهرها :

(١) فن السير والمغازى — وأشهر من ألف فيه من الأوائل محمد بن اسحاق[2]

(٢) فن الفتوح — وأشهر من ألف فيه منهم الواقدى[3] والمدائنى[4] وأبو مِخنَف[5]

---

(١) بلدة كانت بالجزيرة الفراتية (٢) توفى سنة ١٥١ (٣) هو ابو عبد الله محمد بن عمر ابن واقد مولى بنى هاشم توفى وهو قاض ببغداد سنة ٢٠٧ (٤) هو المؤرخ الثقة ابو الحسن على بن عبد الله المدائنى توفى سنة ٢٢٥ (٥) هو لوط بن يحيى المؤرخ الاخبارى توفى سنة ١٥٧

(٣) فن طبقات الرجال — وأشهر علمائه القدماء ابن سعد[١] كاتب الواقدى والبخارى

(٤) فن النسب — وأشهر قدماء علمائه الكلبى[٢] وابنه

(٥) فن أخبار العرب وأيامها — وأشهر علمائه أبو عبيدة والأصمعى

(٦) قصص الأنبياء وكتب فيه كثيرون

(٧) تاريخ الملوك ومن أقدم من كتب فيه ابن قتيبة والهيثم بن عدى[٣] وابن واضح اليعقوبى[٤] ثم شيخ المؤرخين وعمدتهم محمد بن جرير الطبرى[٥] الجامع كتابه هذه الفنون السابقة مرتباً على حسب السنين الهجرية وحاكاه بعده ابن الأثير[٦] علىّ فى تاريخه الكامل

العروض والقافية

أوّل من اخترع علم العروض الخليلُ بن أحمد من غير سابقة تعلُّم على أستاذ أوتدرُّجٍ فى وضْع ، بل ابتدعه جملةً واحدة وحصَرَفيه أوزان العرب فى خمسة عشر بحراً وزاد عليه تلميذُ تلميذِه الأخفشُ بحراً آخرَ ثم لم يزد عليهما أحد ممن تأخر عنهما شيئاً يُعتَدُّ به

أما القافية فقد كان العلماء قبل الخليل يتكلمون فيها ولكن الخليل هو أوّل من فصّل الكلام فيها وجعلها علماً مدوّناً

النحو

جاءت الدولة العباسية والنحو علم يدْرَس فى المساجد بالبصرة والكوفة ولكن البصريين سبقوا الكوفيين فى الاشتغال به كما سبقهم الكوفيون فى الاشتغال بالشعر وعلم الصرف

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهرى توفى سنة ٢٣٠ (٢) هو أبو نصر محمد بن السائب النسابة المفسر توفى سنة ١٤٦ هـ . وابنه هوالنسابة ابوالمنذر هشام بن محمد توفى سنة ٢٠٤

(٣) هو ابو عبد الرحمن الهيثم بن عدى الراوية المؤرخ توفى سنة ٢٠٦ (٤) هو احمد بن ابى يعقوب بن واضح الرحالة توفى سنة ٢٧٨ (٥) توفى سنة ٣١٠ (٦) توفى سنة ٦٣٠

ومن أكبر الأئمة الذين اشتغلوا بالنحو وهذّبوه وفصلوه من البصريين أبو عمرو ابن العلاء [١] وتلميذه الخليل وتلميذ الخليل سِيبَوَيه صاحب أول كتاب عظيم جامع وضع فى النحو ، ثم بعده الأخفش [٢] تلميذ سِيبَوَيه وشارح كتابه . ومن الكوفيين معاذ الهَرَّاء [٣] والرُّؤاسيّ [٤] وتلميذهما الكسائىُّ وتلميذه الفراء [٥]

ثم لما زخرت بغداد بالعلوم وكثرت الفتن بالبصرة والكوفة ، هاجر منهما اليها كثير من العلماء امتزجت مذاهبهم وتكوّن منها مذهب بغدادى جديد . وكذلك اختار الاندلسيون لأنفسهم مذهباً رابعاً [٦] . وكل هذه المذاهب مقتبسة إما من مشافهة الأعراب الفصحاء أو من مدارسة دواوين شعرهم ، أو من مدارسة القرآن الكريم . وفي النحو والصرف ما لا يحصى من الكتب : مطولات ومختصرات وهو من العلوم التى نضِجت وأينعت

علم اللغة

ويسمى متن اللغة ونعني به معرفةَ معانى ألفاظها المفردة وأوّل ما وضع الأئمة فيه رسائلُ وكتبٌ صغيرةٌ فى موضوعات خاصّة : كالألفاظ المتعلقة بخَلْق الانسان أو الجمل أو الفرس أو النخلة أو السيف . فلما ظهر الخليلُ أحصى ألفاظ اللغة بطريقة حسابية فى كتاب ، ورتبه على حروف المعجم ، مقدِّماً حروفَ الحلق ومبتدئاً منها بالعين ،

(١) هو الحجة الثبت اللغوى النحوى الراوية واسمه كنيته · توفى سنة ١٥٤ (٢) هو ابو الحسن سعيد بن مسعدة الاخفش الاوسط توفى سنة ٢١٥

(٣) هو ابو مسلم معاذ بن مسلم الهراء واضع علم الصرف وأقدم نحاة الكوفة ، توفى سنة ١٨٧

(٤) هو ابو جعفر محمد بن الحسن الرؤاسى شيخ الكسائى والفراء وأول من الف فى نحو الكوفيين

(٥) هو ابو زكريا يحيي بن زياد الفراء امام النحاة الكوفيين والبغداديين توفى سنة ٢٠٧

(٦) لم يتكون مذهب الاندلسيين الا بعد ان قلت رحلاتهم الى المشرق فى القرن الرابع وما بعده لكثرة الفتن فيه ولكساد سوق العلم عند ملوكه من الاعاجم وفساد السليقة فى الجزيرة . وكان الاندلسيون قد نقلوا من السنة وكلام العرب الكثير الجم فعكفوا عليه واستدركوا على المشارقة ما فاتهم من قواعده ، وعدلوا عن بعض آرائهم فيه . وحفظوا تراثه لاهل العربية زمناً كاد يصفر الشرق من أهله أواخر العصر العباسى والعصر الذى بعده . ومن اشهرهم فى هذا العصر ابن سيده وابن خروف وابن عصفور والاعلم الشنتمرى وابن الضائع

ولذلك سمّى مُعْجمُه « كتاب العين » . ثم ألف أبو بكر بن دُرَيد[١] معجَمه العظيم الذى سماه الجَمْهَرَة مرتّباً له على حروف المعجم بترتيبها المعروف الآن . وأدرك عصره الازهرىُّ[٢] فألف كتاب التهذيب على ترتيب الخليل . ثم وضع الجوهرىُّ[٣] كتابه المسمى بالصحاح على ترتيب الجمهرة ، وابن سيده[٤] الاندلسى كتابه المحَكم على ترتيب الخليل . وابن فارس[٥] كتابه المجْمَل ، والصاحب ابن عباد كتابه المحيط . وهذه هى أصولُ كتب اللغة ، وما بعدها : من العُباب والتكملة ومجمع البحرين للصاغانى[٦] والنهاية لابن الأثير[٧] ، ولسان العرب لابن مُكرَّم[٨] ، والمصباح للفيومى[٩] ، والقاموس للفيروزابادى[١٠] فهو جمع لها أو اختصار منها

علوم البلاغة

المعانى والبيان والبديع

لم يصنف العلماء فى هذه العلوم إلاّ بعد أن فرَغُوا من تدوين العلوم التى تحفظ الكلامَ العَربى من حيث اعرابُه وتصريفُه ومادّتهُ . فلما أتموا ذلك بحثوا فى بلاغة الكلام

ويظهر أن أوّلَ كتابٍ دُوّن في هذه العلوم كان فى علم البيان وهو كتاب مجاز القرآن لأبى عبيدة تلميذ الخليل ، ثم تبعه العلماء . ولا يعلم أوّل من ألف فى المعانى بالضبط وانما أثِر فيها كلامٌ عن البلغاء ، وأشهرهم الجاحظ فى اعجاز القرآن وغيره . وأولُ

---

(١) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الازدى توفى سنة ٣٢١ هـ (٢) هو ابو منصور محمد بن احمد بن الازهر المتوفى سنة ٢٧٠ هـ (٣) هو ابو نصر اسمعيل بن حماد الجوهرى المتوفي فى حدود سنة ٤٠٠

(٤) هو ابو الحسن علي بن اسمعيل الاندلسى الضرير المتوفى سنة ٤٥٨ هـ

(٥) هو ابو الحسين احمد بن فارس الرازى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ

(٦) هو ابو الفضائل رضى الدين الحسن بن محمد الصاغانى الرحالة المتوفى سنة ٦٥٠ هـ

(٧) هو ابو السعادات مجد الدين المبارك بن محمد الجزرى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ

(٨) هو ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المشهور بابن منظور أيضاً توفى سنة ٧١١ هـ وهو من أهل العصر التالى

(٩) هو احمد بن محمد بن على المقرى الفيومى المتوفى سنة ٧٧٠ هـ من اهل العصر التالى

(١٠) هو ابوطاهر مجد الدين محمد بن يعقوب المتوفى سنة ٨١٦ من أهل العصر التالي

من دوّن كتباً فى علم البديع ابنُ المُعتز وقُدَامة بن جعفر [1] . وقبل ذلك كان البديع يُستعمل فى الشعر عملاً . وبقيت هـذه العلوم تتكامل ويزيد فيها العلماء حتى جاء فحلُ البلاغة عبدُ القاهر الجُرجانى [2] فألف فى المعانى كتابَه دلائل الإعجاز . وفى البيان كتابَه أسرارَ البلاغة . وجاء بعده السكّاكىُّ [3] فألَّف كتابه العظيمَ مفتاحَ العلوم : فبسط مسائل البلاغة بما لم يزد عليه غيرُه فيها شيئاً كبيراً من أصول الفن

الخليل بن أحمد

هو أبو عبد الرحمن الخليلُ بن أحمـدَ بن عمرو بن تميم الفراهيدى الأزدى البصرى نابغة العرب ، وسيد أهل الأدب ، ومخترعِ العروضِ ومبتكر المعجمات ، وصاحب الشكل العربى المستعمل الآن

ولد سنة ١٠٠ بالبصرة ونشأ بها ، وأخذ العربيةَ والحديث والقراءَة عن أئمة زمانه وأكثرَ الخروجَ الى البوادى ، وسمع الأعراب الفصحاء ، فنبَغ فى العربية نبوغاً لم يكن لأحد ممن تقدمه أو تأخر عنه ، وكان غاية فى تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله ، فبسطه وفرّع على أصوله ، وجعله علماً مضبوطاً ولقن ذلك تلميذَه سيبَويه ، فكان كتابه الذى يعتبَرَ أصلَ كلِّ كتاب فى النحو معقودا أكثرُه بلفظ الخليل . والخليلُ هو الواضع للشكل المستعمل الآن فى ضبط الحروف

ومما يشهدُ له بحدّة الفكر وبُعد النظر اختراعه العروض علماً كاملاً لم يحتج إلى تهذيب بعده ، وابتكارُه طريقةَ تدوين المعجمات بتأليف كتاب العين ، وتدوينه كتاباً دقيقاً فى الموسيقى على غير معرفة بلغة أجنبية واشتغال بلهو . وزاد فى الشّطرنج قطعةً سماها جَملاً لَعِبَ بهـا الناسُ زمناً . وبَقِىَ الخليل مقيما بالبصرة طولَ حياته زاهداً متعففاً متقشّفاً مكبّاً على العلم والتعليم حتى مات سنة ١٧٠ هـ ويقال فى سبب موته انه قال أريد أن أعمل نوعاً من الحساب تمضى به الجاريةُ الى البقال فلا يظلمها فدخل المسجدَ وهو يُعْمِل فـكره فاصطدم فى سارية صدمة شديدة ارتج منها دماغه واعتل من ذلك ومات رحمه الله تعالى

---

(١) هو قدامة بن جعفر بن قدامة الكاتب البغدادى المتوفى سنة ٣١٠ هـ
(٢) هو ابو بكر عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ
(٣) هو ابو يعقوب سراج الدين يوسف السكاكى الخوارزمي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ

سيبويه

هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قُنْبَرَ امامُ البصريين وحجة النحويين وصاحب الكتابِ شيخِ الكتب (١)

ولد بالبيضاء من سُلالة فارسية ، ونشأ بالبصرة ، وكان يطلب أوّل أمره الحديث والفقه . فعيبت عليه لَحنةٌ لحنها فى مجلس شيخه فخجِل وطلَب النحوَ ولازم الخليلَ ، وأخذ عن غيره أيضاً . وكان الخليلُ يُؤْثِره على أصحابه ، فدوَّن جميعَ ما أخذه عنه ونقله عن غيره فى كتابه الذى لم يُجْمَع قبلَه مثلُه . ولو لا هذا الكتابُ الذى رواه عنه وشَرحه تلميذُه الأخفشُ ما كان لسيبويه خبرٌ يشهر : لوفاته كهلا ولقلة مَن أخذ عنه هذا الكتابَ ، ولأنه لا يُعرف له كتابٌ غيرُه وبحسبك هو . ولما أحس فضل معرفته فى النحو وأنه أصبحَ شيخَ البصريين ، خرج الى بغداد وافداً على البرامكة ، فجمعه يحيى بنُ خالد بالكسائى شيخ الكوفيين . فتناظرا فى مجلس أُعِدَّ لذلك ، فكان من مسائل المناظرة أن سأله الكسائيُّ : ما تقول فى قول العرب: (كنت أظن أن العقربَ أشدُّ لسعةً من الزُّنبُور فاذا هو هى ، أو فاذا هو اياها) فقال سيبويه : فاذا هو هى ، ولا يجوز النصب . فقال الكسائىُّ : العربُ ترفع ذلك وتنصبُه . واشتد بينهما الخلافُ ، وتحاكما الى رُواة الأعراب بباب يحيى فقضَوْا للكسائى ، فاستكان سيبويه ، فقال الكسائى ليحيى (أصلح الله الوزير) وفَدَ عليك مؤَمِّلاً فان رأيت ان لا تردَّه خائباً . فأمر له بعشرة آلاف درهم

وما يُرْوى فى هذه الحكاية من غير هذا فمن زيادة مُتَعَصّبى البصريين ، وليس فى العلم كبيرٌ . وخرج سيبويه بعد هذه المناظرة الى ناحية بلدته البيضاء بفارس ومات بها سنة ١٨٠ هـ بعد نحو عشر سنين من المناظرة . وسنه نيف وأربعون سنة

---

(١) كان اذا ذكر الكتاب عند النحويين والأدباء فانما ينصرف الى كتاب سيبويه فهو علم عليه بالغلبة ، وهو أصل كل كتاب في النحو ولهذا واقدم وضعه أطلقنا عليه (شيخ الكتب)

الكسائي

هو أبو الحسن علي بن حمزة أحد القراء السبعة وإمام الكوفيين في النحو واللغة نشأ بالكوفة وتعلم على الكبَر بعد لحنةٍ لحنها أمام جمعٍ من طلبة العلم، فلازم أئمة الكوفة حتى أنفد ما عندهم، ثم خرج الى الخليل بالبصرة وجلس في حلقته، وأعجبه علمه. فقال له: من أين علمُك هذا؟ قال: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة، فخرج اليها وأنفد خمس عشرة قِنِّينة حبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفِظَ عنهم. ولما رجع من البادية وجَّه اليه المهديُّ فخرج الى بغداد فحظِيَ عنده وضمّه الى حاشية ابنه الرشيد، ثم جعله الرشيد مؤدّب ولدِهِ الأمين، وبقي وجيهاً عنده فكان يُجلِسُه هو والقاضي محمدَ بنَ الحسن[١] صاحبَ أبي حنيفة على كرسيّين متميزين بحضرته، ويأمرهما أن لا ينزعجا لقيامه ومجيئه. وما زالا على هذه الكرامة حتى خرج الرشيدُ الى الريّ[٢] وهما في صحبته، فماتا في يوم واحد فبكاهما وقال: دفنتُ الفقه والعربية بالرَّيّ، وذلك سنة ١٨٩ هـ. وقد انتهت اليه إمامة القراءة والعربيةِ بالكوفة وبغداد، واختار لنفسه قراءةً أقرَأ بها الناس. وكان يروي الشعر وليس له فيه جيّدُ نظر

العلوم الشرعية

التفسير

لم يدوَّن علم التفسير في كتب جامعة تجمع سوَر القرآن الكريم كلّها إلا في عصر الدولة العباسية. وكان التفسير عبارةً عن نقل روايات عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه تبين المرادَ من آياته، وأوّلُ طبقة من المفسرين أدركت الدولة العباسية أو نشأت في صدرها طبقة سفيان بن عُيَيْنة[٣] ووكيعِ بن الجرَّاح[٤]

---

(١) هو ابو عبدالله محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني وأحد صاحبي أبي حنيفة (٢) كانت من حواضر بلاد فارس وبالقرب من اطلالها انشئت مدينة طهران الحالية (٣) هو ابو محمد سفيان ابن عيينة بن ميمون مولى بني هلال المحدث الفقيه المفسر توفي سنة ١٩٨ بمكة (٤) هو ابو سفيان وكيع بن الجراح بن مليح صاحب ابي حنيفة وأحد المحدثين المفسرين العباد توفي سنة ١٩٨ هـ

وشعبة بن الحجاج واسحق بن راهوَيْه [١] ومُقاتِل بن سليمان [٢] والفرّاء ومن أشهر التفاسير التى رُوِيت من طريقهم تفسيرُ ابن عباس [٣] ، وقد رُوى من طرقٍ مختلفة صحةً وضعفاً ، وطُبع ببعض طرقه الضعيفة فى مصر ، فهو بذلك أقدمُ تفسير نعرفه . ثم جاءت بعد هذه الطبقة طبقة أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى [٤] وتفسيره أوّل كتاب عظيم صحيح وضع فى التفسير على مذهب السلف ، وتابعه فى ذلك الثعلبى [٥] وتلميذه الواحدى [٦] . ومنهم استمدّ كل ذى تفسير بعدهم . ثم نشأت طائفةٌ أدخلت فى التفسير بعض مباحثِ العلوم الأخرى كالنحو . والفقه ، والأصول ، والكلام ، والبلاغة ، والقصص . ثم تجردت طائفة الى التفسير بالرأى والقياس ، فانقسم التفسير قسمين ، سلفيًّا وفنّيًّا . واستمر الأمر على ذلك إلى وقتنا هذا

الحديث

أوّلُ كتابٍ جمعَ فى الحديث الكتابُ الذى أمرَ الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز بتدوينه ، ولم يعرف له خبرٌ بعدُ . ثم أخذ العلماء يدوّنون فيه بحض الخليفة العباسى أبى جعفر وأولاده . فدوّن الإمامُ مالكٌ موطأه فى الحديث والفقه . ولما اشتدّتْ رغبة الناس فى طلب الحديث ، وضع كثيرٌ من الزنادقة واليهودّ المتظاهرين بالإسلام كثيراً من الأحاديث فتجرد لها الأئمةُ الأعلام وبيّنوا صحيحها من فاسدها ، وكان من أفضل القائمين بذلك اسحق بن راهويْه وتلميذه محمدُ بن اسمٰعيلَ البخارى الذى دوَّن كتابه فى الأحاديث الصِّحاح فقط ، وتبعهُ تلميذُه

(١) هو ابو يعقوب اسحق بن ابراهيم الملقب براهويه التميمى الحنظلى نسباً المفسر المحدث توفى سنة ٢٣٨ هـ (٢) هو مقاتل بن سليمان البلخى المفسر متهم بضعف الرواية توفى سنة ١٥٠ هـ (٣) هو عبد الله بن العباس عم النبي (صلى الله عليه وسلم) بن عبد المطلب بن هاشم حبر قريش وعالمها توفى بالطائف سنة ٦٨ هـ (٤) هو ابو جعفر محمد بن جرير الفقيه المجتهد المفسر المؤرخ توفى سنة ٣١٠ هـ (٥) هو ابو عبد الله احمد بن محمد بن ابراهيم الثعلبى النيسابورى المفسر المشهور توفى سنة ٤٢٧ (٦) هو ابو الحسن على بن احمد بن محمد الواحدى المصنف المفسر توفى سنة ٤٦٨

مسلمُ بن الحجَّاج [١] والإمامُ احمدُ بن حنبل وأصحاب كُتبِ السنة الصحاح وهم الترمذِي [٢] — وأبوداود [٣] — والنسائى [٤] — وابن ماجهْ [٥]. هذه هى أصول الكتب فى الحديث. وبعضهم جمعها كلَّها، وبعضهم اختصرها

الإمام البخارى

هو أبو عبد الله محمدُ بن اسمعيلَ بن ابراهيم بن المغيرة، إمام المسلمين، وسيد المحدِّثين، وصاحب الجامع الصحيح أجلِّ كتبِ الإسلام وأفضلِها بعد كتاب الله العزيز

ولد ببُخَارى من سلالة فارسية سنة ١٩٤ هـ ونشأ بها يتيماً فحفِظَ القرآن وألم بالعربية وهو صبى، وحُبِّبَ اليه سماعُ الحديث، فكان أوَّل سماعه من علماء بخارى، وهو لم يناهزِ البلوغ، حتى حفظ عشرات الألوفِ من الأحاديث، وكان أهل الرغبة فى الحديث يتعادَوْن خلفَه ويجلسونه فى بعض الطريق ويكتبون عنه وهو بعد شابٌّ لم يَطُرَّ شاربه [٦] وخرج مع أمه وأخيه الى مكة فحجوا وتخلف هو لطلب الحديث، ودخل من أجله أكثرَ ممالك المشرق: من خراسان والجبل والعراق والشام ومصر، وأخذ عنه علماؤها وأئمتها ومنهم أحمد بن حنبل، وتفقه علي مذهب الشافعى، ثم صار له مذهب خاص. ولما نضِج علمه واجتمع له يقينه، شرع فى تمييز الأحاديث الصحيحة من غيرها بعد أن عَرَف عِلَلها ووجوهها معرفةً لم تتمَّ لأحدٍ قبله، فكان بذلك المقدَّم علي علماء الأرض. واستخرج كتابه (الجامع الصحيح) من ستمائةِ ألفِ حديث فى ست عشْرَة سنة جمع فيهِ تسعَة آلاف

---

(١) هو ابو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابورى احد الشيخين وصاحب ثانى الصحيحين، ولد سنة ٢٠٦ وتوفى سنة ٢٦١ هـ (٢) هو ابو عيسى محمد بن عيسى الترمذى الضرير المتوفى سنة ٢٧٩ (وترمذ مدينة على جيحون) (٣) هو ابو داود سليمن بن الاشعث السجستانى المتوفى سنة ٢٧٥ «وسجستان الاقليم الشمالى من بلوجستان» (٤) هو ابو عبد الرحمن احمد بن شعيب النسائى المتوفى سنة ٣٠٣ ونسأ بفتح النون وفتح السين وبعدها همزة مدينة بخراسان (٥) هو أبو عبدالله محمد بن يزيد بن ماجه المتوفى سنة ٢١٣ هـ

(٦) أى لم ينبت شاربه

حديث مكرّرٍ بعضُها بتكرُّرِ وجوهها . وقال انى جعلته حجةً بيني وبين الله . فأجمع علماء السنة على أنه لم يكن فيها أصحُّ منه

وبقى طولَ حياته يتردّد بين الأمصار حتى اشتاق الى بلاده فرجع اليها وابتُلِي فيها بفتنة خَلْقِ القرءان ، فأثار عليه والى بُخارَى العامةَ فأخرجوه منها ، ومات فى (خَرْتَنْك) قرية من قرى سَمَرْقند سنة ٢٥٦ ه

علم الفقه

لما كان المرويُّ عن رسول الله وظاهرُ نص القرءان لايستوعبان كلّ أحكامِ الوقائع المختلفة المتجدّدة بتجدّد الزمان والمكان . كان الاجتهاد ضروريًّا فى الدين ، وجاءت الدولة العباسية وأهل الحجاز يرجحون جانب الأخذ بالحديث لكثرة رواته بينهم ، وامامُهم فى مذهبهم مالكُ بن أنس ، وأهل العراق يرجحون الأخذ بالقياس ، وأمامهم فى مذهبهم أبو حنيفة لكثرة ما وضعه متزندقة العراق في الحديث . ثم لما دخل أهل الحجاز العراقَ وتساوى الفريقان فى معرفة الاحاديث عملوا بهما ، ونشأ من ذلك عدة مذاهب أشهرُها مذهب الشافعى ومذهب أحمد بن حنبل ، وهذه المذاهبُ الاربعة هى التى ارتضاها معظمُ الأمة فى أمر دينها ودنياها

ثم كان لكل مذهب أئمةٌ مجتهدون فيه

الامام أبو حنيفة النُّعمان

هو الامامُ الأعظم أبو حنيفة النعمانُ بن ثابت فقيه العراق وقدوة أهل الرأى وصاحب المذهب المَقْضِيّ به الآن فى أكثر الممالكِ الاسلامية

ولد سنة ٨٠ هجرية ، من سلالة فارسية ونشأ بالكوفة وعاصَر بعض الصحابة ، واشتغل بالفقه ، وأخذ كلَّ علمه عمَّنْ شافه الصحابة ونقلَ عنهم ، واستنبط فقهه من القرءان الكريم وما صح عنده من الحديث على قلته مع استعمال الراى والقياس ، وتابعه فى ذلك أكثر أئمةِ العراق : لقلة رواة الحديث الصحيح بينهم ، وكثرتِهم فى الحجاز وكان من أعبد الناس وأكثرهم تهجداً وقراءة للقرءان الكريم ، وأكثرهم

ورعاً وتوَخّياً للكسب من وجه حلٍّ . رَضِىَ أن يعيش تاجرَ خزٍّ ورغِبَ عن وظائف الملوك والخلفاء ، وعُرض عليه القضاء من قِبَل أمراء بنى أُمية ثم المنصور فأبى ، فسجنه وآذاه ، حتى قيل : انه مات فى سجنه ، وكان يعتذر بأنه لا يأمَن نفسه أن تَزِلّ . وقرأ عليه علماء الكوفة وبغداد ، وتخرج عليه منها الأئمة من أصحابه كمحمد بن الحسن وأبى يوسف (١) وزُفَر (٢) ومات رحمه الله ببغداد سنة ١٥٠ هـ

الامام مالك

هو أبو عبد الله مالك بن أنس امام دار الهجرة وسيد فقهاء الحجاز . وهو عربى من سلالة أقيال حِمْيَرَ

ولد سنة ٩٥ بالمدينة المنوّرة ونشأ بها ، وأدرك خيار التابعين من الفقهاء والعبّاد ورَحل اليهم ، وأخذ عنهم ، وما زال يدأَب فى التحصيل وجَمْعِ السنَّة حتى صار حجةً من حُجَج الله فى أرضه وضُرِبَ به المثل فقيلَ (لا يفتى ومالكٌ بالمدينة) وعرَف الخلفاء قدرَه فأجلّوه ، وحملوا اليه بِدَرَهم . وسُعى به الى عامل المنصور بالمدينة فجرّده وضربه سبعين سوطاً . ولما بلغ ذلك المنصور غضب على عامله وعزله وأقدمه الى بغداد على قتَب ، ولقى المنصور مالكاً من قابل فى موسم الحج فاعتذر اليه ، واستسمحه وفاتحه فى كثير من مسائل الدين ، وطلب منه أن يجمع ما ثبت لديه ويُدوّنه فى كتاب ويُوَطِّئَهُ للناس ، فاعتذر ، فلم يقبل منه عذراً فألَّف كتابَه الموطأ فى الحديث والفقه ، فجاءَ ولىُّ عهده المهدى من قابل حاجًّا فسمعه منه وأمر له بخمسة آلاف دينار وألف لتلاميذه . ولم يلبث أن مات المنصور ، وزاحم فقهُه أهل العراق فقهَه ، ولكن ذلك لم يمنع الرشيدَ أن يرحلَ هو وأولادُه اليه بالحجاز ليسمع موطأه فسمعه وأغدق عليه . وكان مالكٌ أول أمرِه فقيراً ، فلما كثرت منحُ الخلفاء له حسُن حاله فأظهر نعمة الله عليه ، ووصل أهل العلم وأشركهم فى ماله ومنهم

---

(١) هو ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم الانصارى نسبا صاحب أبى حنيفة وناصر مذهبه وأول من تسمى بقاضى القضاة بمدينة السلام (بغداد) توفى سنة ١٨٢ هـ (٢) هو أبو الهذيل زفر ابن الهذيل التميمى العنبرى صاحب أبى حنيفة توفى سنة ١٥٨ هـ

الشافعى . أما أخلاقه : من الكرم والطلاقة والوقار والنُّبل والتواضع والحب لرسول الله عليه الصلاة والسلام فانها تجلّ عن الوصف ، حتى انه كان لا يركب دابةً فى المدينة اجلالاً لأرض ضمّت جسد رسول الله . وتوفى سنة ١٧٩ بالمدينة ودفن بالبقيع [1]

الامام الشافعى

هو أبو عبد الله محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع عالم قريش وفخرها ، وامام الشريعة وحبْرها . وهو من ولد المطلب بن عبد مناف ، ولد بمدينة غزة [2] سنة ١٥٠ وحمل إلى مكة وهو ابن سنتين ونشأ بها فقيراً تربيه امه ويواسيه ذوو قرابته من قريش ، وما ميَّز حتى صار نادرة الدنيا ذكاءً وحفظاً : حفِظ القرآن وهو ابن تسع سنين وأولع بالنحو والشعر واللغة ورحل إلى البادية فى تطلُّبها ولم يناهز سنّ البلوغ حتى حفِظ منها شيئاً كثيراً . ثم تفقّه وحفِظ موطأ مالكٍ وأفتى وهو ابن خمس عشرة سنة ، ثم رحل فى هذه السن الى مالك وقرأ عليه الموطا من حفْظه ، فقال مالك : ان يكن أحد يُفلِح فهذا الغلام ؛ وأضافه وخدمه بنفسه . ثم رجع الى مكة ، وعلم بها العربية والفقه ، وصحح عليه الاصمعيُّ شعر الهذَليين . ثم ان الرشيد ولَّى أحد أصدقاء الشافعى عملاً باليمن فخرج معه وولىَ بعض الأعمال فأحسن التصرُّف ، ثم وشِي به الى الرشيد ، وقبض عليه ، فلم يتبين شيئاً فى أمره ، فأطلقه . ثم دخل بغداد سنة ١٩٥ فاجتمع عليه علماؤها وأخذوا عنه ، وأملى بها مذهبه القديم . وفى سنة ١٩٩ أو سنة ٢٠٠ خرج الى مصر فألقى بها عصاه وسكن الفُسطاط فكانت دار هجرته ، وبها أملى مذهبه الجديد [3] بجامع عمرو . واستنبط الشافعى مذهبه من القرآن والحديث والقياس وبعض الرأى فكان مذهبه وسطاً بين أهل الرأى من أصحاب أبى حنيفة وبين أهل الحديث من أمثال مالك وأحمد ، وتوفى سنة ٢٠٤

---

(١) هى مقبرة المدينة المنورة (٢) من مرافىء الشام قريبة من حدود البلاد المصرية

(٣) لانه اثناء اقامته بالعراق واثناء مروره بالجزيرة والشام فى رحلته الى مصر لقى كثيراً من ثقات المحدثين وعلم منهم مالم يعلم ورأى من عرف الناس فى الحجاز واليمن والعراق والجزيرة والشام ماجعله يعدل عن بعض آرائه فى جلب المصلحة ودرء المفسدة

وقبره بمصر معروفٌ مشهور . وكان الشافعيُّ أفضل من رأى الناسُ ذكاءً وعقلا وحفظاً وفصاحة لسانٍ وقوة حجة ، ولم يناظر أحداً إلاّ ظهر عليه

واجمال القول انه كان إماما فى كل شىء حتى الرمى بالسهام فكان يصيب منه تسعةً من عشرة

الامام أحمد بن حنبل

هو الامام الصابر المحتسِب أبو عبد الله أحمد بن حنْبلٍ الشَّيْبانى نسباً ، حافظ السنة وقدوة أهل الحديث وأعبدُ أهل زمانه . ولد ببغداد من سلالة عربية سنة ١٦٤ فتعلم العلم وطلب الحديث وسمع من أئمة وقته ، وكان الحديث وقتئذٍ قد أينع وكثرت رجاله وصنِّفتْ كُتبه وتميّز صحيحه من موضوعه ، فلقى مَنْ لا يحصى من رجاله ، فجاب البلاد وطوّف الأمصار حتى حفِظ مئاتِ الألوف من الاحاديث ، واختار منها نيفاً وأربعين ألف حديث ضمنها كتابه المسند ، واستنبط مذهبه من السنة مشوباً بشىء من القياس والرأى ، وظهرت فى مدّته فتنة خلْق القرآن [1] فامتُحنَ بها فى مجلس المعتصم ليجيبَهم إلى القول بخلق القرآن فلم يفعل فضُرِبَ سبعةً وعشرين سوْطاً ضرْباً موجعاً فسال منه الدم وأغمى عليه ، ولما خيف عليه التلف أطلِقَ فبقى فى منزله مدّةً مريضاً ثم عُوفِىَ واشتغل بالعلم والتعليم ببغداد حتى مات سنة ٢٤١ هـ

علم الكلام

كان السلف الصالح من الصحابة والتابعين يستدلون على عقائدهم بظاهر الكتاب والسُّنَّة . وما وقع فيهما من المتشابه أو أوهم التشبيه المنافى لتنْزيه المعبود توقّفوا فيه خوف أن يحيد بهم تغلغُلهم فى التأويل عن القصد ، فيقعوا فيما وقع فيه الامم قبلهم فيتفرّق أمرهم ويكونون شيعاً ، ومن لم يتوقف منهم لم يبعد عنهم كثيراً ، غير أن

---

(١) كان الخليفة المأمون ينكر على من يقول ان القرءان قديم لأن ذلك يقتضي تعدد القدماء المفضى الى تعدد الآلهة بل يقول انه حادث مخلوق

ذلك لم يقنعْ من دخل فى الاسلام من الطوائف التى أمتلأت دياناتها بالشبه والأوهام ، فكثر جدالهم فى شبههم بلأقيسة الصناعية والعقلية ، فاضطرّ العلماء أن يجاروهم ويعارضوهم بمثل ذلك ، وساعدهم الخلفاء وأوّلهم المهدى الذى حرضهم على تدوين علم الكلام (التوحيد). فافترق المرضىّ عن مذهبهم من علماء الكلام فرقتين : فرقة اعتقدت ما يقرب من مذهب السلف وسُمُّوا الجماعية وأصحاب الحديث ، وفرقة اعتزلتها وخالفتها فى بعض المسائل ومقدّمها واصل بن عطاء[1] وسمُّوا المعتزلة أو أصحاب العدل . وجرى رجال الحكومة العباسية على هذا المذهب ونصروه ، حتى ظهر أبو الحسن الاشعرى فألف من مذهب المعتزلة ومذهب غيرهم مذهبه الكلامىّ الذى سمى بعد بمذهب الأشاعرة وغلب على كل مذهب سواه الاّ بعض مذاهب قليلة كمذاهب الشيعة (وبقي كثير منها الى الآن) ومذاهب الخوارج وبقى منهم الى عصر نابقية فى الجبل الأخضر من برقة وفى جزيرة جربة على ساحل تونس وفى جنوبى الجزائر وبلاد البحرين وعُمَان

أبو الحسن الأشعرى

هو أبو الحسن على بن اسماعيل شيخ طريقة أهل السنة والجماعة ، وامام المتكلمين، وصاحب المذهب الكلامى ، المنتشر الآن فى أكثر بقاع العالم الاسلامى

وُلد بالبصرة سنة ٢٧٠ هـ ونشأ بها وأخذ علم الكلام عن أبى علىّ الجبائى شيخ المعتزلة ، وتبعه فى الاعتزال واحتجّ له حتى صار لسان المعتزلة أكثر من ثلاثين عاماً . ثم هداه البحث فى السّنة ومذاهب المتكلمين من الصّفاتية والفقهاء وأصحاب الحديث ، فرأى أن كلا الفريقين من هؤلاء ومن المعتزلة غالٍ فى نظره ، فتوسط ، وتغيَّب عن الناس مدّة الّف فيها كتبه فى نصرة أهل السنّة والردّ على أكثر عقائد

---

(١) هو ابو حذيفة واصل بن عطاء الخطيب المتكلم كان يجلس الى الحسن البصري يأخذ عنه العلم فلما قالت الخوارج بتكفير مرتكب الكبائر وقالت الجماعة بأنهم مؤمنون وان فسقوا بالكبائر فخرج واصل عن الفريقين وقال ان الفاسق من هذه الامة لا مؤمن ولا كافر ومنزلة بين المنزلتين فغضب منه الحسن واعتزل مجلسه وانضم اليه عمرو بن عبيد بن باب وتبعهما اقوام سموا المعتزلة ومات سنة ١٨١

المعتزلة ، ثم خرج الى المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة ورقِيَ المنبر وعرّف الناس بنفسه وبمذهبه القديم والجديد ودفع الكتب التى ألّفها على مذهب أهل السُّنة للناس فنصب له المعتزلة بالردّ والتزييف . فما زال يُدحض حججهم حتى انقطعوا عن مناظرته ، وتبعه كثير منهم ومن غيرهم

وكان أبو الحسن من أورع الناس وأزهدهم مع دُعابة ومزاح ، وكان يعيش من غلة قرية وقفها جده بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى صاحب رسول الله على ذريته . وكان شافعيّ المذهب . توفى سنة ٣٢٤ وممَّن نصر مذهبه الفخر الرازى والغزالى ، وقاربه فى مذهبه القاضى أبو منصور الماتريدىّ

الغزّالى [١]

هو أبو حامد محمد بن محمد الغزّالى الطُّوسى الشافعى حجة الاسلام وصاحب كتاب أحياء علوم الدين

ولد سنة ٤٥٠ ونشأ بطوس [٢] وتعلم بها مبادئَ العلوم ثم رحل الى نيسابور ولازم امام الحرمين الجوينى [٣] وهو يومئذٍ عالم الشافعية فى الشرق فما زال يتلقى عنه العلم حتى صار من أكابر متكلمىّ الأشاعرة وفقهاء الشافعية. وحتى أصبح استاذه يفاخر به العلماء ويتباهى بتعليمه وتخريجه . ولما مات الجوينى ذهب الى بغداد ولقى الوزير نظام الملك [٤] صاحب المدرسة النّظامية الشهيرة ، وناظر بحضرته العلماء فظهر عليهم واقر له فحول العراق بالفضل فتولى التدريس بالمدرسة النظامية أربع سنوات . ثم طرأت عليه حال زهادة فى الدنيا فسلك طريق الصوفية باعتدال . ورغب عن

---

(١) الغزالى بتشديد الزاى نسبة الى الغزال قال ابن خلكان وذلك هو المشهور وقيل انها مخففة نسبة الى غزالة قرية من قرى طوس (٢) طوس مدينه عظيمة بخراسان دفن بها الرشيد وعلى بن موسى الرضا (٣) هو ابو المعالى ضياء الدين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجوينى الفقيه الشافعى توفى سنة ٤٧٨ و (الجوين) ناحية كبيرة من خراسان (٤) هو الوزير ابو على الحسن بن اسحق بن العباس الملقب نظام الملك ، قوام الدين العالم الصالح المتصوف محب العلم والعلماء ، وزر للسلطان ألب ارسلان وولده السلطان ملك شاه السلجوقيين المتغلبين على خلفاء بغداد، وبنى مدرسته النظامية ببغداد وهى أول مدرسة بنيت خاصة بالتدريس ، وكان يكون قبل فى المساجد الجامعة ، وجعل لها الرواتب للمدرسين وللطلبة ، واجرى عليهم الجرايات ، وقتل سنة ٤٨٥ هـ

الاختلاط بالناس . ثم حج وذهب الى الشام يدرس ويسيح لزيارة بعض مشاهد أنبيائها ، ثم دخل مصر وأقام بالاسكندرية مدة ، ثم عاد الى وطنه طوس واشتغل بتأليف الكتب الجليلة ، ثم لزم التدريس بنيسابور ، ثم عاد الى وطنه حيث قضى بقية عمره بين التدريس ووعظ الصوفية وعمل البر حتى مات بالطابَران قصبة طوس سنة ٥٠٥.

ويعتبر الغزّالى من مؤيدى مذهب الأشاعرة المسَمينَ بأهل السنة ومن أكبر أئمة الشافعية . وهو يعد خير من تكلم فى التصوف بحال لم تشبها نحلُ غلاة الصوفية الخارجين بها عن مألوف العقل البشرى المعتاد . ويعتبر كتابه (احياء علوم الدين) من أفضل كتب التصوف والأخلاق واظهار حكمة القرآن والشريعة . وأصبحت كتابته فيه أبلغ كتابة توخى أسلوبها علماء هذه المقاصد وغيرهم من المصلحين حتى عصرنا هذا.

نشأة العلوم الكونية المنقولة وترجمتها

وأشهر المترجمين والمشتغلين بها من المسلمين ومواليهم

وكانت تسمى علوم الفلسفة والحكمة . وتشمل أربعة علوم — المنطق ، والطبعيات ، والرياضيات ، والالهيات

وتشمل الطبعيات علم الطبيعة والكيمياء وفن المواليد الثلاثة والطب والصيدلة والفلاحة

وتشمل الرياضيات علم الحساب وعلم الجبر وعلم الهندسة وعلم الآلات والحيل (الميكانيكا [1]) وعلم الفلك الشامل للهيئة والتنجيم ؛ ومن متعلقاته علم الجغرافيا الرياضية

ويلحق بهذه العلوم علم السياسة وتدبير المنزل والمال وعلم الأخلاق والموسيقى

وتشمل الالهيات علم ماوراء الطبيعة من الروحانيات والمدركات العقلية كالبحث عن صفات الخالِق والقوى النفسية والجن والملائكة ونحو ذلك

---

(١) يرى بعض مهندسي عصرنا تسمية هذا العلم بعلم القوى

وهذه العلوم فطرية فى الانسان من حيث إنه متفكر متمدين لا تختص بها أمة دون أخرى ، فكان الاشتغال بها ضروريًّا لكل أمة أصبحت ذات حضارة ، ولذلك ترجم المسلمون بعضها فى عصر بنى أمية ، واستقدم المنصور العباسىّ كثيراً من الأطباء والمترجمين ، فترجموا له كتب اليونان والفرس والهنود فى الطب والفلك والسياسة . ومن أشهر هؤلاء جُرْجيسُ الكبير [1] ابن بَخْتَيَشوع ونُوبختُ [2] وابنه أبو سهل وابن المقفّع . ولما مات المنصور فترَ أمر الترجمة الى زمن الرشيد والبرامكة فحثُّوا العلماء على ترجمة الكتب اليونانية ، وصححوا بعض ما تُرْجِمَ زمنَ المنصور

ثم جاءَ عصرُ المأمون فزخرتْ بُحورُ الترجمة ، وبعث الى بلاد الروم جماعةً من المترجمين كابن البطريق [3] وسَلْمٍ صاحبِ بيت الحكمة ، والحجاج بن مطر ، وحُنَيْن [4] ابن اسحق ، فاختاروا كتباً حملوها الى بغداد ، وترجمت وتعلَّمها الناس وصححوا أغلاطها واستدركوا عليها . ولم يمض قرن من تأسيس الدولة العباسية حتى برع المسلمون فى هذه العلوم كلها وظهر منهم من الحكماء والفلاسفة من كاد يلحق فلاسفة اليونان . ومن هؤلاء فيلسوفُ الاسلام والعرب أبو يوسفَ يعقوبُ بن اسحق بن الصبَّاح الكندىّ [5] وتلميذُه أحمد بن الطيب السرَخْسى [6] . وبنوموسى [7] بن

---

(١) كان رئيس البيمارستان بجنديسابور زمن المنصور فاستدعاه اليه واتخذه طبيبه الخاص حتى سنة ١٥٢ فاستاذنه فى العودة الى بلده فمات (٢) آل نوبخت كثيرون كلهم اشتغل بالفلك والنجوم والحكمة ، وكانوا ينقلون من الفارسية . وكان نوبخت ينقل هو واولاده من الفارسية واليونانية ، وكان منجماً للمنصور فلما ضعف عن الخدمة أحضر ولده أبا سهل الى المنصور ليقوم مقامه فقبله وهو الذى كناه أبا سهل (٣) هو يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون كان أميناً على الترجمة تولى ترجمة كتب ارسطو وبعض كتب بقراط (٤) هو حنين بن اسحق العبادى عربى الاصل من العباديين نصارى الحيرة برع فى الترجمة من اليونانية توفى سنة ٢٦٠

(٥) من سلالة الاشعث بن قيس ، كان مترجماً وعالماً بالطب والفلسفة والحساب والمنطق وتأليف اللحون والهندسة وطبائع الاعداد والهيئة ، وترجم من كتب الفلسفة الكثير وأوضح منها المشكل ، وله اكثر من ٢٣٠ مؤلف (٦) هو العالم المتفنن فى كل علم والمؤلف في كل فن ، كان نديماً للمعتضد الخليفة العباسى فأنكر عليه بعض امور فقتله سنة ٢٨٦ (٧) كان بنو موسى بن شاكر وذريتهم من أفاضل علماء الرياضة والفلك ، وكان أبوهم موسى من أتباع المأمون فمات وترك أولاده الثلاثة صغاراً فرباهم المأمون وعنى بتعليمهم الحكمة وعلوم الاوائل فبرعوا فيها الغاية ولا سيما الرياضيات

شاكر محمد وأحمد والحسن أشهر رياضي هذا العصر وأول المخترعين من المسلمين فى الحيل والهندسة ، ومحمد بن موسى الخوازمى [1] مخترع علم الجبر والمقابلة . ومذيع الحساب الهندى بين العرب

ثم ذهب طَوْرُ الترجمة والتصحيح وتلاه طورُ التأليف والتكميل والاختراع . فأتىَ فيه بالعجب العجاب أبو نصر محمد بن طَرْخان الفارابى [2] الحكيم الكبير . مخترع آلة الطرب المسماة بالقانون والتى استنبط الافرنج بحا كاتها آلة المِعزف (البيانو) المتوفى سنة ٣٣٩ ه وأبو بكر محمد بن زكريا الرازى [3] الطبيب الكيميائى الشهير المتوفى سنة ٣١١ ه والشيخ الرئيس حكيم المشرق أبو على الحسين بن سينا [4] المتوفى سنة ٣٢٨ ه وأبو الريحان أحمد بن محمد البِيرُونى [5] الفَلَكِى الرياضى المقوّم المتوفى سنة ٤٣٠ ه — وكان لدولة الفواطم فى مصر اشتغال بهذه العلوم فاشتهر فى دولتهم فى الفلك والرياضيات ابن يونس [6] وفى الطب ابن رضوان [7] وغيرهما . ولم يُعْنَ أهل الاندلس بهذه العلوم عناية أهل المشرق ، وأشهر من نبغ منهم فيها

والحيَل والآلات ، واتفقوا على نقل كتب اليونان وترجمتها أموالاً طائلة وهم الذين حققوا للمأمون مقدار الدرجة الارضية وصححوه وكان اجلهم أبو جعفر محمد توفى سنة ٢٥٩

(١) ليس من أولاد موسى وكان منقطعاً لخزانة كتب الحكمة للمأمون ، وبرع فى الفلك والعدد

(٢) هو حكيم المسلمين بلا مدافع والذى تخرج بكتبه الرئيس ابن سيناء . والفارابى من اصل تركى من مدينة فاراب احدى مدن الترك فيما وراء النهر ، دخل بغداد فتعلم العربية ومهر بها ثم قرأ المنطق والفلسفة على ابى بشر متا بن يونس ، ثم ذهب الى حران بالجزيرة فقرأ على يوحنا بن خيلاق الحكيم ، ثم رجع الى بغداد ودرس والف ، ثم رحل الى الشام ومصر ، ثم أقام بدمشق زمن سيف الدولة بن حمدان فأجرى عليه أربعة دراهم كل يوم حتى مات بدمشق سنة ٣٣٩ (٣) هو من أهل الرى كان فى أول أمره ضاربا بالعود ثم اكب على كتب الحكمة والطب وعانى بنفسه صناعة التحليل والكيمياء فاستنبط كثيراً من المركبات الكيميائية مثل زيت الزاج (الحامض الكبريتى) والغول (الاسبرتو) وكان يقيم بالرى وبغداد ويتنقل بالبلدان ، وله اكثر من ٢٠٠ مؤلف

(٤) كان ابوه من بلخ عمل ببخارى للدولة السامانية فنشأ ابنه بها ، وتعلم من صغره الحكمة فبذ الاوائل والاواخر ، ولم يجىء فى الملة بعده من فاقه فيها عدا ما اهتدى اليه المحدثون فى الطب الحديث ، وتنقل فى أواسط آسيا ، وخدم فى الدولة السامانية والبويهية ووزر لاحد ملوكهم

(٥) بيرون من بلاد السند (٦) هو ابو الحسن على الشهير بابن يونس صاحب الزيج الحاكمى فى اربع مجلدات كبار وكان آية فى الفلك والتنجيم والرياضيات مات سنة ٣٩٩

(٧) هو الطبيب المنجم على بن رضوان مات سنة ٤٦٠

أبو الوليد القاضى أحمد بن رشد وأبو القاسم الزهراوى ؛ ومن كتب هؤلاء الأئمة اقتبس أهل (أوربة) كثيراً من أصول مدنيتهم

الشعر

كان الشعر فى عصر صدر الإسلام ينبع من المعين الذى تنبع منه أئمة العربية وفحول الفصاحة أعنى جزيرة العرب والعراق والجزيرة الفراتية . فلما قرت دولة العرب فى العراق والأندلس أصبحت بغداد وقرطبة قبلة الشعراء، ووجهة الأدباء ، ومن لم يقصدهما للاقامة فى ظلال الخلفاء والملوك ، قصدهما للنجعة والامتياح . ولم يمض على بغداد وقرطبة قرن من تأسيس دولتيهما حتى صارتا عشين للأدب وميدانين لتسابق جياد الفحول فى كل فن ولا سيما الشعر ؛ فقد كان له عند الخلفاء والوزراء والقواد سوق نافقة حتى عند رؤساء الاعاجم من الديلم والترك ، وحتى تكلف بعضهم أن يعانيه وينظمه بل ينبغ فيه . ودام كذلك الى انتهاء الدولة العباسية ، وبهذه العناية العظيمة به وكثرة قائليه ومنتحليه تفنن الناس وأدخلوا عليه فنوناً لم تعهد فيه ، واستعملوه فى كل غرض حتى التعبد به ، وتشكل أسلوبه وتنوعت معانيه بما يطابق أغراض استعماله ولكنهم لم يخرجوا بها فى الجملة عن أسلوب العرب فى ابتدائهم بالنسيب بالديار والأطلال : تذكاراً لوطنهم القديم، وتظرفاً بالتشبه بالأعراب . على أن النسيب بمثل هذه الامور لم يعد ملتزماً فى مطالع القصائد منذ صدر الدولة العباسية ، بل كثيراً ما كان يحل محله ذكر القصور [1] ونعيم العيش وصحبة اخوان الطرب [2] وغناء القيان والرحلة الى الممدوح على السفن [3] ونحو ذلك ، أو يستبدل به ذكر الخمر [4]

(١) كقول اشجع : قصر عليه تحية وسلام ∴ نشرت عليه جمالها الايام

(٢) كقول ابن هانىء : بسم الصباح لاعين الندماء ∴ وانشق جيب غلالة الظلماء

(٣) كقول بشار فى وصف سفينة :

تلاعب تيار البحور وربما ∴ رأيت نفوس القوم من جريها تجرى
الى ملك من هاشم فى نبوة ∴ ومن حمير فى الملك والعدد الدثر

(٤) كقول ابى نواس : الا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر ∴ ولا تسقنى سرا اذا امكن الجهر

وأوصافها والحثّ على اصطباحها واغتباقها ، بل لم يقف الأمر عند هذا الحد حتى تعدّاه الى التنديد بالنسيب بالأطلال وتهجين من يلهج بذكرها [1]

أما التغييرات التي طرأت على الشعر ابّان الدولة العباسية فهي :

أولاً — ما يتعلق بفنون الشعر وأغراضه . ثانياً — ما يتعلق بلفظه وأسلوبه . ثالثاً — ما يتعلق بمعانيه وأخيلته . رابعاً — ما يتعلق بأوزانه وقافيته

الأمور التي حدثت فى فنون الشعر وأغراضه

(١) زيادةُ استعماله فى إثارة العصبية والمفاخرة فى النسب [2] والمذهب السياسى [3] والدينى والعلمى [4] . وفى الأغراض السياسية من استحقاق الخلافة وتحريض وُلاةِ الأمور وتهديدِهم وانتقادِ أعمالهم فى شعرِ كثيرٍ من شعراء الدولة

(٢) الإغراقُ فى التملق المَشين فى شعر كثير من شعراءِ الدولة ، وذلك لكثرة المشتغلين بالشعر من الأدباء وقلةِ موارد الكَسْب الشريف فلم يجد الشاعر سوقاً رائجة لبضاعته إلاّ أبوابَ الخلفاء ، ولم ير لنفسه شعراً أسيَرَ ولا جائزةً أربى إلاّ بمديح أغرق فيه وخرج به عن الذوق [5] بل العقل [6] بل الشرع [7]

(٣) ازديادُ المُجُون والتهتُّك وحِكايةِ المخازى والفسوقِ ونحو ذلك . والإقذاع

---

(١) يظن أن أول من خلع هذا التقليد أبو نواس فى جملة قصائد له . ومن قوله فى ذلك :

يا رَبعُ شُغْلُكَ انى عنكَ فى شغلٍ ... لا ناقتى فيك لو تدرى ولا جملى

وكقوله : صفة الطلولِ بلاغة القدمِ ... فاجعل صفاتِك لابنة الكرم

(٢) اما بين العرب والعجم كما فى شعر بشار وعبدالله بن طاهر وسعيد بن حميد وغيرهم من طوائف الشعوبية ، واما بين اليمانية والمضرية كما فى شعر مسلم بن الوليد والحكم بن قنبر وأبى نواس وخلف الاحمر (٣) كالمفاخرة بين شيعة آل أبى طالب وآل العباس كما فى شعر مروان بن أبى حفصة والسيد الحميرى وعلى بن الجهم ودِعْبِل الخزاعى (٤) كما فى شعر أبى محمد اليزيدى وغيره

(٥) كقول ابى نواس فى ممدوحه :

كيف لايدنيك من املٍ ... من رسولُ الله من نفره

(٦) كقول المتنبى فى ممدوحيه :

ونالوا ما اشتهوا بالحزم هَوناً ... وصاد الوحشَ نملُهمو دبيبا

وقول على بن جبلة : انما الدنيا ابو دُلَفٍ ... بين باديهِ ومحتضره

فاذا ولى ابو دُلَفٍ ... ولت الدنيا على اثره

(٧) كقول ابن هانيء الاندلسى : ماشئتَ لا ماشاءت الاقدارُ ... فاحكم فانت الواحد القهارُ

في الهجاء والتصريح المعيبُ بأسماء العَوْرات والتعرُّض للحُرَم لتناقض الوازع الديني وازديادِ الزنادقة وفُجّار المَوالى والكـتّاب بعَدْوَى تمازج الاخلاق والعادات

(٤) اغراقُ شعراء (المسلمين) فى وصف الخمرة وتشبيهها والدعوةِ اليها والنشوة بها وذكر سُقاتها وندمائها [1] . والغزَل بالمذكر والاستقصاء فيه حتى غلبَ على ما سواه [2]

(٥) ازديادُ وصف الرياض [3] والبساتين والقصور ومجالس الأنس وأحوال الطبيعة ومصايد الوحوش والطير والسمك والأمور الدقيقة

(٦) ازدياد الوعظ والتزهيد فى الدنيا [4] والحكمة وضرب المثل وتأديب النفس والقصص والحكايات [5] ، وأوّل من نظم ذلك أبانُ بن عبد الحميد اللاحقى [6] ناظم كلية ودِمنة للبرامكة

(٧) ضبطُ قواعد العلوم من فقه وغيره [7]

الأمور التى حدثت فى المعانى والاخيلة الشعرية

(١) ترتيبُ الافكار وأخذ بعضها بحُجَز بعض بحيث قلَّ الاقتضابُ وشذُوذ الانتقال من معنى الى مباين له كما كان يقع كثيراً فى الشعر القديم

(٢) استعمالُ الخيال الفرضى الوهمى الذى لا يتصوّر تحقُّقه فى الخارج أو فى الذهن مما يستدعيه الغلوُّ والتغلغُل فى المدح أو الهجو أو التشبيه

(٣) اختراعُ الأخيلة الجميلة التصور فى التشبيه والاستعارة والأوصاف وحسن التعليل

(٤) استعمال طرُق الحكمة وقواعد الفلسفة وشعائر الدين ونحو ذلك [8] فى محاولة الاقناع

---

(١) كما فى شعر ابى نواس ومن تابعه (٢) كما فى شعر والبة بن الحباب وابى نواس والحسين ابن الضحاك والبحترى وغيرهم (٣) راجع نماذج الوصف وابن المعتز وابن خفاجه (٤) كما فى شعر ابى العتاهية وبقية الصوفية (٥) انظر ترجمة الطغرائى (٦) هو مولى الرقاشيين بصرى ذهب الى بغداد واتصل بالبرامكة ومنحوه على نظم كليلة ودمنة خمسة عشر الف دينار

(٧) واكثر من ذلك بعد أبان بن عبد الحميد اللاحقى ابو العتاهية ومن بعده

(٨) كما فى شعر صالح بن عبد القدوس وأبى العتاهية وابى تمام والمتنبي وأبى العلاء وغيرهم

الأمور التي حدثت في لفظ الشعر وأسلوبه

(١) هجرُ الألفاظ الغريبة بالتدريج

(٢) زيادةُ دخول الكلمات الأعجمية فيه تظرُّفاً كما في شعر أبي نواس وغيره

(٣) رقةُ الاسلوب مع بقاء الجزالة ووضوح المعني

(٤) اختراعُ البديع والاستكثارُ من أنواعه

الأمور التي حدثت في الأوزان الشعرية والقافية

(١) الاكثار من النظم في البحور التي لم تنظم منها العرب الا قليلاً كالمضارع والمقتضب

(٢) اختراع أوزان ولدها الخليل من بحور الشعر ونظم منها كثير من المولدين

(٣) اختراع اوزان أخرى كبعض أوزان اخترعها مسلم بن الوليد وأبو نواس وأبو العتاهية ونظموا منها وكالمواليا (١) وزاد هذا الأمر تفاقماً اختراع الموشحات (٢) والزجل (٣) في أواخر الدولة العباسية

ومن الامور التي حدثت في القافية :

(١) المخمس (٤) : وهو أن يؤتى بخمسة أقسمة من وزن وقافية ثم بخمسة أخرى من الوزن وقافية أخرى الى آخر القصيدة

(٢) المزدوج (٥) : وهو أن يؤتى بشطرين من قافية ثم بآخرين من قافية أخرى واكثروا منه جداً في نظم كتب الأدب والعلوم كما في نظم الألفية .

---

(١) وأول من اخترعه مولاة للبرامكة كانت ترثيهم به وتصيح بعد كل قطعة منه (واموالياه) فحملت الى الرشيد ، وكان قد تقدم بمعاقبة من يرثيهم بشعر فقالت الجارية ليس هذا شعراً لانه عامي ملحون (وان جاء على وزن البسيط) فسمى نظمها المواليا لصياحها (٢) اخترعها مقدم بن معافر القبريرى من الاندلسيين وأخذ عنه أحمد بن عبد ربه صاحب العقد (٣) اخترع بعد التوشيح في الاندلس أيضا ، وبرع فيه امام الزجالين ابو بكر بن قزمان وستأتي أمثلة هذه الفنون في العصر التالي لكثرة شيوعها فيه (٤) يقال ان أول من نظمه بشار ثم تبعه ابان وابو العتاهية

كقول خالد القناص :

وما نطقت واستعجمت حين كلمت   وما رجعت قولا وما ان ترمرمت
وكان شفائي عندها لو تكلمت   الىّ ولو كانت اشارت وسلمت
ولكنها ضنت علىّ بتبيان

نماذج من الشعر فى الأغراض الآتية

الحماسة — قال بشّار بن برد :

وجيشٍ كجنْحِ الليل يزحفُ بالحصى ... وبالشوكِ والخطّىّ حمرٌ ثعالبُه[1]
غدونا له والشمسُ فى خِدْرِ أمّها ... تطالعنا والطلُّ لم يجرِ ذائبُه
بضربٍ يذوقُ الموتَ من ذاق طعمَه ... وتُدْرِكُ من نجّى الفرارُ مثالبُه[2]
كأنّ مُثارَ النقعِ فوق رءوسِنا ... وأسيافَنا ليلٌ تهاوى كواكبُه
بعثنا لهم موتَ الفُجاءةِ إننا ... بنو الموتِ خفّاقٌ علينا سبائبُه[3]
فراحوا فريقٌ فى الإسارِ ومثلُه ... قتيلٌ ومثلٌ لاذ بالبحر هاربُه

وقال اسحقُ بنُ ابراهيمَ الموصلى يفتخرُ بولائه لخزيمةَ بن خازم النهشلى من سروات أمراءِ العرب فى الدولة العباسية :

إذا مضرُ الحمراءُ كانت أُرومتى ... وقامَ بنصرى خازمٌ وابنُ خازمِ
عطستُ بأنفٍ شامخٍ وتناولت ... يداىَ الثُريّا قاعداً غيرَ قائمِ

وقال أبو الطيب المتنبى :

وانى لمن قومٍ كأنّ نفوسَهم ... بها أنَفٌ أن تسكنَ اللحمَ والعظما
فلا عبرَتْ بى ساعةٌ لا تُعِزُّنى ... ولا صحِبَتْنى مُهجةٌ تَقْبَل الظُلما

المدح — وقال مروان بن أبى حفصة يمدح معن بن زائدة الشيبانى :

بنو مطرٍ[4] يومَ اللقاءِ كأنهم ... أسودٌ لها فى غِيلِ خَفّانَ[5] أشبُل
همُ يمنعونَ الجارَ حتى كأنما ... لجارِهمُ بين السِّما كَيْنِ منزِل
بهاليلُ[6] فى الاسلامِ سادوا ولم يكنْ ... كأوّلِهم فى الجاهليةِ أوّلُ

---

(١) الثعالب جمع ثعلب وهو هنا طرف الرمح الداخل فى جبة السنان : أى والرماح حمر اطرافها من دماء الاعداء (٢) أى مثالب الفرار من الخزى والعار (٣) جمع سبيبة وهى الشقة من الثياب

(٤) بطن من شيبان منها معن (٥) مأسدة قرب الكوفة (٦) جمع بهلول وهو السيد الجامع لكل خير

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعوا ... أجابوا وإن أعطَوْا أطابوا وأجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون فَعالهم ... وإن أحسنوا فى النائبات وأجملوا

وقال أبو تمام:

تعوَّد بَسطَ الكف حتى لو أنّه ... ثناها لقبضٍ لم تجبْه أناملُهْ
ولو لم يكن فى كفه غيرُ رُوحه ... لجاد بها ، فليتّقِ اللهَ سائلُهْ

وقال أبو عبادة البحترى:

كلما قلتِ أطلقَ الشكْرُ رِقى ... رَجَعَتْنى له أياديه عبدا
أين عمرُ الزمانِ حتى أؤدى ... شكرَ إنعامك الذى لا يُؤدَّى

وقال أبو الفَياض الطبرى:

يد تراها أبدا ... فوق يدٍ وتحت فَمْ
ما خلقت بنانُها ... إلاَّ لسيف أو قلَمْ

الرثاء — قال الحسين بن مطير يرثى معن بن زائدة:

ألِمَّا على مَعْنٍ فقولاَ لقبره: ... سقتك الغَوادى مَرْبعاً ثمَّ مَرْبعا (١)
فيا قبرَ معنٍ أنت أوّلُ حفْرة ... من الأرضِ خُطَّت للسماحةِ مضجعا
ويا قبرَ معنٍ كيف واريتَ جودَه ... وقد كان منه البرُّ والبحرُ مُترَعا (٢)
بلى قد وسِعْتَ الجودَ والجودُ ميتٌ ... ولو كان حَيًّا ضِقْتَ حتى تَصَدَّعا (٣)
فتًى عِيشَ فى معروفه بعدَ موته ... كما كانَ بعد السَّيلِ مجْراه مَرتعا (٤)
ولما مضى مَعْنٌ مضى الجُودُ وانقضى ... وأصبحَ عِرْنينُ المكارمِ أجْدَعا (٥)

وقال أشجع السُّلَمى:

مضى ابْنُ سعيدٍ حينَ لم يَبْقَ مَشْرِقٌ ... ولا مَغْرِبٌ إلاَّ له فيه مادحُ
وما كُنْتُ أدرِى مافواضِلُ كَفِّهِ ... على الناسِ حتى غَيَّبَتْهُ الصَّفائحُ

(١) الغادية السحابة تنشأ غدوة (٢) المترع الملآن (٣) تصدع . تتصدع أى تتشقق
(٤) منبتا ترتع فيه الابل (٥) العرنين الانف أو أوله مما يلى الحاجبين وهو موضع الشمم

فأصبح في لحدٍ من الأرض ميّتاً ... وكانت به حيّاً تضيق الصحاصح (١)
وما أنا من رزءٍ وإن جلّ جازعٌ ... ولا بسرورٍ بعد موتك فارح
كأن لم يمت حيٌّ سواك ولم يقم ... على أحدٍ إلاّ عليك النوائح
لئن حسنت فيك المراثي وذكرها ... لقد حسنت من قبلُ فيك المدائح

الهجاء — وقال حمّاد عجرد :

حُرِّيثٌ أبو الصلت ذو خبرةٍ ... بما يُصلح المعدة الفاسده
تخوّف تخمة أضيافه ... فعوّدهم أكلة واحده

وقال خلفٌ الاحمر :

لنا صاحبٌ مولعٌ بالخلاف ... كثيرُ الخطاء قليلُ الصواب
ألجُّ لجاجاً من الخنفساءِ ... وأزهى إذا ما مشى من غرابِ

وقال أبو عليّ البصير :

لعمر أبيك ما نُسِب المعلّى ... إلى كرمٍ وفي الدنيا كريمُ
ولكن البلادَ اذا اقشعرّت ... وصوّح نبتُها رُعِيَ الهشيم (٢)

وقال العتّابي :

لئن كانت الدنيا أنالتك ثروةً ... فأصبحت ذا يُسْرٍ وقد كنت ذا عُسْر
لقد كشف الإثراء منك مخازيا ... من اللؤم كانت تحت سترٍ من الفقر

وقال الأبيوردي :

وقصائد مثل الرياض أضعتها ... في باخلٍ ضاعت به الاحساب
فاذا تناشدها الرواة وأبصروا الـ ... ـممدوح قالوا : ساحرٌ كذاب

الاعتذار — وقال على بن الجهم للمتوكل :

عفا الله عنك ألاَ حرمةٌ ... تجود بعفوك ان أبعدا

---

(١) الصحاصح جمع صحصح وهو ما استوى من الأرض (٢) صوح يبس وتشقق — الهشيم الجاف من النبات

لئن جلّ ذنب ولم أعتمدْ لأنت أجل وأعلى يدا
ألم ترَ عبداً عدا طوره ومَوْلًى عفا ورشيداً هدى
ومفسِدِ أمرٍ تلافيته فعاد فأصلح ما أفسدا
أقلني أقالك من لم يزل يقيك ويصرف عنك الردى

وقال ابراهيم بن المهدى فى أبيات يعتذر بها للمأمون :

الله يعلم ما أقول فإنها جهد الأليّةِ من مُقِرّ خاضع
ما ان عصيتك والغواة تمدنى أسبابها الاَّ بنية طائع

وقال أيضاً :

ذنبى اليك عظيم وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أوْلا فاصفح بفضلك عنه
أن لمْ أكن فى فعالى من الكرام فكنْه

وقال الحسن بن وهب :

ما أحسن العفو من القادر لا سيما عن غير ذى ناصر
ان كان لى ذنب (ولا ذنب لى) فما له غيرُك من غافر
أعوذ بالود الذى بيننا أن يفسُد الأول بالآخر

الوصف — وقال ابن المعتز يصف طبيعة الكون عند انسلاخ النهار عن الليل

ما ترى نعمةَ السماءِ على الأر ض وشكرَ الرياضِ للأمطار؟
قد تولت زُهْرُ النجوم وقد بـــشّر بالصبح طائرُ الأسحار
وغناء الطيور كلّ صباح وانفتاقُ الاشجار بالأنوار
وكأن السحاب يجلو عروساً وكأنّا من قطره فى نِثار

وقال ابن طباطبا يصف الليل والنجوم :

ربّ ليل صحبتُه كاسفَ البا ل كئيباً حليفَ همّ شتيت
مؤنساً ربعَه بطولِ أنينٍ وهُوَ لى موحشٍ بطول السكوت
تحت سقفٍ من الزمردِ قد رصـــع حسناً بالدرّ والياقوت

وقال أبو بكر الصنوبرى يصف ديكاً :

مغرّد الليل ما يألوك تغريدا ... ملّ الكرى فهو يدعو الصبح مجهودا
لمّا تطرّب هزّ العِطفَ من طرب ... ومدّ للصوت لمّا مدّه الجيدا
كلابس مُطرَفاً مُرْخىً ذوائبُه ... تضاحك البيض من أطرافه السودا
حالى المقلّد لو قيست قلائده ... بالورد قصّر عنه الورد توريدا

الاجتماع والسياسة — قال شبل بن عبد الله مولى بنى هاشم لعبد الله عم السفاح يغريه بالأمويين وقد حضروا لديه ووضعت لهم الكراسى والنمارق :

أصبح الملك ثابتَ الآساس ... بالبهاليل من بني العباس
طلبوا وِتْرَ هاشم فشفوْها ... بعد ميْلٍ من الزمان وياس
لا تقيلنّ عبدَ شمس عِثاراً ... واقطعنْ كل رَقْلة (١) وغراس
ذلُّها أظهرَ التودّدَ منها ... وبها منكمُ كحدِّ المواسى
ولقد ساءنى وساءَ سوائى ... قربهم من نمارق وكراسى
أنزلوها بحيث أنزلها الله ... بدار الهوان والاتعاس
واذكروا مصرعَ الحسين وزيدٍ (٢) ... وشهيدٍ بجانب المهْراس (٣)
والقتيل الذى بِحَرّان (٤) أضحى ... ثاوياً بين غربة وتناسى

وقال يزيد المهلبي من قصيدة يرثى بها المتوكل ويبكت بها بنى العباس فى نبذهم العرب واستغنائهم بمماليك الترك :

لما اعتقدتم أُناساً لاحلومَ لهم ... ضِعتْم وضيّعتم من كان يُعتقدُ
ولو جعلتم على الأحرار نعمتكم ... حمتكم السادة المذكورة الحشد
قوم همُ الجذمُ والانساب تجمعهم ... والمجد والدين والارحام والبلد
اذا قريشٌ أرادوا شدّ ملكهمُ ... بغيرِ قحطانَ لم يبرح به أوَدُ (٥)

---

(١) نخلة (٢) هو ابن زين العابدين على بن الحسين (٣) ماء بأحد قتل عنده حمزة عم النبي. (٤) بلد بالشام قتل فيها ابراهيم الامام ابن محمد بن على بن عبد الله بن عباس — وابراهيم هذا أخو السفاح (٥) عوج

الحكمة والمثل — قال صالح بن عبد القدوس :

وإنَّ منْ أدَّبته فى الصِّبا كالعودِ يُسقَى الماءَ فى غَرْسِهِ
حتَّى تراهُ مُونِقاً ناضِراً بعْد الَّذِى أبْصرْت مِنْ يبْسِهِ
والشَّيْخُ لا يتْرُكُ أخلاقه حتَّى يُوارى فى ثَرى رَمْسِهِ
إذا ارْعوى عاد الى جهْلِهِ كذِى الضنى عاد الى نُكسِهِ

وقال بشار بن برد :

اذا كنت فى كل الامور معاتباً صديقك لم تلق الذى لا تعاتبُهْ
فعش واحداً أو صِلْ أخاك فانه مقارِف ذنبٍ مرَّةً ومجانبهْ
اذا أنت لم تشربْ مِراراً على القذى ظمِئتَ وأىُّ الناس تصفو مشاربهْ

وقال أبو تمام :

واذا أراد الله نشر فضيلة طُويتْ أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عَرْف العود

قال أبو الطيب المتنبى :

ذو العقلِ يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالةِ فى الشقاوة ينعَم
لا يخدعنَّك من عدوٍّ دمْعُه وارحمْ شبابَك من عدوٍّ ترحَم
لا يسلَم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدَّم
والظلم من شيَم النفوس فان تجِدْ ذا عِفةٍ فلِعلةٍ لا يظلِم
ومن البليَّة عذل من لا يَرْعوِى عن غيِّه وخِطاب من لا يفهَم
ومن العداوة ما ينالك نفعه ومن الصداقة ما يضرُّ ويؤلِم

الشعراء

لم يقْصر الشعر علي الموالى فى صدر الدَّولة العباسية كالكتابة بل اشتركوا فيه هم وغيرهم من أعراب البادية أحياناً ومن سلائل العرب بالامصار أخرى ،

غير أن بضعة من فحول صدر الدولة كانوا موالى مثل بشار وأبى نواس ومسلم وأبى العتاهية وابن الرومى

ومن أشهر شعراء الأمصار من العرب أبو تمّام والبحترى وابن المعتز والمتنبى وأبو فراس وأبو العلاء المعرّى وابن هانئ الأندلسىّ والشريف الرضى . ثم فتر أمر الشعر فى البادية الا قليلا ، وأصبح الشعراء المجوّدون لا ينجمون الا من الحواضر عرباً كانوا أو موالى

التكسب بالشعر

أتى عصر الدولة العباسية والتكسب بالشعر ضاربٌ بجرانه ، والرحلة به الى الخلفاء والولاة خَلَّةٌ مألوفةٌ ، فلم يتركها بنو هاشم وولاتهم من العرب ومستعربى الأعاجم حرفةً تمشى على رِسلها حتى ساقوها قدماً إلى غايتها بوفير عطاياهم ، وجزيل جوائزهم ، وجعل لهم المهدى والرشيد والمأمون أياماً لملاقاتهم ، واستماع ما تنتجه قرائحهم ، ترفيهاً للغة واعلاءً لشأن الأدب ، وبالغوا فى إكرام الشعراء الى حدٍّ أوجب الشكّ فى صحة الأخبار المروية عنهم فى ذلك ؛ فبعد أن كانت جوائز الصدر الأول حقائب الحنطة والزبيب والتمر أو الاذواد من الأبل وبعض التخوت من الثياب ، صارت بدر الدنانير وعشرات الألوف من الدراهم ، عدا الجوارى المولدة ، والعبيد الفارهة . والخيول المطهّمة ، بل الضياع العامرة ، ذات الغلات الوافرة . ولقد ارتقى كثير من الشعراء بشعرهم إلى رتبة الوزارة ، وولاية النواحى ، كمسلم بن الوليد ، وأبى تمام ، ومحمد بن عبد الملك الزيات (١) ، وابن زيدون ، وابراهيم الصولى ، حتى طمع بعضهم أن ينال به الملك ، كالمتنبي ، وابن عمار الأندلسى (٢) ، غير أنه دهى هذه الصناعة ما دهى العرب عامة أخريات هذا العصر باستعجام السلاطين

---

(١) هو الوزير العظيم الشاعر الكاتب السياسى الجبار محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق والمتوكل ، نكبه المتوكل لحقد قديم وعذبه حتى مات سنة ٢٣٣ (٢) هو الشاعر البليغ ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن عمار المهرى الأندلسى الشلبى وزير المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية من ملوك الطوائف خرج عليه واستقل بناحية تدمير فقتله المعتمد سنة ٤٧٧

والقواد فتكسب كثير من الشعراء بالكتابة فى الدواوين ، وقصروا مدحهم على ملوكهم وقلت الرحلة بالشعر الى الأقاليم ، واستبدل الشعراء بالمدح الأوصاف والألغازَ والأحاجىّ والسخرية والمزاح مما بلغ أشُدّه فى العصر التالى

١ — بشّار بن بُرْد

هو أبو مُعاذ بشارٌ المُرَعَّثُ[1] بن بُرْد أشعر مُخَضْرَمى الدولتين ورأس الشعراء المحدثين ، ومُمَهّد طريقِ الاختراع والبديع للمتفننين ، وأحد البلغاء المكفوفين

منشؤه — وأصله من فُرس طُخَارستان[2] من سَبْى المُهَلَّب بن أبى صُفْرَةَ ، ووقع مِلْكُ أبوَيه لبنى عُقَيْل بن كعب فنشأ بشارٌ فيهم ، وتربى فى منازلهم ، واختلف الى الاعراب الضاربين بالبصرة حتى خرج نابغة زمانه فى الفصاحة والشعر . وكان أكمهَ مجدور الوجه ، قبيح المنظَر ، مفرطَ الطول ، ضخْمَ الجثة ، متوقد الذكاء ، صادقَ الحس ، لطيفَ الهداية ، شديدالمجون ، والاستخفاف بالناس ، كثير الاستهتار بالدين ، قليل المبالاة بالوقوع فيه متهَماً بالزندقة ، شُعوبيًّا ، متعصبّاً على العرب ، شديدَ التبرم[3] بالناس ، نهاشاً لأعراضهم ، لايسلم من لسانه خليفةٌ ولاسوقة ؛ وكان من سعادة الرجل من أهل البصرة ألاّ يعرف بشَّاراً ولا بشارٌ يعرفه : فانه إن لم يصبْه فى عرضه أصابه فى ماله

شعره — وقال بشار الشعرَ ولم يبلغ عشرَ سنين . وما بلغ الحلمَ إلا وهو مخْشىٌّ معرَّةَ لسانه . وقد أجمع رواة الشعر ونقدته على أن بشاراً هو رأس المحدَثين وأسبقهم الى معاطاة البديع وطَرْق أبواب المجون والخلاعة والغزل الرقيق الحضرى والهجاء المقذِع ، وانه أول من جمع فى شعره بين جزالة العرب ورقة المحدَثين ، وفَتَق عن المعانى الدقيقة والأخيلة اللطيفة حتى عدّ شعره برزخاً بين الشعر القديم والحديث ومجازاً يعبر عليه الشعر من مرابع البداوة الى مقاصير الحضارة

---

(١) لأنه كان فى أذنه (رعثة) أى قرط (٢) اقليم بناحية ماوراء النهر على نهر جيحون
(٣) التضايق بالناس

وقد طرق كلَّ باب من أبواب الشعر التى عرفت قبله وأربى عليها . وغلب عليه الهجاء والتَّشَبُّب بالنساء والخروج به عن الحد المألوف عند أهل زمنه حتى أنكره عليه العلماء والمُتورِّعون لِما رأوْا من سوء أثره فى شبان البصرة . وقد نهاه المهدىُّ عن التشبيب فكان اذا مالت له نفسه يذكر منه مايشاء ، ويقول ان الخليفة منعه من كذا وكذا وانه له مطيع . وضمّن ذلك بعض قصائد مدح بها الخليفة فلم يزد على أن حرمه الجائزةَ ، وشجَّعه على ذلك وزيره يعقوب بن داود وكان متورعاً فهجاها ، فكان ذلك الى زندقته سببَ قتله سنة ١٦٧ وقد نيف على التسعين . وهاجى بشارٌ الشعراءَ المفلِقين ، ونصَبَ له منهم حمَّاد عَجْرَدٍ واحتدم بينهما اللّجاج والتقاذف بالأقوال المقذعة ، وظهر حمادٌ عليه فى بعض أهاجيه وآلمه وان لم يسقط منزلته

طائفة من شعره

ومن شعره فى المشورة والحكم والنصائح :

إذا بلغ الرأيُ المشورةَ فاستعن ... برأى نَصِيحٍ أو نصيحةِ حازم
ولا تجعل الشُّورى عليك غضاضةً (١) ... فان الخوافى قوة للقوادم
وما خير كفّ أمسك الغُلّ (٢) أختها ... وما خير سيفٍ لم يؤيّدْ بقائم
وخل الهُوَينى (٣) للضعيف ولا تكن ... نئوماً فان الحرّ ليس بنائم

وقال يفتخر بولائه لمضر :

إذا ما غضِبنا غَضْبَةً مضَرية ... هتكنا حجاب الشمس أو أمطرت دما (٤)
إذا ما أعرنا سيداً من قبيلة ... ذرا منبر صلّى علينا وسلَّما (٥)

وقال يهجو عبيد الله بن قزْعة :

خليليّ من كعب أعينا أخاكما ... على دهره ان الكريمَ معين
ولا تبخلا بخلَ ابن قَزْعة إنه ... مخافة أن يُرجى نداه حزين

---

(١) مذلة ونقيصة (٢) حديد أو حبل تشد به اليد الى العنق (٣) تصغير الهونى مؤنث الاهون ، ومعناه التباطؤ والتمهل (٤) أي شققنا النقع الذى يحجب الشمس كالسحب ببروق سيوفنا حتى تمطر السماء المفهومة من المقام دما ، ويدل على ذلك رواية (هتكنا سماء الله أو تقطر الدما)
(٥) يريد ان كل خطيب تفتتح خطبته بالصلاة والسلام على محمد وآله وهم من مضر

كأن عُبيدَ الله لم يلق ماجدا ولم يدر أن المكرُماتِ تكون
فقل لأبي يحيى متى تُدرك العُلاَ وفي كل معروف عليك يمين
اذا جئتَه في حاجة سدّ بابه فلم تلقه إلاّ وأنت كمين

ومن أبياته السائرة :

الحر يُلحَى والعصا للعبد وليس للمُلحِف مثل الرد
تسقط الطير حيث ينتثر الحَبّ وتُغشى منازل الكرماء
ولا بد من شكوى الى ذى مروءة يُواسيك أو يسليك أو يتوجع

٢ — ابو نواس

هو أبو عليّ الحسنُ بن هانئ ، الشاعر المتفننُ ، الجادُّ الماجن ، صاحبُ الصّيت الطائر ، والشعر السائر ، ورأس المحدَثين بعد بشار

وهو فارسى الأصل ولد بقريةٍ من كُورة خوزستان(1) سنة ١٤٥ ونشأ يتيما ، فقدمت به أمه البصرةَ بعد سنتين من مولده فتعلم العربيةَ ورغب فى الأدب ، فلم تَعْبَأ أمه بحاله ، وأسلمتْه الى عطار بالبصرة ، فمكث عنده لا يفترُ عن مُعاناةِ الشعر والاختلاف الى الأدباء والمجّان الى أن صادفه عند العطار والبة بن الحُباب الشاعر الماجنُ الكوفيُّ فى احدى قَدَماته الى البصرة ، فأُعجبَ كلٌّ منهما بالآخر ، فأخرجه والبة الى الكوفة ، فبقى معه ومع ندمائه من خُلعائها ، وتخرَّج عليهم فى الشعر وفاقَهم جميعاً . وقدِم بغدادَ وقد أربتْ سنُّه على الثلاثين ، فاتصل ببعض الأمراء ومدحهم ، وبلغَ خبرُه الرشيدَ فأذن له فى مدحه ، فمدحه بقصائد طنانة ، وحبسه مرة على هجوه مُضَر

وكان يقصد بعض عمال الولايات ويمدحهم ، ومنهم الخصيب عاملُ مصر ، ثم انقطع الى مدح محمد الأمين . وثبت عنده بعض ما يوجب تعزيره فسجنه ، ولم يلبث بعد خروجه من السجن أن مات ببغداد سنة ١٩٩(2)

(1) شرق البصرة (2) هذا رأى جامع ديوانه حمزة الاصبهانى ، وفى ابن خلكان روايات أخرى

شعره

وكان أبو نواس جميلَ الصورة ، فكِهَ المَحْضَر ، كثير الدُّعابة ، حاضرَ البديهة، متيناً فى اللغة والشعر والأدب ، متعصِّباً لليمانيةِ على المُضَرِية . وأكثر علماء الشعر ونقدتُه وفحول الشعراء على أن أبا نواس أشعرُ المحدَثين بعد بشار وأكثرهم تفنناً ، وأرصنهم قولاً ، وأبدعُهم خيالا مع دقة لفظ وبديع معنى ، وأنه شاعرٌ مطبوع برَّز فى كلّ فن من فنون الشعر ، وامتاز بقصائده الخمريات ومقطَّعاته المُجونيات وأراجيزه الطرديات[1] . وكان شعره لِقاحَ الفسادِ ، والقُدوةَ السيئه لنَقْله الغزل من أوصاف المؤنث الى المذكر ، والخروج بذلك من مألوف العرب وآدابهم ، اذ لم يكن ذلك معروفاً قبله وقبل شيطانه والبة . وزاد على ذلك انفراده (بالابداع) فى وصف الخمر فكان نَموذَج سوء لمن تأخر ؛ فافتتَن بشعره الشبان فى زمانه وبعده وحاكَوْه ، وغلب عليهم هذا المذهب حتى صار الشاعر لا يُعدُّ ظريفاً الا اذا مزج شعره بشيء من ذلك وان لم يقع فى محظوراته

طائفة من شعره

ومن جيد شعره قوله فى التشبيب والمدح :

تقولُ غداة البين احدى نسائهم ... لىَ الكبِد الحرَّى فسِرْ ولك الصبر
وقد خضَبَتها عَبْرةٌ فلدمعها ... على خدِّها خد[2] وفى نحرها نحر[3]
وقالت : الى العباس؟ قلتُ : فمن اذًا ؟ ... ومالي عن العباس معْدًى[4] ولا قصْر!
فهل يُكْفَلَنْ إلاَّ براحته الندى ؟ ... وهل يُزْهَونْ الا بأوصافه الشكر

وقوله فى الحماسة :

ومستعبدٍ اخوانه بثُرائه ... لبِست له كبراً أبرَّ على الكبر
اذا ضمنى يوماً واياه محفِل ... رأى جانبى وعْرا يزيد على الوعْر
أخالفه فى شكله وأجرُّه ... على المنطق المنزور والنظر الشَّزْر
لقد زادنى تيها على الناس أننى ... أُرانىَ أغناهم وان كنت ذا فقر
فوالله لا يبدى لسانى حاجة ... الى أحد حتى أغيَّب فى القبر

---

(١) هى أقواله فى مطاردة الصيد وفيها يصف تبكيره الى الصيد وكلابه واوابد الوحش وذلك ابرع خلق الله وصفا لكلب حتى نحله الرواة طرديات غيره (٢) شق (٣) شق أيضاً (٤) أى تجاوز لانه مصدر ميمى من عدا بمعنى تجاوز

فلا تطمعن فى ذاك منى سُوقة ولا ملِك الدنيا المحجَّب فى القصر
فلو لم أرِث فخرا لكان صيانتى فمى عن سؤال الناس حسبى من الفخر

وقوله ينعت كلباً :

أنعت كلباً أهلُه من كدّهِ قد سعِدت جدودهم بجدّهِ
وكل خير عندهم من عنده يظل مولاه له كعبده
يبيت أدنى صاحب من مهده وان عَرِى جلله ببرده
ذا غرة محجلا بزَنده تلذ منه العين حسن قده
تأخير شدقيه وطول خده تلقى الظباء عنتاً من طرده
يشرب كأساً شدها بشده يصيدنا عشرين فى مُرْقدّه (١)

يا لك من كلب نسيج وحده

ومن أبياته السائرة قوله :

اذا امتحن الدّنيا لبيبٌ تكشفت له عن عدوٍّ فى ثياب صديق

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالَم فى واحد

٣ — مسلم بن الوليد

هو صريع الغَوانى أبو الوليد مسلمُ بن الوليد الأنصارى أحد الشعراء المفلقين والبلغاء المبدعين

قال الشعر فى صِباه ولم يتجاوزْ به الامراءَ والرؤساء ، مكتفِياً بما ينالُه من قليل العطاء ، ويُنفقُه على مَلذّاته مع اخوانه من خُلعاء الشعراء ، ثم انقطع الى يزيد بن مَزْيد الشَّيبانى قائد الرشيد ، ثم اتصل بالخليفة هرونَ الرشيد وعُدّ من شعرائه ومدحه ومدح البرامكةَ وحسُن رأيُهم فيه . ولما أصبح الحل والعقد بيد ذِى الرياستين : الفضل بن سهل وزير المأمون فى أوَّل خلافته ، قرَّبه وأدناه : لأنه كان من خاصته

---

(١) اسراعه

قبل وزارته وولاّه أعمالاً بجُرْجان اكتسب منها ألفَ ألفِ درهم ، ثم لزم منزله الى أن أنفقها فى اللذات وعاد الى الفضل فقلده الضياع بإِصبهان فاكتسب منها ألف ألف أيضاً . ولما مات الفضل لزم منزله ونسك ولم يمدح أحداً حتى مات بجُرْجان[1] سنة ٢٠٨

شعره

ومسلم أوّل من تكلّف البديعَ فى شعره واستكثر منهُ في قوله ، وسبقه بشارٌ إلى استعمال البديع إلاّ أنه لم يبلغ شأوَ مسلم فيه ، وقد عدّ العلماء هذا التصنع والتكلف إفساداً للشعر إذ قد تبعهُ فى ذلك الشعراء مثل أبى تمام والبُحترى وابن المعتز وغيرهم

وقد مزَجَ مسلمٌ كلامَ البدويين بكلام الحضَريين فضمّنه المعانى اللطيفةَ وكساه الألفاظَ الظريفة ، فله جزالةُ البدويّين ورقة الحضريين

طائفة من شعره

ومن كلامه في المدح :

وَرَدْنَ رِواقَ الفضلِ فضلِ بن خالد ... فحط الثناءَ الجزل نائلُه الجزلُ
بكفِّ أبى العباس يُستمطَر الغنى ... ويُستنزَلُ النُّعْمى ويُسترعَف[2] النصلْ
ويُستعطف الأمر الأبىُّ بحزمه ... إذا الامر لم يعطِفْه نقضٌ ولا فتْلُ

وقوله :

قالوا أبو الفضل محموم فقلت لهم ... نفسى الفداء له من كل محذور
ياليت علته بى غير أن له ... أجرَ العليل وانى غير مأجور

ومن قوله فى الرثاء :

أما القبور فانهن أوانسٌ ... بجوار قبرك والديار قبور
عمت مصيبته وعم هلاكه ... فالناس فيه كلهم مأجور
ردت صنائعه اليه حياته ... فكأنه من نشرها منشور

ومن هجائه لدعبل الخُزاعى :

أما الهجاء فدَقَّ عِرْضُك دونه ... والمدحُ عنك كما علمتَ جليل

(١) بلدة عظيمة كانت بالقرب من بحر قزوين الى الجنوب الشرقى منه (٢) رعف سال بالدم أى يستدمى السيف

فاذهب فأنت طليق عِرْضِك انه ‏ ‏ عِرْضٌ عززْتَ به وأنت ذليل

ومن جيد قوله :

أرادوا ليُخْفُوا قبرَه من عَدّوه ‏ ‏ فطيبُ تُراب القبر دلّ على القبر

يجود بالنفس إن ضنّ الجوادُ بها ‏ ‏ والجود بالنفس أقصى غايةِ الجود

دلّت على عيبها الدنيا وصدّقها ‏ ‏ ما استرجع الدهر مما كان أعطانى

٤ — أبو العتاهية

هو أبو اسحقَ اسمعيلُ بن القاسِم بن سُوَيْد ، أطبع أهل زمانه شعراً وأكثرهم قولاً وأسهلهم لفظاً وأسرعهم بديهة وارتجالاً ، وأوّل من فتح للشعراء باب الوعظ والتزهيد فى الدنيا والنهى عن الاغترار بها وأكثر من الحكمة

منشؤه

ولد بعين التمر [(١)] سنة ١٣٠ ونشأ بالكوفة فى عمل أهله وكانوا باعةَ جِرار إلا أنه رَبَأ بنفسه عن عملهم . وقال الشعر فى صباه وامتزج بلحمه ودمه حتى صار كما قال هو فى نفسه : (لوشئتُ أن أجعلَ كلامى كلّهُ شعراً لفعلتُ) فذاع صيتهُ وسلَكَ طريق خُلعاء الكوفة — ثم قدِم بغداد ومدح المهدىَّ وتعرّفَ ببعض خدم قصر الخلافة وجواريه ؛ فتعشّقَ منهن فتاةً تدعى عُتْبة . ولما يئس منها لهاعنها بعض الشىء، ودرس كثيراً من مذاهب المتكلمين والشيعة والجبريةِ والزُّهاد ، فكان يسلُكُ كل مذهب منها عدة أيام ثم ينتقل عنه الى الآخر حتى اختار له من كل ذلك عقيدةً مختلطةً أفضت به الى العبادة والزهد فى الدنيا قولاً ومعيشةً على إفراط منه فى حب المال والجمع له والبُخْل به على الأهل والولد والخدم

ولم يأت عصر الرشيد حتى أضرب عن الغَزَل وقصر قولَه على الزهد فى الدنيا والتذكير بالموت وأهواله ؛ وهو فى خلال ذلك يمدح الخليفة وملوكَ الدولة ويأخذ جوائزهم . ثم عرضت له حالٌ امتنع فيها عن قول الشعر البتة ، حتى حبسه الرشيدُ لعدم تلبيته ما اقترحه عليه من القول فيه ، ثم أطلقه بعد أن أجاب طَلِبَتَه وعاد إلى

---

(١) قرية قرب الانبار

قول الشعر على عادته فيه ، وترك الغزلَ والهجاء، وبقى على ذلك مدة الرشيد والأمين وأكثر أيام المأمون حتى مات سنة ٢١١ ببغداد

شعره

ويمتاز شعره بالسهولة المتناهية بالاضافة إلى أهل عصره وانطباعه ورقته وقرب معانيه مما يجول بخواطر الخاصة والعامة ولا سيما الزهاد منهم فكان بذلك شاعر الملوك والسوقة

ومن شعره يمدح المهدى :

أتتهْ الخلافةُ مُنقادة   اليه تجرِّر أذيالَها
فلم تك تصلُح إلاّ له   ولم يكُ يصلح إلا لها
ولو رامها أحدٌ غيره   لزُلزِلت الأرضُ زِلزَالها
ولو لم تُطِعهُ بناتُ القلوب   لما قبِلَ اللهُ أعمالَها
وإن الخليفة من بُغض لاَ   اليه ليُبغضُ من قالها

وكتب على البديهة فى ظهر كتاب :

ألا إننا كلنا بائدُ   وأى بنى آدمٍ خالد
وبدؤهمُ كان من ربهمْ   وكلٌّ الى ربّه عائد
فياعجبًا كيف يعصِى الالـــه أم كيف يجحَدُه الجاحد
ولله فى كل تحريكةٍ   وفى كلّ تسكينةٍ شاهد
وفى كلّ شىء له آية   تدلُّ على أنه واحد

ومن حكمه وأمثاله مُزدوِجته التى ضمنها أربعةَ آلاف مثل ، ومنها :

حسبُك مما تبتغيه القوت   ما أكثرَ القوتَ لمن يموت
هى المقاديرُ فلمنى أوْ فَذرْ   إن كنتُ أخطأتُ فما أخطا القدرْ

ومنها :

ان الشبابَ والفراغَ والجِدهْ   مَفسدةٌ للمرء أىُّ مَفْسَده

ومن قوله :

ماالناسُ إلا للكثير المالِ أو لمسلَّط ما دام فى سلطانه
فاذا الزمان رماهما ببلية كان الثقات هناك من أعوانه[1]

ومن قوله أيضاً :

عَذيرى من الانسان لا ان جفوته صفا لى ولا ان صرت طوع يديه
وانى لمشتاق الى ظل صاحب يروق ويصفو ان كدَرت عليه

٥ — أبو تمّام

هو أبو تمامٍ حبيب بن أوْس الطائىّ أسبق ثلاثةِ الشعراء الذين سارتْ بذكرهم الركبان وخلَّد شعرَهم الزمان ، ثانيهم البحترىّ ، وثالثهم المتنبى.

منشؤه

والمشهور فى نسبه أنه عربى طائى[2] ولد سنة ١٩٠ بقرية جاسِم على ثمانية فراسخ من دمشقَ ، وكان أبواه فقيرين ، ونقِلَ صغيراً الى مصر فنشأ بها فقيراً ، وكان يسقى الماءَ بالجرَّة فى جامع عمرو . ولعل طولَ مُقامه بالمسجد (وهو يومئذٍ عش العلماء) حبب اليه العلم والأدب ، فتعلم العربيةَ وحفِظَ مالا يحصى من شعر العرب ، ونبغ فى قوله . ثم خرج الى مقرّ الخلافة فمدح المعتصمَ وحَظِيَ عنده ، ومدح وزيرَه محمدَ ابن الزيات والحسنَ بنَ وهْب[3] صاحب ديوان رسائله وغيرَهم ، ورحل الى كبار العُمال بممالكهم ومدحهم بالقصائد الخالدة ، وقربوه منهم الى حد الصداقة والإخاء ، ورغِبوا به عن التكسب بالشعر ، فولاَّه الحسن بن وهب بريد الموصل ، فأقام بها الى أن مات سنة ٢٣١ ه[4]

وكان أسمرَ طويلاً فصيحاً حلو الكلام فيه تمتمة يسيرة ، حاضر الذهن ، سريع

---

(١) أى من أعوان الزمان

(٢) اختلف فى صحة نسبة الى طى فكثير يقول ان أباه كان نصرانيا من أعاجم الشام وكان اسمه (تدوس) ففسر الى (أوس) ونحن نرجح رأى من يقول بعربيته ومنهم صاحب الاغانى الذى يقول فيه انه (من نفس طي صلبية)

(٣) أجداد آل وهب وذريتهم أهل كتابة وبلاغة كتبوا للامراء والخلفاء منذ صدر الاسلام الى أواسط الدولة العباسية (٤) فى مولد أبى تمام ووفاته روايات عدة اخترنا منها هذه

الجواب ، قلَّما عُرِف من أهل زمانه مثلُه فى حِدَّة الخاطر ولطافة الحِس (١)

شعره — ويُعَدُّ أبو تمام رأس الطبقة الثالثة من المحدَثين ، انتهت اليه معانى المتقدمين والمتأخرين ، وظهرَ والدنيا قد مُلِئَتْ بترجمة علوم الأوائل وحِكَمِها : من اليونان والفرس والهند فحصُف عقلُه ولطُف خيالُه بالاطلاع عليها ، واستخرج من جملة ذلك طريقته التى آثر بها تجويدَ المعنى على تسهيل العبارة . وكان أوّلَ من استكثر من الحِكم والأمثال فى القصائد والاستدلال على الأمور بالأدلة العقلية ، والكنايات الخفية ، ولو أفضى به ذلك الى التعقيد أحياناً ، وحاول ستر ذلك بالجناس والطباق والاستعارة فسلِم له بعضُها واعتلَّ عليه بعضُها (٢) ، فأتى من الجناس بما التاثَ به شعرُه ، وصار كالكَلَف فى صفحة البدر ، ومع هذا قد سلِمَ له من كلامه جملةٌ لم يَحُمْ حولها سابقٌ ، وعجز عن محاكاتها كلُّ لاحق

وهو الذى مهّد طريق الحِكم والأمثال للمتنبى وأبى العلاء وغيرهما ، ولذلك كان يقال : إن أبا تمام والمتنبى حكيمان والشاعر هو البحتري

ولم يُرزَق أحدٌ السعادةَ فى شعره وتناوُلَ الناس له نقداً وشرحاً واشتهاراً به مثل هؤلاء الثلاثة

وأجاد أبو تمام فى كل فن من فنون الشعر . أما مراثيه فلم يعلَق بها أحد جاش صدره بشعر

وأشهرها القصيدة التى رثى بها محمد (٣) بن حُمَيْد الطائى ومنها :

---

(١) حكى انه لما مدح احمد بن المعتصم بقصيدته السينية وانتهى فيها الى قوله :

اقدام عمرو فى سماحة حاتم — فى حلم احنف فى ذكاء اياس

قال له ابو يوسف يعقوب الكندى الفيلسوف وكان حاضراً « الامير فوق من وصفت » فاطرق مليا وقال ارتجالا :

لاتنكروا ضربى له مَن دونه — مثلا شرودا فى الندى والباس

فالله قد ضرب الاقل لنوره — مثلا من المشكاة والنبراس

(٢) كقوله : خان الصفاءَ اخٌ خان الزمان اخاً — عنه فلم يتخون جسمه الكمد

وكقوله : يوم افاض جوى اغاض تعزيا — خاض الهوى بحرى حجاه المزبد

(٣) هو أبو نصر محمد بن حميد وهو واخوته من شيعة الدولة العباسية وأنصارها وقوادها قتل احدى وقائع الخرّمية أصحاب بابك الخرّمى

نموذج من شعره

كذا فليجلَّ الخطبُ وليَفْدَحِ الأمرُ فليس لعينٍ لم يَفِضْ ماؤها عذْرُ
تُوفيت الآمالُ بعد محمد وأصبح فى شغل عن السَّفْر السَّفْرُ
وما كانَ الاَّ مالَ من قلّ مالُه وذخراً لمن أمسى وليس له ذخرُ
وما كان يَدرى مُجتدِى جودِ كفِّه اذا ما استهلَّتْ أنهُ خلِقَ العُسْرُ
ألاَ فى سبيل الله من عطّلت له فجاج سبيل الله وانثغرَ الثَّغْرُ
فتى كلما فاضت عيون قبيلة دماً ضحكت عنهُ الأحاديث والذكرُ
فتى دهره شطران فيما ينوبُه ففى بأسه شطر وفى جوده شطرُ
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقامَ النصر إن فاته النصرُ
وما مات حتى مات مَضربُ سيفه من الضرب واعتلتْ عليه القَنا السُّمرُ
وقد كان فوتُ الموت سهلاً فرده اليه الحِفاظُ المُرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ
ونفسٌ تعاف العارَ حتى كأنما هو الكفر يوم الرَّوْع أودُونَهُ الكفر
فأثبتَ فى مُسْتنقع الموت رجلَه وقال لها من تحت أخْمصِك الحشر
غدا غُدْوة والحمد نسج ردائه فلم ينصرف إلاَّ وأكفانهُ الأجر

وله من قصيدة يمدح بها الحسنَ بن رجاء [1] :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب [2] للمكان العالى
وتَنَظَّرى [3] خبب [4] الركاب [5] ينصّها [6] محيي القريض [7] الى مميت المال

ومن قوله فى الحجاب :

يأيها الملك النائى بغرّته وجودُه لمرجّى جودِه كَثَبُ [8]
ليس الحجاب بمقصٍ عنك لى أملا ان السماء تُرجّى حين تحتجب

ومن أبياته السائرة قوله :

فلو صوّرت نفسك لم تزدْها على ما فيك من كرم الطباع

(١) من رؤساء الكتاب فى دولة المأمون والمعتصم (٢) أى محارب
(٣) انتظرى (٤) سرعة سير (٥) ابل السفر (٦) يسوقها (٧) يريد نفسه (٨) قريب

وقال :

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ويُكدِى الفتى فى دهره وهو عالم
ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا هلكن اذاً من جهلهن البهائم

وقال في وصف سحابة :

سحابة صادقة الأنواء تجرُّ أهدابا على البَطحاء
تجمع بين الضحْك والبكاء بدت بنار وثنت بماء

ومن أفخم قصائده قصيدته البائية التى هنأ بها الخليفة المعتصم بفتح عمُّورية ويسخر بالمنجمين وأوَّلها :

السيف أصدق أنباءً من الكتب فى حدّه الحدّ بين الجِد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى متونهن جِلاء الشك والرِيَب

٦ — البُحتُرى (١)

منشؤه — هو أبو عُبادة الوليد بن عُبيْدٍ الطائىُّ الشاعر المطبوع ، أشهر من استحق لقب (شاعر) على الاطلاق بعد أبى نواس

ولد سنة ٢٠٦ بناحية مَنْبِج (٢) في قبائل طىّ وغيرها من البدو الضاربين فى شواطئ الفرات ، ونشأ بينهم فغلبت عليه فصاحة العرب . ولازم وهو فتى أبا تمام وعليه تخرج واقتبس طريقته فى البديع بغير إفراط . وخرج إلى العراق وأقام في خدمة المتوكل والفتح بن خاقان محترما عندهما مرْعىّ الجانب الى ان قُتلا في مجلس كان هو حاضره ، فرجع الى منبج . وبقى يختلف أحياناً الى رؤساء بغداد وسُرَّ منْ رأى حتى مات سنة ٢٨٤ ه

وكان على فضله وفصاحته ورقة كلامه وبديع خياله من أبخل خلق الله وأوسخهم ثوباً وأبغضهم إنشاداً ، وأكثرِهم فخراً بشعره ؛ حتى كان يقول إذا أعجبه شعره : أحسنتُ والله ، ويقول للمستمعين : ما لكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله

---

(١) نسبة الى بحتر بطن من طى (٢) بين الفرات وحلب

شعره

والكثير على انه لم يأت بعد أبي نواس من هو أشعر من البحترى ولا بعد البحترى من هو أطبع منه علي الشعر ولا أبدع منه فى الخيال الشعرى ؛ ولنشأته البدوية ابتعد فى شعره عن مذاهب الحضريين وتعمقهم وفلسفتهم ؛ فكان شعره كله بديع المعنى حسن الديباجة ، صقيل اللفظ ، سلس الأسلوب ، كأنه سيل ينحدر الى الأسماع ، مجوّداً فى كل غرض سوى الهجاء ، ولذلك اعتبره كثير من أهل الادب هو الشاعر الحقيقى ، واعتبروا أمثال أبي تمام والمتنبي والمعرى حكماء . ولسهولة شعره ورقته كان أكثر الأصوات التى يتغني بها فى زمنه من شعره . وله ديوان كبير طبع في جزأين في الاستانة وغيرها . ومن أحسن قوله :

نبذة من شعره

دنوتَ تواضعاً وعلوت مجداً … فشأناك انحدار وارتفاع
كذاك الشمس تبعد أن تُسامى … ويدنو الضوء منها والشعاع

ومن قوله فى سُرى الليل وطلوع الفجر :

ولقد سريت مع الكواكب راكباً … أعجازها [1] بعزيمة كالكوكب
والليل فى لون الغراب كأنه … هو فى حلوكته [2] وان لم ينعَب [3]
والعيس [4] تنصُل [5] من دجاه كما انجلى … صِبغ الخِضاب عن القذال [6] الاشيب
حتى تبدى الفجر من جنباته … كالماء يلمع من خلال الطُّحْلب [7]

ومن قوله فى الحكمة :

اذا ما نسبت الحادثات وجدتَها … بناتِ زمان أُرصدتْ لبنيه
متى أرت الدنيا نباهة خامل … فلا ترتقبْ إلا خمول نبيه

وقال يمدح أمير المؤمنين المتوكل :

بسُرَّ منْ رَا لنا امام … تغرف من بحره البحار
خليفةٌ يرتجي ويُخشى … كأنه جنة ونار
كلتا يديه تفيض سحًّا … كأنها ضَرة تغار

---

(١) مآخيرها (٢) فى شدة سواده وظلامه (٣) نعيب الغراب صياحه (٤) الابل البيض (٥) تخرج (٦) شعر مؤخر الرأس (٧) مايطفو على وجه الماء الآسن من الخضرة

فليس تأتى اليمينُ شيئاً   الا أتت مثله اليسار
فالملك فيه وفى بنيه   ما اختلف الليل والنهار

وقال يصف الربيع :

أتاك الربيعُ الطلْق يختال ضاحكا   من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروزُ فى غسَق الدجى   أوائلَ وردٍ كُنَّ بالامس نُوَّما
يُفتّقها بَرْدُ الندى فكأنه   يَبثُّ حديثاً كان قبلُ مُكَتَّما
فمن شجر ردَّ الربيعُ لباسَه   عليه كما نشّرْت وشيا منمْنَما
أحلّ فأبدى للعيون بشاشةً   وكان قذًى للعين إذْ كان مُحْرِما
ورقَّ نسيمُ الريح حتى حسبتُه   يجىءُ بأنفاس الاحبة نُعَّما

٧ — ابن الرُّومى

هو أبو الحسن على بن العباس بن جُريج الرُّومى مولى بنى العباس ، الشاعر المكثر المطبوع ، صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، والمعانى المخترعة ، والأهاجى المقذِعة

ولد ببغداد سنة ٢٢١ ونشأ بها وأقام كل حياته ، وكان كثير التطير جداً ، وله فيه أخبار غريبة ، حتى كان أصحابه اذا أرادوا أن يعبَثوا به أرسلوا اليه من يتطيّر من اسمه فلا يخرج من بيته ، ويمتنع من التصرف سائرَ يومه . وكان القاسم بن عبيَد الله وزير المعتز يخاف هجوه وفلتاتِ لسانه ، فيقال انه دسّ عليه مَن أطعمه خُشْكنانة (١) مسمومة فأكلها ، ثم أتى منزله وأقام به أياماً ومات سنة ٢٨٣ ببغداد . وقيل بل مرض ووصف له الطبيب دواءً فيه سمٌّ فغلِطَ في مقداره وأكثر منه فمات

شعره

وقال ابن الرومى الشعر في كل غرض ولا سيما الوصف والهجاء ونبغَ فى الشعر نبوغاً لم يقصِّر به كثيراً عن درجة البحترى ، وربما فاقه فى اختراع المعانى النادرة

(١) ترادف مايسمى الآن (بسكويتا)

أو توليدها من معانى من سبقه بشكل جديد ، ووضعها فى أحسن قالب ؛ وكان اذا اخترع المعنى أو ولده من كلام غيره لا يزال يستقصى فيه وينظمه بوجوه مختلفة حتي لا يدع فيه بقية ؛ وهو ممن جمع صِقال اللفظ وإجادة المعنى . ويكفيه فضلا أن يكون المتنبى أحد رواة ديوانه والآخذين عنه . وكان يكثر القول فى مطوّلاته فيرذل منها الكثير . وله ديوان كبير طبع بعضه ؛ ومن معانيه البديعة قوله :

واذا امرُؤ مدح امرأ لنواله ... وأطال فيه فقد أطال هجاءه
لو لم يقدّر فيه بُعْدَ المستقي ... عند الورود لما أطال رِشاءه[1]

وقال يمدح :

كأن مواهبه فى المحو ... ل آراؤه عند ضِيق الحيل
فلو كان غيثاً لعم البلاد ... ولو كان سيفاً لكان الأجل
ولو كان يعطى على قدره ... لأغنى النفوس وأغنى الأمل

وقال :

كم من يد بيضاء قد أسديتَها ... تَثني اليك عنانَ كل وِداد
شكر الإلهُ صنائعاً أوليتَها ... سلكت مع الأرواح فى الأجساد

وقوله فى صانع رُقاق :

ما أنس[2] لا أنس خبازاً مررت به ... يدحو[3] الرقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفّه كرةً ... وبين رؤيتها قَوْراءَ[4] كالقمر[5]
إلاّ بمقدار ما تنداح[6] دائرةٌ ... فى لُجّة الماء يلقى فيه بالحجر

وقال فى بغداد وقد غاب عنها فى بعض أسفاره :

بلد صحبت به الشَّبيبةَ والصّبا ... ولبستُ ثوبَ اللهو وهو جديد
فاذا تمثل فى الضمير رأيته ... وعليه أغصانُ الشباب تميد

---

(١) حبله (٢) (ما) شرطية و (انس) فعل الشرط و (لا أنس) جوابه — والمعنى ان نسيت شيئاً لا أنس كذا (٣) يبسط (٤) واسعة (٥) فى حسن الاستدارة والبياض
(٦) تعظم وتنبسط

وقال وهو يجود بنَفْسه :

غَابِطَ الطبيب على غلطة مُورِدٍ عَجزت موارده عن الإِصدار
والناس يلْحَوْن الطبيب وانما غلطُ الطبيب إصابةُ الأَقدر

٨ — ابن المعتز

هو أمير المؤمنين أبو العباس عبد الله ابن أمير المؤمنين محمد المعتز بالله ، أشعر بنى هاشم ، وأبرع الناس فى الأوصاف والتشبيهات

ولدَ سنة ٢٤٧ هجرية فى بيت الخلافة ، وتربى تربية الملوك ، وأخذ عن المبرّد [١] وثعلب [٢] ومؤدّبه أحمد بن سعيد الدمشقى [٣] وغيرهم ، ومهر فى العربية والأدب وكل علم يعرفه أئمة عصره وفلاسفة دهره ، حتى هابه وزراء الدولة وشيوخ كتّابها ، وعملوا على أن لا يقلدوه الخلافةَ خشيةَ أن يكفّ أيديهم عن الاستبداد بالملك ، وَوَلّوا المقتدر صبياً . ثم حدثت فتنٌ عظيمة فتسرع محمد بن داود بن الجراح [٤] (وكان من أفاضل الكتّاب والأدباء) وجمع العلماء والكتاب والقضاة وخلعوا المقتدر ، وبايعوا ابن المعتز بالخلافة على غير طلب منه ، فلما رأى غِلْمان المقتدر أن الأمر سيخرج من أيديهم حملوا على أتباع ابن المعتز فاختفى فى دار بعض التجار [٥] ، فقبض عليه وخُنق من ليلته ودفن بخربة بجوار داره سنة ٢٩٦ هجرية

شعره

وكان ابن المعتز سهلَ العبارة ، كثير مراعاة البديع فى قوله مع رشاقة وقلة تكلف وتصنع . ولما كان مقامه يجلّ عن الاكتساب بالشعر قلّ المدح فى كلامه إلا فى أهل بيته من الخلفاء وبعض وزراء الدولة ، وزاد فى التشبيهات البديعة ،

---

(١) هو النحوى البصرى العظيم والاديب الكبير ابو العباس محمد بن يزيد المبرد الازدى المتوفى سنة ٢٨٥ صاحب الكامل والروضة والمقتضب (٢) هو النحوى العظيم الكوفى ابو العباس احمد بن يحيي المشهور بثعلب ، توفى سنة ٢٩١ (٣) كان أديبا متفلسفا أدب عبد الله وروى عنه أخباره وشعره (٤) كان كاتبا عارفا بأخبار الناس ودول الملوك ، له جملة مصنفات ، قتل فى فتنة ابن المعتز سنة ٢٩٦ (٥) هو ابو عبد الله الحسين المعروف بابن الجصاص التاجر الجوهرى أخذ منه المقتدر فى حادثة ابن المعتز الفى الف دينار وسلم له بعد ذلك سبعمائه الف دينار ، وكان فيه غفلة وبله على غنى مفرط ، توفى سنة ٣١٥

وأوصاف محاسن الطبيعة ، ومجالس الأنس ، ومراسلة الاخوان فى الدعوة اليها ، ووصف الصيد وكلابه وبواشقه وفهوده ، والقلم والقرطاس ، ونحو ذلك

والمتأمل فى شعره يعرف فيه نَضْرة النعيم ، وتَرَف الملك ، ورقة الخيال ، ولطف الوجْدان

ومن ابتداءاته الجميلة قوله :

أخذتْ من شبابىَ الايام وتولى الصبا عليه السلامُ

وارعوى باطلى فبان حديث النفس منى وعفَّت الأحلام

وقوله :

ما المَغانى من بعدهم بالمَغانى فليكن شأنك البكاء وشانى

امتحىَ ربعهم وكان جديداً ونأى منهمُ الذى كان دانى

مامررْنا على لِوَى فيه نُعْمٌ(١) مذ مررنا على لِوَى نعمان(٢)

ومن شعره قوله يصف فصل الربيع :

حبذا آذار شهراً فيه للنَّوْر انتشار

ينقص الليل اذاحل م ويمتد النهار

وعلى الأرض اصفرار واخضرار واحمرار

فكأن الروض وشىٌ بالغت فيه التجار

نقشه آس ونسرين وورد وبَهار

ومن تشبيهاته قوله فى الهلال :

وانظر اليه كزَوْرَق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

وقوله :

انظر الى حسن هلال بدا يهتك من أنواره الحِنْدِسا(٣)

كمِنجل قد صيغ من فضة يحصُد من زهر الدجى نرجسا

---

(١) من أسماء نسائهم (٢) مكان وجبلان ببلاد العرب (٣) الظلام

وقال يصف :

كأن سماءنا لما تجلّت خلال نجومها عند الصباح
رياض بنفسج خضل نداه تفتح بينه نور الأقاحى

وقال :

قد أغتدى والليل فى جلبابه كالحبشى فرّ من أصحابه
والصبح قد كشر عن أنيابه كأنما يضحك من ذهابه

وقال :

وفتيان غدوا والليل داج وضوء الصبح متهم الورود
كأن بزاتهم أمراء جيش على أكتافهم صدأ الحديد

٩ — أبو الطيب المتنبى

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفى الكندى الكوفىّ المتنبى ، الشاعر الحكيم صاحب الأمثال السائرة ، والمعانى النادرة ، وخاتم ثلاثة الشعراء ، وآخر من شارف شعره غاية الارتقاء.

وهو من سلالة عربية من قبيلة جعفىّ بن سعد العشيرة : إحدى قبائل اليمانية

ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ فى محلة كندة ونسب اليها ، وليس بكندى . ونشأ بها واولع بتعلم العربية من صباه . وكان نادرة فى الحفظ لا يسأل عن شئ الا استشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر : وكان أبوه فيما يقال سقّاء ، فخرج به الى الشام ، ورأى أبو الطيب أن استتمام علمه باللغة والشعر لا يكون إلاّ بالمعيشة فى البادية فخرج الى بادية بنى كلب ، وهو بعدُ فتى لا يزيد عمره على عشرين سنة ، فأقام بينهم مدة ينشدهم من شعره ويأخذ عنهم اللغة إذ كانت لا تزال صحيحة بالبادية حتى أحاط بغريبها وحوشيها ؛ فعظم شأنه بينهم . وكانت الأعراب الضاربون بمشارف الشام

شديدي الشَّغب على ولاتها فوَشى بعضهم الى لؤلؤ أمير حمص من قبل الاخشيدية[1] بأن أبا الطيب ادّعى النبوة فى بني كلب [2] وتبعه منهم خلق كثير ويخشى على ملك الشام منه . فخرج لؤلؤ الى بني كلب وحاربهم وقبض على المتنبى وسجنه طويلا ثم استتابه وأطلقه[3]

فخرج من السجن وقد لصِق به اسم المتنبى مع كراهته له . ثم تكسب بالشعر مدة انتهت بلَحاقه بسيف الدولة بن حَمْدان [4] فمدحه بما خلَّد اسمه أبد الدهر ، وتعلم منه الفروسية ، وحضر معه وقائعه العظيمة مع الروم حتى عدّ من أبطال القتال طمعاً منه أن يكون صاحبَ دولة . وبقى أثيراً عنده مقدّماً على جميع حاشيته وبطانته مع صلَفه وتِيهه . فوشوْا به الى سيف الدولة .وكان أشدّهم حسداً له ابن خالويه النحوى[5] مؤدّب سيف الدولة . فجرت مناظرة بينه وبين أبى الطيب فى مجلس سيف الدولة ، فضربه ابن خالويهِ بمفتاح حديد فى وجه فشجّه ولم ينْصفه سيف الدولة منه . فقصد أبو الطيب كافوراً الاخشيدى أمير مصر رجاءَ أن ينال عنده ما لم ينل عند سيف الدولة ، ومدحه بقصائد سنية. ووعده كافور أن يقلده امارة او ولاية ، ولكنه لما رأى تغاليَه فى شعره وفخرَه بنفسه عدل أن يوليه ، وعاتبه بعضهم فى ذلك فقال :

---

(١) الدولة الاخشيدية هي دولة استقلت بمصر والشام والحجاز استقلالا داخليا من سنة (٣٢٤ـــ ٣٥٨ هـ) ورأسها (محمد بن طغج الاخشيد) مات سنة ٣٣٤ وخلفه ابنه ابو القاسم آنوجور وكان صغيراً فجعل الاستاذ ابو المسك كافور الخصى الاسود قيما عليه فمات أنوجور سنة ٣٤٩ وخلفه أخوه على ولم يكن له مع كافور من الامر شيء ومات سنة ٣٥٥ فتولى كافور ملك مصر وجاءه تقليد الخليفة ومات سنة ٣٥٧ فتولى احمد بن على بن الاخشيد فاقام شهوراً حتى جاءت الدولة الفاطمية وفتحت مصر (٢) راجع مصور جزيرة العرب الملحق بهذا الكتاب .

(٣) راجع كتاب تاريخ أدب اللغة فى العصر العباسى

(٤) هو أبو الحسن على أشهر أمراء الدولة الحمدانية من قبيلة تغلب ، وكان سيف الدولة يملك حلب والعواصم ، ثم أخذ دمشق من الاخشيدية ومات سنة ٣٥٦ وكان اخوه الحسن ناصر الدولة تملك الموصل والجزيرة وخلف سيف الدولة ابنه سعد الدولة ، وخلف ناصر الدولة ابنه ابو تغلب ثم اخوه الغضنفر (٥) هو أبو عبد الله الحسين بن احمد بن خالويه كان اماماً فى اللغة والنحو توفى سنة ٣٧٠

ياقوم: من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم أما يدعى المملكة بعد كافور! فحسبكم. فعاتبه أبو الطيب عتاباً أمضّه وآلمه ، واستأذن فى الخروج من مصر فأبى ، فتغفله ليلة عيد النحر سنة ٣٥٠ هـ وخرج منها يريد الكوفه ، ومنها قصد عضد الدولة بن بويه بفارس مارّاً ببغداد ، فمدحه ومدح وزيره ابن العميد فأجزل صلته وعاد الى بغداد ؛ وخرج الى الكوفة . فخرج عليه أعراب بنى ضبّة وفيهم فاتك بن أبي جهل وكان المتنبي قد هجاه هجاءً مقذعا ، فقاتلهم قتالاً شديداً حتى قتل هو وابنه وغلامه سنة ٣٥٤

منزلته فى الشعر — لاخلاف عند أهل الأدب فى أنه لم ينبغ بعد المتنبى فى الشعر من بلغ شأوه أو داناه ، والمعرى على بعد غوْره وفرط ذكائه وتوقد خاطره وشدة تعمقه فى المعانى والتصورات الفلسفية يعترف بأبى الطيب ويقدّمه على نفسه وغيره.

موازنة بين المتنبي والطائيين

على انهم مجمعون أن البحترى من حيث رقة اللفظ وحسن التخيل يفضل أباتمام والمتنبى ، ويختلفون فى المفاضلة بين الاخيرين من حيث الحِكَمُ والمعنى ، ولعل المتنبى أرجحهما . وقد قال المتنبي الشعر فى كل غرض من أغراضه ، وأجاد فى وصف المعارك والعتاب والمراثى ، أما مدائحه فهى أكثر بضاعته ، وقلَّما ترك فيها معنى لم يطرقه . ولثقته بنفسه في اللغة وعلوم العربية جعل غايته فى شعره ابراز معانيه الشريفة وأفكاره الدقيقة علي أى لفظ كان وبأى أسلوب تهيأ له ، ولولم يجْرِ علي مشهور القياس [1] أو ينطبق علي وجوه البلاغة والأساليب الشعرية [2] السهلة ؛ ولذلك تجد فى كلامه كثيراً من الغَرابة [3] والتعقيد اللّفظى [4] . وله من الحكم والأمثال ما يربو به على كل شاعر تقدّمه . وقد أصبح للغة العربية وآدابها من كلامه

شعره

---

(١) كقوله ولا يبرم الامر الذى هو حالل ولا يحلل الامر الذى هو مبرم
(٢) » لولم تكن من ذا الوري اللذ منك هو عقمت بمولد نسلها حواء
(٣) » مبارك الاسم اغرّ اللقب كريم الجرشى شريف النسب
(٤) » انى يكون ابا البرية آدم وابوك والثقلان انت محمد.

ثروة لم تكن لها لولاه ، وما من كاتب أو خطيب أو متكلم أو مناظر أو مدرّس، إلاّ وله من حكم المتنبي مَدَد أيّما مدد

شيء من شعره

ومن قوله :

إذا رأيت نيوب الليّث بارزةً فلا تظنّنّ أن الليث يبتسمُ
أعيذُها نظراتٍ منك صادقةً أن تحسبَ الشحمَ فيمن شحمُه ورم
وما انتفاع أخي الدنيا بناظِرِهِ اذا استوت عنده الأنوار والظلَم
يامن يعزُّ علينا أن نفارقهمْ وِجدانُنا كلّ شيء بعدَ كم عدم
ان كان سرَّكم ما قال حاسدُنا فما لجُرحٍ اذا أرضا كم ألَم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفةٌ ان المعارِف في أهل النهى ذِمم
كم تطلبون لنا عيباً فيُعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم
اذا ترحلتَ عن قوم وقد قدروا ألاّ تفارقهمْ فالراحلون همُ

ومن قوله يمدح سيف الدولة ويصف معركة :

أتوك يجرّون الحديد كأنما سروْا بجياد مالهن قوائم[1]
خميس بشرق الارض والغرب زحفه وفي أذُن الجوزاء منه زمازم[2]
تجمّع فيه كل لِسنْ[3] وأمة فما يفهم الحُدَّاثَ إلا التراجم
وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كَلْمَى[4] هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى الى قول قوم أنت بالغيب عالم
ضممت جناحيهم على القلب ضمةً تموت الخوافي تحتها والقوادم
بضرب أتى الهامات والنصر غائب وصار الى اللبات[5] والنصر قادم
حقرت الردينيات[6] حتى طرحتها وحتى كأن السيف للرمح شاتم
ومن طلب الفتح الجليل فانما مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم
نثرتهمُ فوق الاحيدب[7] كله كما نثرت فوق العروس الدراهم

---

(١) كناية عن انهم مسربلون هم والخيل بالحديد الى الارض (٢) اصوات الرعد واراد بها الاصوات الشديدة (٣) لغة (٤) مجروحة (٥) اعالى الصدور (٦) الرماح (٧) جبل الحدث

ومن قوله يرثى :

ما كنت أحسب قبل دفنك في الثرى	أن الكواكب فى التراب تغور
ما كنت آمل قبل نعشِك أن أرى	رَضْوَى[1] على ايدى الرجال يسير
خرجوا به ولكلّ باكٍ حولَه	صعقات موسى يوم دُكّ الطور
حتى أتوا جدثاً كأن ضريحه	فى كل قلبٍ مُوحِّدٍ محفور
كفلَ الثناءُ له بردّ حياتهِ	لمّا انطوى فكأنه منشور

وديوان شعره مشهور شرح وانتقد وكتب فيه أكثر من أربعين تأليفاً . ومن شروحه المطبوعة شرح العُكْبَرى وشرح الواحدى

١٠ — ابن هانئ الاندلسى

هو أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدىُّ الأندلسىُّ ، شاعرُ الغرب ومُتَنَبّيه ، والمؤثِرُ فخامةَ ألفاظه على رقة معانيه ، وأحد المفرطين فى غلو المدح واستعمال الاستعارة والتشبيه

ولد بإشْبيلية سنة ٣٢٦ ولما نبُه شأنه اتصل بعامل اشبيلية زمن المستنصر الاموى[2] ومدحه بغرر القصائد فأحله منه منزلة سنية وأغدق عليه العطايا فأكب على اللهو والطرب والاستهتار ، واتهم بالزندقة والكفر لاشتغاله بمذاهب الفلاسفة وظهور أثرها فى شعره باستعمال الغلو المفرط فى وصف ممدوحه بصفات المعبود وغير ذلك

ولما شاع ذلك عنه نَقمه عليه أهلُ اشبيلية وأشركوا عاملها فى التهمة وكادوا يهمون به ، فأشار عليه بالهجرة من إشبيلية فاجتاز البحرَ الى عُدْوة المغرب ، ومدح ولاَته من قبل المعز الفاطمىّ . ثم نمى خبره الى المعز[3] فوجه فى طلبه فوفد عليه

---

(١) جبل بالحجاز راجع مصور جزيرة العرب الملحق بهذا الكتاب

(٢) هو الحكم بن عبد الرحمن الناصر توفى سنة ٣٦٦ (٣) هو ابو تميم معد بن اسماعيل رابع خلفاء الدولة الفاطمية وباعث القائد جوهر لفتح مصر ففتحها وأسس القاهرة وانتقل اليها المعزومات بها سنة ٣٦٥ وأوائل خلفاء هذه الدولة كانوا بالمغرب ورأسهم عبيد الله المهدى توفى سنة ٣٢٢ ثم خلفه ابنه القائم بأمر الله ابو القاسم محمد نزار وتوفى سنة ٣٣٣ ثم خلف هذا ابنه المنصور اسماعيل توفى سنة ٣٤١ ثم ابنه المعز المذكور آنفا وحكم مصر أولاده وأحفاده وأشهرهم ابنه العزيز ثم ابن العزيز الحاكم بأمر الله ثم ابنه الظاهر ثم عدة منهم وانقرضت دولتهم سنة ٥٦٧

بأفريقية ومدحه فبالغ في الانعام عليه ، ودخل فى دعوة الفاطميين وأغرق فيها ، فاصطفاه المعز واتخذه شاعر دولته

ولما فتح جوهر مصر وبني القاهرة ، ورحل اليها المعز ليتخذها دار ملكه شيّعه ابن هانىء ورجع لأخذ عياله والالتحاق به فتجهز وتبعه ؛ فلما وصل الى برْقة نزل علي بعض أهلها فأقام عنده أياماً في مجلس أنس ، فيقال انهم عربدوا عليه وقتلوه سنة ٣٦٢ وعمره ٣٦ سنة ، وقيل فى سبب موته غير ذلك

شعره

ولم ينبغ فى شعراء جزيرة الاندلس ولا بر المغرب جميعه من متقدميهم أو متأخريهم من يفوق ابن هانئ فى صناعة الشعر أو يساويه ؛ فقد كان عندهم فى الشهرة والاجادة وشرف الشعر بمنزلة المتنبي عند المشارقة لا فى الطريقة والمعانى ، وكانا فى عصر واحد . ويسميه كثير من الادباء بمتنبى المغرب

ولما بلغ المعز الفاطمى خبر وفاته وهو بمصر تأسف عليه كثيراً وقال (هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدّر لنا ذلك) ويمتاز شعره بكثرة غريبه ، وفخامة لفظه وطنطنة تراكيبه ، وجَلَبة عبارته وهَوْل وقعها فى نفس سامعها وان لم تكن كل معانيه مشاكلةً للفظه فى العظم والرّوْعة ، كما امتاز بحسن تصوير الخيال ، وإجادة التشبيه والاستعارة المتلائمة العلائق والقرائن ، وكثرة الغلوّ الذى يقرب من الكفر فى المديح ونحوه ، مع شدة تحامى الاندلسيين ذلك فى شعرهم واشأنهم . وابن هانىء ممن يجيد المطوّلات من القصائد ولو كانت صعبة القوافى

ومن قوله فى وصف الخيل :

وصواهلٍ لا الهضْبُ [1] يوم مُغارها [2] هَضْبٌ ولا البِيد الحزون [3] حُزُون

عُرفت بساعة سَبقِها لا أنها عَلِقتْ بها يومَ الرّهان عيون

وأجلُّ عِلْم البَرْق فيها أنها مرّت بجانِحَتَيه وهى ظُنُون

ومن قوله الموهم الكفر فى مطلع قصيدة يمدح بها المعزّ :

ما شئتَ لا ما شاءَت الأقدارُ فاحكم فأنت الواحد القهار

(١) الهضب والهضبة الجبل المنبسط على الارض (٢) أى يوم أغارتها (٣) جمع حزن ضد السهل

وقوله من قصيدة فى مدح المعز ويخاطب حامل مَظَلّتِه :

أمُدِيرَها من حيث دار لَشَدَّ ما   زاحمتَ تحت رِكابه جبريلا

ومن قوله فى مبدإ قصيدة رثاء :

صدَق الفَناء وكُذّب العمر   وجَلا العظاتُ[1] وبالغ النُّذُر
إنا وفى آمال أنفُسِنا   طولٌ وفى أعمارنا قصَرُ
لنَرى بأعيننا مَصارعَنا   لو كانت الألباب تعتبرُ
ممَّا دهانا أن حاضرنا   أجفانُنا والغائب الفِكرُ
واذا تدبّرنا جوارحَنا   فأكلُّهنّ العينُ والنظرُ
أىّ الحياةِ ألذُّ عيشتَها   من بعدِ علمى أنَّنى بَشرُ
خَرِسَتْ (لَعَمْرُ اللهِ) ألسنُنا   لمَّا تكلَّمَ فوقَنا القَدَرُ

١١ — أبو العلاء المعرّى

هو أبو العلاء أحمدُ بن عبد الله بن سليمان المَعرّى التَّنُوخيّ [٢] الشاعر الفيلسوف المتفنن الزاهد ، صاحب التصانيف والرسائل المأثورة

وهوعربى النسب من قبيلة تَنُوخ من بطون قُضَاعةَ ، وبيتُهُ بيت علم وقضاء . وُلِد بمعرّة النعمان [٣] سنة ٣٦٣ وجُدِر فى الثالثة من عمره فكُفّ بصره ، وتعلم النحو والعربية على أبيه وغيره من أئمة زمانه . وكان يحفظ كل ما يسمعه من مرة . وانتفع كثيراً من دار كتب آل عمار [٤] أمراء طرابلس الشام . وقال الشعر وعمره احدى عشرة سنة . ودخل بغداد وأقبل عليه السيد المرتضى [٥] اقبالاً عظيماً

---

(١) المفعول محذوف أى جلا العظات الشبهات والغفلات فى أمر الدنيا

(٢) راجع مصور جزيرة العرب فى هذا الكتاب (٣) بلدة بين حماه وحلب أضيفت الى النعمان ابن بشير الصحابى لانه اجتاز بها فدفن بها ولداً له ثم أقام بها (٤) هم أسرة استبدوا زمنا بطرابلس الشام وملحقاتها وجمعوا من الكتب مالا يحصى فأحرقها الصليبيون عند استيلائهم على طرابلس وأشهر هذه الأسرة أبو طالب بن عمار قاضى طرابلس المتوفى سنة ٤٦٤ ثم ابن أخيه جلال الملك أبو الحسن بن عمار (٥) هو السيد الشريف أبو القاسم على بن الحسين أخو الشريف الرضى . وهو صاحب (أمالى السيد المرتضى) توفى سنة ٤٣٦

ثم جفاه (١)

ولما رجع الى المَعَرَّة أقام ولم يبرَح منزله ونَسَك وسمّى نفسه رَهْنَ المحبِسيْن: محبس العمى ومحبِس المنزل . ووفد عليه الطلاب والأدباء والرواة والمتفلسفون، وكاتبه الوزراء والعلماء . وبقى فى منزله مكبا على التدريس والتأليف ونظم الشعر مقتنعاً بعشرات من الدنانير فى العام يستغلها من عَقَارِلهُ مجتنباً أكلَ الحيوان وما يخرج منه مدّة ٤٥ سنة مكتفياً بالنبات والفاكهة والدِّبس (٢) متعللاً بأنه فقيرٌ وأنه يرحم الحيوان . وعاش عزَباً إلى أن مات سنة ٤٤٩ بالمعرة . وأوصى أن يكتب على قبره:

هـذا جناه أبِي علــيّ وما جنيت على أحدْ

وله كثير من الشعر يناقض بعضه بعضاً (٣) فى حقيقة العالَم والشرائع والمعبود، وللناس فى اعتقاده أقوال كثيرة والظاهر أنه كان شاكّاً متحيراً

شعره

وكان أبو العلاء المعرى أحكمَ من رأى الناسُ بعد المتنبى ، ويزيد عليه فى الغريب والأخيلة الدقيقة والتكلم فى الطبائع ووسائل الاجتماع وعادات الناس وأخلاقهم ومكرهم وظلمهم ونظام الحكومات والقوانين والشرائع والأديان ، ولذلك يفضله الإفرنج ومستعربوهم عليه وهو فى هذه الأمور معدوم النظير ، ولم ينظم فى الملة أحد غيره فيها . وشعره فى المدائح والمراثى والوصف وبقية أغراض الشعر الادبية أرق من

---

(١) وذلك أنه جرى يوما بحضرة المرتضى ذكر المتنبي فتنقصه فقال المعري وكان يتعصب له لو لم يكن له الا القصيدة التي مطلعها « لك يامنازل فى القلوب منازل » لكفاه فضلا . فغضب المرتضى وامر فسحب برجله واخرج من مجلسه وقال لمن بحضرته اتدرون أى شيء أراد الاعمى بذكر هذه القصيدة فان للمتنبي ماهو اجود منها لم يذكرها فقيل السيد النقيب اعرف فقال اراد قوله في هذه القصيدة :

واذا اتتك مذمتي من ناقص فهى الشهادة لي بانى كامل

(٢) هو عسل التمر والفاكهة (٣) فبينما هو يقول :

لا اطلب الارزاق والـــمولى يفيض علىّ رزقى
ان اعط بعض القوت اعـــلم ان ذلك ضعف حقى

اذ يقول :

اذ كان لايحظى برزقك عاقل وترزق مجنونا وترزق احمقا
فلاذنب يارب السماء على امرىء رأى منك مالا يشتهى فتزندقا

شعره في النقد والفلسفة ، إلاّ أن أكثر شعره من هذا القبيل ضمنه ديوانه المسمى لزوم مالا يلزم فتقيد فيه بقيود حبست أفكاره ونهكت معانيه فجاءت ألفاظه فيه غريبة وأساليبه معقدة ، وعندنا أن هذا أمقت شذوذ له ، وإلاّ فما للفيلسوف والقيود اللفظية ، وقد كان له في نظم الأفكار التي لم تخطر على قلب أحد سواه غُنية وشهادةٌ على براعته وسبقه، ولله في خلقه شئون

ومن مراثيه مرثيته المشهورة ، ومنها :

غَيْرُ مُجْدٍ في مِلَّتي واعتقادي نَوْحُ بَاكٍ ولا ترنُّم شاد
وشبيهٌ صوت النعيّ اذا قيـــس بصوت البشير في كل ناد
أَبَكَتْ تِلْكُم الحمامةُ أم غنَّـتْ على فرْع غصنْها الميّاد[1]
صاحِ هذي قبورنا تملأ الرُّحـــبَ فأين القبورُ من عهد عاد
خَفِّفِ الوطءَ ما أظن أديم ال أرض الاّ من هذه الاجساد
وقبيحٌ بنا وإن قدُم العهـــد هوانُ الآباءِ والأجداد
سر إن استطعتَ في الهواء رُوَيْدا لا اختيالاً على رُفاتِ العباد
ربَّ لحدٍ قد صار لحداً مِرارا ضاحك من تزاحم الاضداد
ودفينٍ على بقايا دفين في طويل الأزمان والآباد
فاسأل الفرقدَين[2] عمن أحسّا من قبيل وآنسا من بلاد
كمْ أقاما على زوال نهار وأنارا لِمُدْلِجٍ في سَوَاد
تَعَبٌ كلها الحياةُ فما أعـــجَبُ الاّ من راغبٍ في ازدياد
إنّ حزناً في ساعة الموت أضعا فُ سُرُور في ساعة الميلاد
خُلِقَ الناُس للبقاء فضلّتْ أمةٌ يحسَبُونهم للنفاد
انما يُنقَلون من دار أعما ل الى دار شِقْوَةٍ أو رشاد

---

(١) أي اني لاأعرف الفرق بين صوت النعي وصوت البشير كما لايعرف الناس صوت الحمامة فبعضهم يسميه بكاء وبعضهم يسميه غناء (٢) هما نجمان في بنات نعش الصغرى (الدب الاصغر)

وهى طويلة ومنها :

بان أمرُ الإله واختلف النا ... سُ فداعٍ الى ضَلال وهاد
والذى حارت البرية فيه ... حيوانٌ مستحدَثٌ من جماد
فاللبيب اللبيب من ليس يغتــــرُّ بكَوْنٍ مَصيره للفساد

ومن قوله الموهم في اللزوميات :

ضحكْنا وكان الضّحْك منا سفاهةً ... وحقّ لسكان البسيطة أن يبكوا
تحطّمنا الأيام حتى كأننا ... زجاج ولكن لايعادُ لنا سبك

١٢ — ابن خفاجة الاندلسى

هو أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الله بن خفاجة ، شاعر شرقىّ الاندلس ،وأحد وصّاف الطبيعة

وُلد بجزيرة شُقْر [١] من أعمال بلنْسِية سنة ٤٥٠ فتعلم وتأدّب ونظم الشعر ، وأحسن فيه ، وكتب الرسائل الاخوانية البليغة . وما زالت شمس أدبه فى صعود حتى صار واحد زمانه فى الاندلس : شعراً ونثراً ، وحلاوة منطق ، وحسن محاضرة وعلوّ همة ، فقلما تعرض لاستماحة ملوك الطوائف [٢] مع تهافتهم على أهل الأدب . وكان فى صباه طَرُوبا عاكفاً على الملذات ثم أقلع فى كهولته عن صبوته . وغلب على شعره وصف الحوادث الجوّية ومناظر الطبيعة بأخيلة جميلة ، وتشبيهات بديعة . وله غزل رقيق ، ومدح بارع ، ورثاء بليغ . ويمتاز شعره بالجزالة وكثرة المعانى وازدحامها فى اللفظ حتى يحتاج فى فهمها الى التأمل على خلاف مذهب الاندلسيين في ذلك ، وتوفى سنة ٥٣٣ هـ

شعره

---

(١) هى بليدة بين شاطبة وبلنسية من شرق الاندلس ، وسميت جزيرة لان الماء محيط بها من اكثر جهاتها (٢) لما انقرضت دولة بنى أمية بالاندلس تقسم ولاتها نواحيها واستبد كل منهم بعمل وسموا ملوك الطوائف

طائفة من شعره

ومن قوله يصف زهرة :

ومائسة تُزْهى وقد خلع الحيَا · عليها حلِيً حمراً وأردية خُضْرا
يذوب لها ريق الغمائم فِضّةً · ويجمدُ فى أعطافها ذهباً نَضْرا

وقوله :

ويومٍ جرى برقه أشقراً · يطارد من مُزنه أشْهبا
ترى الأرض فيه وقد فُضضت · ووجه السماء وقد ذهّبا

وقوله يصف نهراً :

متعطّف مثل السوار كأنه · والزهر يكنفه مجرّ سماء
قد رقّ حتى ظُنّ قُرْصاً مفرغا · من فضة فى بُردةٍ خضراء
وغدتْ تحُفُّ به الغصون كأنها · هُدب يحف بمقلة زرقاء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى · ذَهب الأصيل على لجين الماء

١٣ — الطغرائى (١)

هو مؤيد الدين الاستاذ العميد فخر الكتّاب أبو اسماعيل الحسين بن محمد الطغرائى صاحب لامية العجم . وهو اصبهانىّ الأصل ، برع فى الكتابة والشعر حتى كان أوحد زمانه ، ولم ينبغ بعده فى الشرق من يضاهيه . وترقت به الحال فى خدمة سلاطين آل سلجوق الى أن صار وزيراً للسلطان مسعود بن محمد السلجوقى ، صاحب الموصل . ولما قهره أخوه السلطان محمود كان أول من اعتُقِل الوزير أبو اسماعيل الطغرائى ، فدس بعض حسدته من رؤساء الكتّاب الى السلطان محمود أنه ملحد فقتله ظلماً سنة ٥١٣

وله ديوان شعر جيد مطبوع فى الاستانة

ومن شعره لامية العجم المعتبرة من عيون الشعر وقد كان قالها ببغداد سنة ٥٠٥

---

(١) الطغرائى من يكتب الطغراء (وهى الطرة) وكانت تكتب فى الدولة السلجوقية فوق البسملة بخط معاق فيها نعوت السلطان وألقابه

يشكو فيها الزمان واهله . وهى مشهورة مشروحة بشروح كبار وصغار أ كثرها مطبوع ، وأوّلها :

أصالة الرأى صانتْنى عن الخطَل وحلية الفضل زانتنى لدى العطَل

ومنها :

حب السلامة يثْنى همَّ صاحبه عن المعالى ويغرى المرءَ بالكسل
فان جنحت اليه فاتخذْ نفقاً فى الأرض أو سلَّماً فى الجوّ واعتزل
ودعْ غِمار العلا للمقْدِمين على ركوبها واقتنع منهنَّ بالبلل
رضا الذليل بخفض العيش مسكنةٌ والعزُّ تحت رسيم الأَيْنق الذُّلل

وقال يصف :

وكأنما الشمس المنيرة إذْ بدت والبدر يجنح للمغيب وما غرب
متحاربان : لذا مِجنّ صاغه من فضة ، ولذا مجَنّ من ذهب

وقال يصف سحابة :

سارية ذات عُبوس برقها يضحك والأجفان منها تهمُل
كحلّةٍ دكناءَ فى حاشية فيها طِرازٌ مذْهَب مسلسَل
اذا دنت عِشارها صاح بها قاصف رعد وحدتها الشمأل

وقال يصف غديراً :

عجنا الى الجزع الذى مدّ فى أرجائه الغَيْمُ بساط الزَّهَرْ
حَول غدير ماؤه المنتمى الى بنات المزْن يشكو الخصر
لو لاذت الريح سَموماً به لانقلبت وهى نسيم السحر
حصباؤه درّ ورَضْراضه سُحالة العَسجَد حول الدُّرَر
وقد كسته الريح من نسجها دِرعا به يلقى نبال المطر
وألبستْه الشمس من صبغها نوراً به يخطف نور البصر
كأنها المرءاة مجلوّة على بساط أخضر قد نشر

وقال وقد رزق مولوداً على كبر :

هذا الصغير الذى وافى على كبر أقر عينى ولكن زاد فى فكرى
سبع وخمسون لو مرّت على حجر لبان تأثيرها فى صفحة الحَجر

ومن كلامه فى القصص والأمثال :

شؤم الوشاية

لقد جاء فى أمثالهم ان ثعلباً وذئباً أصابا عند ليث تقدُّما
أضرّ به جوع شديد فشفَّه [١] وأبقى له جلداً رقيقاً وأعظما
ففاز لديه الذئب يوماً بخلوة فقال : كفاك الثعلب اليوم مطعما
فكله وأطْعمه [٢] فما هو شكلنا ولست أرى فى أكله لك مأثما
فلما أحسّ الثُّعلُبان [٣] بكيده تطبّب عند الليث واحتال مُقدما
وقال : أرى بالملك داء مماطلاً تهدّم منه جسمه وتحطَّما
وفى كبِد الذئب الشفاء لدائه فان نال منها ينْج منه مسلَّما
فصادف منه ذا قبولا فعندها أحال [٤] على الذئب الخبيث فصمما
فأفلت مسلوخ الاهاب [٥] مرمَّلاً [٦] فلما رآه الثعلبان تبسَّما
وصاح به يا لابس الثوب قانئاً [٧] متى تخل بالسلطان فاسكت لتسلما

البهاء زُهَير

هو الوزير الشاعر الكاتب أبو الفضل بهاء الدين زهير بن محمد بن على المُهلبي الأزدى المصرى صاحب السهل الممتنع والغزل الرقيق والعتاب الرفيق

ولد بوادى نخلة قرب مكة سنة ٥٨١ ، ونشأ بمصر

وأجاد فنون العربية ؛ فبرع فيها نظماً ونثراً وخطًّا . ثم اتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب (من ملوك الدولة الأيوبية) وخرج معه فى خدمته الى بلاد الشام والجزيرة . فلما نُكب الملك الصالح بخيانة عسكره وانضوائهم الى ابن عمه الملك

(١) شفه الهم والمرض أنحله (٢) أى وأطعمنا منه (٣) الثعلب المذكر (٤) أقبل (٥) الجلد
(٦) أى ملطخا بالدم (٧) أى شديد الحمرة

الناصر صاحب الكَرَك وقَبض على الصالح واعتقله بقلعة الكرك حفظ البهاء عَهدَ صاحبه ولم يخدم غيرَه . وأقام بنابلس حتى تقلبت الأحوال واسترد الصالح مُلك الديار المصرية ، فقدم اليها فى خدمته واتخذه وزيرَه وموضع سره ، وأحله منزلة لم تكن لغيره : لحسن وفائه ورياضة أخلاقه ودماثة سجاياه . ونفع بخدمته خلقاً كثيراً . وبقى أثيراً عند الملك الصالح حتى مات ، فلزم داره . وحدث فى القاهرة فى شوال سنة ٦٥٦ وباء مات به ودفن بالقرافة وهى السنة التى سقطت فيها بغداد فى أيدى التتار

شعره

وكانت سهولة طباع زهير تفوق سهولة شعره . وان كان الشعر يشف عن أخلاق صاحبه ورقته فأحرى به أن يكون شعر زهير . ولم يك فى متأخرى المحدثين من هو أسهل نظماً ولا أرقّ لفظاً ولا أكثر تشريفا للمعانى المبتذلة منه . وأجود شعره ما كان فِي المغازلة والمعابثة والمعاتبة ، ولم تتفق له سوق كبيرة فى غيرها وأكثر معانيه عادية عامية إلاّ أنه كساها ديباجة من لفظه وسهولة أسلوبه رفعتها فى أعين أهل الذوق الى مرتبة أحرار المعانى . وله ديوان شعر طبع مراراً فراجعه

ومن شعره فى غير الغزل وقد غرقت به سفينة فسلم بنفسه منها وذهب ما كان معه :

لا تعتِب الدهر فى خطب رماك به	إن استردّ فقِدْماً طالما وهبا
حاسبْ زمانك فى حالىْ تصرّفه	تجِدْه أعطاك أضعاف الذى سلبا
والله قد جعل الأيام دائرة	فلا ترى راحة تبقى ولا تعبا
ورأس مالك وهى الرّوح قد سلِمتْ	لا تأسفنّ لشىء بعدها ذهبا
ما كنتَ أول مقروحٍ بحادثة	كذا مضى الدهر لا بدعا ولا عجبا
ورُبّ مالٍ نما من بعد مَرزئه	أما ترى الشمع بعد القطف ملتهبا

وقال يمدح :

أنا ذا زهيرك ليس إلاّ جودُ كفك لى مُزَيْنَهْ (١)

---

(١) يشير الى زهير بن ابى سلمى المزنى الجاهلى مادح هرم بن سنان

أهوى جميل الذكر عنـك كأنما هو لى بُثينه[1]
فاسأل ضميرك عن ودا دى انه فيه جُهينه[2]

وله لغز فى قفل :

وأسودَ عارٍ أنحل البَردُ جسمه وما زال من أوصافِه الحرْص والمنعُ
وأعجب شىء كونه الدهر حارساً وليس له عينٌ وليس له سمع

الرواية والرواة

جاءت الدولة العباسية وقد اتسع نطاق الرواية ، واختص كل فريق من الناس برواية شىء : فمنهم من انقطع لرواية القراءات ، ومنهم من انقطع لرواية الحديث ، ومنهم من انقطع لرواية العربية والشعر والأخبار ، ومنهم من انقطع لرواية الفتوح والسير وغير ذلك

فلما دُوّنت الكتب فى عصر الدولة العباسية أفرغ الرواةُ ماحفِظوه فى هذه الكتب خوفاً عليه من الضياع فكان عصرُهم الأوّلُ عصرَ جَمْعٍ وتدوين حتى اذا ما جمعت كل هذه العلوم فى بطون الكتب أخذ أمر الرواية يضمحلّ شيئاً فشيئاً فى أكثر العلوم ولا سيما الأدب ، ثم اقتُصِرَ فى الرواية على تصحيح النطق والأداء فيقرأُ التلميذُ على الشيخ القرآنَ أو الحديثَ أو اللغةَ أو الشعرَ وهو يجيزُ له أداءَها كما سمع

وكانت الروايةُ الشغلَ الشاغلَ للعلماء فى صدر الدولة العباسية لاهتمام الأمة بها وبذل الخلفاء المعونةَ لأربابها ، فاندس بين الرواة كثير من الوضّاعين وأدخلوا كثيراً من الروايات المكذوبة فى الحديث وغيره ، واضطُرَّ العلماء الى البحث عن تمحيص الصحيح فعُنُوا شديد العناية بتاريخ الرجال ، ومراتب الأخذ عنهم ، وميزوا ما أمكن تمييزُه من الموضوع . ولكل علم رواةٌ مشهورون . وقد سبق

(١) يشير الى جميل الشاعر المحب صاحب بثينة (٢) يشير الى قبيلة جهينة المضروب بها المثل فى تعرف الاخبار

الكلام على رواة العلوم والفنون فى تاريخ وَضعها . ونزيد هنا من ذكر بعض رُواة الأدب اذ كان هو غايةَ درسنا

فمن رواة الأدب والشعر خاصةً حمادٌ الراوية الكوفىُّ (١) وخَلَفٌ الأحمرُ (٢) البَصْرىُّ وأبو عمرو الشيبانىُّ الكوفىُّ (٣) والسكرىُّ البغدادىُّ (٤)

ومن رواة الأدب بجميع فنونه لغةً وشعراً وأخباراً أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى والأصمعى وأبو زيد الانصارى وأبو عبيد القاسم بن سلَّام (٥) ومحمد ابن سلام الجُمَحى (٦) وغيرهم . ونذكر على سبيل الاختصار ترجمة أشهرهم فى الرواية وهو الاصمعى فنقول :

الاصْمَعِىُّ

هو شيخُ رُواة الأَدب الامامُ الثَّبْتُ الُحجة الثقة التَّقىُّ ، أبو سعيد عبد الملك ابن قُرَيْب بنِ عبد الملك بن على بن أصمَع الباهلى البصرى

نسب الى جدّه أصمَع . وولد سنة ١٢٣ هجرية من بيت عربى قديم العهد فى الكتابة

ونشأ بالبصرة فأخذ العربيةَ والحديث والقراءَةَ عن أئمة البصرة كأبى عمرو

---

(١) هو ابو القاسم حماد الراوية ابن أبى ليلى سابور الكوفى الديلمى مولى بكر بن وائل كان أعلم الناس بايام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ، وهو الذى جمع السبع الطوال المسماة بالمعلقات توفى سنة ١٥٥ (٢) هو ابو محرز خلف الاحمر بن حيان مولى بلال بن ابى بردة بن أبى موسى الاشعرى وفيه يقول الاخفش لم ندرك أحداً اعلم بالشعر من خلف ، مات فى حدود سنة ١٨٠ ﻫ (٣) هو ابو عمرو اسحق بن مرار الشيبانى الكوفى كان راوية أهل بغداد واسع العلم باللغة والشعر ثقة فى الحديث نبيلاً فاضلاً جمع أشعار العرب فى عدة دواوين لكل قبيلة ديوان فكانت نيفا وثمانين قبيلة . عمر كثيراً حتى أتى عليه ١١٩ سنه وتوفى سنة ٢٠٦ (٤) هو ابو سعيد الحسن بن الحسين كان راوية ثقة من كبار الجامعين للشعر جمع شعر جماعة من الشعراء منهم امرؤ القيس والنابغة الذبيانى والجعدى وزهير ولبيد وأشعار بنى هذيل و بنى شيبان و بنى يربوع و بنى ضبة والازد و بنى نهشل وتوفى سنة ٢٧٥

(٥) كان ابوه عبداً روميا اشتغل بالحديث والادب والفقه فبرع فى جميعها . وكان ثقة دينا توفى سنة ٢٢٤ (٦) هو أبو عبدالله محمد بن سلام الجمحى البصرى صاحب كتاب طبقات الشعراء وكان من أعلم الناس بالشعر والاخبار توفى سنة ٢٣١

ابن العلاء والخليل بن أحمد ، وأخذ عن فصحاء الأعراب الذين كانوا يفِدون على البصرة . وأكثر الخروجَ الى البادية ، وشافه الاعرابَ وساكنهم. وربما استغرقت بعضُ رحلاته سنواتٍ يَحُجُّ فى أثنائها ويلتقى بالفصحاء فى المواسم ، حتى اجتمع له من الأَخبار والنوادر والغريب ما لم يجتمع لغيره

وتعلم من خلف الأحمر نَقْدَ الشعر ومعانيه . وكان أحفظَ أهل زمانه حتى قال مرةً انى أحفظ اثنىْ عشرَ ألف أُرجوزةٍ فقال له رجلٌ : منها البيتُ والبيتان ، فقال : ومنها المائةُ والمائتان . وراجت بضاعةُ الأصمعى عند الرشيد وأخذ جوائزَه الكثيرةَ ورُزق السعادةَ فى رواية الأَخبار والمُلَح دونَ أهل زمانه ، فتهافت الناس على نقلها فى كتبهم لرضاهم عن مذهبه وتسننه [1] : وكان يُحْجِمُ عن تفسير القرءان الكريم والحديث تحرُّجاً [2] وخوفاً من الزلل . وكان مع كل صفاته الحسنة بخيلا مخشوشناً . وعمّر حتى أدرك زمنَ المأمون. وأرادَ المأمونُ أن يُقدمَهُ اليه فاعتذر بكبر السن ، ومات سنة ٢١٦ هجرية . وله من الكتب المؤلفة والرسائل والأَمالى شيء كثير

خلاصة أثر الحضارة العباسية فى اللغة العربية

لما كانت حضارة الدولة العباسية قائمة على أساس الحضارتين الفارسية واليونانية باتخاذ خلفائها من أولئك أكثرَ شيعتهم ونصرائهم ، وإيثارهم على العرب بالملك والزّعامة ، وتقليدهم اياهم فى نظام ملكهم وطرق معايشهم ، ونقلهم عن هؤلاء علومهم وفلسفتهم ، كان لذلك آثار واضحة فى حالة اللغة العربية حسنا وقبحاً

أما الآثار الحسنة فهى :

١ — اتساع أغراض اللغة من حيث تدوين العلوم بها ، وترجمتها اليها وتدريسها ، والمناظرة فيها ، وتأدية مقاصد الصناعات ، ومظاهر الملك والترف والنعيم : من وصف القصور والبساتين ، ومناظر الطبيعة ، وأدوات الزينة ، وأساطيل الحرب ، وحصونها وقلاعها ونحو ذلك

---

(١) أى أخذه فى أعماله بالسنة النبوية المطهرة (٢) أى ابتعاداً عن الحرج والاثم

٢ — اتساع أفكار المتكلمين بها وتنوع أخيلتهم مما أدى الى ابتكار معان جديدة أو توليد حديثة من قديمة

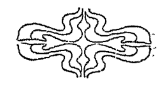
٣ — سهولة الالفاظ وتنوع الأساليب ، والتأنق فى صوغها ، وانفساح طرق التشبيه والكناية والاستعارة ، ووضع كثير من اصطلاحات العلوم والصناعات ، وحدوث لغة أدبية متعددة الصور والرسوم ، ولغة تأليفية تقاس بمعيار المنطق والبرهان العقلي دوّن بها ما لايحصى من المؤلفات التى جعلت العربية أكثر من سبعة قرون أغني لغات العالم علوماً وآداباً

وأما آثارها السيئة فهى:

١ — كثرة ما دخل عليها من الدخيل الذى قلما خضع لقوانينها الصرفية والنحوية بل كان كالصخرة الخشنة التى لم يصقلها استعمال الفصحاء ، ولا تهافت العامة

٢ — كثرة التأنق فى الحلية اللفظية كالسجع والجناس والتورية والمبالغة والتهويل فى الالفاظ والمعانى ، والتفخيم فى الالقاب وصدور المكاتبات وكثرة التملق فى المدح، والاقذاع فى الذم ، والاغراق فى وصف الخمر ، ومجالس الفجور ، والغزل بالمذكر والمجون والخلاعة ، مما ورثوا أكثره من المدنية الفارسية

٣ — ضعف قوة الارتجال واستعجام الالسن مما أفضى الى اضمحلال أمر الخطابة بالتدريج



العصر الرابع

عصر الدول المتتابعة التركية

٦٥٦ — ١٢٢٠ هـ

حالة اللغة العربية وأدبها

فى ذلك العصر

لما اكتسح التتارُ ممالكَ الدولة العباسية وخرّبوا البلادَ وقتّلوا العباد وأبادوا الكتبَ ، افترقوا الى ممالكَ متعدّدةٍ بآسيا وشرقىّ أوربة ولم يلبثوا أكثر من نصف قرن حتى أسلموا وشرعوا يخدُمون الاسلام بتقريب العلماء اليهم وترغيبهم فى التأليف ، فأفاد ذلك فى إدامة الحركة العلمية فى الجملة ، وإن لم يُفِد اللغةَ العربيةَ فائدةً تذكر لمكان العُجْمةِ منهم . أما علومُ العرب وأدبُها فلم يكنْ لها مَباءَةٌ ترجع اليها الاّ البلادَ العربية كالشامِ ومصر : فأصبحت القاهرةُ هى المثابةَ الاخيرةَ للعرب والعربية ، نعم إن حكومتها كانت تركيةً أو شركسيةً ولكن لم يكنْ لرجالها وجُنودها عصبيةٌ قويةٌ تجعَل لغتهم تُزَاحِمُ العربية ، فبقيت بطبيعة الحال اللغةُ الرسمية هى العربيةَ ، وأصبح العلماء هم رجالَ الإدارةِ والكتابةِ والقضاءِ والحِسبة وغيرِها من المناصب الملكية ، واقتصر المماليك على مراتب الجندية والمناصب العسكرية . غير أن تلك الحال لم تَدُمْ أكثرَ من مدة المماليك وصدرِ الدولة العثمانية الوارثةِ لهم ، ثم أصبحت اللغة التركية العثمانية هى اللغةَ الرسميةَ للأعمال الديوانية والسياسية فى جميع الممالك العثمانية ، فزاحمت العربيةَ مزاحمةً ظهر أثرُها بيّنا فى تحرير الرسائل الديوانية والمعاهدات السياسية . ودخل فى اللغة أثناءَ دولتى المماليك والعثمانيين كثير من الالفاظ التركية والفارسية [1]

---

(١) من ذلك : الاتابكى ، الجاشنكير ، الدوادار ، الخواجه ، اسفهسلار ، شراب خاناه ، فراش خاناه ، طباخاناه

وعاصرَ دولة المماليك بمصر والشام دولة بنى الأحمر بالأندلس [١] ودولة بني مَرين [٢] والدولة الحفْصية [٣] بشمالىّ أفريقية ، فكانت حالة لغة الادب فيهاوخاصة الاندلس أخرياتِ هذا العصر خيراً منها فى مصر ، إذ كانت جمهرة السلائل العربية فيها حافظةً صبغتها لقلة طروء العناصر الأجنبية عليها

النثر

لغة التخاطب

كادت تحل محلّ اللغة العاميةِ العربيةِ (فى أعالى الجزيرة وشرقىّ العراق) اللغةُ الفارسية والتركية والكردية ممزوجةً بشيء من الألفاظ العربية

أما بقية الجزيرة والعراق ومصر والشام ، فقد بقيت العامية العربية لسانَ الجميع فيها حتى الملوك والسلاطين لغلبة العناصر العربية فيها

ولما لم يتهيا لرؤساء المماليك وسلاطينهم اجادةُ العربية الفصيحة عضدوا العامية باقبالهم على ادبائها واحسانهم الى من ينظم بها ، فكان ذلك سبباً فى اتساع دائرة الزجل والموَاليا ومزاحمتهما للشعر الفصيح ، بل دوّنَ بها بعضُ العلماء ، وان لم يكن ذلك كثيراً ، فأصبحت بذلك لغةَ أدب وكتابة وقراءة ، ثم أخذت العناية بها فى الانحطاط أواخر هذا العصر حتى صارت أحطَّ ما كانت عليه فى عصر من العصور وكادت تتساوى فيها لغة النساء والرجال

قال فى صبح الاعشى : (الطبلخاناه) ومعناه بيت الطبل ، ويشتمل على الطبول والابواق وتوابعها من الآلات ، ويحكم على ذلك أمير من أمراء العشرات يعرف (بأمير علم) يقف عليها عند ضربها فى كل ليلة ، ويتولى أمرها فى السفر رلها (مهتار) متسلم لحواصلها يعرف (بمهتار الطبلخاناه) وله رجال تحت يديه مابين (دبندار) وهو الذى يضرب على الطبل و (منفر) وهو الذى يضرب بالبوق (وكوسى) وهو الذى يضرب بالصنوج النحاس بعضها على بعض وغير أولئك من الصناع اهـ ومن ذلك أيضاً أون باشا وبيـك باشا ويوز باشا وبرنجى وآخرنجى وقهوجى ونوبتجي وبلطجى وخستخانة وكتبخانة وأدب خانة

(١) هى آخر دولة عربية بالاندلس ويسمى سلاطينها بنى نصر

(٢) هى دولة بربرية من الدول المتفرعـة من دولة الموحـدين ، كانت تملك المغرب الاقصى

(٣) هى احدى الدول المتفرعة من دولة الموحدين ورثها الترك العثمانيون

الخطابة

لم تتغير الخطابة عما كانت عليه أواخرَ الدولة العباسية من حيث قصرها على خطب الجمع والأعياد وتلاوة بعض المرسومات والمنشورات الا قليلا من الخطب السياسية كان يعدها ملوك المغرب قبل القائها

وبقيت لغة الخَطابة العربيةَ وحدَها أو مع الترجمةِ الأعجمية في الممالك التى استعجم لسانها ، لمكان العربية من الدين . ولم يبق من أمرها أواخرَ هذا العصر الاَّ ما كان يُقْرَأُ مكتوبا فى الكتب ، بل قلّ حفظها واستظهارها فى غير القاهرة ، وانتقل وعظها من حسن الذكرى فى أمر الدين والدنيا الى التخويف من القبر ووحشته ووصف الجنة ونعيمها وجهنم وأهوالها

الكتابة

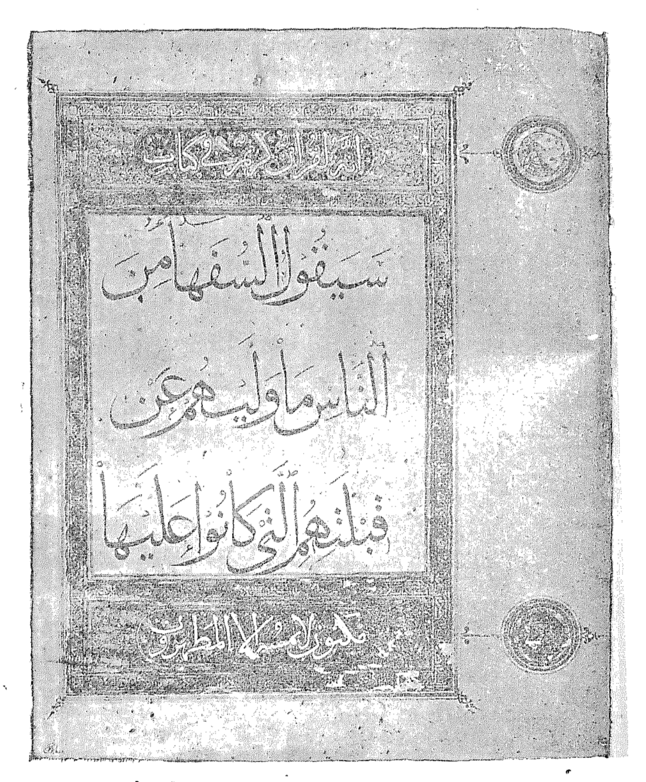
الكتابة الخطية

دَرَج الخط فى هذا العصر فى الطريق التى مهدها ابن مقلة وابن البوّاب وياقوت الملكى وياقوت المستعصمى ، واستعملت فيه أكثر أنواعه ، الا أنهُ اشتهر من بينها تسعة أنواع :

(١) الجليل (على قاعدة الثلث المعروفة لنا) وتشاهد نماذجه المتعدّدة على جدران مساجد القاهرة ، ومدارسها وأربطتها ، وخرائب قصور امرائها

(٢) قلم الطُّومار (على قاعدة الثلث أيضاً) وكانت تكتب به أسماء السلاطين وعلاماتهم على المنشورات والعهود ونحوها (راجع صبح الأعشى الجزء الثالث)

(٣) قلم الثلث ويشبه قلم الثلث عندنا ، ومنه الثلث المبسوط الحروف المسمى الآن بالريحانى كما فى هذا الشكل :



(٤) النسخ علي قاعدته المعروفة الا أن بعض حروفه معلق الأطراف الى فوق ويقرب مما نسميه الآن خط التعليق — وكانت تكتب به كتب العلم والأدب

(٥) التعليق — وكان يطلق على الثلث الخفيف عندنا مع تعليق خراطيم الحروف الى أعلى

(٦) قلم الرقاع — وكان وسطاً بين النسخ والتوقيع ، وكان تكتب به كتب العلم والأدب والرسائل

(٧) القلم المسلسل المشتبك الحروف — وكانت تكتب به عامة الرسائل المطوّلة والعقود وكتب الوقف ونحوها

(٨) الخط الفارسى — وكان استعماله عاماً فى أواسط آسيا وفارس

(٩) الخط الاندلسى — وكانت أنواعه لا تختلف إلا بالصغر أو الكبر ، وربما مال الجليل منه الى بعض قواعد الثلث فى أواخر عصورهم كما يشاهد على جدران الحمراء بغرناطة

وكان النقط والشكل فى هذا العصر قليلَىْ الاستعمال فى الرسائل من الديوانية والإخوانية كثيريهما فى كتب العلم

وما زال الخط يجرى فى مضماره حتى قبض على عنانه مكتّبو الترك العثمانيين فحوّلوا بعض أنواعه وخاصةً قلم الرقاع (الرقعة) الى ما نعرفه ، وارتقوا بالمسلسل الى الغاية ، وولدوا منهُ خط العلامة السلطانية (الهمايونى) وأبدعوا فى بقية الانواع بما جعل جميع العالم يعترف لهم بالسبق

ومن أشهرهم الشيخ حمد الله الأماسى إمام الخطاطين العثمانيين وجلال الدين والحافظ عثمان

الحافظ عثمان

هو الحافظ عثمان بن على أحد نبغاء المجوِّدين من خطاطى الترك العثمانيين ، والبارعين فى كتابة مصاحف القرآن المبين

ولد رحمه الله بالاستانة ونشأ بها وتعلم بمدارسها ، وحفظ القرآن الكريم فلقب لذلك بالحافظ واتصل بالوزير مصطفى باشا الشهير بكبريلى زاده فأظله برعايته زمناً . وحبب اليه من صغره تجويد الخط فكان يختلف لذلك الى أشهر الخطاطين فى عصره كالأستاذ درويش على وغيره حتى حصل على اجازة تعليم الخط ، ولم تعدُ سنه ثمانى عشرة سنة ، ولم يكتف بفوقه قرناءه فى الاجادة حتى خطر له أن يصحح محاكاته لاسلوب الاستاذ المولى حمدالله الأماسى ، فانقطع الى من يجيد هذه الطريقة كالمولى

اسماعيل فأجادها ، وأصبح بذلك نابغة عصره وبذّ الخطاطين جميعاً حتى قال فيه اسماعيل افندى المعروف بأغاقبولى أحد الخطاطين المشهورين : اننا رغم تجويدنا هذه الصناعة لا نرى من يستحق لقب خطاط على الاطلاق غير مولانا عثمان . ولما ذاع صيته اختير معلم خط للسلطان مصطفى خان الثانى والسلطان احمد خان الثانى سنة ١١٠٦ فنال بذلك حظوة رفيعة ومنزلة سنية لم يقابلها بغير القناعة والزهد والتواضع والاخلاص لتعليم تلاميذه ولو على قارعة الطريق

وكان يخص يوم الأحد بتعليم الخط للفقراء مجانا ، ويوم الأربعاء لتعليم الأغنياء . والحافظ عثمان جليل الفضل على الخط العربى بما كتبه من نسخ المصاحف التى بلغت خمسة وعشرين مصحفاً عدا مقداراً عظيما جدا من الرقاع والألواح وأجزاء القرآن ودلائل الخيرات ، اذ قد نقل بعض هذه بالتصوير الشمسى فذاع فى الأقطار الأسلامية وطبع منه مئات الألوف وحاكاه بها من لا يحصى من المعلمين والمكتبين

ومن هذه المصاحف مصحف حفظ بجامع أياصوفيا وبخزانة جامع نور عثمانية . وبخزانة حضرة المفضال نور الدين بك مصطفى(١) بشارع درب الجماميز بالقاهرة جملة رقاع من خطه

وأصيب رحمه الله فى آخر عمره بالفالج وشفى منه وعاد الى خدمة الصناعة ولكنه لم يطل عمره بعدُ أكثر من ثلاث سنوات فتوفى رحمه الله سنة ١١١٠ ودفن برباط (قوجه مصطفى باشا) بعد أن غبر نحو أربعين سنة يعلم الخط

الكتابة الانشائية

كتابة الرسائل

اتُّبعت فى كتابة الرسائل أثناء هذا العصر طريقة القاضى الفاضل ، التى أساسها المعانى الخيالية والتزام السجع واطالة فقاره ولا سيما الأخيرة منها ، والاستعارة ، والطباق ، ومراعاة النظير ، والتلميح ، والغُلُو فى التورية والجناس . وعَضَدَ هذه

---

(١) وعنه نقل حضرة الفاضل محمود أفندى حمزة خلاصة هذه الترجمة منقولة من التركية

الطريقة من كتّاب هذا العصر شهابُ الدين محمودٌ الحلبي [١] ومُحيي الدين بن عبد الظاهر ، وابنُ فضل الله العُمَري وأولاده . وبقيت هذه الطريقة مرعيّةً في مصر والشام حتى نهايةِ دولةِ المماليك وصدر حكومة العثمانيين

ولما غلبت اللغة التركيةُ العثمانيةُ على كتابة الدواوين وأصبحت رسميةً في الحواضر والأمصار ، أخذ شأن الكتابة العربية في الاضمحلال ، وتناقصت الرغبةُ في احسان صِناعتها ، وقلّ النابغون فيها ، ولم يعُد في استطاعة الكاتب العربي إصابة وجوه البلاغة فضلاً عن إحسانه استعمالَ المحسّنات اللفظية . فأصبحت الكتابةَ بذلك مُجَرَّدَ نِقَار من السجع المتكلف ، خاليةً من كل مزية الاَّ المبالغة والتهويل

وأكثر ما كانت تستعمل في الرسائل الإخوانية وما أشبهها ، بل عجز الكتّاب في أواخر هذا العصر أن يكتبوا لإخوانهم من إنشائهم فوُضِعت دواوينُ كتابيةٌ تشمل عدّة صور من المكاتبات المعتادة ، يستعير منها المراسل صورة قد تناسب غرضه وقد لا تناسبه — أما كتابةُ من عاصَر المماليكَ من أهل الأندلس فكانت أمثل كتابة في هذا العصر على ما فيها من التكلف أيضاً بحيث يمكن قياسها بكتابة المتأخرين من أهل العصر الماضي

الكُتّاب

القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر

هو الكاتب الشاعر عبد الله بن عبد الظاهر الجُذامي المصري مؤيد الطريقة الفاضلية ، ورأس المترسلين في دولة المماليك البحرية

وُلد سنة ٦٢٠ ورباه والده تربية شريفة جمع بها بين علوم الفقهاء ، وبلاغة الأدباء وظَرْف الشعراء ، فكان في زمانه زعيم كل هؤلاء . وبرع في كتابة الرسائل سالكاً طريقة القاضي الفاضل ، وخدم في ديوان الانشاء مدة الملك الظاهر بيبرس

---

(١) ولد بدمشق وتخرج على ابن مالك النحوى وعلماء الشام ثم انتقل الى مصر وأقام بها مدة يتقلب في مناصبها ثم جهز الى دمشق رئيسا لديوان انشائها الى أن توفي سنة ٧٥٥

البندقداری [١] وولديه وبعض أيام المنصور قلاوون [٢] ويعتبر محيي الدين وابنه محمد فتح الدين من واضعی اصطلاح الانشاء ونظام ديوانه الذی بقی مرعيًّا فی مصر والشام حتی نسخه النظام التركی العثمانی ، وتوفی سنة ٦٩٢ وله تآليف ورسائل ومكاتبات سلطانية كثيرة ، وشعر رائق

ومن فصوله فصل من رسالة كتبها علی لسان الملك المنصور قلاوون يردُّ علی صاحب اليمن فی تعزيته علی موت ابنه ، ويظهر التجلد علی فقده

« ولنا (والشكر لله) صبرٌ جميلٌ ، لا نأسف معه علی فائت ولا نأسیٰ علی مفقود ، وإذ علم الله (سبحانه) حسن الاستنابة الی قضائه ، والاستكانة الی عطائه ، عوَّض كل يوم مايقولُ المبشر به : هذا مولی مولود . وليست الإبل بأغلظَ أكباداً ممن له قلبٌ لا يُبالی بالصدَمات كثُرَتْ أو قلَّتْ ، ولا بالتباريح حَقرَتْ أو جلّتْ ولا بالأزَمات إن هی توالتْ أو تولّتْ ، ولا بالجفون ان ألقَتْ ما فيها من الدموع والهجوع وتخلّتْ . ويخافُ من الدهر من لا حلَبَ أشطُره ، ويأسفُ علی الفائت من لا بات بنبأ الخطوب الخطرة . علی أنّ الفادح بموت الملك الصالح (رضی الله عنه) وان كان مُنكياً [٣] ، والنافح بشجوه وان كان مُبكياً ، والنائحَ بذلك الأسف وإن كان لِنار الأسف مذكياً ، فان وراء ذلك من تثبيت الله عز وجل ما ينسفه نسفاً ، ومن إلهامه الصبرَ ما يُجدّدُ لتمزيق القلوب أحقَّ مابه تُرفی ، وبكتاب الله (تعالی) وسنة رسوله (صلی الله عليه وسلم) عندنا حسنُ اقتداء يضرب عن كل رثاء صفحا »

شهاب الدين بن فضل الله العمری

هو الشاعر الكاتب المصنف القاضی أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محيی الدين يحيی بن فضل الله العمری ، سليل عمر بن الخطاب وصاحب كتاب مسالك الأبصار

---

(١) هو أشهر سلاطين المماليك البحريه توفی سنة ٦٧٦ أما ولداه فهما الملك السعيد محمد بركة ، تولی الملك سنتين وشهرا وخلع ، والملك العادل سلامش ملك خمسة أشهر وخلعه الامير قلاوون وتولی بدله (٢) هو الملك المنصور قلاوون الصالحی النجمی من أعظم ملوك المماليك توفی سنة ٦٨٩ (٣) الصواب ناكيا . وهی لحنة كانت شائعة فی كتابة ذلك العصر

ولد بمدينة دمشق سنة ٧٠٠ وتفقه وتأدب على أبيه وغيره من أئمة وقته فخرج واحدَ زمانه علماً وأدباً وترسُّلاً وتصنيفاً وشعراً ، ولم يكن بين عصره وعصر القاضى الفاضل من يدانيه فى شيء من ذلك على كثرة النابغين فيهما ، وكان أعلمَ أهل القُطرين بتاريخ الملوك وطبقات العلماء والأدباء ، وعلم وصف الارض وأحوال الممالك النائية : كالهند والصين والترك وغيرها ، فوق التفقه الذى نال فيه مرتبة الافتاء . وكان أبوه وعمه يتناوبان كتابة السر فى مصر والشام لسلاطين آل قلاوون ونوابهم ، وخلفهما فى ذلك شهاب الدين وأخوه وأولادهما فى مناصب رياسة دواوين الانشاء وكتابة السر وغيرهما لآل قلاوون وآل برقوق . وتوفى ابن فضل الله سنة ٧٤٩

ومن إنشائه فى وصف قِطّ زَبَاد من رسالة طويلة : وقط الزّباد الذى لا تحكيه الاسود فى صُوَرها ، ولا تسمح غِزْلانُ المسك بما يخزُنه من عرفه الطيّب فى سُررها كم تنقل فى بيوت طابت موطناً ، ومشى من دار أصحابه فقالوا (ربنا عَجّل لنا قِطَّنا)

ومن فصول رسائله فصل كتبه من رسالة على لسان سلطانه الى نائب الشام مع طيور صيد جَوَارح أرسلها اليه :

« صدرت هذه المكاتبة الى الجناب العالى بسلامٍ جميل الافتتاح ، وثناء يطير اليه وكيف لا تطير قادمةٌ بجَناح ، ونعلمه أن مكاتبته المتقدمة الورود تضمنت التذكار من الجوارح بما بقى من رسمه ، وجرت عادة صدقاتنا الشريفة أن تُحْسَب فى قَسْمه ، وقد جهزنا له الآن منها ثلاثة طيور لا يبعُد عليها مَطَار ، ولا يوقد للقِرى فى غير حماليقها جذوة نار ، ولا تؤمُّ طيراً إلا وترشُّ الارض بدمه فلا يُلحق لها بغبار . وهى طائر كلها من فتاكٍ أخذ الطيرَ من مأمنه ، وسلب ما تحلى به من رياش الريش ثم تزيَّا بأحسنه »

ومن تآليفه كتاب « مسالك الابصار فى ممالك الأمصار » فى بضع وعشرين مجلدة ولا يعلم قبله كتاب وَسِع من علوم التاريخ ووصف الارض والفَلَك والأدب ما وسعه ، وكتاب التعريف بالمصطلح الشريف فى فن انشاء الدواوين وكتاب « فواضل السَّمر فى فضائل آل عمر »

لسان الدين بن الخطيب

هو ذو الوزارتين ، الكاتب الشاعر ، الفقيه ، المصنف ، الحكيم المتطبب ، أبو عبد الله لسان الدين محمد بن عبد الله المعروف بابن الخطيب

ولد سنة ٧١٣ بمدينة غَرناطة من بيت عربي عريق في العلم والأدب والخطابة والرياسة وقيادة الجند ، وقرأ وتأدّب وتفقه علي مَشْيَختها . واجتمع له من الحكمة والأدب ملكة بذّ بها أُدباء الأندلس كتابةً وشعراً وتصنيفاً وسياسة

واشتهر بادئ أمره بنظم الشعر فأنشأ القصائد البليغة ، وأشاد بمدح السلطان أبي الحجاج يوسف أحد ملوك بني الأحمر فجعله في عداد كُتَّابه ، ثم اجتباه واضاف اليه الوزارة وفوض اليه جميع شؤون المملكة . وما برح على هذه الحظوة حتى مات سلطانه وتولى ابنه مكانه فأقره على الوزارة ، ثم وشى به حساده من الفقهاء والكتاب عند السلطان ، وكادوا له المكايد ، واتهموه بالإلحاد في الدين حتى أحفظوه عليه . فلما أحسّ تنكره له فر الي المغرب الأقصى . فأكرمه سلطانه ثم ابنه من بعده ، الى أن ثار عليه ثائر وساعد ملكُ بني الأحمر هذا الثائرَ بشرط أن يسلمه ابن الخطيب . فتم له أمره وسُجِن بفاس وخُنِق في سجنه ، ثم دفن من الغد بها سنة ٧٧٦

وكان ابن الخطيب خاتمة بلغاء الاندلس وآخر الرؤساء الأعيان من كتاب الرسائل والتأليف . وكان في عُدوة الأندلس يضارع ابن خلدون في عدوة افريقية : فقهاً ولغة وأدباً وتاريخاً وشعراً ؛ غير أن ابن خلدون كان قليل الحفل بالسجع والزخرف ، وكان بابن الخطيب أُوتةٌ منهما

وكانت عبارة رسائله مشوبةً بصبغة يسيرة من أسلوب الفقهاء ورسوم العلماء ، وتُشفَع غالباً بشيء من شعره : إما متخللاً لها وإما متقدّماً صدرها . وقلَّما صدرت عنه رسالة موجزة ، شأن أكثر كتاب الأندلس

ومن قصار رسائله رسالة في الشوق كتبها الى ابن خلدون وهي بعد الديباجة «أما الشوق فحدّثْ عن البحر ولا حرج ، وأما الصبرُ فَسَلْ به أيَّة درج ، بعد أن

مجاوز اللِّوى والمُنعرَج ؛ لكن الشدَّةَ تعشق الفرَج ، والمؤمن ينشق من رَوْح الله الأَرَج . وأنّى بالصبر ، على إبَر الدَّبْر ، ومطاولة اليوم والشهر ، وهل للعين أن تسلو سلوّ المُقْصِر ، عن إنسانها المُبْصر ، أو تذهَل ذهولَ الزاهد ، عن سرّها الرائى والمُشاهد ، وفى الجسد مُضغةٌ يصلُح اذا صلَحت ، فكيف حالُه ان رحلت عنه ونزحت . واذا كان الفراقُ هو الحِمامَ الأوّلَ ، فعلامَ المعوَّل ؟ أعيتْ مُراوضة الفراق ، على الراق ، وكادتْ لوعةُ الاشتياق ، أن تُفضىَ الى السِّياق :

تركتمونى بعد تشييعكم أوسعُ أمرَ الصبر عِصيانا
أقرَعُ سنى نَدَماً تارةً وأستميحُ الدمعَ أحيانا

التدوين

ألَّف علماء هذا العصر تآليفَ جمّة أخلفت على العربية بعضَ ما أباده التتار والصليبيون : من الكتب النفيسة ، ويرجعُ أكثر الفضل فى ذلك الى علماء مصر والشام وجالية الأندلس اليها . أما أعاجم المشرق فهم وان ألَّفوا فى العلوم الاسلامية والفلسفية كان تأثير بيئتهم الأعجمية جاعلا كتبهم على شرف موضوعها وجلالة مباحثها صعبةَ التناول ، ضعيفةَ الأثر فى تقدُّم اللسان العربى

ونذكر هنا لُمَعاً يسيرةً من أحوال العلوم العربية ومؤلفيها فى هذا العصر

الأدب

قد كان لأدباء القاهرة من الكُتّاب السبقُ فى وضع الكتب الجامعة التى تبحث فى عدة علوم أدبية أو ملحَقةٍ بها . ومن هؤلاء :

شهاب الدين النُّوَيْرى (١) صاحبُ نهاية الأرب (٢) وابنُ فضل الله العُمَرى صاحب مسالك الأبصار ، وشهاب الدين القَلْقَشَنْدِى صاحب صُبح الاعشى (٣)

---

(١) هو شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب بن احمد البكرى النويرى المؤرخ الاديب ، نسب الى نويرة احدى قرى مديرية بنى سويف توفى سنة ٧٣٣ (٢) باشرت دار الكتب المصرية طبعه وأنجزت منه ثلاثة اجزاء (٣) هو شهاب الدين احمد بن على ابن احمد القلقشندى نزيل القاهرة ، تفقه ومهر وعانى الأدب وكتب فى الانشاء ، وكتابه صبح الاعشى فى صناعة الانشاء أحسن

وممن ألّف فى الادب بمناحٍ مختلفة :

جمالُ الدين الوطواط صاحب الغُرر والعُرر، وشهاب الدين الحلبى صاحب منازل الأحباب ، وحسن التوسل الى صناعة الترسل ، وشهاب الدين أحمد الأبشيهى صاحب المستطرف ، والنواجى [1] صاحب حلبة الكميت

بقية العلوم الاسلامية

لم تكن مصر ولا الشام فى العصور الأولى مَيداناً لتسابق جِياد علماء اللغة كما كان العِراقان والأندلسُ

ولما أباد التتارُ بقيةَ العلماء والنحاة فى الشرق ، كاد أفق المشرق والشام ومصر يصفَر من النحاة وأهل اللغة لولا أنْ تداركها الله بدخول التتار فى الاسلام ومعاضدتهم هم والدول التى خلفتهم للعلم والعلماء ، وبجَلاء بعض كبار النحاة واللغويين من الاندلس والغرب قبيل حادث التتار وبعده كابن مالك [2] والشاطبى [3] وأبى حيان [4] وابن منظور الافريقى ، فجدّدوا النحو واللغة بمصر والشام ، وتخرج عليهم تلاميذ أفاضل كانوا كواكب العصور المتأخرة ، فدوّنوا العلم وحفظوه لمن أتى بعدهم ممن نشئوا فى العصور المظلمة

على أن أكثر هؤلاء العلماء المتأخرين لم يكونوا منقطعين للعربية وحدها بل كان لهم تخرُّجٌ فى كثير من العلوم ولا سيما الشرعية التى كانت الرغبة فيها حينئذٍ

ما كتب فى تاريخ الانشاء طبع فى مصر فى ١٤ مجلدة ، وتوفى سنة ٨٢١ و (قلقشندة احدى قرى مديرية القليوبية)

(١) هو شمس الدين محمد بن حسن بن على فاق أهل عصره فى الادب وألف كتبا كثيرة فيه توفى سنة ٨٥٩ و (نواج) احدى قرى مديرية الغربية (٢) هو العلامة جمال الدين ابو عبد الله بن محمد بن عبدالله بن مالك الطائى ، الجيانى ، نزيل دمشق الشام ، امام النحاة ، ومجدد النحو فى المشرق ، وحافظ اللغة وصاحب الالفية والتسهيل توفى سنة ٦٧٢ و (جيان) بفتح الجيم وتشديد الياء مدينة من مدن الاندلس شرق قرطبة (٣) هو الشاطبي النحوى محمد بن على بن يونس الاندلسى البلنسى تصدر بالقاهرة فى اللغة والنحو وروى عنه ابو حيان وتوفى سنة ٦٨٤

(٤) هو الامام أثير الدين محمد بن يوسف الغرناطى نحوى عصره ولغويه ومقرئه توفى سنة ٧٤٥

تفوق كلَّ رغبة . ولم يعنَ فى مصر والشام والغَرْبِ بنوع من العلوم الكونية الآ بالرياضة العملية من الهندسة والحساب والميقات . وهُجِرت العلومُ الفلسفية والمنطق ، بل حكم بعضُهم بكفر منتحلها ، وبقى كثيرٌ من علماء المشرق من الفرس والأفغان والهنود يزاولها الى وقتنا هذا من غير تأثير لهم فى ترقية شأنها عما كانت عليه

كتابة التدوين والتصنيف

أما كتابة التدوين فكانت فى المتون ونحوها موجزة جداً ، جارية على أسلوب الأقيسة المنطقية . وكانت فى الشروح والمطوّلات مبسوطةً ، كثيرة النَّقْل عن الأئمة ، غزيرة الاستدلال بالبراهين والأدلة العقلية والنقلية ، وكان للشافعية فى الايجاز وتنقيح التحرير الباع الأطول . وبقيت هذه الحال حتى أوائل الحكم العثمانى . ثم اخترع تأليف الحواشى والتقريرات والرسائل الخاصة بشرح قاعدة أو جملة أوقصيدة . وضعفت عباراتُها وازدادت تعقيداً وغموضاً حتى أصبح ذلك مما يتنافس فيه ، ويظن فى صاحبه العلم والدقة

ومن أشهر المؤلفين فى هذا العصر ابن خلكان — وابن خلدون — والسيوطى وابن مكرم — والفيروز ابادى — وعز الدين بن عبد السلام [1] — وابن حجر العسقلانى [2] وابن هشام النحوى [3] — ولسان الدين بن الخطيب — وسعد الدين التفتازانى [4] — والسيد الجرجانى [5] — والشهاب الخفاجى

---

(١) هو الفقيه المجتهد الشافعى علامة الزمان عز الدين . نشأ فى الشام وتعلم بها وتصدر وقدم مصر فاقام بها اكثر من ٢٠ سنة وتوفى سنة ٦٦٠ (٢) هو امام الحفاظ فى زمانه قاضى القضاة ابو الفضل احمد بن على بن محمد الكنانى العسقلانى ثم المصرى صاحب شرح البخارى والاصابة فى تمييز الصحابة وغيرهما من نفائس الكتب توفى سنة ٨٥٢ (٣) هو امام النحويين ، وفخر المصريين ، عبدالله بن يوسف بن احمد بن عبدالله بن هشام الانصارى صاحب مغنى اللبيب ، عن كتب الاعاريب ، ولد سنة ٧٠٨ وتوفى ٧٦١ ودفن بجوار باب النصر ولا يزال قبره معروفاً (٤) هو سعد الدين مسعود بن عمر بن عبدالله العلامة فى النحو والتصريف والبلاغة والتوحيد والفلسفة والفقه والاصول ، انتهت اليه معرفة العلوم بالمشرق توفى بسمرقند سنة ٧٩١ (٥) هو علامة المشرق السيد الشريف على بن محمد بن على الحنفى الجرجانى ، كان نظير سعد الدين فى اكثر العلوم ويزيد عليه فى فصاحة المنطق ، وجرت مناظرات بينهما فى مجلس الطاغية تيمورلنك وتوفى بشيراز سنة ٨١٦

ابن خلكان

هو قاضى القضاة شمسُ الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن أبى بكر خلِّكان الإربلى

وُلد سنة ٦٠٠ بمدينة إرْبل[1] من بيت كبير عريق فى الفضل ، وتوفى والده وهو ابن سنتين . فنشأ بإربل وأقام بها الى سنة ٦٢١ فرحل الى حَلَب ومكث بها سنين ثم الى دمشق وأقام بها مدة ، ثم أقام بمصر وتولى القضاء بها ، وفيها ألف أكثر تاريخه العظيم (وفَيَات الاعيان) ثم تقلبت به الاحوال بين مصر والشام الى أن مات بدمشق سنة ٦٨١

وكان كاتباً بليغاً ، وشاعراً مجيداً ، حسَن المحاضرة لطيف المعاشرة ، واسع الاطلاع شديد التحرى والضبط

وتاريخه (وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان) أفضل ما بأيدى الناس من كتب التراجم لشدة عنايته بضبط الأعلام وأسماء البقاع والبُلدان ، وتحقيق الحوادث بحسب الامكان . وهذا فوقَ مزيته الكبرى : وهى بناؤه على تعيين الوفيات ، وتنزُّهه عن رواية أقوال الفحش والخَنا ، وان كان يؤخذ عليه روايته لكثير من الأخبار التى لا تخلو من مبالغة أو وضعها على عِلاتها متوخياً فى ذلك أمانةَ النقل . وقد اشتمل هذا التاريخ على ٦٤٦ ترجمة ، ثم تمم عليه محمد بن شاكر الكتبى المتوفى سنة ٧٦٤ بكتابه الذى سماه فوات الوفيات ولكنه لم يدرك شأو سابقه لا فى الضبط ولا فى ذكر تاريخ الوفيات

ابن خلدون

هو حكيم المؤرّخين ، وعلَم المحققين ، الفقيهُ القاضى الكاتب الشاعر المصنف عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون

وكان بيت خلدون هذا من أشرف بيوتات الشرف والرياسة وقيادة الجند

---

(١) تقدم انها من مدن الجزيرة

بأشْبِيلِيَةَ من قديم الزمان ولم ينقطع منهم الى خدمة العلم والأدب غير المترجم وأبيه وكان أهله قد انتقلوا الى تونس عند تغلب الاسبان على اشبيلية . ويتصل نسبهم بوائل بن حُجْر من أقيال اليمن من حَضْرَمَوْتَ

وُلد ابن خلدون بتونس سنة ٧٣٢ هجرية فحفظ القرآن الكريم وقرأه بالسبع وتلقى العلمَ والأدب من أبيه ومن كبار العلماء ، وقرأ العلوم العقلية والفلسفية على بعض حكماء المغرب

ولم يزل مُكِبًّا على تحصيل العلم حتى دهم أفريقية طاعونٌ جارف مات فيه أبواه وأكثر ذوى قرابته وشيوخه فاحترف بصناعة الكتابة وهو شاب لم يَطُرَّ شاربه ، فكتب لبعض ملوك الدولة الحفصية بتونس ودولة بنى مرين بفاس ، ثم وصل بعد ذلك إلى ملوك بنى الاحمر بالاندلس فحظى عندهم حتى حسده على ذلك صديقه لسان الدين بن الخطيب فأقلع عنها ، وذهب الى صاحب بِجايةَ بالمغرب الأوسط فوَزَرَ له ، وبقى يتردّد بين المغرب الأوسط والأقصى وأفريقية والأندلس حتى حسن فى عينه التخلى عن السياسة والانقطاع الى العلم فنزل على بعض قبائل العرب على حدود الصحراء أربعة أعوام ألف فيها تاريخه ومقدّمته التى لم ينسج أحد من المتقدمين ولا المتأخرين على منوالها ؛ ثم عزم على الحج فدخل مصر سنة ٧٨٤ هـ زمن سلطانها برقوق [١] . ثم استقدم أهله وولده من المغرب فغرقت بهم السفينة فأقام بمصر حزيناً وجلس للتدريس بالجامع الأزهر وتولى قضاء المالكية سنة ٧٨٧ هـ وأظهر العدلَ فى أحكامه ، واستقال من القضاء ثم عاد اليه ، وخرج مع كثيرٍ من علماء مصر فى جيش السلطان فرج [٢] بن برقوق لمدافعة تيمور لنك [٣] عن الشام

---

(١) هو الملك الظاهر سيف الدين برقوق بن الص الجركسي أول ملوك الجراكسة وسمى برقوق لجحوظ عينيه ، حكم مصر والشام ثم خلع ثم حكم ثانية وبقى سلطاناً حتى توفى سنة ٨٠١

(٢) هو الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق حكم ثم خلع ثم حكم ثم قتل سنة ٨١٥ (٣) هو الطاغية الجبار تيمورلنك من سلالة جنكيزخان من جهة النساء ملك أواسط آسيا واعلى الهند وفارس وكاد يقضى على الدولة العثمانية فى بدء نشأتها مع اسلامه والمامه بكثير من العلوم توفى سنة ٨٠٧ ودفن بسمرقند

فوقع مع كثير من العلماء فى أسر تيمور فأدخل عليه فخلبه بسحر بيانه فأكرمه وسرّحه الى مصر ليأتى له بتاريخه ومقدمته فذهب ولم يعد اليه ، وبقى بمصر يشتغل بالتدريس تارة والقضاء أخرى حتى مات وهو قاضى المالكية بمصر للمرة السادسة[1] سنة ٨٠٨ﻫ

منزلته فى الكتابة والتاريخ والشعر

أحيا ابن خلدون فى عصره الكتابة المرسلة الفطرية الخالية من السجع وتكلف البديع فى عصر بلغ فيه غايته ، والى ذلك عمد فى كثير من فصول مقدمة تاريخه فجاء بعض كتابته فيها بمنزلة من البلاغة لا تقل عن كتابة فحول القرن الثالث ، ولم يكن الانتفاع بالمقدمة وكتابته فى وقت أظهر مما كان فى العصر الحاضر ، إذ كانت هى الأسلوب الأمثل لكتاب الصحف والمجلات فى نهضتنا الأخيرة

وكان ابن خلدون إماماً حكيما فى التاريخ أكثر مما كان اماماً فى الكتابة فانه يعتبر من أكبر واضعى علمى العمران والاجتماع بما خطه فى مقدّمته . ولم تعد أحكامه فى سياسة الممالك الاستبدادية التى ذكرها فى مقدمته مطردة فى عصرنا هذا ؛ اذ أصبحت طريقة الحكم بممالك عصرنا دستورية ، إلى أن معدات الحروب وظواهر المدنية الحاضرة تختلف كثيراً عن حالتها السابقة

ويؤخذ على ابن خلدون فى مقدمته انحاؤه على العرب وقسوته فى الحكم عليهم فى كثير من سياسة الملك

ويمتاز تاريخه بأنه التاريخ الوحيد الذى فصل الكلام على دول المغرب من البربر وغيرهم

وكان ابن خلدون شاعراً ، طويل النفس ، وشعره بالاضافة الى شعر عصره غاية فى الجودة وان وصفه هو بأنه متوسط بين الجودة والقصور تواضعاً منه

---

(١) كذا فى حسن المحاضرة للسيوطى

جلال الدّين السّيوطى

هو عبد الرحمن جلال الدين ابن الامام كمال الدين الخضَيْرى السيوطى العالمُ المحدّث المفسر المتفنن الجامع المختصر ، صاحب التصانيف المشهورة ، ورسائل العلم المأثورة

ولد سنة ٨٤٩ ونشأ يتيماً وحفظ القرآن وعمره دون الثمان ، ثم حفظ متونَ الفقه والنحو ، وأخذ العلمَ عن مشايخ وقته وابتدأ فى التصنيف وسنه ١٧ سنة . ثم لازم الاشياخَ وطلبَ العلم فى بقاع الأرض فدخل الشامَ والحجازَ واليمنَ والهندَ والمغربَ والتكْرُور (١) ونبغ فى كثير من العلوم ، ورزق التبحُّر فى التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع

وتولى التدريس والافتاء ولم يكن أشهرُ منه فى زمنه . ويُعَدُّ السيوطى من الأئمة الذين حفظوا العلمَ للخلف وسهّلوا سُبُلَهَ للمتأخرين ، وقد ترك للناس أكثرَ من ثلثمائة مُصَنَّف ، ولو لم يكن له الاَّ الإتقان فى علوم القرآن ، والمزهر فى أصول اللغة ، والأشباه والنظائر فى دقائق النحو وأصوله ، والهَمْع على الجمع فى فروع النحو وأصوله والصرف ، لكفاه ذلك فخراً

وتوفى سنة ٩١١ هجرية ودفن بالمقبرة المنسوبة اليه شرقى القاهرة الجنوبى

الشعر (٢)

لما كان أكثرُ سلاطين الإسلام وملوكِه وأُمرائِه فى هذا العصر بالمشرق والشام ومصر أعاجمَ بالفطرة ، كان ميلُهم الى الشعر العربى غيرَ طبعىّ ، وعطفُهم على فحول الشعراء البلغاء ضعيفاً ، ولذلك انقرض الشعرُ العربىّ من أواسط آسيا وبقيت صُبابةٌ

(١) هى جزء من السودان الغربى يقابل بلاد مراكش جنوبا والسنغال شرقا وهي المسماة عند الاوربيين باعالى (النيجر) وكان من أعظم بلاده مدينة (تنبكتو) بضم فسكون مكررين ثلاثة ومدينة (مالى) وهى من البلاد التابعة لفرنسا الآن (٢) يجدر بمن يريد التوسع فى معرفة أحوال الشعر غرضا ولفظا ومعنى فى هذا العصر أن يقرأ على الاقل شرح بديعية ابن حجة المسماة بخزانة الادب

منه بالعراق والجزيرة ، وبقي على شيء من الرونق في الشام ومصر والاندلس والمغرب غير أنه قلّ التكسّب به فيها ، فمال أكثر الشعراء الى انتحال الكتابة في الدواوين صناعة ، واستعملوا الشعر في تملّق الملوك والرؤساء وفي إظهار التفصّح والتسلية . فهجر قوله في الأغراض الهامّة ، وعُدِلَ به الى أغراض غير فِطرية إما مقبولةٍ في الجملة كمدح النبي صلى الله عليهِ وسلم [١] والشكوى اليه [٢] أومدح بعض الأولياء [٣] أو اللَّهَجِ بأحوال التصرف والزهادة ونحو ذلك . وإما تافهة كالأغراض الآتية :

(١) الغزل غير الحقيقي وبخاصةّ المذكر ، وزاده مَقتاً وسماجةً صدوره عن كبار العلماء ومشايخ الصوفية

(٢) اظهار البراعة بنظم مقطّعات تتضمن غَزَلاً أو وقائعَ خيالية لمجرد العثور على لفظ تصح فيه توريةٌ [٤] أو يلتئم معهُ جِناس [٥]

(٣) ازدياد المَجانة والخلاعة والهجاء المقْذِع

(٤) وصف كثير من الأشياء والآلات التي لا يُؤبَه لها كالناعورة [٦] والمخدة [٧]

---

(١) كما في البردة والهمزية وبديعيات ابن حجة وصفي الدين ودر الدين وديوان البرعي وغير ذلك

(٢) وغاب ذلك في الاندلس عند مضايقة الاسبانيين لهم (٣) ويكثر ذلك في دواوين المتصوفين والقصاص وكتب مناقب الأولياء وطبقاتهم

(٤) كقول السراج الوراق :

وأحمق أضافنا بيقله	لنسبة بينهما ووصله
فمن أقل أدبا من سفله	قد مد في وجه الضيوف رجله

(٥) كقول الصلاح الصفدي:

يا من اذا ما أتاه	أهل المودة أولم
انا محبك حقاً	ان كنت في القوم أولم

(٦) كقول ابن الوردي :

ناعورة مذعورة	ولهانة وحائره
الماء فوق كتفها	وهي عليه دائره

(٧) كقول النواجي :

فيّ نفع ولذة للنفوس	وحياة وراحة للجليس
كم نديم أرحته باتكاء	وتواضعت عند رفع الرءوس

والبساط [١] ورقعة المصلي [٢] وكالمِروحة والسكين والدواة والسراج والمِبخرة

(٥) الألغاز والأحاجِى [٣]

أما معانيه فقلَّ فيها الاختراع ودقة التصوير وضرب الأمثال وإبراز الحكمة ، وان كثر تنوع التشبيه وتخيل الاستعارة

وأما ألفاظه وأسلوبه فشاع فيها ما يأتى :

(١) الاقتصارُ على الألفاظ السهلة ، وهجرُ الغريب بل اللفظ الجَزْل حتى استعملوا الألفاظ العامية [٤] أوالتركية الفاشية فى ذلك الزمان

(٢) الاقتصارُ على التراكيب السهلة ، واستعمالُ كثير من الأمثال العامية [٥]

(٣) تكلف البديع ولا سيما التورِيَةُ والجناس ، ثم قلّ ذلك فى أواخر هذا العصر : لضعف الشعراء عن استخراجه والترفق فى استعماله

(٤) اظهار الحِذْق بالاستكثار من الألفاظ المصغَّرة [٦] أو المهملة أوالمعجمة [٧]

---

(١) كقول ابن نباته :

بساط يملأ الاحداق حسنا	ويهدى للقلوب بها سرورا
ويشرح حين يبسط كل صدر	وخير البسط مايرضى الصدورا

(٢) كقول ابن الوردى :

سجادة أذكرتنى	منك الذى كنت أعلم
أهديتها لمحب	صلى عليها وسلم

(٣) كقول النابلسى فى سراج :

ما اسم تراه فى النها	ر كاسدا اذ لا احتياج
وان طرحت الربع منـــــه	فى الدجى تلقاه راج

(٤) كقول ابى المواهب البكرى :

ان فى الشاروخ معنى	لذوى الألباب عبره
ان تعالى فهو فرد	أو تدلى فهو كثره

(٥) كقول بدر الدين الازهرى :

لقد عثرت بجنح الليل رجلى	على شخص ولم يك فى حسابى
فقال مجاوبا لى أنت أعمى ؟	فقلت نعم ودواس الكلاب

(٦) كقول ابن حجة :

لحيظك والمقيلة مع لظيمى	سحير فى سحير فى سعير

(٧) كقول الحلى :

غنى يضن بنضّ نقى	فيقضى بغبنى فى بغيق
وقوله : كم ساهر حرم لمس الوساد	وما أراه سؤله والمراد

جملة أو بصورة خاصة [١] ، أو لزوم ما لا يلزم ، أو ما لا يستحيل بالانعكاس [٢] ، أو التاريخ الشعرى [٣] ، ولا سيما آخر هذا العصر الذى بلغ فيه التاريخ الشعرى غايته

(٥) كثرة تضمين [٤] الشعر المشهور ، وكذلك التشطير والتخميس

(٦) كثرة الاقتباس [٥] من القرآن الكريم والحديث ، وقلما يكون بغير تورية

أما أوزان الشعر فلم يحدُث فيها فى هذا العصر أوزان جديدة ، وانما شاع فيه استعمال الأوزان المولدة ونظم كثير من الموشّحات الفصيحة والعامية وكثير جداً من المواليا [٦] والزجل [٧] والقومة [٨] وكان وكان [٩] ونحوها ، وأعجب ذلك ملوك

---

(١) كقول ابن حجة فى المعجم من اعلى فقط :

وقد أمنت وزال الخوف منحذفا — نحو العدو ولم أخفر ولم اضم

(٢) كقول عزالدين الموصلى :

لم يستحل بانعكاس فى سجيته — (مدن اخا طمم مطمأ نخا ندم)

(٣) كقول الحتانى المصرى : مفتى البرايا بنى لله مدرسة — لها من الأنس انوار تغشيها

على الهدى أسست واليمن ارخها — دار العلوم فيحيا العدل منشيها

(٤) كقول الصفدى : ملكت كتابا اخلق الدهر رسمه — وما أحد فى دهره بمخلد

اذا عاينت كتبى الجديدة جلده — (يقولون لا تهلك أسى وتجلد)

(٥) كقول جمال الدين بن نباتة :

الله سخر لى (وعائلتى) — من حف بى الاكرام والكرما

حتى تلوت قبل رؤيتهم — (ياليت قومى يعلمون بما)

وكقول صفى الدين العزى : رب ثقيل امام قوم — يؤم بالناس ثم يجحف

خالف فى الفعل قول طه — « من أم بالناس فليخفف »

(٦) تقدم الكلام في المواليا ومن أمثلته فى هذا العصر قول بعضهم فى التوجيه بالازهار وغيرها :

لك خد ياحى عالم يا كميت الطرد — عليه لو نفس صباره وحر وبرد

ناداه والعارض النمام حوله فرد — ما فاتك ساعة يا شقيق الورد

(٧) لاحد لاوزانه وانما أشهرها (مستفعلن فعلن فعلن) اربع مرات لكل دور ، وربما قالوا (فعلان) بدل (فعلن) الأخيرة كقول بعضهم :

من الكرك جانا الناصر — وجب معه أسد الغابه

وركبتك يا شيخ هنطاش — ما كانت الا كدابه

(٨) نوع من الزجل كان يوقظ به الناس للسحور فى رمضان ووزنه (مستفعلن فعلان) أربع مرات لكل دور كقول بعضهم : ياسيد السادات — لك فى الكرم عادات

انا ابن أبو نقطة — تعيش أبويا مات

(٩) نوع من الزجل ودوره مركب من أربعة شطور : الاول وزنه (مستفعلن فاعلاتن)

مصر ولا سيما بني قلاوون[1] وبرقوق فأثابوا الزجالين وقربوهم ، وراج الزجل في أيامهم حتى كاد ينسخ الشعر الفصيح . ومن أشهر هؤلاء الزجالين شيخهم الشيخ خلف الغباري زجال آل قلاوون الذى استخدم الزجل فى كل أغراض الشعر

الشعراء

ظهر في هذا العصر شعراء كثيرون ، من أشهرهم :

(١) شيخ شيوخ حماة شرف الدين الأنصارى المتوفى سنة ٦٦٢ (٢) جمال الدين ابن نباتة المصرى وسنترجم له (٣) شهاب الدين التَّلَعْفَرِى المتوفى سنة ٦٧٥ (٤) الشاب الظريف المتوفى سنة ٦٨٧ (٥) الامام البوصيرى وسنترجم له (٦) ابن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ (٧) أبو بكر بن حجة المتوفى سنة ٨٣٧ (٨) صفى الدين الحلى وسنترجم له (٩) فخر الدين بن مكانس المتوفى سنة ٨٦٤ (١٠) ابن معتوق الموسوى وسنترجم له

١ — البوصيرى

هو الكاتب الشاعرُ المتصوّف ، شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الصِّنهاجى[2] البوصيرى صاحب البردة والهمزية

كان أحد أبويه من بوصير والآخر من دلاص . وُلد بدلاص[3] سنة ٦٠٨ ونشأ ببُوصِير[4] ثم انتقل الى القاهرة ، وتعلم علوم العربية والأُدب فقال الشعر البليغ فى جِدّه وهزله ، ونظم من جزْله ومرْذوله ، وفصيحه وعاميّه ، وكتب الرسائل

والثانى (مستفعلن مستفعلان) أو (مستفعلن مستفعلان) والثالث مثل الاول والرابع (مستفعلن فعلان) كقول بعضهم :

تحضر ولكن قلبك غايب وذهنك مشتغل
فكيف يا متخلف تحسب من الحضار

(١) هم أولاد الملك المنصور قلاوون الصالحي النجمى سابع سلاطين المماليك البحرية وأشهرهم الملك الناصر محمد بن قلاوون

(٢) صنهاجة احدى قبائل البربر وأصل وطنها الصحراء جنوبى المغرب الاقصى (٣) قرية من قرى مديرية بنى سويف (٤) هى بوصير قوريدس من قرى بنى سويف أيضاً

الأنيقة، واتخذ كتابة الدواوين صناعة فتصرف فى مناصب كثيرة بالقاهرة والأقاليم، وباشر مديرية الشرقية مدّة، وله فى ذم مباشرى الشرقية قصيدةٌ طويلة

شعره

ويمتاز شعره بالرصانة والجزالة وحسن استعمال البديع فى مدائحه النبوية الا أنه لم يحفل بهذه المزايا فى غيرها فجارى شعراء زمانه فى أسلوبهم حتى فى استعمال بعض الألفاظ المولدة والاهاجى المقذعة، ثم تنسك وتصوف

ومن شعره قصيدة البردة الشهيرة التى وقع الاجماع على أنها أفضل مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بانَتْ سُعادُ ونحوها من مدائح الصحابة؛ قيل انه فلِج فنظمها فى مرضه وتوسّل بها إلى رسول الله فشُفِيَ من مرضه وأوّلها :

أَمِنْ تَذَكُّرِ جيرانٍ بذى سَلَمِ ... مَزَجْتَ دَمْعاً جرَى من مُقْلَةٍ بدَمِ
أم هبَّتِ الريحُ من تلقاءِ كاظمةٍ[1] ... وأومضَ البرقُ فى الظلماءِ من إضَمِ[2]
فما لعينيك إن قلتَ اكْفُفَا هَمَتا ... وما لقلبك ان قلتَ استفق يهِمِ
أيَحسَبُ الصبُّ أن الحبَّ مُنكتِمٌ ... ما بينَ منسجمٍ منه ومضْطرمِ

ومن حكمها البديعة المشوبة بمحاسن البديع قوله :

والنفس كالطفل إن تُهْمِلْهُ شبَّ على ... حُبِّ الرَّضاعِ وإن تفْطِمْهُ ينفطمِ
فاصرفْ[3] هواها وحاذرْ أن تُولّيه ... إنّ الهوى ما تولّى يُصْمِ[4] أو يَصِمِ
وراعِها وهى فى الأعمال سائمةٌ[5] ... وان هى استحلتِ المرعى فلا تسِمِ
كم حسّنَتْ لذةً للمرء قاتلةً[6] ... من حيث لم يدرِ أنّ السُّمَّ فى الدَسَمِ
واُخشَ الدسائسَ من جُوعٍ ومن شِبَعٍ ... فرُبَّ مَخْمَصَةٍ شرٌّ من التُّخَمِ

---

(١) راجع مصور بلاد العرب بهذا الكتاب (٢) واد يبتدىء من غربى المدينة ويصب فى بحر القلزم (البحر الاحمر) (٣) الصرف فى عرف زمانهم العزل عن الحكم ضد التولية
(٤) جواب (ما) الشرطية، أى ما تولى منه من أصميت الصيد اذا قتلته وأنت تراه (أو يصم) من وصم العود اذا صدعه أو من الوصم بمعنى العيب (٥) يلمح الى ما يستعمل فى رعى الابل (٦) الابيات الآتية يلمح فيها الي صناعة الطب، والاستفراغ والامتلاء والحمية من الفاظها

واستفرغِ الدمعَ من عينٍ قد امتلأتْ من المحارمِ والزمْ حِمْيَةَ الندمِ

وقد اتخذ شعراء المدائح النبوية هـذه القصيدةَ نموذجاً ينسِجون على مِنْواله فـكانت من أقوى الأسباب التي حملت شعراءَ هذا العصر وما يليه على الاكثار من المدائح النبوية ، وكذلك اتخذها أصحابُ البديعيات مثالاً يحتذونه فعارضوها بقصائدهم وزناً وقافية فلم يَلْحقوا لصاحبها غباراً

وقصيدة البوصيرى الهمزية فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم لا تقلُّ عن البردة فى فصاحتها ، وأوَّلها :

كيف تَرقَى رُقِيّك الأنبياءُ يا سماءً ما طاولَتها سماءُ
لم يساووكَ فى عُلاكَ وقد حا ل سَنًى منكَ دونَهم وسناءُ

ومنها :

صاح لا تأسَ إن ضَعُفتَ عن الطا عة واستأثرتْ بهـا الأقوياءُ
ان لله رحمةً وأحقُّ النـــاس منـه بالرحمة الضعفاءُ
فابق فى العُرج عند مُنقلَب الذَّوْ د ففى العَوْد تسبِق العرجاءُ
لا تقل حاسداً لغيرك هذا أثمرت نخله ونخلي عَفاءُ
وأتِ بالمستطاع من عمل البرّ م فقد يُسقط الثمارَ الإِناءُ

وله قصيدة أُخرى على وزن بانت سعاد ، وأولها :

الى متَى أنت باللذات مشغولُ وأنت عن كل ماقدَّمت مسئولُ

وتوفى البوصيرى سنة ٦٩٥ بالاسكندرية وقبره بها مشهورٌ يُزار

٢ — صفى الدين الحلى

هو الشاعر البديعُ عبد العزيز بن علىّ الشـهير بابن سَرَايا الطائى الِحلى شاعر الجزيرة

ولد سنة ٦٧٧ ونشأ بمدينة الِحلّة من مدن الفُرات فتأدب ونظم الشعر وأجاده وأصبح فيه أشهرَ شعراء عصره ، وخدم به الملكَ المنصورَ نجمَ الدين غازى بن قره

ارسلان : أحد ملوك الدولة الأُرتُقية ملوك ماردين[1] وديار بكر[2] من ذيول الدولة السلجوقية فحظىَ عنده ومدحه بكثيرٍ من القصائد، ومنها جملة بعدد حروف المُعجم أوائلُ حروفِ أبياتِها كَرَوِيّها وتسمى القصائدَ الأُرْتُقِيَّات، وطبعت على حدتها ومع ديوانه

واتصل بعده بابنه الملك الصالح شمس الدين ثم ذهب الى الحج، وعرَّج مُنْصَرَفَه منه على مصر فمدح الملك الناصرَ بنَ قلاوون، وأشار عليه كاتبُ سره القاضى علاء الدين بن الأثير بجمع ديوانه فجمعه مرتباً على اثنى عشر باباً

شعره. وتوفى سنة ٧٥٠ ويعتبر صفى الدين من أئمة البديع المبتدعين فى أنواعه المُغالين فى استعماله فى شعرهم بلا كثير تكلف؛ وهو أوَّلُ من نظم القصائد النبويةَ الجامعة لأنواع البديع المسماةَ بالبديعيات على مثال بُرْدة البوصيرى . وقد نظم من كل فنون النظمِ : الفصيح والعامىّ من جِدّيّهما وهزليّهما : فقال القصائد المطوّلة، والمقطَّعات والموشّحات والمخمَّسات والمشطرات والمواليا والزجل والقومة وكان وكان، وغيرها؛ وله جملة مصنَّفات غير ديوانه

وشعره فى جملته سهل الألفاظ حسن المعانى الا ما كان يتكافه للمعاياة واظهار الحذق فانه ردىء النسج، ثقيل على السمع، وله من ذلك فى ديوانه شىء كثير[3]

نبذة من شعره.

ومن قوله فى الأدب :

اسمعْ مخاطبةَ الجليسِ ولا تكُنْ   عجلاً بنُطقك قبلَ ماتتفهَّمُ
لم تعْطَ معْ أُذْنيك نُطقاً واحداً   الاَّ لتسمعَ ضِعْفَ ماتتكلمُ

وقوله :

اذا الجَدُّ لم يكُ لى مُسعداً   فما حرَكاتىَ الاّ سكونُ

---

(١) من مدن الجزيرة (٢) هى التي كانت تسمى قديماً آمد

(٣) كقوله من المنقطع الذى لا يتصل منه حرف بالآخر :

اذا زار دارى زور ودرد   أود وأورده ورد ودى

وكقوله من المتصل الذى لا ينفصل منه حرف عن آخر :

سل متلفى عطفاً عسى يتعطف   فلقد قسا قلباً فما يتلطف

اذا لم يكنْ مايُريد الفتَى على رغْمه فليُرِدْ مايكون

وقوله :

بقدر لغاتِ المرء يكثر نفعُه فتلك له عند الملمَّات أعوان
تهافتْ على حفظ اللغات مجاهداً فكل لسان فى الحقيقة انسان

وقوله فى وصف عود الطرب :

وَعُودٍ به عاد السرور لأنه حوى اللهوَ قِدْماً وهو رَيّانُ ناعم
يغرِّب فى تغريده فكأنه يُعيدُ لنا ما لَقّنَتْهُ الحمائمُ

وقوله يصف القاهرة المعزّية :

لله قاهرة المعزّ فانها بلد تَخَصَّص بالمسرة والهنا
أوَ ماترى فى كل قطر مُنْية (١) من جانبيها وهى مجتمع المنى

وقوله يصف نيل مصر حين وفائه :

وفَى النيل اذ وفَّى البسيطةَ حقَّها وزاد على ماجاده من صنائع
فما إن تُوفِّى الناسُ من شكرمُنْعِم يُشار الى انعامه بالأصابع

٣ — ابن نباتة

هو الشاعر الأديب والكاتب المصنف ، جمال الدين محمد بن محمد المعروف بابن نباتة ، أشعر شعراء المصريين زمن المماليك ، وصاحب سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون ، ووارث القاضى الفاضل فى التعصب للتورية.

وهو من سلالة ابن نباتة الخطيب عبد الرحيم خطيب سيف الدولة الحمدانى ولد رحمه الله تعالى بمصر الفسطاط سنة ٦٨٦ ونشأ بالقاهرة ، وتلقى العلم والأدب على كبار مشيختها ورؤساء دواوينها ، وأكب على قراءة شعر القاضى الفاضل ورسائله فرسخت فيه طريقته من الوَلوع بالتورية والتلميح والطباق ، فعمل على تأييدها

---

(١) كمنية ابن الخصيب ومنية الشيرج ومنية غمر

والاشادة بها ، فكان بعد الفاضل إماماً لهذه الطريقة نظماً ونثراً ، وحاكاه آخرون من أدباء عصره كصلاح الدين الصفدى [1] وكثيراً ما أغار على معانيه وتورياته ، وكزين الدين بن الوردى وغيرهما ، ولم يأت بعده من شعراء مصر والشام من بلغ غايته فى لطف التصور ورقة اللفظ وانسجام العبارة واستعمال المعانى البلدية

وابن نباتة ممن لا يُعنَى باستعمال الجناس ، ولايحفل به كابن الوردى وابنِ حجة وان وقع أحيانا فى شعره . واختلَط فى أواخر عمره ومات بالبيمارستان المنصورى [2] بالنحاسين سنة ٧٦٨

نبذة من شعره

ومن شعره قوله :

يامشتكى الهمّ دعْه وانتظر فرجا	ودارِ وقتك من حِينٍ الى حينِ
ولا تعاندْ اذا أصبحت فى كدَر	فانما أُنت من ماء ومن طين

وقوله فى رثاء ولده عبد الرحيم :

يالهفَ قلبي على عبد الرحيم ويا	شوقى اليه ويا شجوى ويادأبى
في شهر كانونَ وافاه الحِمامُ لقد	أحرقت بالناريا كانونُ أحشائى .

وله ديوان عظيم طبع فى مصر ، وله عدّة مصنفات منها سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون ، وكتاب مجمع الفوائد ، وكتاب القطر النباتى ، والفاضل من انشاء الفاضل ، وفرائد السلوك في مَصايد الملوك

٤ — ابن معتوق الموسَوىّ

هو شهاب الدين بن معتوق الموسوى شاعر العراق فى عصره ، وسابق حلبته فى رقة شعره

ولد سنة ١٠٢٥ ونشأ بالبصرة وبها تعلم وتأدّب وقال الشعر وأجاده ، وكان فى نشأته فقيراً ، فاتصل بالسيد على خان أحد أُمراء البصرة من قبل الدولة الصفَوية

---

(١) هو خليل بن أيبك المتوفى سنة ٧٦٤ ﻫ (٢) هو المشهور الآن بمستشفى قلاوون ولم يبق منه الا قسم الرمد

الإيرانية ، وكانت وقتئذ تملك العراق والبحرين ومدحه مِدَحاً رقيقةً ، وأكثر شعره مقصورٌ عليه وعلى آل بيته فغمره باحسانه

وصف شعره

وابن معتوق من كبار شعراء الشيعة لنشوئه فى دولة شيعية غالية فأفرط فى التشيع فى شعره ، وجاء فى مدح على والشهيدين بما يخرج عن حد الشرع والعقل ؛ ويمتاز شعره بالرقة وكثرة الاستعارات والتشبيهات حتى لتكاد الحقيقةُ تهملُ فيه جُملة

وله ديوان شعر مشهور طبع مراراً بمصر وغيرها ، ويشتمل على قصائد ومقطعات ودوبيت وموَاليا وبعض فصول من النثر سماها إبنهُ جامعُ ديوانه بنوداً

ومن قوله يهنىء أميراً بالنصر على أعدائه ، ويصف ايقاعَه بهم ويلمح لآيات من القرآن الكريم :

وأخرجْتَهمْ فى زعمهم عن ديارهم	وما اعتقدوا هذا الى أوَّل الحشر
وألقَوْا حِبال المُنكرَات وخيّلوا	فعارضتهمْ فى آية السيف لا السحر
كفى الله فيك المؤمنين لدى الوغى	قتالَ العدا حتى سلمتَ من الأَزر
ولو لم يكفَّ البأسَ عنوُك عنهمُ	لعدت وقد عاد الحديد من التبر [1]
فما لبثوا إلاّ قليلاً فكم ترى	لهم من ظليم [2] فرّ عن بيضة الخِدْر
تولوا مع الخُفَّاش فى غَسَق الدجى	وخافوا طِلاَبَ الشمس فى عقِب الفجر
إذا مالهم عِقْبانُ راياتك انجلتْ	أعيروا من الغربان أجنحة الغر
رميتَهمو فى فيلق قد تغرَّدت	به طائرات النجح فى عذب السُّمر

وله من قصيدة :

لله أيامُ لَهْوى بالعقيق وان	كانت قصاراً وساءتنى قُصاراها
أوقاتُ أُنس كأنّ الدهر أغفلَها	إذ من صروف الليالى ماعرَفناها
لم نَشكُ من مِحَنِ الدنيا الى أحد	من البرية إلاَّ كان إحداها

(١) أى حمرة الدماء (٢) الظليم ذكر النعام يريد به الفارس الفار عن حرمه

العصر الخامس

وهو عصر النهضة الأخيرة

من ١٢٢٠ — الى الوقت الحاضر

حالة اللغة العربية وآدابها فى هذا العصر

كانت حالة البلاد العربية فى أوائل القرن الثالث عشر غاية ما وصلت اليه من الفساد والاضمحلال حكومةً وأخلاقاً ولغةً وأدباً ، فرأت أوربة أن قد آن الأوان لأن تُجدِّدَ غاراتِها عليها ففعلت ، ولكن لا بشكل الحروب الصليبية الممقوتة ، بل بدعوى نشر متاجرها وبث علومها وآدابها ، وبمحاربة الواقفين لها فى طريقها ، فابتدئَ ذلك بحملة نابليون على مصر والشام ، فكانت هى أوّل ناشر لعلم أوربة وأدبها فى البلاد العربية وان سبقها بقليل بعضُ الدعاة المسيحيين من أممها



محمد على باشا

فلما استولى ساكنُ الجنان محمد علىّ باشا على مصر بحذقه ودهائه ، كان أولَ قاعدةٍ أراد أن يبني عليها مملكتَه وسلطانَه متابعةُ الأوربيين فى الإدارة والتربية وتنظيم الجيش : لما رآه من آثار الفرنسيين بمصر ، ولما شاهده من تقدمهم أثناء اشتراكه فى حربهم مع الترك والانجليز ، فاستعان بفرانسا وبعضِ ممالك أوربة على ادخال المدنية الاوربية فى بلاده فتمّ له بعضُ ذلك إلا أن أحوال البلاد الطبعيةَ والدينيةَ واللغويةَ لم تكن تُسهّل على مستخدمى الاوربيين ومن معه من الألبانيين والترك أن يستقلوا بجميع أمور البلاد . فرأى بحكمته أن يربّيَ من أبناء البلاد وجاليةِ الترك والألبانِ من يكونُ خيرَ واسطة لنقل معارف الاوربيين اليها ، فبعث إلى أوربة بثلاثة بُعوثٍ علمية في أزمنة مختلفة (١) كونت بعدُ ثلاث طبقات من العلماء والأطباء والمهندسين والضباط : فنقلوا الى اللغة العربية عشراتِ الكتب الجليلة فى العلوم المختلفة فأحدث ذلك فى اللغة العربية انقلاباً عظيماً ، واكتسبت من سعة الأغراض والمعانى والألفاظ العلميــة والاساليب الاجنبية وطرق البرهنة والاستنباط وترتيب الفكْر ثروةً طائلةً ، وعهدَ إلى هؤلاء الأساتذة ومن سبقهم ومن لحقهم من الأوربيين انشاءَ المصانع الوفيرة ، والمدارسِ الكثيرة من ملكية وحربية ، وحاول أن يجعل اللغة التركيةَ أساسيةً أو شبه أساسيةٍ فى التعليم والسياسة والادارة فتعذّر عليه ذلك ، واضطُرّ الى مُجاراة طبيعة البلاد فأصبحت العربيةُ لغةَ كل ذلك ، وظهرت على اللغة التركية واللغات الاوربيــةِ المختلفة التى كانت تدرسُ وجوباً معها ، وكان من الأزهر الشريف كلُّ المدد الذى استمده محمد على لتربية البعوث العلمية وتدريس العلوم العربية بالمدارس ، ورأى العلماء والأدباء أنه صارت لهم دولة منظمة متحضرة تتقبل منهم بقبول حسن كلَّ ما يُحسنونه : من نتيجة كدّهم وثمرة أفكارهم ، فالتفوا حولها وصار للدولة كتّابٌ وشعراء ومنشئون في جريدتها (الوقائع) أولِ جريدة عربية

البعوث الى أوربة

أثر البعوث فى اللغة

أثر الازهر

---

(١) وقد أوردنا فى الصفحة التالية صور بعض طلبة البعوث العلمية التى أرسلها محمد على باشا الى أوربة

﴿ الأسماء مرتبة من اليمين الى اليسار ﴾

الصف الاول

مصطفى محرمجي (مهندس)
رفاعه بك (ناظر مدرسة الالسن)
حسن بك (وزير بحرية)
محمد بيومي (مدرس بمدرسة الطب)

الصف الثاني

محمد علي باشا الحكيم (طبيب وجراح)
محمد شباسي (مدرس بمدرسة الطب)
الوزير علي مبارك باشا
أواري بن كلهو ولد فليو (من أهلي السودان)
مختار بك (أحد وزراء المعارف)

الصف الثالث

محمد السكري (مدرس مدرسة الطب)
أمين بك (ناظر الذخائر)
مظهر بك (مهندس القناطر الخيرية)
محمد شافعي (أحد نظار مدرسة الطب)

أثر السوريين

واقتدى بمصر أهلُ الشام وصادف ذلك امتدادَ نفوذ دعاة المسيحية من الامريكان البروتستنت واليسوعيين الكاثوليك وغيرهم فهاجر كثير من السوريين الى مصر وانتظم في سلك الحكومة والمدارس المصرية ، ودخل كثير من نصاراهم مدارس الدُّعاة الذين كان أكثرُهم من المستعربين العارفين باللغة العربية فدرسوا العلوم وألفوا الكتب باللسان العربي ، ونبغ من مدارسهم رجال كانوا زهرةَ سُورِيةَ ، وغلبَ عليهم الأدبُ : من الشعر والكتابة وترجمة الرّوايات الأدبية ، واتخذوا ذلك صناعة لهم يتكسبون بها في الشام ومصر ، فعاد ذلك على القطرين بالتقدم في الفصاحة وسعة الخيال وحرية الفكر والإرادة

أثر اسماعيل باشا في النهضة

ومن الأسف أن هذه النهضة لم يستمر سيرها في مصر كما استمر في الشام بل ركدت ريحها زمن عباسٍ باشا الأول وزمن سعيد باشا ، ثم تنسمت في عصر اسماعيل وما لبثت أن صارت رُخاءً طيبة فأعاد رحمه الله سيرة جده في نشر العلم فافتتح المدارس والمكاتب وأنشأ الجسور والقصور والمصانع ، ووجد أكثر رجال البعوث العلمية الذين رباهم جدّه على قيد الحياة فاتخذ منهم المدرّسين ورؤساء الإدارة ، وزاد على جدّه في ارسال البعوث العلمية الى أوربة ، وظهرت ثمرةُ أعماله في حياته ، وكادت مصر توشِك ان تكون قطعة من أوربة كما قال هو في بعض حديثه

وباطراد سيرها على هذا النظام تصبح زهرة الشرق كله ان شاء الله تعالى

ويمكننا تلخيص أسباب النهضة الأدبية في الأمور الآتية :

(١) اتصال المدنية الغربية بالمدنية الشرقية من أوائل القرن الماضي وابتدأ ذلك بحملة بونابرت واتخاذ الدعاة المسيحيين من الامريكان البروتستنت واليسوعيين وغيرهم بلادَ الشرق مجالاً لأعمالهم ، وجعلهم اللغةَ العربيةَ في أوّل أمرهم اللغةَ الرسمية لنشر تعاليمهم وآدابهم ، وكان لعملهم في سورية أثرٌ أبينُ منه في مصر ، فأنشئوا المستشفيات والمدارس وانتظم فيها كثير من نصارى الشام ، فخرجت عدة طبقات منهم كان لهم الفضل في نشر اللسان العربي وتوسيع دائرته وعلومه وآدابه

ومن أركان هذه النهضة فى سورية الشيخ ناصيف اليازجى وابنه الشيخ ابراهيم والدكتور فنديك المتعرب الأمريكاني واحمد فارس وأديب اسحاق وغيرهم

(٢) ازدياد عدد المستعربين بأوربة والشرق وسعيهم المتواصل فى ايجاد المطابع العربية وطبعهم فيها نفائس كتب العرب ، وعنايتهم بطبعها وتنقيحها . وانشاء الجمعية الآسيوية الباحثة فى أحوال الشرق وعلومه ؛ وتعد مجلتها الآسيوية من كنوز العلم والأدب

(٣) ايجاد المدارس النظامية المتعددة التى أنشأها المغفور له محمد علي باشا بمساعدة الاساتذة الأوربيين ثم علماء المصريين ، والمدارس التى أنشأها المغفور له الخديو اسماعيل وأعظمها خدمة للعربية وآدابها مدرسة دار العلوم التى أنشئت فى زمنه باقتراح رجل مصر وعالمها المرحوم على مبارك باشا فتخرج فى هذه المدرسة مئات من المعلمين والقضاة والمحامين وكتّاب الدواوين ، وتربى على أيديهم إما مباشرة وإما بواسطة جميع متعلمى العصر الحاضر وفيهم أفاضل الأمة من محرريها وكتابها وقضاتها ومحاميها وشعرائها ، ولا يغمطها هذه الفضيلة الا كل جاحد مكابر ، ويكفى دليلاً على اثبات هذا الفضل لها ما أورده حكيم المصريين الأستاذ الامام المرحوم الشيخ محمد عبده فى تقريره عن الامتحان النهائى للمدرسة الذى رأسه سنة ١٩٠٤ قال « وانى انتهز هذه الفرصة للتصريح بمكانة هذه المدرسة فى نفسى وما أعتقده من منزلتها فى البلاد المصرية ومن اللغة العربية : إن الناس لا يزالون يذكرون اللغة العربية واهمال أهلها فى تقويمها ويوجهون اللوم الى الحكومة لعدم عنايتها بأمرها ، ولم أسمعهم قط ينصفون هذه المدرسة ولا يذكرونها من حسنات الحكومة . فإن باحثاً مدققاً لو أراد ان يعرف أين تموت اللغة العربية واين تحيا لوجدها تموت فى كل مكان ووجدها تحيا فى هذا المكان ، وان أوّل فضل فى تقدم اللغة العربية بتسهيل طرق تناولها وتأليف بعض الكتب المفيدة للمتعلمين فى المدارس

الابتدائية كان للمتخرجين فيها ، ثم هم أساتذة المدارس الابتدائية والثانوية ، ولا يشك عاقل فى أن تلامذة تلك المدارس يكتبون وينطقون على نمطٍ أقومَ مما كان يَكتُب وينطِق عليه أساتذتهم من قبل » اهـ والفضل كل الفضل فى تأهيل طلابها لقَبولهم فيها راجع للأزهرالشريف الذى كان ويكون ان شاء الله المورد العذب لطلاب العربية وفنونها

(٤) البعوثُ العلمية الذين أرسلهم محمد على باشا ثم اسماعيل باشا الى ممالك أوربة لتلقى العلوم المختلفة ، وقد كانت مدد هذه البعوث تصل أحياناً الى ١٢ سنة

(٥) شيوع تعلُّم اللغات الأجنبية وجعل تعليمها اجبارياً بمصر والشام فى مدارس الحكومة والجمعيات ومدارس الرهبان والدعاة فنشأ من ذلك نقل كثير من المعانى والأَساليب الافرنجية التى يقبلها الذوق العربى فأثْرَتْ بذلك اللغةُ وحَصُفَتْ أفكارُ أهلِها واتسعت أغراضُ القول فى وجوههم ، وتُرجم منها ألوفُ الكتب والروايات والمقالات السياسية والعلمية الى العربية ، فاستفاد منها أيضاً من لا يعرف اللغات الأجنبية علماً جمًّا وأدباً غزيراً

(٦) إيجادُ المطابعِ العربيةِ بمصر والشام والقسطنطينية وطبعُها كثيراً من الصحف السيارة وكتب العلم والأدب وخاصة الروايات .

ومن أهم الكتب المطبوعة التى جددت حياةَ اللغةِ والأَدب كتب المعجمات مثلُ الصحاح والقاموسِ وشرحِه ولسانِ العرب والمخصّص ، وكتب الأدب مثل الاغانى والعقد الفريد وكامل المبرد والمقاماتِ للحريرى ، والبديع ، وأمالى القالى ، وصبح الأعشى ، ودواوين الشعر والرسائل الكثيرة ، وأمهاتِ كتب التاريخ : كالطبرى وابن الأثير وابن خُلدون ومقدّمَتِه الجليلة ذاتِ الأثر البيِّنِ فى الأدبِ والكتابة فى العصر الحاضر ، ونفحِ الطيب وغيرها

وللاوربيين عظيمُ الفضل باختراع المطابع العربية فى أواسط القرن الخامس عشر المسيحى كما اخترعوا غيرها من قبل ، وطبعوا بها الكتب العربية الجليلة بايطاليا وفرنسا

وأول مطبعة عربية وصلت الى الشرق كانت مع اللجنة العلمية التى صحبت حملة بونابارت وطبع بها فى مصر كتاب التهجية العربية والتركية والفارسية سنة ١٧٩٨ ثم كتاب القراءة العربية ثم معجم فرنسى وعربى ثم كتاب فى نحو اللغة المصرية العامية

ولما استولى محمد على باشا على ملك مصر أنشأ دار الطباعة العامرة ببلاق وصب حروفها على أجمل قاعدة نسخية وفارسية من حجوم مختلفة فطبعت ابتداء بعض الكتب التركية والفارسية ثم أخذت فى طبع نحو ثلثمائة كتاب من الكتب المترجمة عن اللغات الاجنبية فى العلوم الحديثة كالرياضيات والطبعيات والطب والجراحة . أما الكتب الأدبية فتأخر طبعها قليلا ومن أول ما طبع منها كليلة ودمنة وخزانة الأدب الكبرى للبغدادى ومقدمة ابن خلدون ومقامات الحريرى وتفسير الرازى والقاموس والاغانى

ثم فشت المطابع فى الشام على أيدى رؤساء الرهبنات والدعاة وطبعت أولاً كتبها الدينية ثم بعض كتب أدبية وظهرت بعيد هذا الوقت دار الطباعة العامرة بالقسطنطينية فطبعت كثيراً من الكتب الشرقية والفارسية ثم طبعت بعد كتباً كثيرة فى الفقه والنحو والصرف والبلاغة والفلسفة والأصول والكلام وغير ذلك

ثم شرع كثير من المصريين فحاكوا حروف مطبعة بولاق وأنشئوا مطابع عدة بالقاهرة والاسكندرية سهلت طرق العلم على الطلبة وخصوصاً فقراء طلبة الأزهر

(٧) انشاء الصحف العربية بمصر والشام والقسطنطينية

وأول جريدة عربية هى الوقائع المصرية التى صدرت سنة ١٨٢٨ وحرر أول عددها باللغة التركية ثم عهد فى تحريرها الى الشيخ حسن العطار والشيخ شهاب الدين صاحب السفينة فحررت فصولها بالعربية والتركية ثم اقتصر فيها فى الأزمان الأخيرة على العربية ثم صارت تطبع نسخ منها بالعربية ونسخ بالفرنسية وكانت تصدر ثلاث مرات فى الأسبوع وبقيت كذلك الى وقتنا هذا»

وأول جريدة عربية ظهرت فى سورية كانت جريدة حديقة الأخبار الصادرة

فى سنة ١٨٥٨ وأول جريدة عربية ظهرت فى القسطنطينية سنة ١٨٦٠ كانت الجوائب لصاحبها أحمد فارس وظهرت بعدها فى سورية جريدة سورية الرسمية سنة ١٨٦٥

ومن أوّل الجرائد التى ظهرت بمصر بعد الوقائع جريدة وادى النيل (القديمة) وتلتها جرائد أخرى : مثل الاسكندرية ، والزمان ، والاعتدال ، والفلاح ، والاهرام ، والمقطم ، والمؤيد ، واللواء ، والعلم ، والجريدة ، والشعب ؛ وفى سورية من نظائرها كثير

ولنصارى السوريين فضل السبق على المصريين فى اتخاذ صناعة تحرير الصحف حرفة بسورية أوّلاً ثم بمصر ثانياً ، وهم أوّل من قام بانشائها بمصر بعد الوقائع ولكنهم لم ينفردوا بها أكثر من عشر سنين ، ثم زاحمهم المصريون فاشتركوا معهم فى تحرير صحفهم وتصحيحها ، ثم اشتغلوا بجرائد أو مجلات خاصة مثل التنكيت والتبكيت للسيد عبد الله النديم ، والمؤيد للشيخ علي يوسف ، واللواء لمصطفى كامل باشا ، والجريدة ، والعلم ، والشعب ، والأخبار ، والنظام ، ووادى النيل الثانية ، والأهالى لبعض الأحزاب المصرية

ومن أشهر جرائد السوريين التى كان لها جزيل الفضل على نشر العربية ، وتحبيب القارئين فى القراءة جريدة الفلاح لصاحبها سليم حموى وقد احتجبت بعد موت صاحبها ، وجريدة الاهرام وأوّل من أسسها سليم تقلا ثم خلفه أخوه بشاره تقلا ثم ابن بشارة جبريل تقلا ، والمقطم لصاحبيها فارس نمر ويعقوب صرّوف

هذا والى المطابع والمطبوعات من كتب وصحف ومجلات يرجع أكثر الفضل فى تكوين النهضة الحاضرة

فبها قلّت مؤونة اقتناء الكتب الى حد لم يحلم به أسلافنا ، فسهلت على الحكومة نشر التعليم بين الناشئين : ونشرت التوسع فى العلم والأدب لجميع طبقات الراغبين وضبطت أعمال المصالح والدواوين ، وقربت مسافة الخلف بين أصناف الناس فى الأفكار والعادات والأخلاق ومسائل الاجتماع ، وحفظت للتاريخ أخبار الوقائع

والحوادث اليومية : عظيمها وحقيرها بما يطابق الحقيقة أو يقاربها ونحو ذلك مما لا يحصى

(٨) تنظيم التقاضى والترافع منذ انشاء المحاكم الأهلية ونشأ عن ذلك صناعة مستقلة ، أداتها فصاحة اللسان وقوة الحجة فى الخصومة : وهى صناعة المحاماة ، ونشأ بجانبها نظير لها فى مناصب المحاكم هى مرافعة وكلاء النيابة فى اثبات التهم ، واستتبع كلتاهما الإجادة فى تحرير القضاة صور الاحكام ، ووجدت لغة قانون قضائية أكسبت العربية ثروة عظيمة

(٩) حدوث الأندية والجمعيات العلمية والأدبية لالقاء الخطب والمحاضرات ، وللسيد جمال الدين الأفغانى الفضل فى احداثها بمصر

(١٠) حدوث فن التمثيل باللغة العربية — وأوّلُ ما ظهر فى الشام ثم انتشر فى مصر ، بيد أنه لم يُؤدِّ بعدُ كلّ الغرض المطلوب منه لجهل أكثر الممثلين بصناعته وضعفهم فى العربية الفصيحة وسوء اختيار القصص الممثلة الملائمة لبلادٍ شرقية إسلامية

(١١) إحداث الشهادات الدراسية واعتبار الحصول عليها شرطاً فى خدمة الحكومة ، والاحتراف بالحرف العلمية كالطب والهندسة والمحاماة

(١٢) تنظيم التعليم بالأزهر الشريف والمعاهد الدينية وإدخال كثير من العلوم الحديثة بين مواد دراستها ؛ وللشيخ محمد عبده جليل الفضل فى اقتراح هذا الاصلاح الذى جعل مساعدة الازهر بالمال والآراء السديدة وضمان مستقبله موضوعَ عناية دولتنا السنية — هذا وقد سبقتْ مصر والشام غيرَهما من البلاد العربية ثم اقتفى أثرهما العراق والحجاز واليمن والهند وتونس

النثر

المحادثة أو لغة التخاطب

كانت العامية فى أوائل هذه العصور غاية فى الانحطاط ، ثم لما انتشر التعليم بين طبقات المصريين دخل فى عبارتهم كثير من الفصيح ، وانتقل ذلك لمعاشريهم من الأميين وبعض النساء . ومما ساعد على ذلك أيضاً جعل التقاضى باللغة الفصيحة وكثرة الصحف والمجلات والروايات . وترقى الزجل والمواليا والواو[1] ، وبلغ الزجل فى عصر اسماعيل باشا وتوفيق باشا غايته ، ومن أشهر رجاله المرحوم محمد عثمان جلال بك ، والمرحوم السيد عبد الله النديم ، والمرحوم الشيخ محمد النجار ، والمرحوم الشيخ احمد القوصى وغيرهم ، الاّ انه أخذ يضمحل فى عصرنا هـذا بغلبة الشعر الفصيح عليه وترفُّع كبار الرجال عن استماعه

الخطابة

كان المصريون والسوريون أوائلَ هـذا العصر لا يستعملون الخطابةَ فى غير الأغراض الدينية ، ثم اتسعت دائرة الأفـكار فى عصر اسماعيل باشا ، وصادف ذلك مجيء السيد جمال الدين الأفغانى الى مصر ، والتف حوله كثير من الازهريين ولفيف من أدباء المصريين والسوريين ، فأدخلهم فى عداد جمعيته وألف منهم أندية كانوا ينتابون الخطابة فيهـا فى الأمور الدينية والأخلاق ، ثم تعدت ذلك الى الأمور السياسية

وانتشرت الخطابة بين شبان مصر وفشتْ بعد عصر اسماعيل فى زمن توفيق باشا وولدت رجال الثورة العرابية

---

(١) هو نوع من الزجل وزنه مثل بحر المجتث (مستفعلن فاعلاتن) أو فاعلاتان أربع مرات واخترع هذا النوع أواخر العصر الماضي وفشا جدا فى صعيد مصر صدر العصر الحالى ومنه قول ابن عروس المتصوف :

مسكين من يطبخ الفاس ويريد مرق من حديده
مسكين من يصحب الناس ويريد من لا يريده

ومن أشهر خطبائهم السيد عبد الله النديم وكان لا يجارَى فى سرعة البديهة وشدة التأثير فى سامعيه ، ويحسن الخطابة بالفصيحة والعامية ، والشيخ محمد عبده وغيرهما

ولما اسست الجمعيات والأندية الأدبية بمصر ، شغلت موضعاً فسيحاً فى عالم الخطابة وبلغت فى عصرنا هذا بسبب حالة مصر السياسية مبلغاً عظيما وأصبحت فى حال زاهرة لا تقل كثيراً عما كانت عليه فى عصور الدول الاسلامية الغابرة

الكتابة

الكتابة الخطية

وقف الخط فى سبيل تقدمه عند الحد الذى رسمته له الطبقة الناشئة فى القرن العاشر والحادى عشر والثانى عشر من خطاطى الترك ، وكل من نشأ بعدهم فانما هو متبع طريقهم وحاذٍ حذوهم

وأشهر من نبغ فى العصر الذى نحن بصدد الكلام فيه عبد الله الزهدى وهو الذى خط بالقلم الجليل جدران المسجد النبوى وجدران سبيل والدة عباس باشا الاول بالصليبة بالقاهرة وجامع الرفاعى ، ومحمد مؤنس افندى ، وتخرج عليه وعلى تلميذه المرحوم محمد جعفر[1] بك جميع خطاطى قطرنا المصرى

عبد الله بك الزهدى

هو الخطاط الشهير والمجود الخطير عبد الله بك الزهدى

ولد بالاستانة ونشأ بها وتلقى الخط على مشهورى عصره أمثال حافظ راشد أفندى الشهير بأيوب علي ومصطفى أفندى عزت الذى كان قاضى عسكر ومن هذا الأخير حصل على إجازة الخط ، فعين معلماً له بجامع نور عثمانية بالاستانة ، ثم ندبه السلطان عبد الحميد لكتابة خط الحرم المدنى فسافر الى الحجاز ، ولما قدم منه مجتازا مصر أبقاه المرحوم اسماعيل باشا وأمر بتعيينه مدرساً للخط بالمدرسة الخديوية فقام

(١) كان مدرسا للخط بمدرسة دار العلوم وهو الذى كتب حروف المطبعة الاميرية المستعملة الآن

بهذه الوظيفة خير قيام ، ثم كافته الحكومة كتابة الآيات القرآنية وغيرها على كسوة الكعبة الشريفة فأبدع فيها أيما ابداع ، ولا تزال كتابته عليها تشهد له بالبراعة وحسن الرونق ، وقد عهد اليه اسماعيل باشا كتابة الخط على سبيل أم عباس بالصليبة فأجاد كعادته ، ولا تزال هذه الكتابة ماثلة للعيان ، وقد تخرج عليه كثيرون في القطر المصرى ممن جودوا الخط وكان لهم فضل عظيم فى نشره وتحسينه ، واستمر يعلم الخط بالمدرسة الخديوية حتى توفى سنة ١٢٩٦ هـ

وقد رثاه بعض الشعراء بقوله :

مات رب الخط والاقلام قد	نكست أعلامها حزناً عليه
وانثنت من حسرة قاماتها	بعد ما كانت تباهى فى يديه
ولذا قد قلت فى تاريخه	مات زهدى رحمة الله عليه
	٤٤١ ٢٦ ٦٤٨ ٦٦ ١١٥

١٢٩٦

الكتابة الانشائية

مضى العصر المتقدم وليس لكُتّاب الدواوين فى أواخره شأن يذكر لجعل التركية هى اللغةَ الرسمية ، وأقبل العصر الحاضر والحال لم تتغير فى الممالك العثمانية الاَّ قليلاً وشرعت تتغير فى مصر الا أنه لم يكن تربى بها من فتيان المسلمين من يتولى الكتابة فى مناصب الحكومة ، فكانت مقاليدها فى يد كتبة القبط واشتهر من بينهم المعلم غالى [1]

ثم استخدمت الحكومة رجال البعوث العلمية وتلاميذ المدارس المنشأة بمصر والسوريين فى أعمال الكتابة فتقدمت شيئاً ما . ويعرف ذلك من صورها السقيمة المدرجة فى أعداد الوقائع المصرية لذلك العصر ، ثم لما انشئت المدارس النظامية وتولى التدريسَ بها مشايخ الأزهر ثم متخرجو مدرسة دار العلوم نشأت طبقة من

---

(١) كان رئيسا للكتاب وكاتب سر محمد على باشا وقتل سنة ١٨٢١

كتاب الدواوين رقّوا كتابتها . وقد هجر السجع الذى أكثر منهُ الأقدمون الاَّ أن عبد الله باشا فكرى أشهر المصلحين للكتابة الديوانية الفصيحة ألمَّ به فى كثير من مكاتباته الرسمية

ومن أهم البواعث على اجتناب زخرف البديع فى الانشاء تعلم اللغة الأجنبية والترجمة عنها لأنها أقرب الى الطبيعة من الطرق الموروثة عن مستعربى الفرس فى العصور الوسطى

أما كتابة التأليف والصحف فانها أخذت تنحو منحى كتابة ابن خلدون فى مقدمته لانكباب كثير من المدرّسين والقارئين والمحررين على دراستها ومحاكاتها

ولما ولت الحكومة الشيخ محمد عبده تحرير الوقائع الرسمية والاشرافَ على تحرير الجرائد ، ترقّت كتابتها كثيراً ودرجت فى سبيل التقدم الى الآن

كتابة التدوين

كان أكثر الكتب التى ألفت أو ترجمت فى مصر علمية لشدة احتياجها اليها فى تأييد حكومتها وادخال اصلاحات فى زراعتها وماليتها وادارتها وقضائها ؛ أما سورية فكانت حالة الأدب فيها فى النصف الأول من العصر الحاضر خيراً منها فى مصر ، ولكن مصر نهضت فى النصف الثانى ، واسترجعت حياتها الأدبية ، وأدخلت دراسة أدب اللغة فى مدارسها وألّف فيه عدةُ كتب ، وانحط شأنُ سورية فى العربية ، ولا سيما بين طوائف النصرانية : لعدول جمعيات البعوث الدينية عن التعليم باللغة العربية الى اللغة الاجنبية ، فلم ينبغ فى العربية من السوريين فى السنوات الأخيرة من يضارع سابقيهم

ويعتبر عصرنا الحاضر من أزهى عصور العربية بمصر فقد أصبحت قبلةَ العالم العربى ومركز حضارته وبلاغته بمن نشأ فيها : من كبار العلماء والمؤلفين والمترجمين والمهندسين والقضاة والمحامين وكتاب الجرائد والمجلات والخطباء والشعراء والمدرسين وسلك العلم فى سيره طريقاً حديثاً غير طريق أهل الأزهر

ومن أشهر العلماء الأزهريين فى هذا العصر الشيخ الجبرتى والشيخ حسن العطار والشيخ العروسى والشيخ التميمى والشيخ الباجورى والشيخ عليش والشيخ الابيارى والشيخ السقا والشيخ الانبابى والشيخ الأشمونى الاخير والشيخ الشربينى وغيرهم

ومن غير الأزهريين من أهل النهضة الحديثة رفاعه بك شيخ المترجمين والمؤلفين وعلى مبارك باشا مؤسس دار العلوم وأشهر المؤلفين المصريين ، والنطاسى الشهير محمد على باشا ، والسيد صالح مجدى بك ، ومحمود باشا الفلكى ، وأحمد ندى بك ، وعبد الله باشا فكرى ، وقدرى باشا ، ودرّى باشا.

نماذج من النثر

كتب الاستاذ المرحوم الشيخ حمزة فتح الله الى صاحب السماحة السيد عبد الحميد البكرى معتذراً :

مولاى — اما الشوق الى رؤيتك فشديد ، وسل فؤادك عن صديق حميم ، وود صميم ، وخُلَّة لا يزيدها تعاقب المَلَوَين ، وتألُّق النَيِّرَين ، إلا وثوقاً فى العُرا ، وإحكاماً فى البنا ، ونماء فى الغراس ، وتشييداً فى الدعائم . ولا يظنن سيدى أن عدم ازديارى ساحته الشريفة ، واجتلائى طلعته المنيفة ، لتقاعس أو تقصير ، فان لى فى ذلك معذرة اقتضت التأخير ، والسيد أطال الله بقاءه أجدر من قبل معذرة صديقه ، وأغضى عن ريث استدعته الضرورة . وبعد فرجائى من مقامكم السامى أن لا تكون معذرتى هذه عائقاً لكم عن زيارتى ، فلكم مِنَّةٍ طوّقتمونيها ، ولكم فيها فضل البداءة وعلىّ دوام الشكران ، والسلام م؟

وكتب المرحوم الشيخ عبد الكريم سلمان وقد أهدى كتاباً :

الانسان الكامل ، والمولى الفاضل ، دام كماله ، وزاد اقباله

كتابى الى الأستاذ ، والهدايا تزيد فى التوادّ ، وتوسع فى قوة الارتباط ، ان كانت لغير من حظرها عليه الشرع القويم ، والشيخ منى بمنزلة الأخ من أخيه ، وأنا منه بمثابة الولد من أبيه ، ولا داعية لى اليه سوى الصلة به ، ولا أريد منه غير الوداد

(قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة فى القربى) وقد اخترت لك من كتب الأدب العربى القديم كتاباً حديث العهد بالوجود ، بعثته إلى حضرتك معترفاً بأنه نموذج فضلك ، ومعنى أدبك ، يعترف لك مهديه ، بأنه لاحظ المناسبات ، ونظر الى الرغبات وقبل أن تشتغل بالبحث فيه عن اسمه والأوصاف ، أعلمك بأنه كتاب المنسوب والمضاف ، فهنيئاً له بالشيخ يقدره حق قدره ، وهنيئاً للشيخ به يزيده فى أمره ، وان قبول الأستاذ لهديتى مكفول بحسن أخلاقه ، وطهارة أعراقه ، وبعلمه بأن النفع بها وهى عنده أهم وأوفى ، فله الحمد على ماقبل ، والشكر على ما أولى

وكتب المرحوم الشيخ حسن افندى توفيق يعتب على صديق له :

عذلت أيها الصديق ولات حين عذل ، حيث أملت أن أكون لك كما أنت لى ، وأنا ذلك الخدن الذى ملئت جوانحه شوقاً ، وحشيت أحشاؤه صدقاً ، أغرك إرجاء المكاتبة ، أم ضمْت الأقلام ، والقلوب كالسبيكة إذا أصدأها السكون فهى خالصة الباطن أو كحجرة الزند تتأجج وهى مغبرةُ الظاهر ، بل تحكم لديك الشك فحكمت وكان عهدى بك اليقين ، ومع هذا فانى أشكرك على عذلك ، وأحمدك على فضلك ، فلا لوم إلاّ بين أصدقاء ، ولا عتاب إلاّ بين أودّاء ، وما اختيارى لهذا أن أقرع عصاك ، بل أن أجعل شكاك يقيناً فى صديقٍ رؤيتك أشهى آماله ، ولقاؤك أعظم أمنياته ، والسلام ؟

الكتّاب والعلماء

رفاعة بك رافع الطّهطاوى

هو الكاتب الشاعر الأديب المترجم السيد رفاعة بك الحسيني الطهطاوى شيخ الترجمة وإمامُ النهضة الحديثة

وُلد بطهطا من أُسرة شريفة افتقرت بعد غنى فتنقل به والده فى بعض بلاد مديريته مديرية قنا بضع سنين تعلم فى أثنائها القرءان الكريم ودرس مبادئ العربية وحفظ كثيراً من المتون على أخواله

ثم توفى والده فتولت والدته تربيته فأرسلته الى الجامع الأزهر فأكمل دراسته

فيه ، ثم انتخب إماماً لبعض فرق الجيش ، ولم يلبث أن اختاره المرحوم محمد علي باشا إماماً ومعلماً لأول بعث علمى أرسل الى فرنسا سنة ١٢٤١ ، فراقته علوم أوربة وعظمتها فأكب بنفسه على تعلم اللغة الفرنسية حتى أجادها فهماً وانشاء وان لم يجدها نطقاً وارتجالاً ، وكتب أثناء إقامته بباريس كتاب رحلته الى أوربة ، وترجم قلائد المفاخر في غرائب الأوائل والأواخر ، فسر بذلك محمد على باشا فلما عاد الى مصر سنة ١٢٤٧ هـ اختاره رئيساً للترجمة بمدرسة أبي زعبل ، فترجم بها كثيراً من الكتب والدروس



رفاعة بك رافع الطّهطاوى

واشترك هو وأستاذه الشيخ حسن العطار فى اقتراح انشاء الوقائع المصرية وتحريرها ثم نقل الى مدرسة المدفعية (الطبجية) بطرة لترجمة الكتب الهندسية ، ثم صار مديراً لمدرسة الألسن والترجمة فبلغ عدد تلاميذها ٢٥٠ تلميذاً ، وتمّ على أيديهم ترجمة أكثر ما نقل من علوم أوربة الحديثة الى العربية زمن محمد على باشا واسماعيل باشا ، ولما أُلغيت مدرسة الألسن زمن عباس باشا الأول ، تقلب فى عدة مناصب ثم بقى مدة بلا عمل الى أن أعيد زمن اسماعيل باشا الى نظارة قلم الترجمة ، وانتخب عضواً بلجنة المدارس ، وتولى ادارة مجلة روضة المجالس ، وعكف على الترجمة والتأليف حتى

توفى سنة ١٢٩٠ هـ تاركاً لمصر كتباً ورجالاً هم أركان النهضة الحديثة

وقد ألف وترجم رفاعة بك غير ما تقدم كتباً تزيد على عشرين كتاباً ، أهمها ترجمة جغرافية (ملطبرون) والتعريبات الشافية لمريد الجغرافية ، والمرشد الأمين في تربية البنات والبنين.

وترجم القانون المدنى الفرنسى ، وكتاب هندسة (سياسير) ، ورواية تلماك ، وكتاب مناهج الألباب المصرية ، وله كتب شتى فى الأدب وعلوم العرب ، وآخر ما ألّفه نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز ، وكان فى ترجمته وتأليفه ينتحى أحياناً طريق السجع ، واضطر لانجاز ما يكلفهُ من الترجمة أن يستعمل بعض الألفاظ التركية أو العامية الشائعة فى زمنه

عبد الله فكرى باشا

هو الكاتب الشاعر الأديب عبد الله فكرى باشا أحد أركان النهضة الأدبية في الديار المصرية



عبد الله فكرى باشا

كان أبوه محمد بليغ افندى ضابطاً بالجيش المصرى وهو ابن الشيخ عبد الله أحد علماء الازهر

ولد سنة ١٢٥٠ وتوفى والده وهو فى سن الحادية عشرة فكفله بعض أقاربه فعلمه القرءان وبعث به الى الأزهر فأكبّ على تعلم علومه مشتغلاً أيضاً باللغة التركية واستُخدم من أجلها مترجماً للعربية والتركية فى عدة مناصب آلت الى نقله الى حاشية سعيد باشا ثم اسماعيل باشا ، فعهد اليه بتأديب بنيه الكرام وغيرهم من أمراء بيت الملك

ثم تقلب فى جملة مناصب آخرُها نظارة المعارف سنة ١٢٩٩ وبقى بها حتى زمن الثورة العرابية فسقط مع الوزارة ، واُتهم فى الثورة فقبض عليه ثم اتضحت براءته فأطلق وردّ اليـه معاشه بعـد أن اسـتعطف الخديو توفيقاً بقصيدة طويلة وتوفى سنة ١٣٠٧

كتابته

وكان فكرى باشا كاتباً بليغاً سلك فى كتابته طريقة كتاب القرن الرابع كالبديع الهمذانى والخوارزمى : من التزام السجع القصير القليل التكلف للمحسنات البديعية فى أكثر رسائله الصادرة عن القصر والنظارات ، وبذلك يقول فيه المرحوم الشيخ حسين المرصفى مدرس الأدب والعربية بدار العلوم (لو تقدم به الزمان لكان فيه بديعان ، ولم ينفرد بهذا اللقب علامة همذان) . ويعدّ عبد الله فكري من واضعى الاصطلاحات والألفاظ الديوانية المصرية الحـديثة ، وبعضها مقتبس من اصطلاح دولة المماليك ، وله شعر وسط فى الجودة ، ومن كتابته ما كتب به وصاية بشخص قال بعد الديباجة :

رافعُ هذا الرقيم ، الى حِمى المقام الكريم ، يذكُرُ أنّ مسألته طال فيها المَدَى ، وبقى فى انتظارها على مثل رُءوس المُدَى ، ويشكو من الفقر المُدقع ، والضرّ المُضْجع ما أحْرجَ صدْره ، وأخرج عنهُ صبرَه ، وأشرف به على اليأس ، والاستسلام لمخالب اليأس ، لولا أمل من مولاى يُبْقِى على حَوْبائه ، وينشرُ تذكارُه ميّتَ رجائه. وله فى سيدى ثناءٌ يبارى نفحاتِ الأزاهر ، ويَبْقَى على صفحات الدهر الداهر . ثم

هو بقيَّة بيت حفِظت الأيامُ نسبَهُ ، وان أضاعت حوادثُها نَشبهُ . وهو أولى من تعطِف عليه عواطفُ كرمه ، وتنعطف اليه جياد همه ، وأرجو أن يحقّق مولاى في تلك الشيم الكريمة ما أمّله . وأهدى من الثناء أتمّه واكمله

علىّ مبارك باشا

هو أبو المعارف المصرّية العالم المؤرّخ المؤلف المترجم المربى العظيم على بن مبارك ابن سليمان بن ابراهيم ؛ مصلح العلم والادارة بالديار المصرية ، ومؤسس دار العلوم ودار الكتب الملكية



علي مبارك باشا

ولد سنة ١٢٣٩ بقرية برمبال الجديدة من مديرية الدقهلية ، وكان والده الشيخ مبارك من أهل الفقه والعلم ببلده فضاق به العيش فانتقل الى مديرية الشرقية وشُغِل

بالمعاش عن تربيته بنفسه فكان يرسله الى معلّم قاس يتعلّم عليه القرآن الكريم فحفِظَهُ وهرب من المعلم لقسوته وضَرْبِهِ : وأخذ يتعلم الكتابةَ على بعض كتاب المراكز والقرى ، ويفر من قسوة هذا إلى ظلم ذاك ، حتى عثر فى بعض خرجاته بتلاميذ ذاهبين الى مدرسة ابى زعبل فصحبهم ودخل المدرسة

ثم اختير فى جملة من تلاميذها لمدرسة قصر العينى وسنه ١٢ سنة ، ودرس الرياضة فبرع فيها فانتخب طالباً بمدرسة الهندسة فأكمل فى خمس سنوات درْس فن الهندسة ، وأرسل إلى أوربة سنة ١٢٦٠ ليتمم دراسته بها ، فمكث نحو أربع سنوات درس فيها فن الهندسة والحرب ، ثم عاد الى مصر ضابطاً بالجيش ، ثم قدّم لعباس باشا الأَول مشروعاً بنظام المدارس المصرية فأعجبه وعهد اليه فى رياسة ديوانها وألف بعض الكتب الدراسية فكان أوّل من نظّم المدارس المصرية ، وفى زمن سعيد باشا وُشِيَ به اليه فساء حظه وبُعِثَ الى البلاد العثمانية فى الحملة التى وُجهت لمحاربة روسيا فعاد منها بعد أهوال ، وبقى يعتزل الخدمة طوراً ويخدم آخر ويتجر أحياناً ويعلّم أُخرى حتى كان زمنُ اسماعيل باشا فألحقه بحاشيته وتقلد عدّة مناصب هندسية جرى على يده فيها عظيم الأعمال

ثم عيّن سنة ١٢٨١ وكيلاً لديوان المدارس وسافر الى فرنسا لمهمة فأحسن أداءها وأنعم عليه برتبة الباشا (الميرميران) وتزاحمت عليه المناصبُ فكان مديراً للسكك الحديدية وناظراً للمعارف وللأشغال وللأَوقاف والقناطر الخيرية فقام بذلك جميعاً فى آن واحد خيرَ قيام

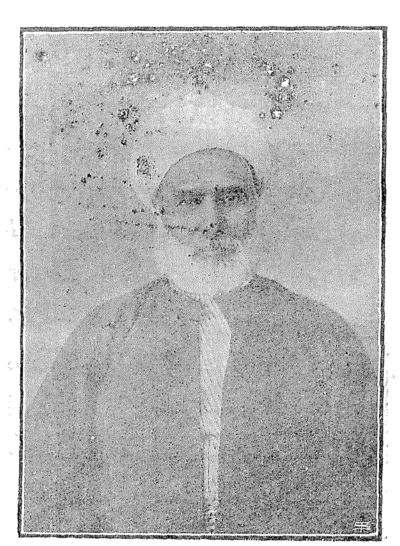
ومن أعماله العظيمة انشاء دار الكتب ، وانشاء مدرسة دار العلوم ليوفِقَ بين طلبة العلم القديم وطلبة العلم الحديث ، ويحسّن تعليم العربية فجاءت هذه المدرسة بأحسن مايطلب منها . ومنها تجديد مدينة القاهرة وأمهات مدن القطر بانشاء شوارعها وميادينها العظيمة ، وانشاء كثير من الترع والجسور كترعة الابراهيمية والاسماعيلية ، وبقى يتقلب فى النظارات ووكالتها حتى جاءت الثورة العرابية فكان من شيعة

توفيق باشا ، ثم قلد نظارة المعارف وغيرها حتى اعتزل الأعمال قبيل وفاته وتوفى سنة ١٣١١

وله مؤلفات جليلة منها الخطط التوفيقية فى عشرين جزءا وكتاب علم الدّين وكتاب نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر ، وكتاب الميزان فى الأقيسة والأوزان ، وكتاب الهجاء والمسامرات وغيرها

الشيخ محمد عبده

هو المصلحُ الكبير ، والمجتهد الخطير ، والكاتب البليغ ، والخطيب المصقع ، الأستاذ الامام الحكيم الشيخ محمد عبده أحد أركان النهضة العربية ، ومؤسسى الحركة الفكرية



الشيخ محمد عبده

ولد باحدى قرى مديرية الغربية ونشأ بين أسرته بمحلة نصر من مديرية البحيرة وترك بلا تعليم حتى ناهزت سنُّه العاشرة ثم رغب فى التعلم فحفظ القرءان الكريم ، وطلب العلم بالجامع الأحمدى ، ثم انتقل الى الأزهر ونبغ فى علومه

ولما قدم مصر السيد جمال الدين الافغانى سنة ١٢٨٦ وأعاد الى مصر دراسة الفلسفة وعلوم الحكمة والكلام بعد نضوب مَعِينها عدَّةَ قرون ، لزمه المترجَمُ هو وطائفةٌ من نابغى الأزهر كانوا يُعَدُّون ألسنةَ الفصاحة وأئمة الحركة الفكرية ، وكان الشيخ محمد عبده أنبغ تلاميذه ، وأحرصهم على ملازمته والاستفادة منه ، ونال درجة العالمية سنة ١٢٩٤ واختير سنة ١٢٩٥ مدرّساً للأدب والتاريخ العربي بدار العلوم ومدرسة الألسن ، ثم فصل منها ولزم بلده الى أن أشير على رياض باشا باختيار المترجَم لاصلاح لغة الوقائع المصرية ثم صار رئيس تحريرها ، وفى هذه المدة جعله رياض باشا مراقباً على كتابة الجرائد وتحريرها

وحدثت عقب ذلك الثورةُ العرابية فاشترك فيها ونُفِي من مصر فذهب الى سورية وتولى التدريس بمدارسها ، ثم انتقل الى أوربة فالتقى بالسيد جمال الدين بباريس فأنشأ جريدة العروة الوثقى . ثم عاد الى مصر ورضى عنهُ الخديو توفيق باشا فجعل قاضياً بالمحاكم الأهلية ، وبقى مدة طويلة مثالاً للعدل الى سنة ١٣١٧ فأسند اليه منصب افتاء الديار المصرية ، وتولى التدريسَ بالأزهر . وما زال كذلك حتى توفى سنة ١٣٢٣ . وكان رحمه الله من خير مَن ظهر فى مصر من شيوخ العلم منذ قرون ويعتبر باجتهاده فى كثير من مسائل العلم من أئمة الدين ، كما يعتبر بكتابته البليغة من فحول الكتاب . وله القدم الراسخة فى كتابة الجدل والنقد ، ولم يترك الشيخ كاستاذه كثيراً من المؤلفات لكثرة مشاغله بالمناصب العلمية والادارية ولمناهضة الخصوم له اكثر حياته . ومن مؤلّفاته : رسالةُ التوحيد ، وشرح نهج البلاغة ، وشرح مقامات بديع الزمان . وأملى تفسير سورة البقرة وآل عمران والنساء بطريقة لم يسلكها مفسر فى انطباقها على مقاصد الاسلام وكتب تفسير جزء عمّ وجزء تبارك .

وله رسائل بليغة منها ما كتب به من مصر الى بعض الأصدقاء الفضلاء قال فيه :

تناولتُ كتابَك ولم يُذكِّرْ منّى ناسياً ولم ينبّه لذكركَ لاهياً . فانى من يوم عرفتُك لم يغب عنى مثالُك ، ولا تزال تتمثل لى خلالُك ، ولو كشف لك من نفسك ما كشِفَ منها لى لفُتِنْتَ بها ولحُقَّ لك أن تَتيهَ على الناس أجمعين ، ولكن سترَ الله عنك منها خيرَ ما أودَعَ لك فيها ، لتزينَها بالتواضع ، وتُجملها بالوَدَاعة ، ولتسعى الى مالم يبلغْه ساع ، فتكون قُدْوةً لاخوانك في علوِّ الهمةِ ، وبذْل مايعزّ على النفس فى نَفْع الأُمة ، زادك الله من نِعَمه ، وأوسع لك من فضله وكرمه ، ومتّعنى بصدق ولائك ، وجعلك لى عوناً على الحق الذى أدعو إليه ولا أحيا إلاّ به وله والسلام

الشيخ حمزة فتح الله

هو الشيخ الوقور ، اللغوى الحجة التقى الشيخ حمزة فتح الله المفتش الاول للغة العربية بوزارة المعارف المصرية

ولد رحمه الله بثغر الاسكندرية سنة ١٢٦٦ هـ (١٨٤٩ م) ونشأ بها وبعد أن حفظ القرآن الكريم انتظم فى سلك طلبة العلم بجامع الشيخ ابرهيم باشا ثم أكمل دراسته بالازهر الشريف ، وأمعن فى قراءة الأدب واللغة ، وقرَض الشعر وحرر الرسائل وحفظ الغريب . ثم عاد الى الاسكندرية واختير (فى منتصف العقد الثالث من عمره) محرراً فى إحدى الصحف التونسية فمكث هناك حوالى ثمانى سنوات اكتسب فيها الدربة على كتابة الصحف السياسية ، ثم عاد الى مصر فوجد نار الفتنة العرابية مستعرة فانضم الى حزب الخديو توفيق ، وكتب وخطب فى تأييده ، وعهد اليه بعد ضرب الاسكندرية فى اصدار صحيفة تكون لسان حال الخديو وتهدء الخواطر ، وبعد أن انتهت الفتنة العرابية استخدم فى وزارة المعارف ومكث بها زهاء ثلاثين سنة متنقلا بين التفتيش والتدريس حتى كان فى سنة ١٩١٠ م مفتشها الأول للغة العربية ، وفى غضون تلك المدة ندبته الحكومة مرتين لحضور مؤتمر المتعربين ممثلا لها لما لها فيه من الثقة ، ولما له من غزارة المادة ، وسعة الاطلاع ، ثم أحيل الى المعاش

واستمر مشتغلا بمدارسة العلم حتى بعد أن كف بصره ، ولم يثنه عن ذلك الا ما فاجأه من الموت في فبراير سنة ١٩١٨ م

علمه وأعماله — كان الشيخ أكرم الله مثواه كثير القراءة فى كتب اللغة والأدب والحديث شديد الحفظ والذكر قلما تحدث أمامه حادثة أو تذكر الا روى فيها شعراً أو مثلا أو قصة . وكان فكه المحاضرة صحيح العبارة يحوكها على سنن العربية الفصيحة وهو أملأ من شاهدناه باللغة والأدب والصرف

عهد اليه بالتدريس فى دار العلوم فأحيا بتدريسه وتأليفه ما دثر من آثار السالفين كالجاحظ والمبرد والقالى والمرتضى ، وأظهرُ ما كان ذلك فى مواهبه الفتحية

أسند اليه تفتيش اللغة العربية فى مدارس الحكومة على اختلاف أنواعها فرأى المجال فسيحاً لتخليصها من أدران العامية ، وأوضار الدخيل ، وفساد التراكيب ، وعجمة الأساليب ، فأخذ يرشد المعلمين الى ما يعثر عليه من ذلك فى كتابة التلاميذ ، ويتحفهم بمرادفه تارة . ويرشدهم الى المظان أخرى ، فتنبه بذلك الغافل ودقق المتساهل ، واتهموا أنفسهم فى كل كلمة ، وحاسبوها على كل جملة ، وعكفوا على مراجعة معجمات اللغة بعد أن طال هجرها ، ووقفوا عند نصوصها ناسجين على منوال الشيخ (من الوقوف عند السماع دون العمل بالقياس) بل تغالى بعض المفتونين منهم ، وتعدوا طورهم ، فجعلوا يقولون : لا توجد هذه الكلمة فى اللغة ، ولو وجدت فى شعر فحول الأدباء من أهل القرون الأولى ، ولعلهم لم يعرفوا من اللغة أكثر من طريقة الكشف فى معجماتها على ندرة المطبوع منها ، فلقى المؤلفون والادباء وبلغاء الناس منهم بلاء عظيما وعنتاً مقيتاً

أخلاقه : كان الشيخ حليما رحيما ، تقيا ورعا ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، صالحاً مهذباً ، يميل الى الصالحين من المعلمين ، ويحارب من يشاع عنهم التهاون بشعائر الدين ، وربما سعى فى فصلهم من عملهم ، يعمل ذلك ولا غاية له الا احاطة النشء

بسياج من الفضيلة ، حتى لا يتسرب اليهم الزيغ فى زمن قد كثر فيه أنصار الرذيلة ، وقل طلاب الفضيلة

وكان جزاه الله خيراً يحب العرب والعربية ، ويرى أن الله قد خصهما بكل مزية ، وأن جميع مايتجدد من أنواع المدنية الحديثة قد سبق الى نوعه العرب ، وأن لاسمه مرادفاً فى لغتهم . يعرف ذلك من خالطه أو قرأ مواهبه

مؤلفاته : مما عرف من مؤلفاته كتاب المواهب الفتحية فى علوم اللغة العربية ، وباكورة السلام فى حقوق النساء فى الاسلام ، ورسالة فى التوحيد ، وأخرى فى الخيل ، وكتيب فى المفردات الأعجمية التى فى القرآن

شعره وكتابته : كان بدوى الشعر من حيث ألفاظه ومعانيه ، وتراكيبه وأساليبه وتشبيهاته واستعاراته على طريقة شعر العلماء ؛ ولم نر له شعرا مدوناً الا قصيدته البائية التى اختتم بها مؤتمر العلوم الشرقية ، المنعقد باستكهلم أواخر سنة ١٣٠٦ ، سنة ١٨٨٩

أما كتابته فيؤخذ مما عثرنا عليه منها أنه كان لا يلتزم فيها طريقة واحدة بل تارة تكون سهلة يكثر فيها السجع وان لم يلتزم غالباً وآونة تكون ضخمة الألفاظ غريبتها عليها مسحة التعمل والتكلف ، وأكثر ما كان ذلك فى توقيعاته

نموذج من شعره :

كم جامح بالثريا راضه سفر ... فوق الثرى بين أكوار وأقتاب

إن الثواء تواء والقصور قبو ... ر العاجزين ولا إيراء للخابى

ومن بغى نيل مجد وهو فى دعة ... فقد بغى من صفاة دَرَّ أحلاب

والمرء فى موطن كالدُّر فى صدف ... والتبر في معدِن والنَّبع فى غاب

والسيف مثل العصا ان كان مُغْتَمِدا ... وزامر الحيِّ لا يحظى باطراب

وأزهد الناس في علم وصاحبه ... أدنى الأحبة من أهل وأصحاب

نموذج من نثره

ومن رسائله ما كتب به الى السيد توفيق البكرى يمدحه :

إعادة العَرَض يوم العَرْض

مسألة كلامية ثارت فيها عَجَاجَةُ الكلام ، بين علماء الكلام ، فمن ايجاز واطناب ، فى سلب وايجاب ، (وتعلم أنت أن الألفاظ أعراض سيَّالة) لكننى آمنت عِيانا ، أن الله تعالى يحيي الموتى أعراضاً وأعيانا ، اذ كانت كتبك زيادةً فى البيان والبرهان ، وان كان خبر المعصوم أوْثَقَ من الحِسّ ، فى النفس ، فأنشُدُ الله أمرأ شيمته العدل ، والقول الفصل ، أليست كتبُك هذه حجة للمُوجب دامِغةً للسالب ، أليس ذلك البيان ، غاية شأو قُسٍ وسحبان ، أليس قصارى ابن العميد ، وحُمادى عبد الحميد ؟ وبعد فقد أُعيد العرض الذى هو الكلام فى الدنيا ففى الاخرى أحرى . فترانى يامليك اليراعات ، وقسْوَر تلكُم الغابات ، أسيفاً على ضن الزمان بك الى الآن ، فلوأن الله تعالى بَراك ، وخلقك فسوّاك ، حين استعر الخصام ، فى هذا المقام ، لما اختلَفَ فى شأنه اثنان ، ولا انتطح عَنْزان

نموذج من توقيعاته : وقع لبعض المدرسين على قطع المحفوظات التى أرسلت اليه ليقرأها بعد أن ضرب على بعضها

لم أُرد بذلك الترميج الاالرُّعوى على النشء فان قُلًّا مع حفظ المبنى وفهم المعنى خيرٌ من كُثر يُطوّح بهم فى موامى المُنْبَتّ

باحثة البادية

هى المفكرة ، الكاتبة الشاعرة ، السيدة ملك حفنى ناصف

ميلادها ونشأتها — ولدت بالقاهرة سنة ١٨٨٦ ولما ميزت ، أرسلها والدها الى احدى المدارس الأولية ، ثم الى المدرسة السنية ، فحصلت منها على شهادة الدراسة الابتدائية سنة ١٩٠٠ م (وهى أول سنة تقدمت فيها الفتيات المصريات لنيل هذه

الشهادة) ثم أتمت دراستها في قسمها العالى ، واختيرت مدرسة فى احدى مدارس البنات بالقاهرة

وفى سنة ١٩٠٧ تركت التعليم العامى بالمدارس واشتغلت بالتعليم العملى فى بيت زوجها

أخلاقها وأعمالها : كانت مدة دراستها خير نموذج لقريناتها : أخلاق سامية، وسريرة صافية ، ونفس أبية ، ومثابرة على العمل

وكانت بعد زواجها تباشر أكثر أعمال بيتها بنفسها ، لا لسبب سوى أن تكون قدوة لغيرها من السيدات اللاتى يلقين حبال أمورهن على غواربها ، ويتركن بيوتهن الى من لا يحسن القيام عليها ، والتدبير فيها ، فيوقعن أزواجهن فى الفقر المدقع والبلاء الشديد . وكانت اذا فرغت من شئون منزلها ، عكفت على قراءة الكتب النافعة ، وتعرّف أحوال السيدات ، وزيارة مدارس البنات ، وفحص مناهج التعليم بها

كل أولئك لتكوّن لها رأياً صحيحاً . وفكراً ناضجاً فى تربية البنات ، واصلاح حال الأمهات وظلت تستسهل فى ذلك الصعب ، وتستحلى المر

وكان من رأيها فى تربية المرأة أن تباشر من أعمال الرجل مالا ينافى الشرع الشريف ، وألا تكون زينتها مَشْغلة لها ولاعبئاً ثقيلا ينوء به بعلها ، ولها فى ذلك خطب فى محافل نسوية كان لها تأثير فى عدول الكثيرات منهن عن جمودهن وأفكارهن القديمة . وكان بيتها مقصداً لزيارة كثير من السيدات الغربيات والشرقيات يستنرن به فى الوقوف على مبلغ رقى المرأة المسلمة وما ينتظرن من شئونها المستقبلة . ولم يكن شىء من ذلك كله لينسيها ما يجب عليها لزوجها وذوى قرباها ومن يقع تحت نظرها ممن أجهدهم الفقر ، وأعوزتهم الحاجة . وأشد ما كان برها لوالدها (أغدق الله عليهما رحمته) فكانت تألم الألم كله لألمه

آثارها العلمية : —

(١) كتابها الذى أسمته (النسائيات) وهو مجموع ماخطبته وكتبته فى (الجريدة) خاصاً بالمرأة

(٢) حقوق النساء وهو كتاب لم يطبع بعد أنجزت منه ثلاث مقالات الأولى فى الموازنة بين المرأة المسلمة الشرقية ، والمرأة المتمدينة الغربية فى الحقوق المالية ، والثانية فى حقوق المرأة المسلمة من جهة ادارة الأعمال العامة ، والثالثة فى حقوق المرأة المسلمة من جهة الانتخاب

(٣) رسالة ضافية قدمتها للمؤتمر المنعقد فى مايو سنة ١٩١١ بمصر الجديدة ضمنتها آراءها السديدة فى وسائل ترقية المرأة المصرية

ثم عاجلتها الحمى الأسبانية ١٣٣٧ ه فاختضرت وهى فى ميعة شبابها . ويانع عمرها فتركت بفقدها فى العالم النسوى المصرى فراغاً لم يشغل بعد

كتابتها — ان الناظر فى كتاباتها المختلفة يرى عبارة سهلة . صحيحة الألفاظ . عربية الأسلوب . خالية من تصنع السجع . وتعمل البديع . قد عنى فيها بدلالتها على المعانى تمام الدلالة كما عني فيها بنشر ألفاظ حديثة المسميات التى تسربت الى الشرقيات من المدنية الغربية . وترى ذلك واضحاً فى كتابها النسائيات

شعرها — قالت الشعر وهى فى الحادية عشرة من عمرها ، وكان بدء أمرها فيه أن تقوله معارضة لما تحفظه فى المدرسة تارة جداً وتارة هزلاً . ثم كان لها من حسن استعدادها وكثرة قراءتها ونبوغ والدها فيه خير معوان على تعبيد سبيله . وتذليل أبيّه . وأكبر ما كانت تتناوله من الأغراض غرض واحد وهو ترقية المرأة الشرقية. وشعرها حسن الديباجة جميل الأسلوب يعد فى الدرجة الوسطى من شعر هذا العصر

وهاك نموذجاً من نثرها وشعرها :

رسالة كتبتها من رمل الاسكندرية لصديقة لها وهى :

عزيزتى السيدة بلسم

أحييكِ : ولولا برودة البحر لالتهبت اليكِ شوقاً ، ولولا تصبّرى لطرتُ اليك

حبا ، وانى لم ينسني صفاء السماء صفاءَ ودِّكِ ولا رقة النسيم رقة حديثك ، انما شجانى وذكرنى ولم أكن ناسيةً

عزيزتى

ليتكِ كنتِ معى ترينَ الطبيعةَ بجمالها ، ترينَ البحر يزخَر كالرعد ، والأمواج تتلاطم زرافات ووحداناً ، : صفاء فى البحر وصفاء فى السماء كأنهما قلبانا ، وتسمعين تغريد الطيور وحفيف الأشجار ، انها لعمرك مناظر تلهى المرء ولكن هيهات لمثلى أن تلهو ، وهى تعلم ما يكنه الدهر وما يخبئه الليل والنهار . تقبلى منى أحرّ قبلاتى ، وأوفر أشواقى ؟

المخلصة

ملك ناصف

ومن شعرها تخاطب المرأة المصرية :

سيرى كسير السحب لا تأنَىْ ولا تتعجلى
لا تكنسى أرض الشوا رع بالازار المُسبَل
أما السفور فحكمه فى الشرع ليس بمُعضلِ
ذهب الأئمة فيه بين محرم ومحلل
ويجوز بالاجماع منهم عند قصد تأهل
ليس النقاب هو الحجا ب فقصرى أو طولى
فاذا جهلت الفرق بينهما فدونك فاسألى
من بعد أقوال الأئمة لا مجال لمقولى
لا أبتغى غير الفضيلة للنساء فأجملى

الشعر

كانت حالة الشعر فى النصف الأوّل من هذا العصر لا تزيد شيئاً مذكوراً على ما كانت عليه في العصر الماضى ؛ إذ كانت حكومة محمد على باشا فى أوّل أمرها تركية الصّبغة ، وكان هو أُميًّا لا يحُل عنده الأدب محل العلم الذى عليه مدارُ تأسيس المملكة

ولكنّ الشعر أخذَ بعد ذلك فى الترقى . وسارت مصر فى طريقه ، وانتشرت بينها العربية حتى زمن اسماعيل باشا ، وكان هو متأدباً وعصره غاصًّا بالأدباء . فتقدم الشعر فى عصره خطوات تمثلت فى شعر السيد علي أبي النصر والشيخ على الليثى . ثم طفر طفرة الى عظيم الشعراء البارودى

ولم يزل للعلم والعلماء مع ذلك المقام الاوّل فى مصر حتى كان العصر الحاضر ونالت مصر بعض حاجاتها من العلم وكُتبه ، فهب أهلُه يتفكهون بالأدب وكتابته والتأليف فيه ، ويستمعون الشعر ويحضرون المجامع العظيمة لانشاده ، فأقبل الشعراء على نظمه فى كل أغراضه القديمة والحديثة ونَحَوْا به نحو الشعر الفرنجى : من وصف المناظر الطبعية ، وأحوال الوجْدان والعواطف النفسية ، وكثيرٌ من الشعراء بعد البارودى لم يحاكِ القدماء فى نَدْب الديار ووصف الظعائن وحث المطايا مستغنياً عن ذلك بوصف القِطار والكهرباء والمِسرّة والبرق . ويقول الآن[1] الشعر على هذه الطريقة مئات من الشعراء فى مصر والشام والعراق إلا أن المصريين سبقوا السوريين بمراحل فى هذا العصر

ومما يمتاز به شعرُ هذا الوقت خلوُّه من تكلف البديع والجناس ، والرجوع به الى حالته القديمة الطبعية حتى صار شعر فحوله يشبه شعر أهل القرن الرابع والخامس

نماذج من النظم

قال المرحوم السيد على أبو النصر :

بصادر آمالى ووارد خاطرى   كلِفْتُ فيانفسى الأبية خاطرى

ولا تجزعى ان هال خطب فربما   تدين الأماني لامرئ غير قادر

---

(١) أما قبل الآن أى زمن محمد على وسعيد واسماعيل فكان يرمى الى الاغراض القديمة كما ترى فى النماذج

وكونى على حمل الأذى مستعدّة فكم عادل أرخى العنان لجائر
ولا تشتكى الايام إلاّ لمنصف فلا خير فى الشكوى الى غير ناصر
ومن لم يكن ذا همة هاشمية أخافته فى الهيجا بروق البواتر

وقال المرحوم محمود صفوت الساعاتى يمدح الشريف على باشا ابن عون ويعاتبه :

ترنو النجوم بلحظها البراق والجو فى الارعاد والابراق
فاذا تبسمت البروق لغبطة بكت السماء بدمعها المُهراق
عاملتمونى بالجفاء رويدكم الورد ذو أرج بلا احراق
مالى أراكم تنكرون مكانتى الشمس لا تخفى مع الاشراق
قلدتمُ غيرى الجميل وقلتم حسبُ المغرد زينة الأطواق
أسديتم الجدوى له وسددتمُ طرُق الرجاء علىّ بالاطراق
إن لم يكن مثلى يسىء ومثلكم يغضى فأين مكارم الأخلاق

وقال المرحوم السيد على الليثى فى الحكم :

كل حال لضده يتحول فالزم الصبر اذ عليه المعوّل
يا فؤادى استرح فما الأمر إلاّ مابه محكم القضاء تنزل
قدرٌ غالب وسر الخفايا فوق عقل الأريب مهما تكمل
رب ساعٍ لحتفه وهو ممن ظن بالسعى للعلا يتوصل

وقال المرحوم الشيخ شهاب يرثى ابراهيم باشا ويؤرخ وفاته سنة ١٢٦٤

صبراً على ما قد مضى اذ لا مخلص من قضا
كيف التصبُّر والمنا ياذات عضب منتضى
أردَت بابراهيم مذ بلغ المَقامَ المرتضى
واليه آل الامر فى حكم (الإيالة) وانقضى
فمضى وقلت مؤرخاً (الله يرحم من مضى)
٨٥٠ ٩٠ ٢٥٨ ٦٦ ١٢٦٤

الشعراء

شعراء هذا العصر كثيرون وانك لترى شعرهم منشوراً فى الصحف والمجلات، وإنّ سابق حلبتهم وقائدهم فى هذا العصر محمود سامى باشا البارودى وهاك ترجمته:

البارودى

هو رب السيف والقلم أمير الشعراء وشاعر الامراء محمود سامى باشا ابن حسن حسني بك البارودى ، أحد زعماء الثورة العرابية وأشعر الشعراء المتأخرين بالديار المصرية وُلد سنة ١٢٥٥ وتولى أبوه تربيته حتى اذا بلغ سبع سنين توفاه الله وكفله ذوو قرابته حتى بلغ الحادية عشرة فأُدْخِلَ المدرسةَ الحربية فتعلم فنون العسكرية ورُقّى منها ضابطاً بالجيش وما زال يترقى فيه حتى كان أحد ضباط الحملة التى أمدّت بها مصرُ الدولةَ العثمانية أثناء ثورة البَلْقَان وإقريطش ، وكان له فى مواقعها الحربية شهرةٌ ذائعة . ورجع الى مصر فتقلب فى مراتب الجيش وغيرها حتى ولاّهُ المرحوم الخديو توفيق باشا نظارتى الحربية والأوقاف . ثم استقال منهما واعتزل العمل حتى وُلّىَ رياسة النظار قبيل الثورة العرابية . فلما اضطرمت نيران الثورة أرغمه زعماؤُها على اصطلاء نارها فخبّ فيها ووَضع . وحُكِم عليه بعد انقضائها بالنفى الى جزيرة سرنديب (سيلان) حتى عمى وشُفِع فيه فأُذِن له بالقدوم الى مصر بعد مضى ١٧ سنة من منفاه ، وبقى فى منزله كفيفاً يشتغل بالأدب الى أن مات سنة ١٣٢٢

شعره — وقد عانى نظم الشعر من صغره بدون معلّم ولا تخريج فى العروض والقافية بلْه النحوَ والصرف والبلاغةَ بل كان ينظمه محاكاةً ومعارضة لشعر الاقدمين ، فحفظ من كلامهم كثيراً ونسج على مِنْواله ؛ ولذلك صدر شعره فى رتبة شعر فحول القرن الثالث والرابع خالياً من تكلف البديع ضخم المعانى جزل الألفاظ متين الأسلوب، وخير ماصدر عنه أيام شبابه وأثناء محنته . ثم ضعف شعره قبيل وفاته لكلال ذهنه وخمود قريحته . وله شعر كثير جمع فى ديوان وطبع منه جزءان



محمود سامى باشا البارودى

ومن قوله :

والدهر كالبحر لاينفك ذا كَدَر ۔ وانما صفوهُ بين الورى لمعُ
لو كان للمرء فكر فى عواقبه ما شان أخلاقه حرصٌ ولا طمع
وكيف يُدرك مافى الغيب من حدث من لم يزل بغرور العيش ينخدع
دهر يَغُرّ وآمال تَسُرّ وأعمار تمرّ وأيام لها خدع
يسعى الفتى لأمور قد تضرُّ به وليس يَعْلم ما يأتى وما يدع
يأيها السادر المزورُّ من صَلَف مهلاً فانك بالأيام منخدع
دع ماىريب وخذ فيما خلقت لهُ لعلّ قلبك بالايمان ينتفع
ان الحياة لثوبٌ سوف تخلَعهُ وكل ثوب إذا مارثَّ ينخلع

ومن قوله وهو آخر ما قاله :

أنا مصْدَرُ الْكَلِمِ البوادى بين المحاضِرِ والنّوادى
أنا فارسٌ أنا شاعرٌ فى كلّ مَلْحَمَةٍ ونادى
فاذا ركبتُ فإننى زَيْدُ الفوارس فى الجلاد
وإذا نَطَقتُ فإننى قُسٌّ بنُ ساعِدة الإيادي

حفنى ناصف بك

هو القاضى الفاضل الشاعر الكاتب المصنف محمد حفنى ابن الشيخ اسماعيل ابن الشيخ خليل بن ناصف ، أحد أركان النهضة الأدبية بالديار المصرية

ولد ببركة الحج من أعمال القليوبية سنة ١٢٧٢ يتيماً فقيراً ، فكفله خاله وجدته أم أبيه



حفني ناصف بك

ولما ترعرع تعلم القرآن على معلم كان يُفرط فى ضربه ففر ماشياً على قدميه الى الأزهر ، حتى علمت جدته لأبيه بخبره ، فحملت له الزاد والمئونة . وجاور فى الأزهر عشر سنين ، جَوَّدَ فيها القرآن ، وحفِظَ المتون ، ودرس فقه الشافعى ، وعلوم اللسان العربى ، واشتغل بالأدب والشعر فبرع فيهما ؛ حتى أصبح من شعراء الأزهر المعدودين وحج أثناء ذلك . ثم كان أول الناجحين من الطلبة المقبولين فى دار العلوم ، وبقى أولهم حتى خرج من المدرسة . ثم اختير مدرساً وضابطاً لمدرسة الخرس والعميان ، فأتى فى تعليمهم بالعجب العجاب . ثم نقل الى النيابة كاتب سر للمرحوم شفيق بك منصور يكن ؛ فاستعان به فى تحرير جميع كتبه باللسان العربى . واختير فى الوفد الذى ندب لحضور مؤتمر علماء الشرقيات بمدينة ويانة (فينا) ؛ فلم يقبل بمحاضر جلسات المؤتمر سوى رسالته (مميزات اللغة العربية) فطبعت فى مجموعة المؤتمر . ثم نقل مدرساً للانشاء والبلاغة والمنطق وآداب البحث والمناظرة بمدرسة الحقوق ، فقام بتعليمها بها خمس سنين نبغ على يده فيها أكثر نابغى العصر من الوزراء والمستشارين وكبار المحامين . وفى أثناء ذلك كلفته نظارة المعارف مع آخرين تأليف سلسلة كتب سهلة لتعليم النحو والصرف والبلاغة، فألف خمسة كتب لم يزل العمل فى التعليم جارياً عليها وعم بها النفع فى مصر وغيرها. ثم نقل الى القضاء الأهلى ، فمكث يترقى فى درجاته مدة عشرين سنة كان فى خلالها مثال العدل والنزاهة . ونقل من وكالة محكمة طنطا الأهلية مفتشاً أوّل للغة العربيّة بوزارة المعارف؛ ولم تكن تزيد المدة الباقية من أمد خدمته القانونى على أكثر من ثلاث سنوات خدم فيها اللغة العربية وفن التعليم خدمة لايزال يذكرها المدرسون والطلبة بالثناء عليه والإعجاب به . وأحالت عليه الوزارة مع مؤلفىْ هذا الكتاب تطبيق رسم المصحف الشريف الذى طبعته على رسم الإمام عثمان بن عفان (رضى الله عنه) ، وضبط أئمة العربية ، فأحيل على المعاش أثناء هذا العمل ، وأتمه مع رفاقه بعده ؛ فكان أعظم عمل قامت به دولة إسلامية لخدمة المصحف الكريم منذ

ستمائة سنة ؛ ووقّع على آخر تجربة مطبعية منه قبل موته بأيام ، وتوفى صبيحة يوم الثلاثاء ٢٦ فبراير سنة ١٩١٩ م ودفن يوم الأربعاء بالقرافة (مقبرة الامام الشافعى)

خلقه وعلمه وأدبه

كان رحمه الله من أطيب خلق الله حديثاً ، وأرقهم فكاهة ، وأملحهم نادرة ، وأحضرهم جواباً ، مع دعابة فيه . وقلّ أديب من أدباء العصر الحاضر لم يرو عن حفنى ناصف نكتة أدبية ، أو نادرة فكاهية ، أو جواباً حاضراً مسكتاً . وكان مع ذلك اذا حضر مجلس الازهريين فكأنه أكبر شيخ فيهم لغة وفقهاً وفهماً لكتبهم ومنظوماتهم ، واذا حضر مجلس المتعلمين على نظام الاوربيين فكأنه (فيما عدا اللغة الأجنبية) أحد المتخرجين فى باريس

أما شعره فلم ينكر الأدباء عليه أنه أبو الطبقة التى نشأت بعد طبقة البارودى وعبد الله باشا فكرى ؛ وكل من نبغ بعد ممن انتهت اليهم الرياسة فى الشعر فعليه تعلم ، أوله قلّد ؛ حتى أصبحوا شعراء هذا الزمان

وأكثر شعره من نوع السهل الممتنع الكثير الملح المطربة ، والنكت الادبية المعجبة ، حتى فى المراثى : لتمثلها فى صورة جدية بديعة

وحفنى بك ممن تم على أيديهم نقل الكتابة من الطريقة البديعية المسجوعة الكثيرة التورية (التى سميناها طريقة القاضى الفاضل) الى طريقة الترسل الحالية ، ويشاركه فى ذلك الشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، وابراهيم بك المويلحى ، والشيخ على يوسف صاحب المؤيد . وله فى كلتا الطريقتين رسائل بليغة

ومن شعره يخاطب أحد الرؤساء

أحييتَ آمالى وكنت أمتُّها ... من طول ما لاقيتُ من اخوانى

أدلى باخلاصى لهم وأذود عن ... أعراضهم بجوارحى ولسانى

محضتهم ودى فلما أيسروا ... كانت بدايةَ أمرهم نسيانى

حسبي من الدنيا صديقٌ ثابت فردٌ فكنهُ ولا احتياج لثان

وقال قطعة تكتب على باب دار سعادة احمد باشا تيمور في دعوة :

زوروا الذى بجميلكم قبل الزيارة يعترفْ

واسعَوْا لأحمدَ أنهُ عن شكركم لا ينصرف

وقال تاريخاً يكتب على قبر عريان بك :

لقد هوى في أفق هذا المكان بدرُ العلا عريانُ فخر الزمانْ

ومذ أتى الجنات أرختــه عريانُ أضحى فى ثياب الجِنان

سنة ١٨٨٨

وقال أيضاً :

أتقضى معى ـ ان حان حينى ـ تجاربى وما نلتها إلاّ بطول عنائى

ويُحزننى أن لا أرى لىَ حيلةً لاعطائها من يستحق عطائى

اذا ورّث المُثرون أبناءهم غِنًى وجاهاً ، فما أشقى بنى الحكماء !

وقال عند ما أُعلن بالاحالة على المعاش قبل انتهاء مدة خدمته بعشرين يوما :

برّزت فى سحر البيا ن وشاب فيه مفرقى

وقضيت عمرى فى البلا غة سابقا لم أُلحق

وخدمت ديوان المعا رف مخلصا بتشوق

والآن أُذّن بالرحيـــل مؤذن لم يُشفق

عشرون يوما قد بقـــينَ وبعدها لا نلتقى

فتبلغى يا نفس بالــمفروض للمسترزق

فات الكثير من الحيا ة وقل منها ما بقى

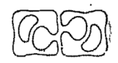
كتبه ومؤلفاته :

وللمرحوم حفنى بك غير كتب النحو والبلاغة الخمسة كتاب مميزات اللغة ،

وكتاب حياة اللغة العربية (دروس الأدب بالجامعة المصرية)، وكتاب القطار السريع فى علم البديع، ورسالة فى البحث والمناظرة، ورسالة فى المنطق، ورسالة فى الأصول، ورسالة فى العروض والقوافي، وكتاب الأمثال العامية، وكتاب بديع اللغة العامية، وكتاب عامية الشام، وكتاب عامية الصعيد، ورحلته الى الاستانة، وديوان شعره، وديوان رسائله، وكتابه الذى ألفه مشتركاً مع مؤلفى هذا الكتاب فى رسم المصحف وضبطه

وأكثر مؤلفاته لم يطبع، وبعضها ضاع أثناء تفتيش أوراق أولاده بعد وفاته فى الفتن الأخيرة. رحمه الله وجزاه عنا خير ما يجزى مخلص لامتـه وعامل على إحياء لغته آمين ؟

والحمد لله أولاً وآخراً



وكتاب حياة اللغة العربية (دروس الأدب بالجامعة المصرية) ، وكتاب القطار السريع فى علم البديع ، ورسالة فى البحث والمناظرة ، ورسالة فى المنطق ، ورسالة فى الأصول ، ورسالة فى العروض والقوافى ، وكتاب الأمثال العامية ، وكتاب بديع اللغة العامية ، وكتاب عامية الشام ، وكتاب عامية الصعيد ، ورحلته الى الاستانة ، وديوان شعره ، وديوان رسائله ، وكتابه الذى ألفه مشتركاً مع مؤلفى هذا الكتاب فى رسم المصحف وضبطه

وأكثر مؤلفاته لم يطبع ، وبعضها ضاع أثناء تفتيش أوراق أولاده بعد وفاته فى الفتن الأخيرة . رحمه الله وجزاه عنا خير ما يجزى مخلص لامته وعامل على إحياء لغته آمين م؟

والحمد لله أولاً وآخراً

